المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
قسم الدراسات العليا
كلية اللغة العربية، وآدابها

الاغتراب في حياة ابن درَّاج وشعره

رسالة مقدَّمة إلى كلية اللغة العربية ، وآدابها

ضمن متطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية

تخصص (الأدب)

إعـــداد

روضة بنت بلال بن عمر المولد

إشـــراف

أ. د/ مصطفى عبدالواحد

أستاذ بقسم الأدب

١٤٢٨- هـ - ٢٠٠٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعـــــالى :

(خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

[الرحمن : ٣ - ٤]

ملخص البحث

فهذا ملخص رسالة الماجستير المعنونة بـ (الاغتراب في حياة ابن درَّاج وشعره) وتحتوي على فصلين ومقدمة وتمهيد ثم الخاتمة.

المقدمة: وفيها أهمية الموضوع، وسبب اختياره ، وخطة البحث ومنهجه. وتمهيد : ويشمل: توضيح معنى الاغتراب والغربة، وعلاقة الاغتراب بالذات المبدعة ، والغربة والاغتراب قبل ابن درَّاج.

الفصل الأول : ويحمل عنوان ألوان الغربة والاغتراب في حياة ابن درَّاج وشعره، دراسة موضوعية: ١ -الاغتراب النفسي في حياة ابن درَّاج وشعره ، ٢ – الغربة السياسية ، ٣ – الغربة المكانية ، ٤ – الغربة الاجتماعية، وتشمل الآتي : أ – غربة الناس، ب – الغربة عند الأسرة والأقرباء ، ج – غربة الأصدقاء.

الفصل الثاني واشتمل على : ١ – البناء الفني. ٢ – المعجم الشعري في شعر الغربة والاغتراب . ٣ – الصورة الشعرية . ٤ – الموسيقى.

أهم النتائج التي توصل إليه البحث:

- **أن ظاهرة الغربة والاغتراب من الظواهر الاجتماعية التي لا يمكن أن يغفل عنها، خاصةً إذا وجدت عند شاعر فحل طالما قورن بشعراء فحول كالمتنبي وغيره.**
- **أن قدرة الشَّاعر ، ومدى قدرته على الاستفادة من تجارب اغترابه وعدمه هي التي تحدد تأثير الاغتراب فيه وعدمه.**
- **كشفت الدراسة الموضوعية عن أهم الموضوعات التي تدور في فلك الاغتراب والغربة عند ابن درَّاج ، والتي انعكست في الاغتراب النفسي والغربة بأنواعها .**
- **أبرزت الدراسة الفنية خصائص البناء الفني لقصيدة الاغتراب، وعلاقة أجزاء القصيدة بعضها ببعض .**
- **كشفت الدراسة عن تأثر الصُّورة الشعرية بالاغتراب ، إذْ ظهرت تلك الصور مُصورةً اغتراب الشَّاعر وغربته من خلال التشخيص الذي شخص وجَسَّد فيه تلك المعاناة .**
- **أسفرت دراسة المعجم الشعري للشاعر عن مدى عمق التجربة ، ومدى انفعاله ، مما دفعه دفعاً لتكرار بعض الدوال التي ساهمت بشكلٍ كبيرٍ في تصوير اغترابه .**
- **كشفت الدراسة الموسيقية لشعر الاغتراب اهتمام الشَّاعر بالجانب الموسيقي ، الذي عكس بدوره - أيضًا - جانبًا من جوانب معاناة الشَّاعر وهمومه.**

ثم اُختُتِمَتْ الرسالة بالفهارس العلمية، ليسهل على القارئ الوصول إلى مبتغاه في وقت وجيز.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الطالبة	المشرف	عميد الكلية
روضة بلال عمر المولد	أ. د. مصطفى عبدالواحد	أ. د. عبدالله ناصر القرني

ABSTRACT

Title of the study: (**expatriation in the life of Ibn Darraj and his portry**) includes two chapters, introduction, preface and conclusion.

The introduction : contains the importance of the topic, reason of its choice, research plan and method.

The preface : displays the meaning of expatriation and strangeness, relation of expatriation with the creative person, and expatriation and strangeness before Ibn Darraj.

First chapter: kinds of expatriation and strangeness in the life of Ibn Darraj- an objective study: ١- psychological expatriation in the life of **Ibn Darraj** and his poetry. ٢-political expatriation. ٣- location expatriation. ٤- social expatriation; including : a- estrangement of people. b- estrangement of family and relatives. c- estrangement of friends.

The second chapter: kinds of expatriation and strangeness in the life of Ibn Darraj- an artistic study. ٢- poetic glossary based on poem of expatriation and immigration. ٣- the poetic figure. ٤- the music.

<u>The most important results:</u>

- The expatriation and strangeness is a social phenomenon couldn't be missed; specially when concerning with a poet laureate, if compared with other poets as al-Mutanabi.

- The poetic ability of the poet and range of his ability to make use or not of his expatriation experiments defines the impact of expatriation on him or not.

- The objective study displayed the most important topics which round about the scope of expatriation and strangeness for Ibn Darraj which reflected in the psychological expatriation and kinds of strangeness.

- The artistic study displayed the artistic composition characteristics of the expatriation poem and the relation between its parts.

- The study displayed the impact of expatriation on the poetic images; where these images embodied the sufferance of the poet.

- The study of the poetic glossary of the poet displayed the deepness of poet's experiment, and range of his passions, which pushed him to repeat some of semantics which participated greatly in imaging and describing his strangeness.

- The musical study of the poem of strangeness displayed the interest of the poet with the musical field which reflected a part of the poet's sufferance and his anxiety.

Finally the study appended with necessary indexes to help reader to reach his objective easily.

Student	Supervisor	Dean, faculty of Arabic L.
Rawdhah B. Al-Mowalad	Dr. Mostapha Abdulwahid	Prof. Abdullah N. Al-Qarni

شكر وتقدير

قال تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ .

فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على الذي بُعث ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وعلى آله وصحبه شموس الضحى، وقناديل الدجى.

وبعد:

فإنَّ القلم ليعجز أن يسطر كلمات الشكر والتقدير لكل من كان له فضل أو مدَّ يد العون في سبيل إخراج البحث على هذا النحو.

فأخصُّ بالشكر الجزيل أستاذي الدكتور مصطفى عناية المرشد في خطة العمل، والدكتور الفاضل مصطفى عبد الواحد الذي تابع تفاصيل هذا العمل فقد تعلمت منه الجلد في طلب العلم، والسهر لنيل شرف المعرفة، فأعطاني كثيرًا من وقته بصدرٍ رحب، ونفسٍ راضية، ولقيت من توجيهاته السديدة ما كان خير عون لي على إتمام هذه الرسالة ، فجزاه الله عني خير الجزاء .

كما أتقدم بالشكر الجزيل لكلية اللغة العربية وآدابها ممثلة في عميدها سعادة الأستاذ الدكتور/ عبدالله ناصر القرني.

كما أقدم خالص شكري وتقديري إلى نبع الحنان ومرفأ الأمان إلى والديَّ الكريمين أدام الله عليهما لباس الصحة والعافية، والشكر موصولاً لإخوتي، وأخواتي، و إلى من دفعني للترقي في معارج العلم وظل يمد لي يد العون إلى زوجي العزيز.

كما يطيب لي في هذا المقام أن أتقدَّم بوافر الشكر لأعضاء لجنة المناقشة الذين تفضلا بقبول النظر في هذا البحث متحملين عناء تقويمه واستكمال نقصه، وهما سعادة الدكتور/ صالح بدوي، وسعادة الدكتور/محمد الحارثي.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، فهو القصد، ومنه التوفيق والعون والسداد . والحمد لله أولاً وآخرًا .

والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه صلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين .

روضة بلال المولد

J

المقدمة

الاغتراب في حياة ابن درَّاج وشعره

(٣٤٧هـ/ ٩٥٨م ، ٤٢١هـ/١٠٣٠م)

ابن درَّاج شاعر أندلسي فحل، شاعر قضى معظم حياته مغتربًا عن وطنه وأهله، منتقلاً من مدينة إلى مدينة، ومن حاكم إلى آخر، هكذا ببساطة عاش شاعرنا هذه الحياة التي تجرع فيها ألم البعد والفراق عن أهله وذويه .

فابن درَّاج هو : أحمد بن محمد بن العاصي ابن درَّاج، ويُلقب أبو عمر بالقسطليِّ نسبة إلى بلدة قسطلة مسقط رأسه، وكانت ولادته سنة (٣٤٧هـ - ٩٥٨م) وشاعرنا هذا من أسرة ذات مكانة مرموقة، فقد نسبت مدينة قسطلة إلى جده، فقد كان يُقال : (قسطلة ابن درَّاج)[١] « فقد كان جده عظيم الشأن؛ إذْ كان هو وأولاده يتولون رئاسة هذه المدينة، وبنو دراج ينتسبون إلى قبيلة صنهاجة وهم من البربر الذين دخلوا الأندلس في فترة الفتح حينما دخل طارق بن زياد الأندلس، وبالرغم من هذا إلا أننا نلاحظ في شعر ابن درَّاج روح الأندلس، فقد كان أندلسيًّا خالصًا ولا توجد أي إشارة عن نسبه البربري، بل إنه لا يرى بأسًا في أن يهجو الزعيم البربري (زيزي) » [٢] .

« والملاحظ أن نشأة ابن درَّاج الأولى لم تتعرض لها التراجم، وأول خبر ذكرته تلك التراجم اتصاله بالمنصور ابن أبي عامر، الذي مدحه بقصيدة أثارت الحساد والحاقدين حوله، فوشوا بوشاية للمنصور، فاتهموه بالسرقة والانتحال، واستطاع شاعرنا أن يتخلص من تلك التهمة، إذْ طلب منه

(١) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، د.أحمد هيكل ، ص ٣٠٣ .

(٢) انظر : ديوان ابن درَّاج ، تحقيق : محمود مكي ، ص٢٥ .

المنصور أن ينظم شعرًا بموضوع اقترحه المنصور، فقال ابن درَّاج شعرًا مرتجلاً فيما اقترح عليه القول فيه، وبذلك زالت تهمة السرقة عنه . وأكد شاعريته أيضًا بالقصائد التي مدح بها المنصور، وبعد أن مات المنصور عمل مع الحاجب عبد الملك المظفر، ثم بعد ذلك بدأت رحلات ابن درَّاج، فاتجه إلى عدة مناطق وعدة أقاليم مادحًا رؤساءها، ومن تلك المدن : قرطبة، وسبتة، وسرقسطة، وبلنسية، وألمرية، وغيرها من المدن »[1] وقد تميز ابن درَّاج بكثرة شعره، فديوانه ضخم ويغلب غرض المديح على معظم قصائده، وقد لاحظتُ أن هذه الأبيات أو القصائد التي اشتمل عليها الديوان يغلب عليها الحديث عن الغربة والاغتراب وألم الفراق والبعد عن الأحبة وعن الأولاد والزوجة، والحنين إلى الوطن، فلا نكاد نعثر على قصيدة قالها في المديح إلا وفيها ذكر لألم الاغتراب والحنين، ولكل غربة أسبابها، وسبب معاناة ابن درَّاج هذه الغربة على حد ما ذكره شوقي ضيف[2] أن أجداده كانوا سادة بلدة قسطلة وحكامها، أي أنه أَلِفَ العيش الرغِدَ والحياةَ الناعمة، فلعل سلطان قومه قد زال، ولعل رئاستهم قد انتقلت إلى غيرهم، ولكن ابن درَّاج ظل على تعلقه بحياة القصور والاتصال بالرؤساء .

فلم يجد ابن درَّاج بعد أن ضاق به الحال إلا أن يضرب في مناكب الأرض، وفي ذلك يقول[3] :

فإن غربت أرض المغارب موئلي

وأنكرني فيها خليط وخلان

---

(١) في الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، د. أحمد هيكل ، ص ٣٠٧،بتصرف .

(٢) في الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، د. أحمد هيكل ، ص ٣٠٩ .

(٣) ديوان ابن درَّاج القسطلي ، ص ٧٥ ، رقم ٣٣ .

فكم رحبت أرض العــراق بمقــدمي

وأجزلت البــشرى علــي خراســان

ومعروف أيضًا أنه كان ذا عيال كثيرين وأسرة كــبيرة، فلعــل ذلــك كــان من دوافع إكثاره من المدح حتى ينال ما يسد بــه حاجــة العيــال، وقــد صــرَّح بذلك في قوله[(١)] :

وَتَحْــتَ جَنــاحَيْ مَقْــدِمي وتَعَطُّفــي

ثَمانٍ وَعَالَــتْ بــالبَنِينَ إلَــى الــشَّطْرِ

إلى أن قال :

فَما جَهِدُوا فُلْكًا كَمَــا جَهِــدُوا يَــدي

ولا أَنْقَضُوا رحْلاً كَما أنْقَــضُوا ظَهْــرِي

وَلَــوْلاهُمُ لَــمْ أُبْــدِ صَــفْحَةَ مُعْــدِم

وَلَمْ أُسْــمِعِ الأَعْــداءَ دَعْــوَة مَــضْطَّرِّ

ولهذا كان ابن درَّاج يتنقل بين بلدان كــثيرة، ولكنــه لم يــستطع نــسيان موطنه وأهله، فيتضاعف حنينه ويشتد الشوق عليــه، فقــد كــان الحــنين شــغله الشاغل بالرغم أن القصائد موضوعها الرئيس المدح، فهاجــسه الــذي لا يفتــر أو ينقطع هو الحنين، فقد كان يشعر بأن كبده ســتتمزق شــوقًا ولهفــة علــى تلــك الأيام الغابرة التي قد لا تعود، فيتذكر الحوار الذي دار بينــه وبــين زوجتــه مــبررًا لها سبب سفره وفراقه لها ولولده، فيصف موقــف الــوداع بينــه وبــين الزوجــة

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٥٧ ، ص ١٦٠ .

والولد، فيقول[١] :

وَلَمَّا تَـــدَانَتْ لِلــوَدَاعِ وَقَــدْ هَفــا

بِـــــصَبري منـــــها أَنَّـــــةٌ وَزَفِـــــيرُ

تُنَاشِـــدُنِي عَهْـــدَ المَـــوَدَّةِ والهَـــوَى

وفِي المَهْـــدِ مبْغُـــومُ النِّـــداءِ صَـــغيرُ

ابن درَّاج هذا الشاعر الذي سيطرت عليه الكآبة وفارقته ابتسامته، وخيَّم عليه الحزن والأسى، فهو دائمًا يبكي فراق أهله وبعده عن وطنه ودياره، فصوَّر ذلك كله في شعره بأفكار ملونة وأساليب متنوعة، وبطرق مختلفة تتفاوت فيها قوة العاطفة ورنة الأسى ولهفة اللقاء .

ويقول في هذه القصيدة التي يمدح بها (لبيب العامري) التي افتتحها بحديثه عن الغربة وعتاب زوجته له ؛ وذلك لكثرة اغترابه يقول[٢] :

هَلْ تَثِـنِّيَنَّ غُـرُوبَ دَمْـعِ سـاكِبِ

مَنْ شَـامَ بَارِقَـةَ الغَمـامِ الـصَّائِبِ

أَبَـتِ العَزِيمَـةُ مِـن فُـؤادٍ جَامِـدِ

أَنْ تَـسْتَقِيدَ لِمـاءِ جَفْـنٍ ذائِـبِ

من تَرْمِـةِ حَـدِقُ المَكَـارِمِ تُـصْبِهِ

عَـنْ مُـصْبِياتِ أَحِبَّـةٍ وَحَبائِـبِ

(١) ديوان ابن درَّاج القسطلي ، ص ٢٥٠ ، رقم ٧٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٩٠ ، رقم ٣٦ .

فَفِــــرَاقُ رَبَّـــاتِ الخُــــدُورِ مُكَفَّـــرٌ
بِلِقـــاءِ نَجْـــمِ المكرُمـــاتِ الثَّاقِـــبِ
قالَتْ وَقَدْ مَـــزَجَ الـــوَدَاعُ مَـــدامِعًا
بِمَـــــدَامِعٍ وَتَرائبًـــــا بِتَرائِـــــبِ
أَتَفَـــرُّقٌ حَتَّـــى بِمَنْـــزِلِ غُرْبَـــةٍ ؟
وَكَـــمْ نَحْـــنُ للأَيَّـــامِ نُهْبَـــةُ نَاهِـــبِ
فِي كُـــلِّ يَـــوْمٍ مَنْتَـــوِيٍ مُتباعِـــدٌ
يَرْمِـــي حُـــشَاشَةَ شَـــمْلِنَا المُتَقَـــارِبِ

وله أبيات أخرى يتحدث فيها عن كثرة أسفاره واغترابه، فيقول[1]:

وَرَمَيْـــــتُ آفَـــاقَ العِـــرَاقِ بِـــشُرَّدٍ
لَـــيْسَ العَجَائِـــبِ عِنْـــدَهَا بِعَجَائِـــبِ
مِـــنْ كُـــلِّ سَـــاحِرَةٍ كَـــأَنَّ رَوِيَّهَـــا
فِي أَلْـــسُنِ الـــرَّاوِينَ رِيقَـــةُ كَاعِـــبِ
وَلَكَـــمْ وَصَـــلْتُ تَنَائِفًـــا بِتَنَـــائِفٍ
حَتَّـــى وَصَـــلْتُ مَـــشَارِقًا بِمَغَـــارِبِ

ويقول أيضًا[2]:

غَريـــــبٌ وكـــــم غَربـــــت راحتـــــا
ه في الأرض من وَجـــه بِكـــر بتـــول

---

(١) ديوان ابن درَّاج القسطلي ، ص ٩١ ، القصيدة رقم ٣٦ .
(٢)المصدر السابق ، ص ٦٥ ، القصيدة رقم ٣١ .

هكذا كان شاعرنا. فهو في غربة دائمة وفي شوق دائم ودموع غالبة، فلا نبالغ حينما نقول إنّه لا تخلو قصيدة من قصائده إلا وقد وردت فيها كلمة (غريب، وغربة، ومغترب)، فمن خلال هذه القصائد يرتفع صوت ابن درَّاج المرتبط بالأهل والشعور بقيمة الوطن، إضافة إلى المعاني التي تثور في نفس المغترب وإن كانت البلاد التي ارتحل إليها في أحسن أحوالها، فهو دائمًا يذكر ما يصيبه من خير وشر في تلك البلاد، يقول ابن درَّاج متشوقًا لوطنه(١) :

بعيدٌ مِنَ الأَوْطَانِ مُسْتَشْعِرُ العِدَى

غَرِيبٌ عَلَى الأَمْوَاهِ مُتَّهَمُ الصَّحْبِ

وفي الأبيات التالية يمدح أحد الكتَّاب بأنه أوى غربته وتشرده، يقول(٢):

دَعَوْتُ فَلَبَّانِي وَآوَى تَغَرُّبِي

إِلَى كَرَمٍ لِلْعِزِّ ذِي مُرْتَقىً صَعْبِ

وَجَلَّى هُمُومِي مِنْ سَنَاهُ بِبَارِقٍ

أَضَاءَ بِهِ مَا بَيْنَ شَرْقٍ إِلَى غَرْبِ

وَأَسْبَلَ لِي مِنْ سِتْرِهِ فَوْقَ سِتَّةٍ

أَهِيمُ بِهِمْ فِي الأَرْضِ مِثْلَ القَطَا

---

(١) ديوان ابن درَّاج القسطلي ، ص ٨٢ ، القصيدة رقم ٣٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٣ ، القصيدة رقم ٣٤ .

« ولم يكتف شاعرنا بتصوير اغترابه فقط، بل صوَّر أيضًا اغتراب أبنائه وتشردهم عنه، وشدة حاجتهم إليه، يقول[١] :

في سِتَّةٍ ضَعُفُوا وضُعِّفَ عَدُّهُمْ
حَمْلاً لِمَبْهُورِ الفُؤَادِ مُبَلَّدِ
شَدَّ الجُلا رِحَالَهُم فَتَحَمَّلَتْ
أَفْلاذَ قَلْبٍ بِالهُمُومِ مُبَدَّدِ
وَحَدَتْ بِهِمْ صَعَقَاتُ رَوْعٍ شَرَّدَتْ
أَوْطَانَهُمْ في الأَرْضِ كُلَّ مُشَرَّدِ

وقد صور قسوة غربتهم وشدة حنينهم إلى دارهم حتى إنهم ليحزنون كلما تخيلوا دارًا لساكنين، ويتألمون كلما رأوا حيوانًا أو طائرًا يستمتع بعشه على حين هم مشردون هائمون »[٢]، نكتفي بهذا القدر من شعره الذي يبرز غربته.

أسباب اختيار الموضوع:

١- غربة الشاعر وسفره وتنقله لم يدرس دراسة مستقلة.

٢- تأثير الغربة على الشاعر وعلى شعره.

أمَّا الصعاب التي واجهتني في أثناء البحث:

١- الاعتماد على مصدر واحد وهو ديوان الشاعر وبتحقيق واحد.

٢- وجود بعض المراجع التي تحمل بعضها موضوع الاغتراب والغربة، وهي نادرة في المكتبات.

المصادر التي أفدت منها في هذا البحث :

١ – مصدري الرئيس هو الديوان: ديوان ابن درَّاج القسطلي، حققه وعلَّق عليه وقدَّم له الدكتور : محمد علي مكي، الطبعة الثانية ١٣٨٩هـ .

---

(١) ديوان ابن درَّاج القسطلي ، ص ٦٣ ، القصيدة رقم ٣٠ .

(٢) في الأدب الأندلسي ، ص ٣١٨ .

٢ – كتاب أدب الغرباء، لأبي الفرج الأصبهاني، نشره عن مخطوطة فريدة في العالم، د. صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٩٧٢م .

٣ – الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي، تأليف عزيز السيد جاسم .

٤ – جمهرة أنساب العرب، لابن حزم .

٥ – جذوة المقتبس، للحميري .

٦ – الذخيرة، لابن بسام .

٧ – منهاج البلغاء، لحازم القرطاجني .

٨ – المطرب، لابن دحية .

٩ – أعمال الأعلام، لابن الخطيب .

١٠ – نفح الطيب، للمقري .

١١ – يتيمة الدهر، للثعالبي .

١٢ – الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث، د. ماهر حسن فهمي .

١٣ – الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، د. أحمد هيكل، دار المعارف، الطبعة الثانية عشرة .

١٤ – الفن ومذاهبه في الشعر العربي، لشوقي ضيف .

١٥ – الاغتراب في القصيدة الجاهلية (دراسة نصية)، تأليف: محمود سليم هياجنة، دار الكتاب الثقافي، الأردن .

١٦ – الغربة في الشعر الأندلسي عقب سقوط الخلافة، تأليف: أشرف علي دغرور .

وقد قسَّمت البحث كما يلي :

المقدمة:

– الحديث عن الموضوع .

– الأسباب التي دفعتني لاختيار الموضوع .

– الصعاب التي واجهتني في أثناء البحث .

– المصادر التي أفدت منها في هذا البحث .

التمهيد : ويشمل الآتي :

١ – توضيح معنى الاغتراب والغربة .

٢ – علاقة الاغتراب بالذات المبدعة .

٣ – الغربة والاغتراب قبل ابن درَّاج.

الفصل الأول : ألوان الغربة والاغتراب في حيـاة ابـن درَّاج وشـعره – دراسة موضوعية :

١ – الاغتراب النفسي في حياة ابن درَّاج وشعره .

٢ – الغربة السياسية .

٣ – الغربة المكانية .

٤ – الغربة الاجتماعية، وتشمل الآتي :

أ – غربة الناس .

ب – الغربة عند الأسرة والأقرباء .

ج – غربة الأصدقاء .

الفصل الثاني : ألوان الغربة والاغتراب في حيـاة ابـن درَّاج وشـعره – دراسة فنية :

١ - البناء الفني لشعر الغربة والاغتراب .

٢ – المعجم الشعري في شعر الغربة والاغتراب .

٣ – الصورة الشعرية .

٤ – الموسيقى .

الخاتمة.

المصادر والمراجع .

قائمة المحتويات .

a

أولاً – توضيح معنى الغربة والاغتراب .

ثانياً – علاقة الاغتراب بالذات المبدعــة .

ثالثاً – الاغتـــــراب قبـــــل ابن درَّاج.

أولاً- توضيح معنى الغربة والاغتراب:

توضيح معنى الغربة والاغتراب :

عند تصفح بعض كتب المعاجم مادة الغربة والاغتراب المشتقة من الجذر (غرب) بمعنى البعد والنزوح عن الوطن، وهذا المعنى اللُّغوي حَصَرَ في دائرة ضيقة ذات معان محدودة، فالخليل الفراهيدي في كتابه (العين) يشير إلى هذا المفهوم بقوله[1] :

الغربة : الاغتراب عن الوطن، وغرب فلان عنا، يغرب غربًا، أي : تنحى، وأغربته وغربته، أي : نحيته .

والغربة : النوى البعيد، يُقال : شَقت بهم غربة النوى، وأغرب القوم : انتووا، وغاية مغربة أي : بعيدة الشأو، والغربة – أيضًا – التمادي، وهي اللجاجة في الشيء .

ويشير ابن فارس في (مقاييس اللغة) إلى أن الغربة هي: البُعد عن الوطن. يُقال[2] : غرب الدار، ومن هذا الباب : غروب الشمس، كأنَّه بعدها عن وجه الأرض، وشأو مغرب، أي : بعيد، ويقولون : هل من مغربة خبرًا ؟ يريدون خبرًا أتى من بعد .

وكذلك يشير ابن منظور صاحب (لسان العرب) بقوله[3] :

لفظ (الغَرْب) بمعنى الذهاب والتخفي عن الناس، أما الغَرْبة والغَرْب فترد بمعنى النوى، والبعد، ويُقال : غرَّب في الأرض إذا أمعن فيها، ولفظ الاغتراب افتعال من الغرب، ورجل غريب ليس من القوم، والغريب الغامض من الكلام .

(١) كتاب العين ، للخليل الفراهيدي ، م ٤ ، ص ٤١ .
(٢) مقاييس اللغة ، لابن فارس ، م ٤ ، ص ٤٢٠ – ٤٢١ .
(٣) لسان العرب ، لابن منظور ، م ١٠ ، ص ٣٢ – ٣٣ .

وأما لفظ (اغتراب) في قولهم : اغترب فلان؛ فهو إذا تزوج إلى غير أقاربه، وفي الحديث : « اغتربوا ولا تضووا »، أي : لا يتزوج القرابة، فيجيء ولده ضاويًا ضعيفًا وهزيلاً .

والجوهري في (الصحاح) يقول[١] : « التغريب : النفي عن البلاد، وأيضًا غرب بعد، وأغرب عني أي : تباعد » .

وكذلك الأزهري في (تهذيب اللغة) يقول[٢] : « التغرب بمعنى النفي والإبعاد عن البلد الذي وقعت فيه الجناية، ففي الحديث النبوي الذي أمر بتغريب الزاني سنة إذا لم يحصن » .

ونجد عند الزبيدي في (تاج العروس)[٣] : « التغرب الذهاب، والغرب: النوى والبعد، وأيضًا الغرب والغربة : النزوح عن البلد » .

وفي (المعجم الوجيز) ورد معنى غُرْبة : البعد عن وطنه، وغَرُبَ عن وطنه غُرْبَة : ابتعد عنه فهو غريب .

غَرَّبَ في الأرض : أمعن فيها، فسافر سفرًا بعيدًا، والقوم ذهبوا ناحية المغرب، وفلانًا أبعده ونحاه .

واغتراب : نزوح عن الوطن، وتَغَرَّبَ : نزح عن الوطن[٤] .

وهكذا نجد أن الاغتراب والغربة في المعاجم العربية استخدمت بمعنى الغربة المكانية، وهي الابتعاد عن الوطن .

فقد أخذت الدلالة المكانية سمة بارزة في السديم المعجمي .

---

(١) الصحاح ، للجوهري ، م ١ ، ص ٤٠٤ .

(٢) تهذيب اللغة ، للأزهري ، م ٧ ، ص ١١٢ .

(٣) تاج العروس ، للزبيدي ، م ١ ، ص ٤٠٤ .

(٤) المعجم الوجيز ، المركز العربي للثقافة والعلوم ، بيروت ، لبنان .

و يجدر الإشارة هنا إلى أن هناك معانيٍي أخرى نستطيع أن نطلبها من خلال تعريف معنى الغربة والاغتراب، وهي بروز معنى الغربة الاجتماعية التي تتمثل في غربة الناس، وهذا المدلول يظهر في قول ابن منظور : الغرب بمعنى الذهاب والتخفي عن الناس .

وأيضًا الغربة عن الأهل والأقرباء في قوله : اغترب فلان؛ إذا تزوج إلى غير أقاربه .

وأيضًا تتراءى دلالة أخرى وهي الاغتراب النفسي، حينما يجد الإنسان نفسه غريبًا عن القوم، غريبًا في المجتمع الذي يعيش فيه، ويظهر ذلك فيما أشار إليه صاحب لسان العرب حينما قال : « الاغتراب افتعال من الغرب، ورجل غريب : ليس من القوم » .

وسنحاول تجليةَ هذه الأنواع أو المعاني عند حديثنا عن أقسام الغربة، كما وردت في شعر ابن درَّاج.

وعند الانتقال إلى البحث عن معنى الغربة والاغتراب في بعض المراجع التراثية والحديثة، أن معنى الغربة والاغتراب لا يبعد عن المعنى المعجمي، فأبو الفرج الأصفهاني في كتابه (أدب الغرباء) يرى أن الغريب هو كل مشرد عن وطنه، ونازح عن داره وإخوانه، يقول : « وقد جمعت في هذا الكتاب ما وقع إليَّ وعرفته، وسمعت به وشاهدته من أخبار من قال شعرًا في غربة، ونطق عما به من كربة، وأعلن الشكوى بوجده إلى كل مشرد عن أوطانه، ونازح عن إخوانه »(١) .

ويقول في موضوع آخر : « من شأن الغرباء في الأسفار ومن نزحت به الدار عن إخوانه وأترابه، إذا دخل موضعًا مذكورًا، ومشهدًا مشهورًا أن يجعل لنفسه فيه أثرًا تبركًا ذوي الغربة »(٢) .

---

(١) أدب الغرباء ، لأبي الفرج الأصبهاني ، ص ٢١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٣ .

ويقول أيضًا : « فقد الأحبة في الأوطان غربة، فكيف إذا اجتمعت الغربة وفقد الأحبة »(١) .

ويقول التوحيدي في كتابه (الإشارات) : « بأن الغربة غربة نأي عن وطن » إلى أن قال : « فأين أنت عن غريب قد طالت غربته في وطنه، وقلّ حظه ونصيبه وسكنه ؟ وأين أنت عن غريب لا سبيل له إلى الأوطان، ولا طاقة به على الاستيطان »(٢) ؟

وقال : « بل الغريب من هو في غربته غريب »(٣)، ويقول : « الغريب من نطق وصفه بالمحنة بعد المحنة »(٤) .

والدكتور ماهر فهمي في كتابه (الحنين والغربة في الشعر العربي)(٥) يقول : « الغربة هي النزوح عن الوطن، والابتعاد عن الأهل والديار، يعني أن يشعر المرء بابتعاده عن مكان نشأته وفراقه لذويه الذين يرتبط معهم نفسيًّا وعاطفيًّا واجتماعيًّا، ويبدو أن الإنسان منذ بدأ يضرب في الأغراض قد حمل بين جوانحه ضروبًا من الإحساس بالغربة، حتى لقد تلونت قطاعات عريضة من أدبه بعد ذلك بهذا الإحساس » .

فمن خلال عرض معنى الغربة والاغتراب في السديم المعجمي وكتب التراث العربية، يضيء بريقًا ذا دلالتين يوضح فيه أسباب الاغتراب ودواعيه.

---

(١) أدب الغرباء ، لأبي الفرج الأصبهاني ، ص ٣٢ .

(٢) الإشارات، للتوحيدي ، ص ١١٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١١٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١١٤ .

(٥) الحنين والغربة في الشعر العربي ، ماهر فهمي ، ص ٧ .

أولها : أن الاغتراب والغربة التي يعيشها المرء قد يكون مجبورًا عليها كاغتراب المنفى، أو بسبب الحروب، والفتن، أو الأسر .

ثانيًا : اغتراب ليس بإجباري، وإنما من اختيار الفرد، إمَّا أن يكون حبًّا في الانتقال من بلد إلى آخر، أو بحثًا عن المال والثروة .

ومن مقتضيات البحث الوقوف على معنى الاغتراب في مفهوم علم النفس، فالاغتراب النفسي هو أكبر اغتراب يعيشه الإنسان ؛ لأنَّه قد يصل إلى درجة إحساسه بغربته عن نفسه وذاته، فيلجأ إلى تصوير غربته هذه وعذبات نفسه في أي شيء يلحظه أمامه .

فعبد اللطيف خليفة يقول : « وينظر الباحثون إلى اغتراب الذات باعتباره اضطرابًا نفسيًّا يتمثل في اضطراب الشخصية العصامية، حيث يتسم الشخص العصامي بالعجز عن إقامة علاقات اجتماعية، والافتقار إلى مشاعر الدفء واللين أو الرقة مع الآخرين . . . فهناك تشابه بين اغتراب الذات، واضطراب الشخصية العصامية في أنهما يشيران إلى صعوبة استمرارية العلاقات الاجتماعية مع الآخرين من أفراد المجتمع » (١) .

ويقول الدكتور محمود رجب : « إلا أن (الاغتراب) في سياق علم النفس متعلق بما يحدث للفرد من اضطرابات نفسية وعقلية، وما يستشعر من غربة في العالم وفتور أو جفاء في علاقته بالآخرين »(٢) .

الاغتراب في الدراسات النفسية يعني الاضطرابات والارتباك وعدم قدرة الفرد على إقامة علاقات إنسانية، فيشعر المرء بعزلة نفسية، غريب عن الآخرين . ولعل خير مثال يبين هذه الشخصية العصامية المنعزلة في العصر العباسي ابن الرومي شاعر الغربة النفسية، كما أطلق عليه الدكتور فوزي

---

(١) دراسات في سيكولوجية الاغتراب ، لعبد اللطيف خليفة ، ص ٨٠ .

(٢) الاغتراب سيرة ومصطلح ، لمحمود رجب ، ص ٣٥ .

عطوي في كتابه (ابن الرومي، شاعر الغربة النفسية)، فقال : « من هنا أن ابن الرومي هو شاعر الغربة النفسية، وأنه أيضًا الطائر المغرد خارج سربه، غير أن غربته النفسية هذه لم تجعل صوته نشازًا، بل حملته على التجديد الفني، وعلى الخوض في مواضيع لم يكن يألفها الشعر العربي من قبل »[١] .

وعند البحث عن مصطلح (الغربة والاغتراب) في المفهوم الإسلامي استوقفتنا دلالات تشير إلى الغربة والاغتراب سواءً في القرآن أو الحديث الشريف .

أولاً : القرآن الكريم :

هناك دلالاتٍ تحمل معنى الغربة والاغتراب وبذل المشقة، منها :

١ – الخروج من الدار : قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنتُمْ هَـؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ** ﴾[٢] .

يقول الشوكاني[٣] : « الدار : المنزل الذي فيه أبنية المقام، بخلاف منزل الارتحال، ﴿ **وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم** ﴾ : تخرجونهم من ديارهم معهم».

٢ – ابن السبيل : قال الله تعالى في سورة البقرة : ﴿ **لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ**

(١) ابن الرومي ، شاعر الغربة النفسية ، لفوزي عطوي ، ص ٦ .

(٢) سورة البقرة : الآيتان (٨٤- ٨٥) .

(٣) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، تأليف/ محمد الشوكاني ، ص ١٣٩ – ١٤١ .

الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾[١] . يقول الشوكاني : « ابن السبيل : المسافر المنقطع »، وقال ابن عباس : « هو الضيف الذي ينزل بالمسلمين »، وإخراج ابن جرير، عن مجاهد، قال : « هو الذي يمر بك وهو مسافر »[٢] .

٣ – الهجرة في سورة النساء : ﴿ **وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ** ﴾[٣] .

٤ – النفي، قال الله تعالى في سورة المائدة : ﴿ **أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ** ﴾[٤] .

يقول الشوكاني[٥] : « أن يخرج من دار الإسلام هربًا، وهو محكي عن ابن عباس وأنس وغيره »، والشافعي قال : « أنهم يُخرجون من بلد إلى بلد، ويُطلبون لتقام عليهم الحدود »ووردت هذه الآية في سياق تعداد الجنايات التي يقترفها الأنسان .

وغيرها من الدلالات التي تحمل هذا المعنى (الاغتراب) مثل السير في الأرض والضرب في الأرض والسفر .

ثانيًا : الحديث النبوي الشريف :

وردت المصطلحات التالية :

١ – **الغربة – الغريب**، ففي الحديث : « كُنْ في الدُنيا كأنَّك غريب

---

(١) سورة البقرة ، آية (١٧٧) .

(٢) فتح القدير ، للشوكاني ، ص ٦٢١ .

(٣) سورة النساء ، آية (١٠٠) .

(٤) سورة المائدة ، آية (٣٣) .

(٥) فتح القدير ، للشوكاني ، ص ٤٧.

أو عابر سبيل »، يقول ابن حجر : « شبَّه الناسل السالك بالغريب الذي ليس له مسكن يأويه ولا مسكن يسكنه، ثم ترقى وأضرب عنه إلى عابر السبيل ؛ لأن الغريب قد يسكن في بلد الغربة »[١] .

وقال النووي : « لا تتعلق منها (الدنيا) بما لا يتعلق به الغريب في غير وطنه »[٢]، وفي صحيح مسلم يقول النبي r : « إنَّ الإسلام بدأ غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية في جحرها»[٣] .

٢ – **الهجرة :** قال الرسول r : « إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»[٤] .

كما وردت بعض المصطلحات التي تحمل في طياتها معاني الغربة والاغتراب كالنفي وغيره، إلا أن لهذه الغربة التي وردت في المفهوم الإسلامي عدة أسباب منها الجهاد في سبيل الله، وطلب العلم الشرعي، وليس لأسباب دنيوية، ولعل خير شاهد على ذلك ما قاله مالك بن الريب التميمي، وقد خرج من أجل الجهاد، فشعر بدنو أجله في خراسان، بعيدًا عن أهله وذويه، فيتذكر غربته، ويذكر سبب غربته فيقول[٥] :

---

(١) فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، للعسقلاني ، ص ٣٢٥ – ٣٢٦ ، ج ١١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٢٦ .

(٣) شرح صحيح مسلم ، للنووي ، المجلد ١ – ٢ ، ص ٣٢٥ .

(٤) فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، للعسقلاني ، ص ٢٢ ، المجلد (٩) .

(٥) كتاب الأمالي ، لأبي علي القالي ، ص ٦٨١ – ٦٨٢ .

ألا لَيْــتَ شِــعْرِي هَــلْ أَبِيــتَنَّ لَيْلَــةً

بِجَنْبِ الغَضى أُزْجِي القِــلاصَ النَّوَاجِيَــا

فَلَيْتَ الغَضَى لَمْ يَقْطَعِ الرَّكْــبَ عَرْضَــهُ

وَلَيْتَ الغَضَى ماشَــى الرِّكَــابَ لَيَالِيَــا

لَقَدْ كَانَ فِي أَهْلِ الغَضَى لَوْ دَنَــا الغَــضَى

مَــزَارٌ وَلَكِــنَّ الغَــضَى لَــيْسَ دَانِيَــا

أَلَــمْ تَرَنِــي بِعْــتُ الــضَّلالَةَ بالهُــدَى

وَأَصْبَحْتُ فِي جَيْشِ ابْــنِ عَفَّــانَ غَازِيَــا

دَعَانِي الهَوَى مِــنْ أَهْــلِ أَوْدَو صُــحْبَتِي

بِــذِي الطَّبَــسَيْنِ فالتَفَــتُّ وَرَائِيــا

إلى أن قال :

تَذَكَّرْتُ مَنْ يَبْكِي عَلَــيَّ فَلَــمْ أَجِــدْ

سِوَى السَّيْفِ والرُّمْحِ الرُّدَيْنِيِّ بَاكِيَــا

وأَشْــقَرَ مَحْبُوكًــا يَجُــرُّ عِنَانَــهُ

إِلَى المَاءِ لَمْ يَتْرُكْ لَــهُ المَــوْتُ سَــاقِيَا

إلى أن قال :

غَرِيــبٌ بَعِيــدُ الــدَّارِ ثَــاوٍ بَقَفْــرَةٍ

يَدَ الــدَّهْرِ مَعْرُوفًــا بِــأَنْ لا تَــدَانِيَا

ثانياً : **علاقة الاغتراب بالذات المبدعة:**

قبل الخوض في الحديث عن الاغتراب قبل عهد ابن درَّاج، يجدر الإشارة إلى قضية تمسُّ الاغتراب، وهي : ***هل للاغتراب علاقة بالذات المبدعة؟***

هذا السؤال الذي أثار الجدل بين الباحثين وأهل الاختصاص، فانقسموا إلى طائفتين، فمنهم من يرى أن الاغتراب هو الدافع إلى نبوغ بعض الشعراء، فيعبروا عما يجول في أنفسهم بكل صدق وانفعال، ومنهم من يرى أن الاغتراب يقف حاجزًا قويًّا مانعًا للإبداع، وسنستعرض أقوالهم، وسنحاول الاستنارة بانعكاس معطيات هذا التأثير (الاغتراب) في الذات المبدعة، مستشهدين بنماذج شعرية من العصر الجاهلي والعباسي .

وقد استشهدنا لنماذج شعرية من العصرين السابقين باعتبار الأول رمز الأصالة والجودة، والثاني كان فترة انتعاش الشعر وتجديده .

بداية سنعرض آراء العلماء والباحثين وذوي الاختصاص في هذا الموضوع، وهذه الدراسات جمعها الدكتور عبد اللطيف محمد خليفة في كتابه (دراسات في سيكولوجية الاغتراب).

أولاً : الرأي القائل بأن الاغتراب حائل مانع للإبداع « فهذا أندرسون يرى بأن الاغتراب حجر عثرة أمام إبداع الفرد ومعرفته لذاته، فالشخص المغترب لا ينقطع فقط عن الآخرين، ولكن – أيضًا – عن ذاته وفقدانه لهويته الذاتية والاجتماعية، وهي مقومات أساسية تقوم عليها إبداعية الفرد وخياله، وتشكل السياق النفسي الذي يتحرك الفرد في إطاره، وتساعده على الإنجاز والتقدم »، وهذا (ويت) يقول : « إن الأفراد تحكمهم قواعد وضوابط لا ينبغي تجاوزها، وهذه القواعد والضوابط تجعل الفرد يشعر بالاغتراب، وهذا الشعور يقلل من إبداعه » [(١)].

---

(١) الاغتراب في القصيدة الجاهلية ، تأليف : محمود هياجنة ، ص ٣٢ .

«أما (ستيرن) فإنه يرى أن الحرية هي المحرك الأول لإبداع الشاعر، فالقوانين والأنظمة تحول دون إبداعه، وتخلق لديه نوعاً من العزلة »[١] .

و أن رأي (ستيرن) مطابقٌ وموافقٌ لرأي (ويت)، فكلاهما يتحدثان عن القوانين التي يعتبراها المثبط الأول للعملية الإبداعية .

« وأشار (سارنوف وكول) إلى تأثير التقدم الصناعي والتكنولوجي على الجوانب العقلية والنفسية للفرد حيث – غالبًا – ما يصنع الأفراد منتجات هذا التقدم ووسائله كجزء من ذواقم ومشكلاقم الحياتية؛ ولذلك فإن تنمية الإبداع يجب أن تأخذ في الحسبان كلاًّ من النمو الشخصي والروحي والتكامل بينهما »[٢] .

« أما (كوان) فيرى أن الطلاب المتفوقين والموهوبين هم الطلاب الذين لم يغتربوا و لم يتركوا مواطنهم، على العكس من ذلك فإن الطلاب المغتربين أقل موهبة » [٣].

ويتفق رأي محمد إبراهيم عيد مع ما توصل إليه (كوان) فيقول : « إن الأفراد ذوي المستويات المنخفضة من القدرة على الإنتاج الابتكاري هم أشد المجموعات إحساسًا بالاغتراب، وتبيَّن أن الابتكارية ترتبط بقدرة الفرد على قهر مشاعر الاغتراب وعودته إلى نفسه وواقعه، حيث يرفض المبتكر الواقع أحيانًا، ويتمرد عليه باسم الواقع الجديد الذي يسعى إلى بلوغه، وهذا ما كشف عنه (محيي الدين حسين) من وقوف الإصلاح كقيمة أساسية في المبدعين من منطلق إحساسهم بوطأة المشكلات التي يزخر بها العالم، وضرورة أن يتحمل كل فرد مسؤولياته في خلق صورة أفضل لهذا العالم » [٤].

---

(١) الاغتراب في القصيدة الجاهلية ، تأليف : محمود هياجنة ، ص ٣٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٢ .

(٣)المرجع السابق ، ص ٣٢ .

(٤)المرجع السابق ، ص ٣٢ .

أما أصحاب الفكر الآخر، وهم الذين يرون أن الاغتراب هو المحفز نحو الإبداع والابتكار، « فها هو (ولبرج) الذي يرى أن العملية الإبداعية مرتبطة بالاغتراب، إلا أننا لا ينبغي أن نجعل الاغتراب عنصرًا أساسًا للعملية الإبداعية. ويؤيد هذا القول ما توصل إليه (بورناهم) الذي شعر في فترة من الفترات بالألم والضيق، وبالتالي شعر بالاغتراب النفسي، فاستطاع الاستفادة من هذه الحالة، فاتجه إلى الكتابة، فانعكست هذه التجربة على نتاجه الأدبي » [١].

« ودرس (موهان) و(توانا) العلاقة بين سمات الشخصية والاغتراب لدى عينة مكونة من (١٠٠) كاتب هندي تتراوح أعمارهم بين ٢٣–٨٢ سنة من كتاب الرواية والقصة القصيرة، وتوصلا إلى أن هؤلاء المبدعين قد حصلوا على درجات عالية في الاغتراب مقارنة بالجمهور العام، وأن العديد من المبدعين يظهرون العديد من سمات الشخصية المغتربة »[٢] .

«ويحدد (مصطفى سويف) العملية الإبداعية في شعور المبدع بالاحتلال بين الـ (أنا) والآخرين، إذ يفقد الفرد إحساسه بالتوافق والتكامل مع الـ(نحن)، مما يدفعه إلى حالة من التوتر العام، يحاول التغلب عليها من خلال استعادة الـ(نحن) المفقودة، وذلك من خلال جذب الآخرين إلى عالمه، لا لأن ينتظم في عالمهم، ولكن كمحاولة هادفة يتحقق من خلالها التكامل بين المبدع والآخرين في إطار جديد، وافتراض (سويف) أن الصراع تتعرض له الشخصية بين أهدافها الخاصة، والهدف المشترك للجماعة يمكن أن يكون منشأ العبقرية »[٣] .

« وذهب أحمد النكلاوي إلى أن الاغتراب لازم الإنسان منذ القدم »[٤] .

و نرى أن القول الثاني هو الأرجح والأصح، وسنحاول معالجة هذه

---

(١)الاغتراب في القصيدة الجاهلية ، ص ٣٢ .

(٢)المرجع السابق ، ص ٣٣ .

(٣)المرجع السابق ، ص ٣٤ .

(٤)المرجع السابق ، ص ٣٤ .

القضية بذكر بعض الشواهد الشعرية لشعراء فُحُولٍ اغتربوا وعانوا من الغربة، فالإنسان منذ قديم الزمان ينتقل من مكان إلى آخر باحثًا عن موارد الحياة، ولهذا نجد أن الشاعر قد وصف اغترابه في قصيدته، وهذا ما نجده في المقدمات الطللية، ففي أثناء انتقاله المستمر لا بد له أن يقف على ديار الأحبة، فيتذكر تلك الرسوم والديار فيقف باكيًا عليها .

فالشعراء في العصر الجاهلي الذين عاشوا حياة الغربة والاغتراب صوروا ذلك في أشعارهم، من بينهم امرؤ القيس، وعنترة بن شداد، وعروة بن الورد، والشنفري، والنابغة الذبياني، وغيرهم من الشعراء الجاهليين الذين ظهروا في تلك الفترة .

و حينما نشير إلى هذا القول لا نريد أن نجعل الاغتراب الوسيلة الوحيدة لنبوغ الشاعر، ولكننا نقول أن الشاعر الجيد هو الذي يستطيع أن يستفيد من تجارب اغترابه، فيكون هذا الاغتراب بمثابة الجمرة التي تزيد شعره قوةً .وسنقف قليلاً عند قصيدةٍ لعنترة يقول فيها :

طَالَ الثَّواءُ عَلَى رُسومِ المَنْزِلِ
بَيْنَ اللَّكيكِ وبين ذاتِ الحَرْمَلِ
فَوَقَفْتُ في عَرَصَاتِها مُتَحيِّرًا
أَسَلُ الدِّيَارَ كَفِعْلِ مَنْ لَمْ يُذْهَلِ
لَعِبَتْ بِهَا الأَنْوَاءُ بَعْدَ أَنِيسِهَا
والرَّامِسَاتُ وَكُلُّ جَوْنٍ مُسْبَلِ
أَفَمِنْ بُكَاءِ حَمَامَةٍ في أَيْكَةٍ
ذَرَفَتْ دُمُوعُكِ فَوْقَ ظَهْرِ المَحْمَلِ[١]

(١) ديوان عنترة بن شداد ، تحرير : د/ محمد عنابي ، ص ١٥٨.

فهذه الغربة التي يعيشها الشاعر، وهذا الحنين الذي يصف فيه عنترة الديار والمنازل ويحدد مواقعها، ويقول أنه وقف وقفة المتجرد في معرفتها الغريب عنها، فيسأل عنها وعن مكانها، ثم ما تلبث دموعه بالانهمار والسيلان، إنها ثورة الإحساس بالاغتراب، وهذه الدموع التي انفجرت منه أثارتها بكاء حمامة من أيكة .

فعنترة الفارس البطل الذي قاد معارك عدة تندفع دموعه وتنفجر فيه العاطفة، إنها عاطفة الحنين التي أثارها الاغتراب، فذلك المكان الذي عهده وعرفه عاد الآن وكأنه غريب عنه .

فهل وقف الاغتراب حاجزًا مانعًا في إبداع هذا الشاعر الفحل ؟

وامرؤ القيس يترك أبياتاً كثيرة تعالج قضية اغترابه، إذا علمنا أنه ترك قومه الذين غصبوه ملك أبيه، ولكن الشاعر حين ابتعد عنهم شعر بالاغتراب والحنين إلى دياره، فيتمنى أن يموت بين أيديهم. ومما يتصل بموضوعنا قصيدته المشهورة الذائعة الصيت (ألا أبلغ بني حجر بن عمرو) تلك القصيدة التي ينبثق منها صدق الشعور والعاطفة، التي تصور نزوح الشاعر عن أهله ووطنه، فيموت بعيدًا عنهم، يقول[1] :

ولَكِنِّي هَلَكْتُ بِأَرْضِ قَوْمٍ

بَعِيدٍ مِنْ دِيَارِكُمُ بَعِيدَا

(بعيد من دياركم بعيداً) نلحظ في هذا البيت شدة الحسرة والندم، تلك الحسرة، وذلك الندم الذي ينبعث من أعماق قلب يكابد ألم الاغتراب والفراق، فهذا التكرار الذي وقع فيه الشاعر، فكأنّه يريد أن يلفت الانتباه إلى ما يملأ قلبه من ألم وعذاب، وأي ألم ذلك ؟ إنه ألم البعد عن الأهل والوطن، وألم الاغتراب في لحظة الاحتضار، ولذلك قال :

---

(١) ديوان امرئ القيس، ضبط وتصحيح : مصطفى الشافي ، ص ٢١٣ .

بـــأَرْضِ الــــرُّومِ لا نَـــسَبٌ قَرِيـــبٌ

وَلا شَـــــافٍ فَيَــــسْنِدُ أَوْ يَعُــــودَا

لا نسبَ ولا قريبَ ولا وَطنَ، هذه هي نهاية حياة الشاعر، نهاية هذه الحياة التي قضاها في غربة دائمة، وفي حنين دائم، وفي شوق دائم ودموع غالبة، هذه الدموع التي تذرف من هذه الأبيات، فتصور حال الشاعر وهو يئن في لحظة الاحتضار بلا نسب ولا قريب .

هكذا نرى قوة هذه الأبيات التي قالها امرؤ القيس في غربته واغترابه والتي تفيض بكل العواطف الإنسانية، وتعكس تجربة صادقة عاشها الشاعر، وتجرع كل ما فيها من معاناة، فكان هذا الاغتراب بمثابة المادة الخام التي استطاع الشاعر أن يشكلها ويستخرج منها أشكالاً ونماذج جديدة تصور آهاته وأناته.

والسؤال يتكرر، فهل وقف الاغتراب حاجزًا لنبوغ هذا الشاعر، وأي شاعر ؟ إنه امرؤ القيس ؟

والأمر يتكرر عند المتنبي الذي أَلِفَ حياة الاغتراب، يقول(١) :

أَمَّـــا الفِـــرَاقُ فَإِنَّهُمـــا أَعْهَـــدُ

هُـــوَ تَـــوْأَمِي لَـــوْ أَنَّ بَيْنَنَـــا يُولَـــدُ

مَنْ خَـــصَّ بالــذَّمِّ الفِــرَاقَ فَــإِنَّنِي

مَنْ لا يَرَى فِي الــدَّهْرِ شــيئًا يُحْمَـــدُ

---

(١) ديوان المتنبي ، ص ٢٠ .

ويقول أيضًا[1] :

يَشْتَاقُ كُـــلُّ غَرِيـــب عِنْـــدَ غُرْبَتِـــه

وَيَذْكُرُ الأَهْـــلَ والجِـــيرَانَ والـــوَطَنَ

فلإن المتنبي شاعر فحلٌ فأن الغربة لم تقف حـــاجزًا مانعًـــا لإبداعـــه وتفننـــه في شعره .

وهذا أبو تمام ، الشاعر العباسي الشهير، على الـــرغم مـــن اتـــصاله بالخلفـــاء والوزراء، فقد كان كثير الترحال والاغتراب، ففرقته الغربـــة وأبعدتـــه عـــن أهلـــه وإخوانه، يقول[2] :

مَا اليَـــوْمُ أَوَّلُ تَـــوْدِيعِي وَلاَ الثَّـــانِي

البَيْنُ أَكْثَـــرُ مِـــنْ شَـــوْقِي وَأَحْـــزَانِي

دَعِ الفِـــرَاقَ فَـــإِنَّ الـــدَّهْرَ سَـــاعَدَهُ

فَصَارَ أَمْلَكَ مِـــنْ رُوحِـــي بِجُثْمَـــانِي

خَلِيفَةَ الخِضْرِ مَنْ يَرْبَعْ عَلَـــى وَطَـــنٍ

فِي بَلْـــدَةٍ فَظُهُـــورُ العِـــيسِ أَوْطَـــانِي

بالشَّامِ أَهْلِي وبَغْـــدَادُ الهَـــوَى وَأَنَـــا

بِـــالرَّقْمَتَيْنِ وبِالفُـــسْطَاطِ إِخْـــوَانِي

وَمَا أَظُنُّ النَّوَى تَرْضَى بِمَـــا صَـــنَعْتُ

حَتَّى تَـــشَافَهَ بِـــي أَقْـــصَى خُرَاســـانِ

ليس هذا أول توديع له، ولا الثاني، وإنمـــا ارتحالـــه وبعـــده شـــيء عظـــيم، شيء أكبر وأكثر من شوقه وحزنه، وهذا الحزن وهـــذا الفـــراق لم يكـــن يرتـــضيه

---

(١)ديوان المتنبي ، ص ٤٦٨ .

(٢) ديوان أبي تمام ، تحقيق : محيي الدين الخياط ، ص ٣٢٣ .

لنفسه، ولكن الظروف والدهر كانوا أقوى منـــه، حـــتى عـــادت ظهـــور العـــيس وطنه الوحيد .هكذا كان شعر الاغتـــراب الـــذي يجـــسد فيـــه الـــشاعر غربتـــه، فيتقلب بين الحزن والألم، ذلك الألم الذي يتفجر من نفس جريحـــة تـــئن مـــن هـــم الهجرة والتشرد ، وتتشوق إلى العودة والاستقرار .

ويمكن القول هنا بعد أن استشهدنا بأشعار بعض المبـــدعين الـــذين أبـــدعوا في قصائدهم على الرغم مـــن اغتـــرابهم أن الاغتـــراب لم يقـــف حـــاجزًا مانعًـــا للإبداع كما ذهب بعض الباحثين، وإنما كان الاغتـــراب عنـــدهم بمثابـــة الوقـــود الذي يثير الحركة الوجدانية، والقوة العاطفية فيهم، فيـــثير بـــذلك القـــوى الهاجعـــة في نفسية الشاعر، فيظهر لنا جوهره المكنون في صور مـــن الإبـــداع الفـــني . كمـــا أشار إلى ذلك الدكتور/ محمود هياجنة[١].

ولذلك نرى أنَّ أكثر المبدعين عمقًا وأصالة كـــالمتنبي وغـــيره، هـــم الـــذين أوغلوا في الاغتراب، فكانت الغربة بالنسبة لهم كالبراكين العنيفة في حياتهم .

تلك الغربة التي تثير العواطف في الشاعر، فتتعمـــق تلـــك التجربـــة في ظـــل الصراع النفسي والإحـــساس بـــالاغتراب، ثم تتجلـــى تلـــك الـــصورة في نتاجـــه الشعري الذي يزداد قوة ووضاءة في ظل اغترابه، فيتعـــرف الـــشاعر علـــى مكـــامن القوة والضعف، فيلجأ إلى فرز تلك المعاني التي تزيـــد مـــع الاغتـــراب قـــوةً ولهيبًـــا وبريقًا .وأخيرًا : فإن الاغتراب بهذا المفهوم كان حـــافزًا ودافعًـــا لهـــؤلاء الـــشعراء المبدعين نحو الإبداع، فلم يكن الاغتراب في يوم مـــن الأيـــام مانعًـــا للإبـــداع، وإلا لما كان امرؤ القيس، ولا المتـــنبي، وغيرهـــم مـــن الـــشعراء الـــذين لم نـــستعرض شواهد لشعرهم، شعراء مبدعين استطاعوا أن يتركـــوا دواويـــن ضـــخمة تـــذخر بقصائد متنوعة صاغوها بأساليب مختلفة ومعاني مختلفة .

(١) الاغتراب في القصيدة الجاهلية – دراسة نصيِّة، د. محمود هياجنة، ص ٣٤.

ثالثاً - الغربة قبل ابن درَّاج:

عند حديثنا عن الغربة قبل ابن درَّاج سنركز في تجلية هذه الغربة على ثلاثة عصور وهي : العصر الجاهلي، وسنحاول إبراز هذه الغربة عند عنترة العبسي، والنابغة الذبياني، ثم يتلوه العصر الأموي، وسنقف قليلاً عند جميل معمر . وفي العصر العباسي اخترنا لمعالجة هذه القضية الشاعر الأسير أبي فراس الحمداني، والشريف الرضي، وعند شعراء مجهولين ذكرهم صاحب الأمالي في كتابه، وقد قصرنا الحديث على هؤلاء الشعراء لضيق المقام هنا، كما أننا أردنا أن نوضح كيف أن هذه الغربة قد تأثر بها الشعراء قبل ابن درَّاج، فاختلفت بذلك المعاني وتلونت الأساليب إلا أن المعاناة واحدة، والجرح واحد، فكلاً من الشعراء السابق ذكرهم ممن لم نتطرق للحديث عنهم قد وقعوا في طريق الاغتراب، فهم بمثابة الريشة التي تقع في مهب الريح، فتتحرك في كل الاتجاهات هنا وهناك، إذًا هم شعروا بالغربة وأحسوا بها، فتحولت الحياة عندهم إلى اغتراب دائم ورحيل مستمر . فحينما نريد أن نلقي الضوء على الاغتراب والغربة عند بعض الشعراء في العصر الجاهلي تتراءى أمامنا هذه الغربة عند عنترة العبسي، الذي تتمثل الغربة عنده في عدم التجاوب والتكيف الاجتماعي، فنطق بهذه الغربة، فهو قد عاش بين أهله وأقاربه، ولكنه لم يجد منهم إلا الازدراء بغير جريرة له، ولا ذنب، فدائمًا يذكر أقاربه الذين لم يعرفوا قدره بالرغم مما قدمه لهم من بطولات وانتصارات، فوصف الغربة والاغتراب في شعر غزير رقيق مؤثر بصدق عاطفته وجماله الغني الذي يترك بصمات واضحة في النفس، وكيف لا وهو يعاني غربة الأهل والأقرباء ؟! يقول(١) :

(١) ديوان عنترة بن شداد ، تحرير : د. محمد عناني ، ص ١٠٢ .

إذا الرِّيحُ هَبَّــتِ مِــنْ رُبَــى العَلَــم

طَفَا بِرْدُهَا حَــرَّ الــصَّبَابَةِ والوَجْــدِ

وَذَكَّرَنِي قَوْمًــا حَفظْــتُ عُهُــودَهُم

فَمَا عَرَفُوا قَدْرِي وَلا حَفِظُوا عَهْــدِي

وتفيض دموعه، وتسيل على خده كلما تذكر جور قومــه وظلمهــم لــه، فيقول :

إِذَا فَاضَ دَمْعِي واسْتَهَلَّ عَلَى خَــدِّي

وَجَاذَبَنِي شَوْقِي إِلَى العَلَــمِ الــسَّعْدِي

أَذْكُرُ قَوْمِي ظُلْمَهُــمُ لِــي وبَغْــيَهُمُ

وَقِلَّةَ إِنْصَافِي عَلَــى القُــرْبِ والبُعْــدِ

بَنَيْتُ لَهُمْ بِالــسَّيْفِ مَجْــدًا مُــشَيَّدًا

فَلَمَّا تَنَاهَى مَجْدُهُم هَــدَمُوا مَجْــدِي

ويشعر الشاعر بالألم والحرقة كلمــا تــذكر أن أقاربــه لا يكنــون لــه أدنى محبة أو مودة، وكل من كان يعتقد أنهم أصــدقاء لــه ســقطت أقنعتــهم وظهــروا على حقيقتهم، تلك الحقيقة المرة حينما يشعر المــرء بــأن لــه صــديقًا يواســيه في أحزانه، ويشاركه أفراحه وأتراحه، ثم ما يلبــث أن تنكــشف لــه الأمــور، فهــو ليس بصديق إنما حاقد، إذًا الــشاعر هنــا يعــاني – أيــضًا – غربــة الأصــدقاء، يقول(١) :

وَكُــلُّ قَرِيــبٍ لِــي بَعِيــدُ مَــوْدَّةٍ

وَكُلُّ صَــدِيقٍ بَــيْنَ أَضْــلُعِه حِقْــدُ

(١) ديوان عنترة بن شداد ، تحرير : د. محمد عناني ، ص ٩٠ .

وفي هذه المقطوعة الشعرية التي تفيض رقة وحنينًا يقف الشاعر وحيدًا في هذه البلاد النائية يعاني الألم والغربة، فيلفت نظره طائر قد أَلَمَّ به ما وقع للشاعر فكلاهما يشعران بالوحدة والوحشة، فالشاعر يعاني غربة نفسية فيقول[1] :

وَلَقَدْ نَاحَ فِي الغُصُونِ حَمَامٌ
فَشَجَانِي حَنِينُهُ والنَّحِيبُ
بَاتَ يَشْكُو فِرَاقَ إِلْفٍ بَعِيدٍ
وَيُنَادِي أَنَا الوَحِيدُ الغَرِيبُ

ويصل الشاعر بدوره هنا إلى ذروة إبداعه حقًّا في التصوير والتعبير عن غربته حينما يتحدث إلى غراب البين فيعاتبه، ويعقد مقارنة بين حاله، وحال الغراب فتتهادى، وتتسابق الكلمات على لسان الشاعر، حاملة هذه المعاني الرائعة، يقول[2] :الوافر

أَمِنْ طَلَلٍ بِوَادِي الرَّمْلِ بَالِي
مَحَتْ آثَارَهُ رِيحُ الشَّمَالِ
وَقَفْتُ بِهِ وَدَمْعِي مِنْ جُفُونِي
يَفِيضُ عَلَى مَغَانِيهِ الخَوَالِي
أُسَائِلُ عَنْ فَتَاةِ بَنِي فَرَادِ
وعَنْ أَتْرَابِهَا ذاتِ الجَمَالِ
وَكَيْفَ يُجِيبُنِي رَسْمٌ مُحِيلٌ
بُعَيْدُ لاَ يَرُدُّ عَلَى سُؤَالِي

(١) ديوان عنترة بن شداد ، ص ٤٤ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٦٩ .

وفي الأبيات التالية يعيش عنترة غربة سياسية، فنــراه ينتقــل مــن بلــده إلى مُلك كسرى أنوشروان، ويمدحه، فيصفه بأنه قبلــة القــصاد والمغتــربين، ومفــرِّج هموم المهمومين، وأنه وجد عنده مــن الإحــسان مــا لم يجــده في ديــار عــبس، يقول[1] :

يَـــا أَيُّهَـــا المَلِـــكُ الَّـــذِي رَاحَاتُـــهُ

قَامَـــتْ مَقَـــامَ الغَيْـــثِ فِـــي أَزْمَانِـــهِ

يَا قِبْلَـــةَ القُـــصَّادِ يَـــا تَـــاجَ العُـــلاَ

يَا بَدْرَ هَـــذَا العَـــصْرِ فِـــي كَيْوانِـــهِ

يَا مُخْجِـــلاً نَـــوْءَ الـــسَّمَاءِ بِجُـــودِهِ

يَـــا مُنْقِـــذَ المَحْـــزُونِ مِـــنْ أَحْزَانِـــهِ

يَـــا سَـــاكِنِينَ دِيَـــارَ عَـــبْسٍ إِنَّنِـــي

لاَقَيْتُ مِنْ كِـــسْرَى وَمِـــنْ إِحْـــسَانِهِ

مَا لَيْسَ يُوصَـــفُ أَوْ يُقَـــدَّرُ أَوْ يَفِـــي

أَوْصَـــافَهُ أَحَـــدٌ بِوَصْـــفِ لِـــسَانِهِ

والسؤال الذي قد يرد على ذهن القــارئ : هــل اســتطاع هــذا الــشاعر المغترب نسيان غربته ودياره ومحبوبته بعد أن غادره ووجد وطنًا وملكًا آخر ؟

الإجابة بالطبع لا، وإنما كان حديثــه ذلــك محاولــة ينــشد مــن ورائهــا السلوان فقط مادام الدهر قد حكم عليه بهذا الفراق والاغتراب .

---

(١) ديوان عنترة بن شداد ، تحرير : د/ محمد عناني ، ص ٢٢٣ .

وعندما نستعرض الغربة والاغتراب عنـــد شـــاعر جـــاهلي آخـــر، تتـــسابق الحروف مع مداد القلم لتسطر عنوانًا لشاعر كبير، ولشخـــصية متميـــزة، أجـــادت في الشعر وكيف لا، وهو شاعر فحل قد نبغ في شعره، وتفـــوق فيـــه، إنـــه النابغـــة الذبياني .

يقول[١] :

أزف التَّرحُّـــلُ، غـــير أنَّ رِكَابنـــا

لَمَّـــا تَـــزلْ برحالنـــا، وكـــأن قـــدِ

زَعَمَ الغُـــدافُ بـــأنَّ رحلتنـــا غَـــدا

وبـــذاك خَبَّرَنـــا الغُـــرابُ الأســـودِ

لا مَرْحبًـــا بغـــدٍ، ولا أهْـــلاً بـــه

إن كـــان تفريـــقُ الأحِبَّـــةِ في غـــدِ

حَانَ الرَّحيلُ، ولم تُوَدِّعْ مَهْدَدًا

والـــصبحُ والإمـــساءُ منـــها مَوْعِـــدِي

فالنابغة لا يحبذ الاغتراب والرحيل، فـــلا مرحبـــاً ولا أهـــلاً بـــه . فلمـــاذا هذا البغض؟

لأنه يعلم علمًا يقينًا ما في الاغتراب والرحيـــل مـــن تفريـــق بـــين الأحبـــة، فيتولد بذلك الحزن والأسى. ومما يؤكد بغـــضه للغربـــة قولـــه يعيِّـــر بـــني عـــبس اغترابَهم في بني عامر، حينما قال[٢] :

(١) ديوان النابغة الذبياني ، جمعة وشرحه : محمد عاشور ، ص ٩٣ .

(٢) المصدر السابق، ص ١٠٧.

جـــــزى اللهُ عبــــسًا آلَ بغــــيضٍ

جَزاءَ الكلابِ العَاوياتِ، وقـــد فعـــلْ

فأصــــــبحتُمْ واللهُ يفعــــلُ ذلكـــــمْ

يُعِـــزَّكُمُ مـــوْلى مـــواليكُم حَجَـــلْ

ونأتي إلى العصر الأموي لنرى الاغتراب ما يزال مـــؤثرًا فعَّـــالاً علـــى حيـــاة بعض الشعراء وعلى نتاجهم الشعري، ولنقفْ قلـــيلاً عنـــد جميـــل معمـــر الـــذي يعاني الغربة والاغتراب بعد أن رحلت عنه بثينة حينما قـــام والـــدها بتزويجهـــا مـــن رجل آخر، ورحلت معه يقول[١] :

ألا ليْتَ شِــعْري هَــلْ أَبِيــتَنَّ ليْلَــةً

بِــوَادي القــرَى إنِّــي إذنْ لــسعيدُ

وَهَلْ أَلْقيَنْ سُعْدى منَ الــدَّهْرِ مَــرَّةً

وما رَثَّ مِنْ حَبْــلِ الــصَّفَاءِ جَديــدُ

وقَدْ تَلْتَقي الأهواءُ مِـــنْ بَعْــد يَأْســه

وقَدْ تُطْلَبُ الحَاجَــاتُ وَهْــيَ بَعِيــدُ

ويرى أنه غريب ووحيد، والنـــاس مـــن حولـــه مـــا هـــم إلا أعـــداء لـــه، يقول[٢]:

غريبٌ إذا ما جِئْــتُ طالِــبَ حَاجَــةٍ

وَحَــــوِلِي أَعْــداءٌ وَأَنْـــتَ مُـــشَهَّرُ

---

(١) ديوان جميل بثينة ، دار الكتاب العربي ، جمعه : إميل يعقوب ، ص ٦٦ .

(٢) المصدر السابق، ص ٨٩ .

وحينما هرب إلى اليمن بعد أن أهدر السلطان دمه فأقام بها، فشعر بالغربة والحنين إلى بثينة، يقول[1] :

أَلَمَّ خَيَالٌ مِن بُثَيْنَةَ طارِقُ
عَلَى النَّأْيِ مُشْتاقٌ إليَّ وشائِقُ
سَرَتْ من تِلاعِ الحِجر حتَّى تَخَلَّصَتْ
إليَّ ودُنَى الأَشْعَرُونَ وغافِقُ

ونقف قليلاً عند بعض الشعراء العباسيين الذين عانوا هذه الغربة، فتركوا شعرًا خالدًا في هذا المجال يكشف عن مدى تغلغل الحزن في أعماقهم، فهذا أبو فراس الحمداني الذي وقع أسيرًا في أيدي الروم، فماطله سيف الدولة بالفداء مما أثار وجد الشاعر، واشتد حنينه إلى أهله وأصدقائه، فعانى من الغربة والاغتراب ما عاناه، يقول في غربته عن أهله وذويه[2] :

أراني وقَوْمِي فَرَّقَتْنَا مَذَاهِبُ
وَإنْ جَمَعَتْنَا في الأُصولِ المَناسِبُ
فأقصاهُمُ مِنْ مَسَاءَاتي
وأقْرَبُهُمْ مِمَّا كَرِهْتُ الأقارِبُ
غَريبٌ وَأَهلِي حَيْثُ مَا كَرَّ نَاظِرِي
وَحيدٌ وَحَوْلِي مِنْ رِجَالي عَصَائِبُ

---

(١)ديوان جميل بثينة ، دار الكتاب العربي ، جمعه : إميل يعقوب ، ص ٢٧٧ .

(٢) ديوان أبي فراس الحمداني ، دار الكتاب العربي ، شرح: خليل الدويهي ، ص ٤٤ .

ويصف أَسْره ويذكر أهله ويتشوق إلى أحبابه، يقول[١] :

لأيِّكُـــــــــمُ أذْكُــــــــــرُ؟
وفي أيِّكُـــــــــمُ أفكِّـــــــــرُ

وكَـــــمْ لي عَلَــــى بَلْــــدَتِي
بُكـــــــاءٌ ومــــــــستَعبَرُ

ففــــي (حلــــب) عُــــدَّتِي
وعــــــزِّي، والمَفْخَــــــرُ

وفي منـــــبجِ مَـــــنْ رَضَـــا
هُ، أنْفَـــــسُ مــــا أدْخَــــرُ

وقد عانى – أيضًا – غربة الأصدقاء، فلم يجد صديقًا وفيًّا في كربته هذه، يقول[٢] :

ولَمَّا تخَيَّـرْتُ الأخِـلاَّءَ لَـمْ أَجِـدْ
صَبُورًا علَـى حِفْـظِ المَـوَدَّةِ والعَهْـدِ

سَليمًا علَـى طَـيِّ الزَّمـانِ ونَـشْرِهِ
أمينًا على النَّجْوَى صَحيحًا علَى البُعْـدِ

ولَمَّا أسـاءَ الظَّـنَّ بي مَـنْ جَعَلْتُـهُ
وَإيَّايَ مِثْـل الكَـفِّ نِـيطَ إلى الزَّنْـدِ

(١) ديوان أبي فراس الحمداني ، ص ١٠٠ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٦ .

حَمَلْتُ إلى ضَـــنِّي بِـــهِ ســـوءُ ظَنِّـــهِ

وأيْقَنْـــتُ أَنِّـــي بالوَفَـــا أمَّـــةً وَحْـــدِي

وها هو الشريف الرضي يفقد اتزانه ويقع فريسة للاغتـــراب فهـــو مغتـــرب كبير إذا نزل بأرض، فهو ضيف(١) :

ورَمَى بشَخصي حَـــرَّ كـــلِّ مفـــازَةٍ

لا يَـــسْتَقِلُّ بِهـــا مَطِـــيَّ جَبَـــانِ

مُتَغَرِّبًـــا لا أَسْـــتَجيرُ بمنـــــزلٍ

فـــإذا نَزَلْـــتُ، فعَقْلَـــة الـــضِّيفانِ

سيفي رَفيقـــي في الـــبلادِ، وهِمَّـــتي

مَتَعَلِّلـــــي، وَجَـــــوانِحِي خِـــــلاَّني

وكتب إلى إسحق إبراهيم، يصف فيه غربتـــه وشـــدة حنينـــه إلى الـــوطن، يقول(٢) :البسيط

فالمَرْءُ يَـــسْرَحُ في الآفـــاقِ مُـــضْطَّرِبًا

ونفـــسُهُ أبَـــدًا تَهْفُـــو إلى الـــوَطَنِ

والبُعْـــدُ عَنْـــكَ بَـــلاني باســـتِكانِهِمُ

إنَّ الغَريـــبَ لَمُـــضْطَّرٌّ إلى الـــسَّكَنِ

---

(١) ديوان الشريف الرضي ، دار صادر ، بيروت ، ص ٥١٦ ، م ٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٤٥ .

ويتحدث الشاعر عن غدر الأصدقاء وقلة وفائهم، فيقول[(١)] :

يا دارُ قَـلَّ الـصَّديقُ فيـك، فَمَـا
أحُـــسُّ وُدًّا ولا أَرَى سَـــكَنا

ويرجع سبب عدم وفاء الأصدقاء للدهر، يقول[(٢)] :

ألا قَطَـعَ النـاسُ حبْـلَ الوفـاءِ
وأُولِـعَ بالغَـدْرِ خِلاَّنِيَـهْ
وصِـرْتُ أُعَـدِّدُ في ذا الزمـان
صَـديقي أَوَّلَ أعدائِيَـهْ
أضَـرُّ الأَنَـامِ لِيَ الأَقْرَبـونَ
وَأَعْـدَى الـوَرَى لي جيرانِيَـهْ

ولذلك يقول عزيز السيد جاسم عنه : « انعدام وفاء الأصدقاء كان ينقله فورًا إلى مخاطبة الدهر الخائن ؛ لأن الصداقة حلَّت في قلبه وعقله محلاًّ لا أعلى منه ولا أرقى، فإن قلَّ الصديق وكان الدهر مسؤولاً عن ذلك »[(٣)] .

وهذا أعرابي يغترب عن وطنه ويشتاق له حينما سمع غناء حمائم ببستان إبراهيم المهدي، يقول[(٤)] :الوافر

ومـن بـستانِ إبـراهيمَ غَنَّـتْ
حَمـائِمُ بينَهَـا فَـنَنٌ رَطيـبٌ
فقُلْـتُ لَهَـا وُقيـتِ سِـهامَ رام
ورُقـطِ الـريشِ مطمعُهـا الجُنـوبُ

---

(١) ديوان الشريف الرضي ، ص ٥٢٩ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٥٨٣ .
(٣) الاغتراب في شعر الشريف الرضي ، عزيز السيد جاسم ، ص ١٠٤ .
(٤) كتاب الأمالي ، لأبي علي القالي ، تحقيق : صلاح هلل وسيد الجليمي ، ص ٦٣ ، ف ١٤٩ .

كمـــا هَيَّجْـــتِ ذا حَـــزَنٍ غريبًـــا

عَلَـــى أشْـــجانه فبَكَـــى الغَريـــبُ

وأعرابي آخر يبين حقيقة الغريب، فيقول[1] :

فَلا تَحْسَبي أنَّ الغَريبَ الـــذي نـــأَى

وَلَكِـــنَّ مَـــنْ تَنْـــأَيْنَ عَنْـــهُ غَريـــبٌ

وأخيرًا : هؤلاء المغتربون الذين عانوا في غربتهم ألوانًا كـــثيرة مـــن المـــشاق والألم استطاعوا أن يرسموا لنا لوحات تعبر عن هذه المعاناة .

---

(١)كتاب الأمالي ، ص ١٨٢ ، ف ٥٣٤ .

الفصل الأول

ألوان الغربة والاغتراب في حياة ابن درّاج وشعره

- دراسة موضوعية -

أولاً – الاغتراب النفسي في حياة ابن درَّاج وشعره .

ثانياً – الغربة السياسـية .

ثالثاً – الغربة المكانيـــة .

رابعاً – الغربة الاجتماعية .

أولاً - الاغتراب النفسي في حياة ابن درَّاج وشعره

رُبَّ متسائل يطرح على نفسه سؤالاً : هل نستطيع تخصيص نوع من الاغتراب فنطلق عليه اغتراباً نفسياً ؟

والحقيقة أن العلماء وجدوا صعوبة في ذلك لتداخل الأبعاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية في هذا المفهوم، وهذا ما أشار إليه عبد اللطيف خليفة، حينما قال : « إلا أنه من الصعب تخصيص نوع مستقل نطلق عليه الاغتراب النفسي، وذلك لتداخل الجانب النفسي للاغتراب، وارتباطه بجميع أبعاد الاغتراب الأخرى: الثقافي والاقتصادي والسياسي »(١) .

ومن هذا المنطلق نشير إلى أن الاغتراب النفسي، والذي نحن بصدد الحديث عنه إنما هو عبارة عن انفعالات الشاعر، هذه الانفعالات التي تثير وجده فتجعله يغوص في عالم الذكريات علَّه يخفف من وجده وقلقه وشوقه، فيتذكر ديار الأحبة فيقف عليها باكيًا .

وهذا ما نجده في المقدمات الطلية التي تفيض بالانفعالات النفسية والعاطفية . فذكر ديار الأحبة شيء أوجبته الحياة القاسية، فسار الشعراء على هذا المنوال، إلا إن هذا الإحساس العميق يحمل بين طياته اغتراباً نفسياً يكابده الشاعر ؛ لأن من يعاني هذا الاغتراب (النفسي) يعجز عن إقامة علاقات مع الآخرين، مما يجعله يشعر بالعزلة والتفرد والقلق، يقول الدكتور محمود رجب : « إلا أن (الاغتراب) في سياق علم النفس متعلق بما يحدث للفرد من اضطرابات نفسية وعقلية وما يستشعر من غربة في العالم، وفتور وجفاء في علاقته بالآخرين »(٢) .

---

(١) دراسات في سيكولوجية الاغتراب ، عبد اللطيف خليفة ، ص ٨٠ .

(٢) الاغتراب سيرة ومصطلح ، محمود رجب ، ص ٣٥ .

فشعراء الغربة النفسية عانوا القلق، فانعزلوا عـــن النـــاس، فكانـــت عزلتـــهم تلك هروبًا من واقع ألـــيم لا يـــستطيعون التكيـــف معـــه، فيلجـــأون إلى الماضـــي والذكريات، والوقوف على الأطلال، والحديث عن أشـــواقهم وحنينـــهم وقلقهـــم الذي ينتابهم في رحيلهم الدائم، فوصفوا أسفارهم، ومـــا يواجهـــون مـــن صـــعاب ومتاعب، وفي هذه الأثناء قد يسترعى انتباه الـــشاعر طـــائرًا مغـــردًا أو أي شـــيء من مظاهر الطبيعة فيصفه وصفًا نفسيًّا مجسدًا فيه ألمـــه وإحـــساسه بالغربـــة، مـــدعيًا أن ذلك الطائر قد أصابه ما أصاب الشاعر، فيبحر في عـــالم الـــذكريات والأحـــلام فيتذكر موطنه .

وهذا الاغتراب النفسي نجده عند عبد الـــرحمن الـــداخل في الحـــديث عـــن نخلة رآها بالرصافة فيعقد بينـــه وبينـــها مـــشاركة نفـــسية في الاغتـــراب والبعـــد يقول[1] :

تبَدَّتْ لنـــا وَسْـــطَ الرَّصـــافة نخلـــة
تناءَتْ بأرض الغرْب عن وطنِ النَّخْـــلِ
فقلتُ شَـــبيهي في التَّغـــرُّبِ والنَّـــوى
وطول التَّنائي عَنْ بَنِـــيَّ وَعَـــنْ أهلـــي
نشأت بِـــأرضٍ أنـــتِ فيهـــا غَريبـــة
فمثلكِ في الإقْـــصاءِ والمُنْتـــأَى مِثْلـــي
سَـــقَتْكِ غَـــوادِي المُـــزْنِ في المُنْتـــأَى
يَصِحُّ وَيَـــسْتَمْرِي الـــسماكينَ بالوَبْـــلِ

(١) نفح الطيب ، للمقري ، ج ٢ ، ص ٧١٦ .

ويقول المتنبي[1] :

مَـــا لاحَ بَـــرْقٌ أَوْ تَــرَنَّمَ طَــائِرٌ
إلاَّ انْثَنَيْـــتُ وَلِي فُـــؤادٌ شَـــيِّقُ

المتنبي يشتاق إلى أحبته، والذي هيج ذلك الشوق فيه هو لمعان البرق وترنم الطائر .

يقول الدكتور أشرف نجا : « وأولع الأندلسيون – كما أولع المشارقة العباسيون من قبل – بوصف الحمائم والطيور التي تعلو الأفنان وسط الرياض والأنهار ؛ لأنها بصياحها وهتافها تهيج ذكرياتهم وأشجانهم، وتثير فيهم كوامن الشوق والحنين، فشخصوها وخلعوا عليها من مشاعرهم وأحاسيسهم وحالاتهم النفسية، وامتزجوا بها، فجعلوها تفرح لفرحهم وتقلق لحزنهم »[2] .

وهذه الدراسة ستحاول جاهدة إبراز الاغتراب النفسي في حياة ابن درَّاج وشعره، والجدير بالذكر أن هذا الشاعر قد عاش في فترة ملوك الطوائف تلك الحقبة الزمنية المليئة بالأحداث السياسية والاجتماعية المضطربة، والتي دفعت القسطلى ورمته في مهب الاغتراب النفسي، وغيرها من ألوان الغربة. فقد انتشر الظلم والفساد في تلك الفترة، فظهرت العصبيات القبلية، وتعصبت كل طائفة لأميرها، وهذا ما أشار إليه الخطيب في قوله : « ذهب أهل الأندلس من الانشقاق والانشعاب والافتراق إلى حيث لم يذهب كثير من أهل الأقطار »[3] .

تلك الفتن والدسائس والجور والعدوان الذي شاع في البلاد في تلك

---

(١) ديوان المتنبي ، شرح الواحدي ، ج ١ ، ص ٩٥ .
(٢) قصيدة المديح في الأندلس ، د. أشرف نجا ، ص ١٥٣ .
(٣) أعمال الأعلام ، لابن الخطيب ، ص ١٤٤ .

الفترة دفعت ابن درَّاج نحو الاغتراب النفسي، إذ إن كل شخص في تلك الحقبة كان يسعى لتحقيق طموحاته وأطماعه في جو مفعم بالقلق والخوف، فترك كل ذلك أثرًا سيئًا على الحياة الاجتماعية، وعلى حياة ابن درَّاج خاصة. وسبب آخر وهو أن ابن درَّاج كان من بيت عزٍّ وسيادة؛ إذ كان جده حاكم قسطلة إلا أن هذه الرياسة لم تدم لهم طويلاً، فذهاب السيادة عنهم جعلته يشعر باغتراب نفسي إذْ سيطر عليه القلق والخوف من شبح الفقر، وضياع أسرته .

إذًا نحن بإزاء شاعر من أسرة عريقة النسب، إذ يذكر المؤرخون أنه من قبيلة صنهاجة البربرية، إذ يقول صاحب جمهرة أنساب العرب (صنهاجة منهم بنو درَّاج رهط الشاعر أبي عمر وأحمد بن محمد بن درَّاج القسطلي)[(١)] .

(وعلى الرغم من ذلك فإننا لا نرى أثرًا واضحًا لهذه البربرية في حياة ابن درَّاج ولا شعره، وهو لا يتحدث عن نسبه على الإطلاق)[(٢)] .

ولكن لا بد لهذا التحول الذي أصاب مُلك أجداده أن ينعكس على شاعرنا ويولد فيه الشعور بالخوف والضياع، فرحل ليبحث عن حياة المجد والاستقرار، وكثرة الرحيل من بلد إلى بلد جعله أيضًا يعيش حياة قلقة مضطربة، وهذا القلق جعله يكثر الحديث عن وصف الأسفار برًّا وبحرًا، ولم يكتف بالوصف الخارجي من ذكره لصعاب، بل تعمق في الوصف النفسي لقلقه وهمومه، وما يتركه هذا الرحيل من أثر سيئٍ لدى المغترب، ولذلك نجد في حديث لرسول الله r يصف السفر بالعذاب، فيقول : « السفر قطعة من

(١) جمهرة أنساب العرب ، لابن حزم الأندلسي ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط ٦ ، دار المعارف ، ص ٥٠١ ، ٥٠٢ .

(٢) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٤ .

العذاب يمنـــــع أحدكم طعامه وشرابه ونومه، فـــإذا قـــضى نهمتـــه فليعجـــل إلى أهله »[1] .

فالمغترب قد يتعرض للأذى أو الخطر، وقد يحدث لـــه مكـــروه، أو أنـــه قـــد يعود إلى أهله دون أن يحقق غرضه مـــن الرحيـــل والاغتـــراب، فتـــزداد حـــسرته، وهذا ما جعل ابن درَّاج يعيش حياة قلقـــة، فوصـــف أســـفاره وأكثـــر الحـــديث عنها، فمن ذلك قوله[2] :الطويل

ولَوْ شَاهَدَتْنِي والـــصَّواخِدُ[3] تَلْتَظِـــي[4]
عَلَـــيَّ ورقـــراقُ[5] الـــسراب يَمـــورُ[6]

أســـلِّطُ حَـــرَّ الهـــاجِرَاتِ إذا سَـــطا[7]
على حُـــرٍّ وَجْهِـــي والأصـــيلُ هَجـــيرُ

وأسْتَنْشِقُ النَّكْبـــاءَ[8] وَهْـــيَ بَـــوارِحٌ[9]
وأسْتَوْطِئُ الرَّمْـــضَاءَ[10] وَهْـــيَ تَفُـــورُ

---

(١) فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، لأبي حجر العسقلاني ، ك: العمرة ، باب: السفر ، ص ٨٩٥ .
(٢) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٥١ .
(٣) الصواخد :من أحرقته الشمس .
(٤) تلتظي :تلتهب .
(٥) رقراق : تلألؤ (السراب) .
(٦) يمور : يتحرك .
(٧) سطا : كثر .
(٨) النكباء : الريح الشديدة .
(٩) بوارح : الحارة .
(١٠) الرمضاء : الرملة الشديدة الحرارة .

وللمَـــوتِ في عـــيشِ الجَبـــانِ تَلَـــوُّنٌ

وللـــذُّعرِ في سَـــمْعِ الجَـــريُ صَـــفِيرُ[1]

لَبانَ لَهـــا أنِّـــي مِـــنَ الـــضَّيْمِ جَـــازِعٌ

وَأَنِّـــي علـــى مَـــضِّ الخُطُـــوبِ صَـــبُورُ

أَمـــيرٌ علـــى غَـــوْلٍ التَّنـــائِفِ[2] مالَـــهُ

إذا رِيـــعَ إلاَّ المـــشرَقي وزيـــرُ

ولوْ بصُرَتْ بي والـــسُّرَى جُـــلَّ عَزْمَتِـــي

وجَرْسِـــي لِجِنَّـــانِ[3] الفَـــلاةِ سَـــميرُ[4]

وأعْتَسِفُ[5] الموْمَأة[6] في غـــسق الـــدُجي

وللأسَـــدِ في غِيـــلِ الغِيَـــاضِ[7] زَئِـــيرُ

وقَدْ حَوَّمَـــتْ[8] زُهْـــرُ النجـــوم كأنَّهـــا

كواعِـــبُ في خُـــضْرِ الحَـــدائِقِ حُـــورُ

---

(١) صفير : الصوت بالفم والشفتين .

(٢) التنائف : القفر من الأرض .

(٣) الجنان : جمع جن .

(٤) سمير : ليلة لا قمر فيها .

(٥) أعتسف : ركب الأمر بلا تدبير ولا روية .

(٦) الموماة : المفازة الواسعة لا ماء بها ولا أنيس .

(٧) الغياض : الشجر الملتف .

(٨) حومت : دارت .

ودارتْ نجـــومُ القُطْـــبِ حـــتى كأَنَّهـــا

كُـــؤُوسُ مَهًـــا[١] والى بِهِـــنَّ مُـــديرُ

وقـــد خَيَّلَـــتْ طُـــرْقُ المَجَـــرَّةِ أَنَّهَـــا

علـــى مَفْـــرَقِ الليـــل البـــهيم قَـــتِيرُ[٢]

وثاقـــبَ عَزْمـــي، والظَّـــلامُ مُـــرَوِّعٌ

وقـــد غـــضَّ أجفـــانَ النجـــوم فتُـــورُ

هذه اللوحة التي رسمها ابن درَّاج، وصور فيها كـل معـاني القلـق، وأبـرز فيها الأهوال والصعاب التي واجهها في رحيله تنبئ عـن شـدة إحـساس الـشاعر، وشدة انفعاله النفسي.

« فالشاعر هنا يتحدث عن مشاهد الطريق وأهوالـه الـتي يعانيهـا المـسافر بالنهار ثم بالليل، فيذكر اشتداد الحر الـذي يتلظـى، والـسراب الرقـراق الـذي يمور، والقيظ الذي يتسلط لهيبه علـى الوجـه في النـهار الـذي أصـيله هجـير، ويذكر الرياح النكباء التي تُستنشَق، والرمضاء الفائرة الـتي توطـأ، وهـو لا يغفـل الوصف النفسي، فيذكر مخاوف المسافر وإحـساسه بـالموت إحـساسًا يـصوره في عينه ألوانًا مختلفة وأشكالاً متعددة، كما يجسم الرعـب واسـتيلاءه علـى المـسافر في تلك الظروف بحيث يخدع حواسه فيسمع له صـفيرًا حيـث الظـلام الكثيـف يتخلله زئير الأسد .

وحيث تتراقص زهر الكواكب في الـسماء كحـسان كواعـب في حديقـة خضراء، وحيث تدور نجوم القطب مثل كؤوس بلور يـدور بهـا سـاقٍ، وحيـث

---

(١) المها : البلور .

(٢) قتير : الشيب.

يظهر طريق المجرة كأنه شيب أبيض على مفرق الليل الأسود، وحيث يروع الظلام حين تفتر جفون النجوم، فتغمض منها العيون»[١].

و لم يقتصر ابن درَّاج على وصف رحلاته البرية فقط، بل تحدث أيضًا عن رحلاته البحرية. يقول[٢]:

إِلَيْكَ شَحَنَّا الفلكَ تَهْوِي كَأَنَّهَا
وقد ذُعِرَتْ[٣] عن مَغرِبِ[٤] الشَّمْسِ غِرْبَانُ[٥]
على لُجَجٍ[٦] خُضرٍ[٧] إذا هَبَّتِ الصَّبا
ترامى بنا فيها ثَبيرٌ وثهْلانُ[٨]
مَوائِلَ تَرْعى في ذُراها مَوَائِلاً
كما عُبِدَتْ في الجَاهِلِيَّةِ أوثَانُ

فالفلك تهوى في زمن غروب الشمس، وهي مثل الغراب الخائف من الليل. ثم يصف سرعة تلك الفلك، فسرعتها كسرعة الرياح التي تهب على لجج الماء، وتقذف شيئًا عظيمًا يشبه جبلي ثبير وثهلان، فتظهر السفن موائل، فيبصر فيها الركاب وقد غلب عليهم الخوف والهلع، فثبتوا في أماكنهم كالاوثان الثابتة الصامدة التي لا حراك لها .

---

(١) الأدب الأندلسي من الفتح إلى السقوط، د. أحمد هيكل، ص ٣١٥.
(٢) ديوان ابن دراج، تحقيق محمود مكي، ص ٧٤.
(٣) الذعر : الخوف .
(٤) مغرب : ساعة الغروب .
(٥) غربان : جمع غراب .
(٦) لجج : الماء الكثير الذي لا يُرى طرفاه .
(٧) خُضر : اسم البحر ، وسمي بذلك لخضرة مائه .
(٨) ثبير وثهلان : جبلان .

وهناك أيضًا سبب آخر يدفع ابن درَّاج نحـو الاغتـراب النفـسي والـذي يتجسد هنا في حدة القلق، ،هـو أن ابـن درَّاج ذو أسـرة كـبيرة ذات مطالـب واحتياجات ضخمة يعجز ابن درَّاج عنها، فاغترب مـن مكـان إلى آخـر حـاملاً معه همه وقلقه، فعبر عن ألم الغربة والإحساس العميق بالضياع.

أما السبب الآخر في - رأينـا – الـذي دفـع ابـن درَّاج نحـو الاغتـراب النفسي فهو تفوقه الشعري، وكثرة حُـسَّاده والحاقـدين عليـه. فقـد قـال عنـه الثعالبي:[١]

«كان بصقع الأنـدلس كـالمتنبي بـصقع الـشام، وهـو أحـد الـشعراء الفحول، وكان يجيد ما ينظم».

وحين وطئت قدماه بلاط المنصور تألـب عليـه النقـاد واتهمـوه بأنـه لا يستطيع المعارضة، ولا يجيد نظم الشعر، فطلب منـه المنـصور أن يعـارض قـصيدة لأبي نُوَاسٍ، فعارضها وأحسن. كما اتهموه بالانتحال والـسرقة، فعقـد لـه مجلـسًا يمتحنه فيه « واقترح عليه، فبرز وسـبق، وقـد أشـار ابـن درَّاج في قـصيدته إلى الامتحان الذي عقد له، وافتخر بظفره فيه وأنه لم يقصر في مجال الارتجال»[٢].

ويقول ابن درَّاج عن تلك التهمة الباطلة التي ألصقها به حساده: [٣]

من بعدِ مـا أضـرم الواشُـونَ جَاحِمَـةً
كانت ضـلوعي وأحـشائي لهـا حَطَبَـا
ودسَّـسُوا لي في مَـثنى حبـائِلِهِمْ
شَـنعاءَ بِـتُّ بهـا حَـرَّانَ مُكْتَئِبَـا

---

(١) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، لأبي منصور الثعالبي ، ص ١١٩ .
(٢) ديوان ابن دراج، ص ٤٦ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٣٠٩ .

حتى هُزِرْتُ، فَلاَ زَنْدُ[1] القــريض كَبَــا[2]
فيمــا لــديَّ، ولا ســيفُ البَدِيــهِ نَبَــا
وأشــرقتْ شــاهدات الحــق تَنْــشُرُ لي
نورًا غَــدَتْ فيــه أقــوالُ الوشــاة هَبَــا
هيهاتَ أعجــزَ أهــلَ الأرضِ أن يجــدُوا
للــدُّرِّ عــبرَ عُبــابِ البحــر مُنتَــسبَا
وحاش للوَرْدِ أن يُعزى إلى رَمَضٍ[3]
وأن يكــون لــه غــيرُ الربيــع أبَــا

ويحاول ابن درَّاج أن يقلل من حدة قلقه واكتئابــه الــذي يــسيطر عليــه، ويسلي نفسه ويهدئ من روعها قائلاً لها : إنــه لــيس أول شــاعر يجتمــع عليــه الحساد والوشاة فيتآمرون عليه، وإنما قد ســبقه لــذلك شــعراء كــثيرون، منــهم امرؤ القيس، والأعشى.

يقول :[4]

ولــستُ أوَّلَ مــن أعْيَــتْ بدائعُــهُ
فاستدْعَتِ القَوْلَ ممَّــنْ ظَــنَّ أو حَــسِبَا
إنَّ (امْــرَأَ القَــيْس) في بعــضٍ لَمُــتَّهَمٌ
وفي يَديــهِ لِــواءُ الــشِّعْرِ (إن رَكِبَــا)
والشِّعْرُ قد أَسَــرَ (الأَعْــشى) وقَيَّــدَه
خيرًا، وقد قيلَ: (والأعــشى إذا شَــرِبَا)

---

(١) زند : العود الذي تقتدح به النار .

(٢) كبا : لم يخرج ناره .

(٣) رمض : شدة وقع الشمس على الرمل .

(٤) ديوان ابن درَّاج ، ص ٣٠٩ .

وكيف أظما – وبحري زاخرٌ فِطَنًا
إلى خيال من الضَّحْضَاحِ[1] قد نَصَبَا
فإن نأى الشكُّ عينيَّ أوْ فهأنذا
مُهيَّأ لِجَلْي الخُبْرِ مُرْتَقِبَا
عَبْدٌ لِنُعْماك في كَفَّيْهِ نَجْمُ هُدًى
سارٍ بمدحِكَ يَجْلُو الشَّكَّ والرِّيَبَا
إن شِئْتَ أمْلى بَدِيعَ الشِّعْرِ أو كَتَبَا
أو شِئْتَ خاطبَ بالمنثور أوْ خَطَبَا

هذه الأوضاع وهذه الأسباب دفعت شاعرنا إلى الاغتراب النفسي والاغتراب عن وجوده في عالم لم يعد عالمه ؛ إذ أصبح عالمه دنيا الذكريات والأحلام، أما الواقع الحي الذي يعيشه فكان واقعًا قلقًا مكتئبًا.

ولذلك تأهب ابن درَّاج للموقف بكل شجاعة، فوقف باكيًا واصفًا رحيله ووقوفه ذلك لم يكن إلا فترة استرخاء ؛ لأخذ نفسٍ عميقٍ ؛ للسيطرة على ذلك الموقف، فيكون أكثر وعيًا ويقظة وتركيزًا للواقع الصعب القلق الذي يتعايش معه من خلال تغير المواقف والعودة إلى ذكريات الماضي، فقد كان واعيًا بالأفكار التي تجول في مخيلته.

يقول الدكتور (جاري ماكاي) والدكتور (دون دينكماير) للتخلص من الاكتئاب : « تخيل أو تذكر وقتًا شعرت فيه بالرضا عن نفسك، وبنهج مثل هذه الطريقة التي تشعر فيها بالاسترخاء والإيجابية)[2] .

فالقلق والاكتئاب الذي يعاني منه الشاعر مجموعة من الأفكار والمشاعر

---

(١) الضحضاح : الماء القليل .

(٢) الشعور اختيار ينبع من الذات ، للدكتور جاري ماكاي ، والدكتور دون دينكماير ، ص ١٢٤ .

التي تدفعه إلى الانهزامية، إذ يصبح الشاعر محاصرًا بتلك المشاعر .

ولكن ابن درَّاج لا يريد أن يشعر بالانهزامية، ولذلك يرفض أن يفكر في حاضره المرير، فلجأ إلى تغيير طريقة تفكيره باللجوء إلى الماضي وذكرياته، يقول الدكتور (جاري) والدكتور (دون) : « إذا جابهتك مشكلة إزاء استحضار إحدى التجارب الفعلية التي تحوي الشعور الذي تريد أن تتصرف بناءً عليه استحضر موقفًا من وحي خيالك)[١] .

(استحضر عددًا غير قليل من التجارب التي تبعث على الهدوء، واستمر في استحضار هذه التجارب)[٢] .

فالوقوف على الأطلال ووصف الأسفار عبارة عن انفعالات نفسية، وتلك الانفعالات تشمل الخوف والقلق والاكتئاب والعزلة وغيرها من مؤثرات الاغتراب النفسي . يقول الدكتور محمود هياجنة : «إن في استرجاع الذكريات ما يعيد للنفس توازنها بعد معاناة للقلق والغربة والبعد عن الأهل والوطن»[٣].

وسنحاول إبراز الاغتراب النفسي، وتتبع حدة القلق في قصائد ابن درَّاج التي تنبض بالاغتراب والقلق الحاد.

يقول عنه الدكتور أحمد هيكل: «وابن درَّاج كثير الحديث عن قلقه وضياعه وسوء حاله، وغني عن البيان شرح أسباب ذلك عند هذا الشاعر؛ فظروف الرجل الخاصة وظروف الأندلس العامة كانت من دوافع ذلك، وخاصة إذا كانت تلك الظروف تحيط بشاعر شديد الحساسية كابن درَّاج

---

(١)الشعور اختيار ينبع من الذات ، للدكتور جاري ماكاي ، والدكتور دون دينكماير ، ص ٢٣١ .

(٢)المرجع السابق ، ص ٢٣١ .

(٣) الاغتراب في القصيدة الجاهلية ، دراسة نصية لمحمود هياجنة ، ص ١٠٠ .

الذي لم ينس أنه قد أُذل من بعد عِز، واحتاج بعد غــنى، واضــطر وهــو الــشاعر الكبير وسليل السادة من حكام قسطلة إلى أن يقصد النــاس ليبيــع شــعره بقوتــه وقوت أولاده»[1].

وقال عنه في موضع آخر : إنه برز في الوصف النفــسي الــذي تجــاوز بــه الجانب الحسي الخارجي وتغلغله إلى الجانب النفسي الداخلي، ومــن نمــاذج ذلــك الحديث عن القلق والضياع قوله: [2][3]

قلِقًـــا تنـــاهى في الـــبلادِ فِـــرارُهُ
وهمــى ضــميرَ الــنفس أن يَتَمَثَّلــك

يقول ابن درَّاج: [4]

لــك الله بالنَّــصر العزيــز كفيــلُ
أجَــدَّ مُقــامٌ أم أجّــدَّ رحيــلُ

في بداية هذه القصيدة نجد القلــق الــذي يــسيطر علــى نفــسية الــشاعر وخاصة في الشطر الثاني حيث يقول: «أجد مُقامٌ أم أجدَّ رحيلُ».

هذا السؤال الذي يطرحه شاعرنا ســؤال يجــسد ضــخامة معاناتــه، فهــو تائه حيران، جاهل تمامًا مصيرَه، فهو قلق إزاء هذا الموقف.

وكما أن استخدام الشاعر لدلالة التضاد في قولــه (مقــام – رحيــل) تــبرز حالة القلق والحيرة، ويصور ابــن درَّاج الاغتــراب النفــسي في الحيــوان والطــير، ويبرز سيطرة القلق عليها. يقول: [5]

---

(١) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، د. أحمد هيكل ، ص ٣١٨ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٣٢٨ .
(٣) ديوان ابن درَّاج ، ص ٣ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٤ .
(٥) المصدر السابق ، ص ٤ .

سحائبُ تزجيها الرياح، فإنْ وَفَتْ[١]
أنافتْ بأجْيادِ[٢] النعامِ[٣] فيُولُ[٤]
ظباءُ سِمَامٍ[٥] ما لهُنَّ مَفَاحِصٌ[٦]
وَزُرْق[٧] حمامٍ ما لَهُنَّ هديلُ
سواكن في أوطانهن كأن سما[٨]
بها الموجُ حيث الرَّاسيات[٩] تَزُولُ

مجموعة من السحاب المحملة بالرياح تسوق مجموعة من النعام وصفها فقال: إن لها رقابًا طويلة طال بها بقاؤها في موطنها، ولكن لضعفها استطاعت تلك الرياح سوقها وتشتيت شملها، وهناك ظباء اتصفت بالسرعة وليس لها موضع معين تستقر فيه، وهناك حمام عطش حتى بلغت حدة العطش فيه عدم قدرته على الهديل والتغريد.

تلك الجماعات كانت تسكن في أوطانها، ولكن هل الحال بقي على ما هو عليه؟

والجواب: «كأنَّ سما بها الموج حيث الراسيات تزول» فالجبال الراسخة الثابتة قد أزيلت من مكانها، فما ظنك بهذه الحيوانات التي هجرت موطنها،

(١) وفت : طالت وتمت .
(٢) أجياد : جمع جيد .
(٣) النعام : جنس أو مفرد النعامة .
(٤) فيول : ضعيفة .
(٥) سمام : سريعة .
(٦) مفاحص : موضع .
(٧) زرق : عطش .
(٨) سما : علا .
(٩) الراسيات : الجبال الثوابت الرواسخ .

وكأنَّ الرياح هي التي تقودها إلى هذا الرحيل والاغتراب.

وهذه الظاهرة موجودة في كل مكان وزمان، ولكن كل ظاهرة مرئية تحت بصر ابن درَّاج كانت تثير وتهيج في نفسه الذكريات.

فالشاعر يعاني اغترابًا نفسيًّا، ولذا لجأ إلى تصوير هذا الاغتراب والقلق الذي يشعر به في الحيوان والطير. فابن درَّاج قد قادته الفتنة وجعلته يترك وطنه، وهنا الرياح تقود الظباء والحمام. ولم يقتصر على تأثره بالحمام والظباء فقط، بل شمل تأثره بالشمس أيضًا. يقول: (١)

لعَلَّكِ يا شمسُ عند الأصيل

شَجيتِ لشجو الغريب الذليل

فها هو ذا يجعل الشمس تشاركه مشاركة وجدانية، فهي تحزن لحزنه،فتحمر عينها عند الأصيل بكاءً! وكيف لا ؟ وهي ستغرب وقت الأصيل وتشجو مثله، فهو غريب ذليل قلق قد اكتوى بنار الاغتراب . فلماذا خصَّ الشمس بالذكر هنا عن غيرها من الكواكب الأخرى ؟ ولماذا وقت الأصيل بالذات ؟ ربما أراد أن يجسد شدة وعظم الاغتراب في نفسه. فالشمس بعظمتها وهيمنتها على الكواكب الأخرى كون أنها تمدهم بالطاقة تزول وتغرب، فكأنَّ وقت الأصيل كان سببًا في غروبها، كما كانت الفتنة سببًا في تشرده وتغربه بالرغم من عظمة مكانته ومكانة أجداده.

ولم يكتف الشاعر بوصف نفسه بالغريب، بل اتبعه بصفة «الذليل» تأكيدًا وتصويرًا لشدة المعاناة النفسية، وأنه لم يجن من الاغتراب غير الذلة والحسرة. وتكراره لكلمة «شجيت - لشجو» جاء تجسيدًا لعمق القلق

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٦٤

والاكتئاب الذي يعاني منه الشاعر. وفي هـــذه الأبيـــات يجـــسد ابـــن درَّاج حقًّـــا شدة اغترابه النفسي إذ يقول: (١)

وفي طَيِّ أسْـــمال الغريـــبِ غرائِـــبٌ(٢)

سَكَنَّ شِغَافَ القلبِ شـــيبٌ وولـــدانُ(٣)

يُردّدن في الأحـــشاء حَـــرَّ مَـــصائِبٍ(٤)

تزيـــدُ ظلامًـــا ليْلـــها وهْـــيَ نِـــيرانُ

إذا غِيضَ ماءُ البَحْرِ مِنْهَا مَدَدْنَهُ

بِـــدَمْعِ عُيـــونٍ يَمْتَـــرِيهنَّ أَشْـــجَانُ

وإنْ سَكَنَتْ عَنَّـــا الريـــاحُ جـــرى بنـــا

زفـــيرٌ إلـــى ذِكْـــر الأحِبَّـــة حنَّـــانُ

يقُلنَ ومَوْجُ البحْرُ والهمٌّ والدُّجى

تمـــوجُ بنـــا فيهـــا عُيـــون وآذانُ

يتحدث الشاعر عن ملابسه الخَلِقَة التي ســـكن بداخلـــها وســـكنت معهـــا أخلاق وعادات عجيبة، فغلب عليه الهم والحزن . فما هـــي تلـــك العـــادة ؟ إنها عادة الرحيل والاغتراب، فهذه الغرائب كما وصفها ابـــن درَّاج تـــردد في أحـــشاه اشتداد مصائبه التي تشتد ويقوى لهيبها حتى تصبح أقـــوى في الليلـــة الـــنيرة، ولهـــذا

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٧٤

(٢) أسمال : الأسمال الملابس الخَلِقَة .

(٣) شيب : بياض الشعر دليلاً على الحزن .

(٤) حر : بمعنى اشتداد .

يصف ابن درَّاج قوة هذه الأهوال في إحـــدى رحلاتـــه البحريـــة ومـــدى التعـــب والقلق الذي شعر به. فغيض ماء البحر وتحرك الأمـــواج بقـــوة وانهمـــار الـــدموع كلها دلالات نفسية توضح الاضطراب النفـــسي. يقـــول الـــدكتور أشـــرف نجـــا: «ولعله يقصد بذلك رحلة الحياة الشاقة التي خاض غمارهـــا وبخاصـــة أثنـــاء الفتنـــة .... في ظل مجتمع متقلب يفتلك فيه القوي بالضعيف»(١).

ولكن بالرغم من هذه الأهوال إلا أن الحـــنين وذكـــر الأحبـــة ماثـــل أمـــام بصر شاعرنا، فيطلق زفرة قوية تثير أشجانه، وأي أشجان تلك؟!

وفي قوله: «جرى بنـــا» ومـــا تنـــضح بـــه هـــذه الكلمـــة مـــن انفعـــال واضطراب، وحركة قوية وسريعة، وهذه الألفاظ الدالـــة «غريـــب – مـــصائب – نيران – دمع – أشجان - زفير» لا شك أن المتأمـــل فيهـــا سيـــشعر بـــأن دقـــات ونبضات قوية حية لمشاعر إنسانية تتدفق جياشة لتـــصور معـــالم الاغتـــراب والتـــألم والأسى، وشدة الشعور بالقلق الذي انتابه هو وأســـرته، فالـــشاعر لم يـــصور قلقـــه فقط، بل تجاوز به الإحساسُ فوصـــف قلـــق أســـرته.ويـــصف أيـــضًا ابـــن درَّاج اغترابه النفسي في مجموعة من الظعائن حيث يقول:(٢) المتقارب

خطيباتِ خطبِ النـــوى والمهـــور(٣)

مَهـــارى عليهـــا رحـــالُ الرَّحيـــل(٤)

فمِـــــنْ حُـــــرَّةٍ جُلِيـــــتْ بـــــالجلاءِ

وعَـــذْراءَ نُـــصَّتْ بـــنصِّ الـــذْميل(٥)

---

(١) قصيدة المديح في الأندلس قضاياها الموضوعية والفنية عصر الطوائف، د. أشرف نجا .

(٢) ديوان ابن درَّاج ، ص ٦٦ .

(٣) خطيبات : النساء اللاتي خطبن أي تزوجن. والخطب : الأمر العظيم .

(٤) مهارى : نوع من الإبل .

(٥) الذميل : السير اللين .

ولا حلـــي إلا جمـــان الـــدموع

يـــسيل علـــى كـــل خـــد أســـيل

فَبُـــدلن مـــن بعـــد خفـــض النعـــيم

بـــشق الحـــزون ووعـــث الـــسهول

وَمَنْ قَـــصر الليـــل تحـــت الحِجـــال

بهول الـــسرى تحـــت ليـــل طويـــل

وَمِـــنْ علـــل المـــاء تحـــت الظـــلال

صـــلاء القلـــوب بحـــر الغليـــل

ومِنْ طِيـــب نفـــح بِنُـــورِ الريـــاضِ

تَلظـــي لفـــح بنـــار المقيـــلِ

ومـــن أُنـــسِها بـــين ظِئـــر وتـــرب

سَـــرى ليلـــها بـــين ذيـــب وغـــول

ومِـــنْ كُـــل مَـــرأى محيـــا جَميـــل

تَلقـــى الخطـــوب بـــصبر جميـــل

لعـــل عواقبـــه أن تـــتم

فيهدى الغريـــب سَـــواء الـــسبيل[1]

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٦٦ .

هنا يتحدث عن عروس مخطوبة للخطوب و الشدايد و مهرها نوق مرتحله، وجلاؤها الجلاء والتروح ونصتها منصة على راحلة تسير سير لين .

فهذه الصورة القلقة التي رسمها ابن درَّاج تبرز جانبًا من عذابات الشاعر وانفعاله، واستخدامه للألفاظ التي تتسم بالتضاد دليل على القلق والتوتر، مثل «خفض – وعث – قصر – طويل – نور - نار – غول- لفح» والدول التي استخدمها مثل : «الجلاء – الدموع – الحزون – الغليل – ذيب – غول – الغريب » تقتفي في نظمها آثار المعاني كما قال عبد القاهر الجرجاني(١) في الدلائل، فهي توضح اضطراب الشاعر ومعاناته القلق والذي هو سمة بارزة للاغتراب النفسي.

وتزداد حدة التوتر والقلق في هذه الأبيات . يقول: (٢)

أنضيت(٣) خيلي في الهوى وركابي
وعمرت كأس صبى بكأس نصاب(٤)
وعنيت مغرى بالغواني والصبا
واللهو واللذات قد تغرى بي
في غمرة لا تنقضي نشواتها
مِن صرفِ كأسٍ أو جُفونِ كَعابِ
أيامَ لا نرْتاعُ من صَرفِ النَّوى(٥)
أمْنًا، ولا نُصْغِي لِنَعْبِ غُرَابِ

---

(١) دلائل الإعجاز ، لعبد القاهر الجرجاني ، تحقيق محمود شاكر ، ص ٤٩ .

(٢) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٣ - ١٤ .

(٣) أنضيت : أتعبت وأعييت .

(٤) نصاب : تعب .

(٥) الروع : الفزع .

أَيامَ وجْـــهُ الـــدهر نحـــوي مُـــشْرقٌ

ومَحاسِـــــنُ الــــدُّنيا بغَيْــــر نِقَـــابِ[1]

ولقد أضاءَ الشَّيْبُ لي ســـنَنَ الهُـــدَى

فَثَنَى سِـــنِي دَدَني[2] علـــى الأعقـــابِ[3]

ورأيتُ أَرْدِيـــةَ النُّهَـــى منـــشورةً[4]

تـــــسعى بِجِـــــدَّتِها إلى أَتْـــــرابي[5]

ورأيـــت دارَ اللَّهـــو أَقْـــوَى ربْعُهـــا

وخَلَـــتْ معاهِـــدُها مـــنَ الأَحبـــابِ

وخَلَتْ بِيَ النَّكَبَاتُ ترمـــي نـــاظري

وخـــــواطري بنوافِـــــذِ النُّـــــشَّابِ

ولَكَمْ أصابتني الخطـــوب بِـــشَكَّةٍ[6]

تُعْيِي التَّجَلُّـــدَ، واحْتَـــسَبْتُ مُـــصَابي[7]

(١) نقاب : ما يبدو منه العينان .

(٢) ددني : حزني .

(٣) الأعقاب :تراجعت على اعقابها سنين اللهو .

(٤) الرد : اللهو و العبث .

(٥) أتراب : جمع تِرْبٍ وهو اللِّدَةُ أي نظير الصَّبَا .

(٦) شكة : سلاح .

(٧) ديوان ابن درَّاج ، ص ٨ : ٩ .

يتذكر الشاعر تلك الأيام التي قضاها في السير وراء أهوائه وملذاتها. فقد اهتم بالغواني، ولم يكن يفزع من البعد والفِراق، ولا يصغي لنعب غراب البَيْن ؛ فقد كان الدهر مشرقًا له، وكانت تلك المحاسن تظهر له كاملة بغير نقاب، ولكن ما يلبث أن يعود الشاعر إلى رشده، ويستفيق من ذكرياته وأحلامه، ورأى تلك المعاهد قد خلت من الأحباب، فتعلو نبرة القلق بتكراره لكلمة (رأيت). إذًا لقد نعب غراب البين، واختلت به النكبات والفتن، وكأن تلك النكبات بمثابة الفارس الجيد الذي يصيب برمحه الصميم .

فتلك الخطوب قد أتعبته وأصابته بسلاح التعب والخوف، ولكنه أحس بمصابه، فهو يريد معالجة اغترابه النفسي، فيدعو نفسه إلى التجلد والصبر .

ولكن استخدامه للمطابقة في قوله : «أنضيت - عمرت» والمجانسة بين «أصاب – مصاب » وقوله: «النوى – نعب – خلت – النكبات – الخطوب - مصاب» هذه الدوال التي تجهر بها هذه الأبيات تشير وتكشف عن صورة الاغتراب النفسي والقلق الذي يختلج في نفس ابن درَّاج.ويقول هنا في ذكر الرسوم وديار الأحبة(١):

أَضاءَ لها فجرُ النُّهَى(٢) فَنَهاها(٣)

عن الدّنفِ المُضْنى بحَرِّ هواها(٤)

وضَلَّلَها صُبْحٌ جلا ليلة الدُّجى(٥)

وقد كان يَهْدِيها إليَّ دُجاها

---

(١) ديوان ابن درَّاج، ص ٨ .

(٢) النهى : العقل .

(٣) نهاها : منعها .

(٤) الدنف : المرض الملازم .

(٥) الدجى : سواد الليل .

ويشفع لي منها إلى الوصـــل مَفْــرِقٌ

يُهِـــلُّ إليـــه حَلْيُهـــا وحُلاهـــا

ويتحدث الشاعر هنا عن الاغتراب والموت . يقول: (١)

ودَنَــا بِـــهِ أجَـــلُ الرَّحيـــلِ كَأَنَّـــهُ

أجَـــلُ الممـــاتِ دَنَـــا بـــه المقـــدارُ

عـــامٌ كعُمْـــرِ الوَصْـــلِ ليلـــة زائـــر

وأسًـــى تَقَاصـــرُ دُونَـــهُ الأَعمـــارُ

طالَـــتْ لياليـــهِ الزَّمـــانَ بِهمَّـــةٍ

وكـــأنَّهُنَّ مـــن الـــسُّرُورِ قِـــصَارُ

بِمُـــشَرَّدٍ قَلِـــقِ الثَّـــواءِ بِمَنْـــزِلٍ

لا ينثنـــي فيـــه لَـــهُ الـــزُّوَّارُ

مشـــوايَ فيـــه تَقَلْقُـــلٌ وتَأَهُّـــبٌ

وقِـــراي فيـــهِ ذِلَّـــةٌ وصَـــغَارُ

وطِلابُ مَـــأْوًى قبـــلَ حِـــينِ أوانـــهِ

فالـــدَّهرُ أجمَعُـــهُ لِـــيَ اســـتِنْفارُ

للهِ مـــن عـــامٍ جَـــرَى عـــني بِـــهِ

جَـــرْيُ الأهِلَّـــةِ فيـــه والأَقْمـــارُ

(١) ديوان ابن درَّاج، ص ١٢٩ .

فالشاعر حينما يتذكر الرحيل فكأنه يتذكر المـوت، ولـذلك فهـو كـثير القلق، كثير التشـرد؛ لأن رحيله دائم كرحيـل الأهلـة والأقمـار. فالـشاعر لا يشعر بالأمان والاستقرار، وهذا الشعور جعلـه يعـيش حيـاة قلقـة، ولـذلك جعل الاغتراب بمثابة الموت . يقول عزيز جاسـم : «ومثلمـا رأى الـشعراء بقـاء الله أزليته، فقـد رأوا أيـضًا بقـاء الـبلاد بجبالهـا ووديانهـا وأنهارهـا بأرضـها وبسمائها، فأدخلوا الحس الوطني في شعرهم من خـلال حكمـة المـوت ودلالتـه في الفناء والبقاء»(١).

كقول المتنبي: (٢)

لَوْلا مُفارَقَةُ الأحبـابِ مـا وَجَـدَتْ
لهـا المَنَايَـا إلى أرْواحِنَـا سُـبُلا

إذًا لولا الفراق لما كان للمنية سـبيل إلى الـروح؛ فـالفراق والبعـد عـن الأحباب سبب لدنو الأجل، ولهذا كـان الفـراق أكـبر شـيء يـؤرق هـاجس الشاعر، فيفجر القلق المكتظ في نفسه، فترى ابن درَّاج يكـرر «قلـق – تقلقـل – دنا – عمر - أعمار» يجسد شدة القلق، كما في تكـراره لكلمـة «الليـل» ومـا تجسده هذه اللفظة من صورة سوداوية قلقة.

ويقف القسطلي على أشواك الاغتراب النفسي(٣) :

وفي كَبِدِي حَرٌّ مِـنَ الـشَّوْقِ لاعِـجٌ

وفي عَضُدِي غُصْنٌ من البـان نـاعِمُ

---

(١) الاغتراب في حياة الشريف الرضي ، لعبد العزيز السيد جاسم ، ص ٤٢.

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي ، شرح الواحدي ، ج ١ ، ص ٧٧ .

(٣) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٣٢.

يُقِـــرُّ هـــواهُ أنَّـــهُ لِـــيَ قاتِـــلٌ

وقَلبِي لَهُ مِنْ جَفْــوَةِ الــشَّوْقِ راحِــمُ

فها هو ذا يحترق كبده، ويتحمل لواعج الشوق والحـــنين، وهـــو مـــوقن أن ما به قاتلاً له لا محالة.

فما الذي أوقد الحنين والذكريات؟

إنه القلق من الحاضر، والرغبة في استمرار الماضي بكـــل مـــا فيـــه، ولـــذلك نراه في الأبيات التالية يصف رحيله، ولكن هذا الوصـــف لم يكـــن تقليـــديًا، بـــل نشعر فيه بعمق التجربة وقوة الحزن والأسى.

يقول :[١]

من كُلِّ مَفْجُوعٍ[٢] بتَرْحَــةِ[٣] راحِــلٍ

لم يُــسْلِهِ طَمَــعٌ بفرْحــةِ آيــبِ[٤]

كَذَبَتْهُ بارقة المــنى[٥] عــن صــادقٍ

مــن ظنــهِ، وصــدقه عــن كــاذبِ

ظَعَنٌ سَــرَيْنَ الليــلَ ضَــرْبَةَ لازِمٍ[٦]

وسَرَى إليهــا الهــمُّ ضَــرْبَةَ لازِبِ[٧]

---

(١) ديوان ابن دراج ، ص ١٣٨، ١٣٩ .

(٢) مفجوع : موجوع .

(٣) ترحة : الهلاك وهو ضد الفرح .

(٤) آيب : عائد .

(٥) المنى : الأماني .

(٦) لازم : إجبار .

(٧) لازب : ملاصق .

جَمُدَتْ علــيهن القلــوبُ فأسْــبَلَتْ

فــوق المحــاجِرِ كُــلَّ قلــبٍ ذائــبِ

وتخازَرَتْ عنــها العُيُــونُ فــأبْرَزَتْ

عــن أَعْــيُنٍ بِــدِمائِهِنَّ سَــوَاكبِ

وتقطَّعَــــتْ أســــبابُهُنَّ لِطِيَّـــةٍ

وَصَلتْ بهــنَّ سَبَاسِــبًا بــسباسِبِ[1]

يَطْلُبْنَ شَــأْوَ غرائــبٍ لِــيَ كُلَّمَــا

نَأَتِ الــبلادُ حَلَلْــنَ غيْــرَ غَرَائِــبِ

يخاطب كل مفجوع برحيل عزيز عليــه ولم يفــرح بقدومــه، وكــل مــن كذبته الأماني والأحــلام، فالخطــاب خــاص بطائفــة متفــردة، وهــي الطائفــة المفجوعة برحيل عزيز عليها، ثم عدل عن هذا الخطــاب إلى ســرد قــصة رحيــل واغتراب تلك الطائفة، فذكر أنهم قد ساروا في الليل وما فيه مــن ظلمــة وســواد، فسرى معهم الهم والحزن، وتجمــدت قلــوبهم مــن الخــوف، وســكبوا الــدموع بغزارة، وساروا في مطايا الأرض فتقطعت بهم الأسباب.

هذا الانتقال السريع هو «أسلوب الالتفات وهــو أحــد المعــالم البــارزة في لغة المغتربين يتفننون به لذكر موطنهم القديم ومــوقعهم الجديــد الحاضــر، وهــو إلحاح نفسي يحمل قسوة الحاضر»[2] . هذه المعاناة النفسية الــتي وصــفها الــشاعر من خوف وقلق تصور اغترابه النفــسي، وكــذلك اســتخدامه التــضاد في قولــه:

(١) سباسب : المفازة و الأرض البعيدة .

(٢) الاغتراب في القصيدة الجاهلية ، دراسة نصية للدكتور محمود هياجنة ، ص ٩٤ .

«راحل – آيب- ترحة – فرحة – كذبتــه – صـــدقته – صــادق – كـــاذب – تقطعت - وصلت». دليل على القلق والاكتئاب .

وأبيات أخرى تنبض بالقلق والفزع من الرحيل . يقول : (١)

فمـــا راع المـــشوق إلى غريـــبٍ
ولا أصـــغى المحـــبُّ إلى مـــلام

فيا عَجَبَ الخطــوبِ يَــبُحْنَ ســتري
وقـــد أيْقَـــنَّ أنَّ بـــه اعتـــصامي

وحَتَّـــامَ النـــوى تهـــوي برحلـــي
وقـــد عَقَـــدَتْ بذمَّتِـــهِ ذِمـــامي

فمـــا فَكَّـــتْ حُـــدَاءً عـــن ركـــابي
ولا كفـــتْ يمينًـــا مـــن زمـــامي

فلـــيس لنـــا وَطـــنٌ مَـــرَدٌّ
ولا في دار قـــومٍ مـــن مُقـــامِ

ولا حلَّـــتْ بنـــا دارٌ فـــزادَتْ
علـــى ذاتِ الحـــوافزِ والـــسَّنامِ

مخـــاضٌ مـــا لمولِـــدِهِ رَضـــاعٌ
وتَرْحَـــالٌ أَمَـــرٌّ مـــن الفِطـــامِ

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٩٣، ١٩٤ .

وعـــامُ مُقامنـــا عـــامٌ كيـــومٍ

ويـــوم رحيلنـــا يـــومٌ كعـــامِ

كيوم الهـمِّ لـيس بـذي انتفـاضٍ

ويـوم اللـهو لـيس بـذي تَمـامِ

كَأَنَّـــا في المنـــازل طلـــعُ نخـــلٍ

يـــوافي أهْلَـــهُ أَمَـــدُ الـــصِّرَامِ

وما يُغْـني خـراجٌ مـن خـروج[1]

ولـيس يُجـيرُ غُـرْمٌ مـن غَـرَامِ

نُــرَوَّعُ بـالنوى، والـذُّعْرُ بـاقٍ

ونُفْجَــأُ بالأســى، والجُــرحُ دامٍ

ومـا سَـكَنَتْ جُنـوابٌ في مِهـادِ

ولا مُلِئَــتْ عيــونٌ مــن مَنــامِ

كما حُـدِّثتَ عـن لَـسْعِ الأَفـاعي

يُعـــاودُ سُـــمُّها عامًـــا بعـــامِ

فهـل حَـوْلٌ يحـولُ بـلا رحيـلٍ

ولـــو شـــيئًا نـــراه في المنـــامِ

(١) خراج : ما يستخرج من الأرض .

وأفْجِـــعْ بـــالنَّوى في دارِ سَـــفْرٍ

فكيـــفَ نـــوًى علـــى دارِ المُقـــامِ

يقول بأن الشوق لا يميز بين غريب وغيره، وأن المحـب لا يـصغي إلى مـن يلومه ويعاتبه، ويتعجب من تلك الخطـوب والمحـن الـتي كـشفت سـتره، فهـو مغترب عن وطنه ليس له وطن يستقر فيه، وليس له بين القوم دارٌ يستقر فيها.

فهو مثل المولود الذي فطم من الرضاع قبل أوانـه ؛ لأنـه كـثير الترحـال، فالعام عنده كيوم، واليوم عنده كعام، فاليوم الـذي شـبه العـام هـو يـوم الهـم والقلق الذي لا ينتقص، والعـام الـذي هـو كيـوم هـو يـوم اللـهو والنعـيم والاستقرار الذي هو في نقصٍ دائم .

ويشبه إقامتهم في تلك الديار بطلع النخل، فرحيله دائـم متكـرر كهبـوب رياح الجنوب، وكلسع الأفاعي التي يعاود سمهـا مـن تلـسعه عامًـا بعـام، فمـا علاقة المشبه بالمشبه به في تلك التشبيهات؟

نجد أن العلاقة واحدة تنبثق من شـدة المعانـاة والاضـطراب والأسـى. إذًا هذه التشبيهات تتمازج وتتداخل فيما بينها لتشكل لنا نـسيجًا واحـدًا تـبرز مـن خلاله انفعالات الشاعر التي تختلج بها نفسه.

ويتساءل ابن درَّاج قائلاً : **فهل حول يحول بلا رحيل ؟**

وهو استفهام ليس القصد منه طلب العلـم بـشيء لم يكـن معلومًـا مـن قبل، ولكنه استفهام تضمَّنَ معنى التوجع والقلق.

وهذا يعني أن الشاعر لم يستطع بعد تجاوز حـدة القلـق والتـوتر، ويـتمنى أن يستقر في دياره، ولو في المنام ؛ لكي يتخلص من دياجير الغربة والوحشة .

ويظهر قلق الشاعر واضطرابه في اسـتخدامه للتـضاد في قولـه : «رحيلنـا – مقامنا – الهم – اللهو – سفر - مقام».

وهذه المفردات التي يشع منها شعاع الحزن : « غريب – نروع – الذعر – الأسى – الجرح – الفجع » ثم تكراره لكلمة رحيل خمس مرات دليل على ازدحام صورة الاغتراب النفسي في هذه الأبيات، وتكرار كلمة «دار» ست مرات يوضح رغبة الشاعر في الاستقرار.وتعلو زفرة الشاعر في قوله : (١)

وقلتُ لمغني الدَّار : ربعَكِ والبلى
وللمُوْر(٢) والإعصار : شأنكِ بالرَّبْعِ
لعلكما أنَ تُخلفا في معاهِدي
زوافِرَ صدري ، والسَّواكِبَ من دَمْعِي
وأن تؤنِسا ما أوْحَشَتْ مِنِّي النَّوى
وأن ترفعا ما مَزَّقَ الدهرُ من جَمْعِي
ولا زادَ من دار الغنى غيْرُ حَسْرَةٍ
تَجَرَّعَها حسي وكَظْمِي لها شَرْعِي(٣)
بلاغًا لأقصى ما لعُمْريَ من مَدًى
ومَبْلَغُ أنْأَى ما على الأرض من صُقْعِ(٤)
طوارقُ لم أغمِضْ لَهُنَّ على القذى

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢١٤، ٢١٥ .
(٢) المور هي الرياح الشديدة المحملة بالغبار .
(٣) شرع : الجرأة والشجاعة .
(٤) صقع : عدل عن الطريق.

جفــوني ، ولم أرْبَــعْ لَهُــنَّ علــى ضِــلعِ

مددْتُ بها في البِيدِ صــنَبْعَيْ شِــمِلَّةٍ[1]

تُبــاري زمانًــا لا أمُــدُّ بــه صــنَبْعَيْ[2]

ولا مِثلــها في مثــل هَمِّــي ركُوبَــة

رَدَعْتُ المنايــا إذْ رَكِبْــتُ بهــا رَدْعِــي[3]

سَمامةُ[4] ليلٍ بــات مُرْتَبِــكَ الخطــى

ونكبــاءُ يــومٍ ظــلَّ منقطِــعَ الشِّــسْعِ

ومُــدْرَجَتي في طــيِّ كــلِّ صــحيفةٍ

مــن المُوثِقــاتِ الفَجْــرِ في خــاتم الطَّبْــعِ

إذا العقرب[5] العوجاء أمْــسَتْ كأنمــا

أثــارَتْ عليهــا ثــأْرَ عاديَــةِ اللَّــسْعِ

وراقبــها نجــمُ الثُّرَيَّــا بمَطلــعٍ

كما انْفرَقَــتْ في العِــذِقِ ناجِمَــةُ الطَّلْــعِ

وأبْــرزَتِ الجــوزاءُ صــدرَ زُمُــرُّدٍ

مُحَلَّــى بأفــذاذٍ مــن الــدُّرِّ والــوَدْعِ[6]

---

(١) شملة : الناقة السريعة .

(٢) صنبع : عضد .

(٣) ردع : العنق .

(٤) سمامة : وسط .

(٥) العقرب : البرج المعروف من بروج السماء ، أو العقرب الحشرة المعروفة .

(٦) الودع : خرز أبيض .

يُشاكهُ زَهْرَ الروض في مــاتِعِ الــضُّحى

علــى بَــوْنِ مــا بــينَ التَّرَفُّــعِ والوَضْــعِ

سَرَيْتُ دُجى هذِي وجُبْــتُ هَجِــيرَ ذا

بأغوَلَ من غُولٍ ، وأسْــمَعَ مــن سِــمْعِي[1]

نجيبة هَوْلِ القفْــر في مُطْبِــقِ الــدُّجَى

وصَــــفْوَةُ لمــــعِ الآلِ في القُــــنَنِ الــــصُّلْعِ

فلأْيًا حططتُ الرَّحْلَ عن مثــلِ جَفْنِــهِ

وأطلقْت عَقْدَ النِّسْعِ عــن شَــبَهِ النِّــسْعِ[2]

هنا الغيث اخلف الوعد بعد أن اطمع في النزول ثم نكص عنه

ويقول في قصيدة أخرى[3] :

فــنحنُ دُيــونُ النَّــوَى كــلَّ يــومٍ

عَلَــى حكْمِــهِ يقتــضينا الغَــريمُ[4]

وتِلــكَ المَعاهِــدُ مِنَّــا رُســومًا

عفاهــا الــذَّميلُ[5] بِنَــا والرَّسِــيمُ

بــسَيْرِ يقــولُ الــصَّفا الــصُّمُّ مِنْــهُ

---

(١) سمع : ولد الذئب .

(٢) النسع : االيد العريض و المفصل بين الكف و الساعد،و اسم ريح .

(٣) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٢٨ – ٢٢٩ .

(٤) الغريم : الذي يطلب حقه .

(٥) الذميل : السير اللين السريع .

أمـــا للحَـــوادِث قلـــبٌ رحـــيمُ ؟

أمـــا يُـــسْتقالُ الزَّمـــانُ الكنـــودُ ؟

أيُـــــسْتَكْفُ العـــــذابُ الألـــــيمُ ؟

عَـــنِ الأوْجُـــهِ المُتَـــوالي عَلَيْهـــا

لَيـــالٍ وأيَّـــامُ جَهْـــدِ جُـــسُومُ

جـــسومُ تطـــيرُ بِهِـــنَّ القلـــوبُ

بِأَجْنَحَـــــةٍ ريـــــشهُنَّ الهُمـــــومُ

بِكـــلِّ هجِـــيرٍ لَـــوِ النَّـــارُ تُـــصْلى

جَحِيمًـــا لأَصْـــبَحَ وَهْـــوَ الجَحِـــيمُ

كَـــأنَّ رَواحِلَنَـــا في ضُـــحاهُ

صَوادِي[1] سَمَام[2] حَـداهَا الـسَّمُومُ

وفي كـــل ليلـــة تَغَـــشَّى دُجـــاهُ

فنــــامَ ولكنَّــــه لا يُنــــيمُ

كأنَّـــا - وقـــد سَـــدَّ بابَيْـــهِ عنَّـــا

وهامِ[3] بِنـــا الـــذعرُ – هـــامٌ وبـــومُ

وفي كل بحر – كمـــا قيـــل - خَلْـــقٌ

---

(١) صوادي : العطاش .

(٢) سمام : ضرب من الطير وهو السماني .

(٣) هام : كل حيوان ضار .

صـــغيرٌ يُهاوِيـــهِ خلـــقٌ عظـــيمُ

كأنـــا عليـــه نجـــومُ الثُّريَّـــا

تـــسيرُ وقـــد أفردَتْهـــا النُّجـــومُ

نِجـــاءُ[1] تَمَنَّـــى ثِمـــارَ النجـــاءِ

ومـــن دونِهـــنَّ رجـــاءٌ عقـــيمُ

فـــذاك مـــدى صـــبر حُـــرٍّ يُـــضامُ

وذاك مـــدى صـــرفِ دهـــرٍ يَـــضيمُ

يقول الشاعر : إنهم هم المغتربون ديون النوى مثل الدائن والمدين الذي يطارد المدين في كل حين ، وكذلك المغترب يلزمه الفراق .

وينتقل الشاعر إلى وصف تلك الرحلة ، فيشتد به الألم ويبلغ ذروته ويخترق إشعاعه حتى توهجت لديه ذكريات تلك الرحلة ، ولكن تلك الذكريات حارقة يشوبها الكدر والقلق الذي يبرز في الاستفهام في قوله :

أمـــا لِلحَـــوَادِث قَلـــبٌ رَحِـــيم؟

أمـــا يَـــستكفُ العـــذاب الألـــيم؟

وكذلك قوله : «عذاب – أليم – هموم – نار – هجير – جحيم – سموم - ذعر». وكلها دلالات توحي باغترابه النفسي وما يعانيه من عذاب وألم، ولهذا قال: «فنام ولكنه لا ينام» فعدم النوم دليل على الأرق والقلق الذي يحتضنه.

ويبلغ الحزن من الشاعر مبلغه حيث يقول[2] :

(١) نجاء : ما ارتفع من الأض ،فلم يعله السيل وظننته نجاءك .

(٢) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٨٤، ٢٨٥.

بكُـــلِّ حـــزين بعـــالي الحُـــزُونِ

ومُقْـــو بكُـــلِّ بـــلاد قـــواءِ[1]

ومُـــسْتَوْهَل حُـــمَّ منـــهُ الحِمـــامُ[2]

لأولِ وَهْلـــــــة ذاكِ التَّنــــــائي

كـــأنَّ تجـــاوُبَ خُـــضْر الحَمَـــامِ

نـــــشِيجُهُمُ لِـــــتَغني الحُـــــدَاءِ

وقـــد أوْطَنُـــوا أرْبُعًـــا لِلْبِلـــى

وقـــد وَطنـــوا أَنْفُـــسًا لِلْـــبَلاءِ

فهو يخاطب كل حزين مغترب عـن وطنـه ، ،كـل حـزين اسـتمع إلى هديل الحمام وأشجانها فأثارت فيه الحنين ، فالخطاب خاص أيضًا.

هذه الأبيات تمثل لنا تفرد الذات القلقـة ، فهـو هنـا لا يخاطـب جميـع الناس ، وإنما خصص مجموعة متفردة هي تلك التي تجرعت الحزن والاغتراب .

ونجد تشتت ذهن الـشاعر وقلقـه يـبرز في قولـه «حـزين – حـزون – مقو- قواء – حمام – حُمَّ- حمام – أوطنوا - وطنوا».

---

(١) قواء : المقفرة الخالية ، والمقوي : المعدم .

(٢) الحمام : الموت .

ويتابع ابن درَّاج حديثه عن ألم اغترابه متسائلاً[1]:

فهـــل آذَنَــتْ هِجْــرَتي أنْ تــريني
عواقِــبَ تَجْلــو كُــرُوبَ الجَــلاءِ
وهل ظَفَرتْ هِمَّــتي مــن هُمُــومي
بثــأرٍ مُنِــيمٍ ووَتــرٍ[2] بَــوَاءِ[3]
ألَمْ يَتَنَــاهَ غُــرُوبُ الغَريــب
إلى مَطْلَــعِ الــشَّمْس في الانتِهــاءِ
ولَمْ أتَّخِــذْ جُــنْحَ لَيْــلِ المحــاق
جَناحًــا إلى نُــور لَيْــل الــسَّواءِ
ولَمْ أتَــزَوَّدْ هَبيــدَ[4] القفــار
إلى بَحْــرِ أَرْيٍ[5] جزيــل العطــاءِ
فأصْــبَحْتُ مــن ظُلَــمِ الاكْتِئــاب
على عَلَــمٍ بَــيْنَ قَرْنَــي[6] ذكــاءِ[7]
وألْقَــتْ يَمــيني عــصا الاغْتِــرابِ
من الأمْن بــين العــصا واللحــاءِ[8]

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٨٥ .
(٢) وتر : الطالب للثأر ، والموتور : من لم يدرك دام قتيله .
(٣) بواء : عدل ساوى دمه بدمه .
(٤) الهبيد : الحنظل .
(٥) أري : الأري الشهد .
(٦) قرن : الشمس .
(٧) ذكاء : اشتداد .
(٨) اللحاء : القشر .

هل استطاع الشاعر أثناء اغترابه ورحيله أن يتخلص من تلك الكروب والهموم؟ ألم يحن الوقت لانتهاء تغرب ورحيل هذا الغريب واستقراره من غير اغتراب وهموم ، وترك حياة الارتحال والسير في جنح الليل واجتياز القفار والصحاري؟

أسئلة كثيرة تدور في مخيلة ابن درَّاج ، منها:

فهل آذنت هجرتي ؟

وهل ظفرت همتي ؟

ألم يتناه غروب الغريب ؟

هذه الأسئلة تعبر عن واقع ظالم مكتئب يعكس لنا شخصية متوترة مكتئبة ، ولذلك قال : «فأصبحت من ظلم الاكتئاب» .

وهذه الأبيات تخرج نغمة حائرة تجسد معنى التيه والحيرة لتصور شخصية قلقة مضطربة تحمل بين ضلوعها الهم .فهو بهذه الأسئلة يريد أن يصل إلى إجابة تكشف له حقيقة مصيره .فالشاعر يعاني اغتراباً نفسيًّا ولذلك استخدم الألفاظ التالية : «كروب – هموم – ثأر – غريب – اغتراب – ليل – ظلم - اكتئاب» . يقول الدكتور جان كوهن: «وتشكيل اللغة الجديدة يتأتى للشاعر حين يتناول الألفاظ ثم يديرها في نفسه، حتى إذا ما تلاءمت مع تجربته الذاتية يعيد ترتيبها ووضعها في سياق خاص بها ، وإذا المفردات من خلال سياقها ذات معانٍ جديدة تقول لنا ما لا تقوله وهي في وضعها الطبيعي ، إذ إن استخدام الكلمات بأوضاعها القاموسية لا ينتج الشعرية، بل ينتجها الخروج عن طبيعتها الراسخة إلى طبيعة جديدة»[1].والطبيعة الجديدة هنا تصور تغلغل القلق وسيطرته على ابن درَّاج ، ويرسم لنا ابن درَّاج في الأبيات التالية صورة من

(١) بنية اللغة الشعرية ، ترجمة محمد الولي ومحمد العمري ، ص ١٢٩ .

الشعور بالقلق والاغتراب ، ولهذا تبدأ القصيدة بداية مفعمة بالشوق والحنين . يقـــول ابن درَّاج [(١)]:

شَوْقٌ شديدٌ ووصــــلٌ مـــن حَبِيبَـــيْنِ
فلَيْتَ شِعْرِيَ ما خَطْــبُ العَــذُولَيْنِ[(٢)]
وليـــت شِـــعْرِيَ إذْلامــا وشِـــعْرهما
أفي السُّوَيْداءِ من قلــبي ومـــن عَــيني
وهـــل أُمَكَّـــنُ مـــن أُذُنِيَّ عَــدْلَهُما
فيها إذا قــام عُــذْري في العِــذارَيْنِ
وقـــد تَعَبَّـــدَنِي ربُّ الهـــوى فيـــهِ
أعـــوذُ مـــن مُـــشْركٍ فيـــه إلهَـــيْنِ
وليس ذنبيَ عنــد العــاذِلينَ سِــوى
أني أرى في رضـــاهُ ثـــانيَ اثنـــيْنِ
وكم طَلَبْــتُ بهــا الأيــامَ مجتهــدًا
طِلابَ ربٍّ نفــيس الــدَّيْنِ بالــدَّيْنِ
وكم بَذَلْتُ لهــا في الــشَّوْقِ مكتئبًــا
غُروبَ جَفْنَيْنِ ما تشكو مـــن الأَيْـــنِ
بدمعِ عـــينٍ أبى مـــا في الــضميرِ لـــه
حـــتى يُـــصَيِّرَهُ دمعًـــا بـــلا عَـــيْنِ

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٩٥ .

(٢) العذل : اللوم والإحراق .

إذًا لم يجد ابن درَّاج مخرجًا من ذلك القلق الذي سيطر عليه غير الشوق والحنين الذي يفيض باستدعاء الذكريات؛ ليخلق جوًّا من التوازن العاطفي ، ليعوض فيه عن نكسات الحاضر القلق. إلا إنه بالرغم من شوقه ما يزال الاكتئاب يحيط به ، وما يزال يشكو من الأنين وسكب الدموع ، فالشاعر ما يزال يشعر بالتشتت والاغتراب .

يقول الدكتور أحمد هيكل : «نرى من ملامح نفسية ابن درَّاج شعوره دائمًا بالحاجة إلى الأمن، وإحساسه أبدًا بضرورة الاستقرار، وفزعه الشديد من التشتت والتشرد والضياع»(١).

ويحاول ابن درَّاج أن يخلق جوًّا مفعمًا بالطمأنينة والأمل عَلَّهُ يستطيع أن يتخلص من قلقه واضطرابه، فهل استطاع ؟ يقول(٢) :

كَذَا ينتهي البدرُ المنير إلى الشمس
وتمتزج النفسُ الكريمُ بالنفسِ
وتَلْتَحِمُ الأنسابُ من بُعْدِهَا
وتدنو القلوبُ الموحِشاتُ إلى الأنسِ
ويُجْمعُ شملُ الوصْلِ من فُرْقَةِ القِلى
ويُرْفَعُ بَنْدُ الوصل من مَصْرَعِ النكْسِ
كجمع (سليمان) النبي بصهْرِكُمْ
ذوي يَمَنٍ والشام والجنّ والإنسِ
وتأليف (ذي القرنين) إذ هُديتْ له
كريمةُ (دار) دَعْوة الرُّوم والفرْسِ

---

(١) دراسات أدبية ، د. أحمد هيكل ، ص ٢٥٤، ط. الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ، سنة ١٩٨٠م.
(٢) ديوان ابن درَّاج ، ص ٤٣١، ٤٣٢.

فمن خلال ثقافته الدينية يبرز ملامح اغترابه النفسي ، فاستدعاء تلك الشخصيات الدينية والتي كان جمعها مفترقًا ثم ائتلف ، بينما كان ابن درَّاج مفترق الشمل ضائعًا متشردًا ، فهو على نقيض ما هم عليه .

فبينما كان شمل النبي سليمان u وكذلك ذي القرنين مؤتلفًا ومجتمعًا ، كان شمله هو مفترقًا ومنقطعًا. هذا الإحساس كما قلنا سابقًا حمله إلى أن يخلق جوًّا مفعمًا بالأمل بعد اليأس فقال إن النفوس والأنساب مهما بلغت بها التفرق لابد أن يأتي يوم وتجتمع فيه كما اجتمع شمل سليمان u وذو القرنين.

ولكن فزع ابن درَّاج من التشتت والضياع كما وصفه بذلك الدكتور أحمد هيكل[(١)] تمثل أيضًا في الأبيات بالرغم من محاولاته إخفاءَ هذا الإحساس من خلال استدعاء الشخصيات ومن خلال كثرة التضاد ، كقوله : «البدر – الشمس – بعد – دنو – موحش – مؤنس – يجمع – فرقة – الجن – الإنس – اليمن – الشام – الروم - الفرس» دليلاً على قلقه واضطرابه.

ويقف ابن درَّاج في هذه الأبيات على تلك الأطلال الموحشة التي خلت معاهدها من الأحباب قائلاً[(٢)]:

ومِنْ دوننا آنِساتُ الدِّيارِ
نِهابَ الحِمى[(٣)] ، مُوحِشَاتِ الطُّلُولِ

---

(١) دراسات أدبية ، د. أحمد هيكل ، ص ٢٥٤.

(٢) ديوان ابن درَّاج ، ص ٦٦ .

(٣) الحمى : هي مواضع بها كلأ تحمى من أن يرعي فيها الناس محافظة عليها .

يُهـــيِّجُ فيهـــا زفـــيرُ الريـــاحِ

مـــدامِعَ شَـــجْوِ الـــسَّحابِ الُمخيـــلِ

وتلِطِـــمُ فيهـــا أَكُـــفَّ البُـــرُوقِ

خُـــدُودَ عِـــراصٍ عَلينـــا ثُكُـــول(١)

تَظَلَّـــمُ مـــن هـــاطِلاتِ الغمـــامِ

وتشكو من الـــريح جَـــرَّ الـــذُّيولِ(٢)

فالطلول موحشة تهب عليها الرياح ، تلك الرياح كانت تهـــيج في ابـــن درَّاج الزفير والألم ، فتسيل دموعه بغزارة ، وجسَّدَ ابن درَّاج هذه الصورة في الـــسحاب ، فجعله يشجو ويدمع ، وجعل البرق كفًّا يلطم به الخدود، وهذه الخدود هي خـــدود السحاب.هذا القلق وهذا الحزن جسده ابن درَّاج في الطبيعة ، فجعلها تعاني ما يعانيـــه الشاعر، ومما يعكس هذا القلق أيضًا استخدامه التضاد في قوله «آنسات - موحشات» وقوله: «زفير – شجو – لطم – ثكول – تظلم - تشكو» مفردات تضج بمعاني الألم والحزن .ويصف ابن درَّاج إحدى أسفاره وما كان يحيط بهم من خـــوف ورعـــب ، فيقول(٣):

أَرَحْلِـــيَ محمـــولٌ علـــى العُتُـــقِ النُّجْـــبِ

يَؤُمُّكَ ، أم سارٍ على القُـــتُمِ(٤) النُّكْـــبِ(٥)

---

(١) عراص : هو من السحاب ، وهي ما اضطرب فيها البرق ، أي الذي لا يسكن برقه.

(٢) الذيول : ما انسحب منها على الأرض ، أو ما تتركه في الرمال على هيئة الرَّسن .

(٣) ديوان ابن درَّاج ، ص ٧٩، ٨٠ .

(٤) القتم : الغبار الكريه مع السواد .

(٥) نكب : هو ماجاء بين ريحين .

يقـــود بهـــا هـــادٍ إلى الأمـــر والمُـــنى

ويَحْذو بها حادٍ علـــى الخـــوفِ والرُّعْـــبِ

غرائـــبُ مِمَّـــا أغـــربَ الـــدهرُ أطْلَعَـــتْ

عليك هلالَ العلـــم مـــن أفـــق الغـــرْبِ

طوتْ فَلَواتِ الأرضِ نحـــوك ، وانْطَـــوَتْ

كَبَـــدْرٍ إلى مَحْـــقٍ بـــشَهْرٍ إلى عُقْـــبِ

كؤوسًـــا تَـــساقَتْهَا الليـــالي تنادُمًـــا

فجاءتْكَ كالأقداح رُدَّتْ عـــن الـــشُّرْبِ

تَعَـــاوَرَهُنَّ الـــبرُّ والبحـــرُ مثلمـــا

تُـــرَدُّ بأيـــدي الرُّسْـــلِ أجوبـــة الكُتْـــبِ

فليـــلٌ إلى صـــبحٍ ، وصـــبحٌ إلى دُجًـــى

وكـــرْبٌ إلى رَوْحٍ[1] ، وروحٌ إلى كَـــرْبِ

وســـهلٌ إلى حَـــزْنٍ ، وحـــزنٌ إلى فـــلاً

وسُـــهْبٌ إلى بحـــرٍ ، وبحـــرٌ إلى سُـــهْبِ

كان الرحيل على أجود أنواع النوق وأفضلها، وهي تسير بهم في فلوات الأرض من أجل تحقيق طموحهم ، ومن أجل تحقيقها لابد من مواجهة الخوف والتعب ، ولذا وجب عليهم السير بسرعة مذهلة ، وبسير لا ينقطع ، يصلون الليل بالنهار ، فتتقلب معهم الصعاب من عسر إلى يسر ، ومن ارتفاع إلى انخفاض. هكذا كان رحيلهم صعابًا ومشقة وقلقًا ، وهو ما يبرز في التضاد في قوله : «البر – البحر – ليل – صبح – سهل

(١) روح : الروح الاستراحة والراحة .

- حزن» ، وينعب غراب البين معلنًا عن بداية رحلة أخرى وقلق آخر. يقـــول ابـــن درَّاج[١]:

نَعَبَ الغُــرابُ بهـا فطــارَ بأهلِهـا

سِرْبًا على مثــل الغــرابِ الناعِــبِ

خرقُ الجَنــاحِ إلى الريــاح مــضلَّلٌ

بِــشَمائلٍ[٢] لعِبَــتْ بــه وجنائــبِ

يهوي بذي طِمْــرَيْنِ مَــزَّقَ لبــسَها

أيدي لَوَاهِــفَ للنفــوس نــوادِبِ[٣]

في غَوْلِ ذي لُجَــجٍ لبِــسْنَ دياجِيًــا

تركَ الحيــاة لنــا كَــأَمْسِ الــذَّاهِبِ

قاسيْـــتُهُنَّ غوارِبًــا كَغياهِــبِ[٤]

وسَرَيْــتــُهُـــنَّ غياهبًــا كغــوارب

نجلُــو ظــلامَ الليــلِ قبــلَ صــباحِهِ

بلظـــى زفـــيرٍ أو بـــرأسٍ شـــائِبِ

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٩١ .

(٢) شمائل : نوع من الرياح .

(٣) نوادب : الباكيات على الميت .

(٤) غياهب : شدة سواد الليل .

وهكذا كانت حياة ابن درَّاج القسطلي رحيلاً وزفيرًا ودموعًا، وكل هذا يصور لنا اغترابه النفسي. كما يبرز القلق في التكرار في قوله: «غواربا كغياهب – غياهب كغوارب» ويعاود الحنين ابن درَّاج مرة أخرى فيقول(١):

فيا ضَلالَ نُجـوم الليـل إذْ عَـدِمَتْ
بَـدْرَ الـسَّماء وفي رَوْضـي مَرَاتِعُـهُ
وويل حَنينِ ظِباءِ القَفْـر إذْ فَقَـدَتْ
غَـزَالهنَّ ، وفي رَوْضـي مراتعـه
مَجَالُ طرفي ومـا حـازَتْ لَواحِظُـهُ
وَحَرَّ صَدْري ومَـا ضَـمَّتْ أضـائعُهُ
والطَّرْفُ مـرْآةُ عـيني أسـتدِلُّ بـه
علَى الصَّباحِ إذا مـا خِيـفَ سـاطِعُهُ
جَوْنًا أزيدُ بِهِ ليـلَ الرَّقيـبِ دُجَـى
وَيَـسْتَثِيرُ لِـيَ الإصْـباحَ لامِعُـهُ
فَباتَ يَعجبُ مـن ظَـبيٍ يُـصارِعُني
وَقَـدْ يَحِـنُّ علـى لَيْـثٍ أصـارِعُهُ
ومـا رأى قبلَهـا قِرْنًـا أُعانِقُـهُ
إلاَّ وَوَدَّعَ نَفـسًا لا تُراجِعُـهُ

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ١١٥ – ١١٦ .

حَتَّى بَدا الصُّبْحُ مُـــشْمَطًا[1] ذَوائبـــهُ

يُطـــارِدُ الليْـــلَ مَوْشـــيًّا أكارعُـــهُ[2]

يستدعي ابن درَّاج ذكرياته في دياره حينما يشاهد ظباء القفر ، ولكن ما يلبث حتى يعود إلى حاضره الذي يعيشه لحظةً بلحظة ، وهو الرحيل ، فابن درَّاج قد واجـه في رحيله الكثير من الأخطار ، فتارة يصارعه ظبي وتارة يحن عليه ليث ليصارعه، هكذا يقضي لياليه حتى ينجلي الليل ، ويسطع ضوء الصباح ، فإذا كان ابن درَّاج قد سار في الفلوات وحيدًا منفردًا حتى أصبح لا يخشى من مقابلة ليث يصارعه ، فالمتنبي يجـوب الفيافي وحيدًا حتى صارت الجبال تتعجب من كثرة ما تلقاه وحيدًا منفردًا، يقول[3] :

صَحِبتُ في الفلواتِ الـوَحْشَ مُنفـردًا

حتى تَعجَّبَ منِّـي القُـورُ[4] والأكـمُ

هكذا عبَّر الشعراء عن غربتهم ووحدهم ، فاختلفت الأساليب والعبارات مع أن الإحساس والشعور واحد، ولكن نلحظ وجود تفاوت في درجة الإحـساس بالغربـة والاغتراب حتى إننا لنجـد ابن درَّاج في الأبيات التاليـة ، لا يهاب من الوحـوش ، ولا يخشى المهالك والمصائب التي يحاول كل مرء تجنب الوقوع فيها ، بل إننـا نـرى نقيض ذلك تمامًا ، فابن درَّاج يأنس ويسعد بالمهالك والأهوال ، وهذا إن دلَّ لا يـدل إلا على إنه شخص قد ألف المهالك ، وصقلته الصعاب والخطوب ، ودليل على كثرة تغربه .

---

(١) مشمطًا : خلط سواده بالبياض و الشمط الصبح .

(٢) أكارعه : أي انكشف ما دون ركبته .

(٣) ديوان المتنبي ، ص ٦٩٧ ، ج ٢ .

(٤) القور : جمع قارة وهي أكمة صغيرة في الحرة من الأرض .

يقول ابن دراج[1] :

فَهَلْ أَنتَ يــا زمــنَ الرَّبيــعِ مُبَلِّــغٌ

بــــالَمغْرِبَيْنِ أحِـــــبَّتي وَأَقــــارِبي

إنَّ الربيــــعَ لــــدَيَّ شِــيمة قــــاطِنِ

وحَيــا الغَمــام عَلــيَّ ديمــةَ دائِــبِ

مِنْ بَعْدِ ما غَــمَّ الــصَّباحُ لِنــاظِري

واشْتَفَّ مِنِّي البَحْــرُ جَرْعَــةَ شــارِبِ

وأَنِسْتُ بــالأهْوالِ حَتَّــى لَــمْ أبَــلْ

ألِقــــاءُ أُسْــــدٍ أمْ لِقــــاءُ ثَعالِـــبِ

كَمْ أنْــشَبَتْ فِيَّ الخُطــوبُ مَخَالِبًــا

حَتَّى انْثَنَــتْ عَنِّــي بِغَيْــرِ مَخالِــبِ

وشَــفَيْتُ سُــمَّ عَقــارِبَ بأَســاوِدِ

ودَفَعْـــتُ سُـــمَّ أســاوِدَ بعَقــارِبِ

حَتَّى نــزَفْنَ سُــمومَهُنَّ فَلَــمْ يَــرَعْ

مَنْ نافِثــاتِ الــسَّمِّ لَيْــلُ الحاطِــبِ

القسطلي قد أَلِفَ حياة الترحال ومواجهة الصعاب ، فهو هنا يأنس بالأهوال حتى إنه لم يعد يهتم بما سيواجهه من أسود وثعالب وعقارب وغيرها من الحيوانات .

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٤٠ .

ويأنس ابن درَّاج بالمهالك ، يقول[1] :

تُـــــذكرُنا دَواهــــي بـــــدَّلَتْنا

من الأَكْنَـــانِ[2] ضـــاحَيَة المَـــوامي[3]

نَغـــــاورُ قَفْرَهـــــا والليـــــلُ داجٍ

ونعْـــسِفُ بَحْرَهـــا والَمـــوْجُ طـــامِ

ونُـــؤْنِسُ بِالَمهالِـــكِ كـــلَّ نفْـــسٍ

تَـــوَحَّشَ للغُـــصونِ بـــلا حَمَـــامِ

ويصف ابن درَّاج اغترابه النفسي ، واغتراب أبنائه في إحدى رحلاتهم مجـــسدًا مدى القلق الذي انتابهم ، يقول[4] :

جُـــسومًا أقلَّتْهـــا الرِّيـــاحُ فَلَـــمْ تَـــدَعْ

لَهُـــــنَّ مِـــــنَ الأرْواحِ إلاَّ أقلَّهـــــا

نَجائِبُ[5] وَصَّاها الجـــديلُ[6] وشَـــدْقَمٌ

بـــألا تَمَـــلَّ اللَّيْـــلَ حَتَّـــى يَمَلَّهـــا

فتَخْلِـــقُ بالإرْقـــالِ[7] ثـــوْبَ شَـــبابِهِ[1]

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٩٢ – ١٩٣ .

(٢) الأكنان : البيت .

(٣) الموامي : المفازة الواسعة الملساء ، وهي الفلاة التي لا ماء بها ولا أنيس .

(٤) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٨٧ .

(٥) نجائب : هي نوع من الإبل .

(٦) جديل وشدقم : اسم فحلين من فحول إبل العرب ، وهو فحل للنعمان بن المنذر .

(٧) الإرقال : ضرب من العَدْوِ فوق الخبب .

وتَتْرُكُـــهُ بـــالأفْقِ أشْـــيَبَ أجلـــها

تُراوحُـــهُ مِـــنْ خِلْفَـــةِ الفجْـــرِ طـــرَّةٌ

كَمُعْترضِ الشَّقْراءِ[٢] تَـــنْفُضُ جُلَّهـــا[٣]

فكَمْ حَمَلتْ مِـــنْ حُـــرٍّ قلـــبٍ مُوَّلَّـــهٍ

يُبَلِّـــغُ عَنْـــهُ الـــنجْمُ قَلْبًـــا مُولَّهـــا

وَكَمْ ضَمَّ ذاكَ اللَّيْـــلُ مـــن أمٍّ شَـــادنٍ

أضـــلَّتْهُ في جَـــوْفِ الفَـــلا وأضَـــلَّها

وَقَدْ بلَـــغَ الجَهْـــدُ القُلـــوبَ حَنـــاجِرًا

تُبَـــشِّرُها أنَّ التَّنـــامِيَ مَـــدىً لهـــا

الرياح تقلهم فتنقلهم من مكان إلى آخر حتى أصبحوا لا يملون الرحيل والإدلاج في الليل ، بل صار الليل هو الذي يملهم . وهذا دليل على كثرة رحيلـــهم ، وكثـــرة معاناتهم التي بلغت الحناجر ، وتزداد قوة التفجع كلما قرر الرحيل ، يقول[٤] :

وأفْجَـــــعُ بـــــالنَّوَى في دارِ سَـــــفر

فَكَيْـــفَ نـــوىً علـــى دارِ المُقـــامِ

ويبرز القلق كلما ساروا في ظلمة الليل إلى الصباح من غير أنيس وجليس ، يقول[٥] :

---

(١) شبابه : في عمر النضوج .

(٢) الشقراء : الأشقر من الدواب .

(٣) جُلها : من جلت الناقة إذا أسنشت .

(٤) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٩٤ .

(٥)ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٥٢ .

ولوْ بصُرَتْ بي والسَّرَى جُلَّ عَزْمَتي

وجَرْسِي[1] لِجنَانِ الفَلاةِ سَميرُ[2]

وأعْتَسِفُ الموْمَاةَ[3] في غسق الدُّجَى

وللأُسْدِ في غِيلِ الغياضِ زَئيرُ

ويتحدث ابن دراج عن همومه وقلقه ، يقول[4] :

ومُغَرِّبٍ تَبْكي السَّماءُ لِشَجْوِهِ

مِنِّي وتَلْتَهِفُ النُّجومُ لِلَهْفِهِ

لَوْلا قَصاءُ فِراقِهِ وطلبتُهُ

في غيرِ جَفْني ماثِلاً لَمْ تُلْفِهِ

أَبُنَيَّ لاحَ الفجْرُ إذْ بَلَغَ الدُّجَى

أمَدًا فَسَلِ الهَمَّ إنْ لَمْ تَشْفِهِ

وَتَرَكْتُ غوْلَ البَرِّ مُعْدِمَ أنْسِهِ

مِنِّي وهَوْلَ البَحْرِ فاقِدَ إلْفِهِ

فإذا كانت السماء تبكي لتشارك ابن درَّاج حزنه ، فنجد عند المتنبي الحمام يحزن ويتألم لفراق أحبته ، ولكن حزنه ذلك لم يصل درجة ألم وعذاب المتنبي ؛ لأنه لو وصله لساعده الشجر على البكاء ، يقول[1] :

---

(١) الجرس : هو الصوت الذي يأنس به .

(٢) سمير : أنيس .

(٣) الموماة : الأرض الواسعة .

(٤) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٥٨ .

يَجِدُ الحَمامُ ولَوْ كَوَجْـــدِي لانْبَـــرَى

شَـــجَرُ الأرَاكِ مَـــعَ الحَمَـــامِ يَنـــوحُ

إذًا ابن درَّاج جعل الطبيعة تشاركه مشاركة وجدانية في ألمه وحزنه وفرحه بلقاء الأحبة .ويصف ابن درَّاج مدى إحساسه بالضياع والحسرة ، فيقول[٢] :

وكـــانَ ضَـــياعي حَـــسْرَةً وتَنَـــدُّمًا

إذا لَـــمْ يُفِـــدْ شَـــيئًا ولَـــمْ يُغْـــنِي شَـــيَّا

وأصْبَحْتُ في دارِ الغِنَى عَـــنْ ذَوِي الغِنَـــى

وعُوِّضْـــتُ فاسْـــتَقْبَلْتُ أسْـــعَدَ يَوْمَيَّـــا

سِوَى حَسْرَتِي عـــرض ووَجْـــهٍ تَضَعْـــضُعَا

لقارِعَـــةِ البَلْـــوَى وَكانَـــا عَتادَيَّـــا

ولِلـــسِّتْرِ والـــصَّبْرِ الجميـــلِ تـــأَخَّرَا

فأمَّهُمَـــا حِرْصِـــي وكانَـــا إمَامَيَّـــا

فَيَـــا عَبْـــرَتِي سُـــحِّي[٣] لَعَلِّـــي مُبَلَّـــلٌ

يَحْرِيكِ مـــا أنْزَفْـــتُ مـــن مـــاءِ عَيْنَيَّـــا

ويـــا زَفْـــرَتِي هَـــلْ في وَقـــودِكِ جَـــذْوَةٌ

تُـــنيرُ لَنَـــا صُـــبْحًا ثَنَـــاهُ الأسَـــى نُـــسْيا

---

(١) ديوان المتنبي ، ، ص ١٨٥ ، ج ١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤٩ .

(٣) السح : سحَّ الماء بنفسه أي : سال ، سَحَّ هو الماءَ : صبَّه .

ويقول[1] :

وإن غَزَتِ الآمالُ نفـــسي صــرمتُها

بـــــصارِمِ يـــأسٍ في يمـــينِ تقــــيٍّ حُــــرِّ

ولكنْ أبى ما في الفُؤادِ مـــنَ الأســـى

وأعْضَلَ مـــا بـــينَ الـــضُّلوعِ مِـــنَ الجَمْـــرِ

وما لَفَّ عَهْـــدُ اللهِ في ثَـــوْبِ غُرْبَـــي

من الأنِساتِ الـــشّعْثِ والأفـــرخُ الزَغْـــرِ[2]

لقد سيطر اليأس والقلق على القسطلي حتى إنه عزم علـــى أن يقطـــع الآمـــال والأحلام فيقطعها باليأس . وهذا دليل قاطع على شعوره بالضياع واليـــأس ، ومـــدى تعمق الاغتراب النفسي فيه.

ويصور – أيضًا – مدى إحساسه بالذل والكآبة ، يقول[3] :

بمـــا فَـــتَّ فـــيهنَّ رمـــيُ العُـــداةِ

ومـــا غـــضَّ منـــهنَّ ذلُّ الغريـــبِ

فَـــإنْ رَمِـــدَتْ فقَليـــلٌ لِعَـــيْنٍ

يُقَلِّبُهـــا شَـــجْوُ قَلْـــبٍ كَئيـــبِ

وإنْ قَـــدَحَتْ بالحَـــشا في الحَـــشايا

فَزَنْـــدًا ضِـــرامٍ لنـــارِ الكُـــروبِ

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٦١ .

(٢) الزعر : هو كل ما خف شعره أو ريشه من الحيوان والطير .

(٣) ديوان ابن درَّاج ، ص ٣٩٩ .

تُؤَجِّجُهـــا حَـــسَراتُ التَّناســـي

وتَنْفُخُهـــا زَفَـــراتُ النَّحِيـــبِ

هذه هي المضامين التي شكلت الاغتراب النفسي عند ابن درَّاج ، والتي تمثلت في حدة القلق ، ومدى الإحساس بالضياع ، والذي حاول الشاعر إبرازه عن طريق وصف الأسفار . كما حاول الشاعر إبراز مدى شعوره بالذلّ والتشرّد والإحـساس بالغربـة والاغتراب ، فقد سلك الشاعر طريقتين ، وهما :

١ – وصف نفسه بالذليل والغريب ، وإظهار مدى الشعور بالضياع والقلـق والاكتئاب .

٢ – محاولة الشاعر لجعل مظاهر الطبيعة تشاركه مشاركة وجدانية تشعر بذلـه وغربته ، فتحزن كما يحزن .

ثانياً - الغربة السياسية

قبل الخوض في الحديث عن الغربة السياسية آثرنا أن نبدأ حديثنا بإيراد خبر عن الفتنة البربرية ؛ لتعلقها الشديد بالناحية السياسية ، وباعتبارها الدافع الأول الذي دفع القسطلي نحو الغربة والاغتراب بصفةٍ عامة ، وبالغربة السياسية بصفةٍ خاصة ، ولكن كثرة الأحداث وتتابعها جعلنا نؤثر الإيجاز في الحديث عن هذه الفتنة البربرية[١] ، مما ليس في هذا الموضع من بسطه .

إضاءة سريعة موجزة

لقد قامت الدولة الأموية الأندلسية سنة (٧١١ هـ – ٧٥٦ هـ) حينما وطأ عبد الرحمن الداخل قرطبة ، وقتل يوسف الفهري ، فأسس الداخل دولته ، وبعد وفاته تولى الرياسة عبد الرحمن الناصر ، ثم المستنصر ، ثم هشام المؤيد ، (وعندما مات الحَكَم المستنصر ظهرت بادرة تنبئ بما سيتعرض له الأندلس من المتاعب والفوضى فيما بعد ، فإن الحكم أوصى بالعرش لابنه، وكان عند موته غلامًا في الثانية عشرة ، ومعنى ذلك أن السلطان سيقع في يد من يقومون بالوصاية على ذلك الطفل ، فانفتح الباب للوزراء والطامعين)[٢] ، وكان من بين هؤلاء الطامعين محمد بن أبي عامر ، الذي لقب نفسه بالحاجب المنصور ابن أبي عامر ، فاستولى على الملك وقاد معارك عديدة ، فقد تميّز المنصور بموهبة سياسية عظيمة جعلته يحطم البيت الأموي وينشئ البيت العامري ، يقول عنه مصطفى صادق الرافعي : « فقد كان المنصور بن أبي عامر الداهية الذي ملك سلطنة الأندلس سنة (٣٦٦هـ) وقصد بذلك تشتيتهم ، وقطع التحامهم

(١) للوقوف على دقائق هذه الفتنة انظر : الذخيرة ، لابن بسام ، ق ١ ، م ١ ، ص ٣٣ ، وما بعدها ، وانظر : كتاب فجر الأندلس ، لحسين مؤنس ، ص ١٥٢ .

(٢) معالم تاريخ المغرب والأندلس ، لحسين مؤنس ، ص ٣٩٠ .

وتعصبهم في الاعتزاء ، وقدم القواد على الأجناد ، فيكون في جند القائد الواحد فِـرَقٌ من كل قبيلة ، فانحسمت بما فعل مادة الفتن بالأندلس التي كانت تثيرها تلك الجاهلية الرقيقة »[١] .

« فأحدث ذلك اضطرابات وفتن كثيرة ، فرفعت الحروب الأهلية راياتها وتتابعت الأحداث إلى أن توفي المنصور سنة (٣٩٢هـ - ١٠٠٢م) وخلفه ابنه عبد الملك المظفر ، سنة (... هـ) وقد عرف بسوء الطباع مما جعله مهددًا بالأخطار ، فقد كان الكثير من الناس في قرطبة يتربصون به وبآل عامر ، ولكي يستعيد مكانة آل عامر أراد أن يخطو خطوات والده ، فقام بغزوات كثيرة وبعدها أصابه المرض فتوفي سنة (٣٩٩هـ - ١٠٠٨م) ، ثم خلفه أخوه عبد الرحمن بن المنصور ، وكان – أيضًا – شابًّا طائشًا انعدمت فيه صفات القائد المحنك ، ولذلك ضاق الناس من استبداد العامريين للحكم ، فقامت الثورات ، وتجمع الناس في قرطبة وهاجموا مدينة الزاهرة ، وقيل أن عبد الرحمن أمر القادة بلبس العمائم البربرية ، وترك أغطية الرأس الأندلسية ، فرأى القادة والناس أن هناك مؤامرة تُدار لإعادة الدولة الأموية.

وحينما سمع أصداء تلك الأصوات أمر بتجهيز جيش لغزو قشتالة، فمنعه الناس من فعل ذلك ، ولكنه أصرَّ على موقفه ، ولكن محاولته باءت بالفشل بسبب سوء الأحوال الجوية ، وهروب النصارى إلى طليطلة .

ومن بين البقية الباقية من بني أمية قرر فئة منهم انتهاز فرصة غياب عبدالرحمن عن قرطبة فأثاروا بذلك الفتن والدسائس ، وقد ساعدهم في ذلك والدة عبد الملك المظفر ، والتي كانت تعتقد أن عبد الرحمن هو الذي قتل ابنها، فاتصلت بمحمد بن عبد الجبار ، الذي وضع خطة للإطاحة بعبد

---

(١) تاريخ آداب العرب ، للأستاذ مصطفى صادق الرافعي ، ص ٢٣٣ ، الباب (٧)،وللوقوف على حياة المنصور وسياسته الحربية انظر البيان المغرب لابن عذاري ،ج٢،ص٢٨٦،ج٣ص،١٣.

الرحمن، فقتله رجاله، وبايع محمد بن عبد الجبار نفسه ، واتخذ لقب المهدي، وبايع قريبًا له يُسمى سليمان بن هشام ، فتجمع الناس على المهدي معتقدين بأنه يستطيع تسيير أمور الدولة ، ولكنه خيب ظنَّهم فيه ، فكثرت الانقلابات والفوضى والنهب والسرقة ، وإيذاء الناس ، والانتقام من العامريين والبربر ، مما جعل البربر ينقلبون عليه ، فاقتحموا قرطبة واختاروا لأنفسهم خليفة لهم وهو سليمان بن هشام ، الملقب بالمستعين ، ولم يستطع محمد بن عبد الجبار المهدي الصمود أمام قوة البربر ، فاستنجد بالنصارى وخرج بجيش ، الْتَقَى فيه بالبربر ولكنهم انتصروا عليه وحصدوا أرواح كثيرة من الأندلسيين وفرَّ منهم نفرٌ وعلى رأسهم واضح العامري ، واستقروا في مدينة دانية، واقتحم البربر مدينة قرطبة، فقتلوا الكثير من الناس ، وأصبح زاوي بن زيري هو الآمر والناهي .

وبعد فترة استطاع واضح العامري طلب العون والمساعدة من بعض الولاة فأعطوه جيشًا حارب به جيش البربر الذي كان يرأسه سليمان المستعين.

وكان جيش واضح ضمن جيش المهدي ، فالتقى جيش محمد بن عبدالجبار المهدي ، بجيش البربر ، وانتصر جيش المهدي على البربر ، فعاد زيزي إلى قرطبة يجر أذيال الهزيمة ، ولكن محمد بن عبد الجبار المهدي تتبع الجيش البربري المهزوم ، فاستطاع البربر أن يقتلوا مجموعة كبيرة من جيش المهدي ، فدخل سليمان المستعين قرطبة مرة أخرى ، ولكنه لم يستطع الاعتماد على البربر ، وفشل في جمعهم مرة أخرى حوله ؛ لأنه قام بقتل هشام المؤيد سنة (٤٠٣هـ - ١٠١٣م) ولذلك كان الجو مفعمًا بالفوضى والرهبة والغدر ، فظهر بيت يسمى بني حمود ، وهم من الصنهاجين ، فولى سليمان المستعين عليَّ بن حمود في الخلاف ، وتحالف مع خيران العامري ، وهو زعيم

صقلي ، استقر في المرية ومرسية ، فاقتحموا قرطبـــة وقتلـــوا ســـليمان المـــستعين ، وساد نوع من الفوضى في هذه الفترة .ولكن الأمر لم يلبـــث طـــويلاً فقُتِـــلَ علـــيَّ بن حمود سنة (٤٠٨هـــ - ١٠١٨م) ، وخَلفه أخوه القاسم .

أما بقية المدن الأندلسية فقد تولى خلافتها رجال من بـــني عـــامر ، وبـــذلك بدأ عصر الطوائف »[١] هذه هي أحـــداث الفتنـــة البربريـــة وحكامهـــا ، وتعتـــبر هذه الفتنة من أهم الأحداث السياسية الـــتي تركـــت أثـــرًا واضـــحًا علـــى الحيـــاة الأندلسية بصفة عامة ، وعلى الناحية الأدبية بـــصفة خاصـــة . فالناحيـــة الـــسياسية « تبدو قاتمة ومغايرة لما هو مشهور ومعروف عـــن حيـــاة الأنـــدلس ، ومـــا فيهـــا من حضارة ورفاهية ورقي تملأ صفحات التاريخ ، ولكـــن هـــذه الـــصورة المـــشرقة كانت تكمن خلفها صورة أخرى أو الوجه الآخر للعملة البراقـــة الـــتي كـــثيرًا مـــا وردت في المصادر والمراجع التاريخية في ثنايا السطور وهـــوامش الـــصفحات حـــتى كادت تختفي ، لكن مع ذلك فهي موجودة ، ودليل وجودهـــا هـــو شـــعر الغربـــة الذي هو نبت قد نما وتغذى على هذه الأوضاع الـــتي دفعـــت الـــشعراء دفعًـــا إلى غربتهم عن أوطانهم»[٢] .

« وطبيعي أن تنعكس ظلال فترة هذه الفتنة المـــبيرة علـــى نفـــوس النـــاس ، فتملأها بالاضطراب والقلق ، وتفعهما بالمرارة والإحـــساس بالـــضياع ، وتـــدفعها إلى التماس الراحة والبحث عـــن المـــستقر، والنـــاس مختلفـــون في التمـــاس راحـــة قلوبهم ، والبحث عما يقـــر أنفـــسهم ، وذلـــك لاخـــتلاف طبـــائعهم وظـــروف حياتهم ، فمنهم من يجد راحته في إغـــراق همومـــه في الكـــأس وإفنـــاء متاعبـــه في الملذات ، ومنهم من يجد استقراره في الهروب من قلقه إلى الانطـــواء والفـــرار مـــن

---

(١) انظر معالم تاريخ المغرب و الأندلس ،د.حسين مؤنيس ،ص٩١ومابعدها بتصرف .

(٢) الغربة في الشعر الأندلسي عقب سقوط الخلافة ، د / أشرف علي دغرور ، ص ٧٧ .

نفسه إلى العزلة ، ومنهم من يرى الراحة والاستقرار في اللجوء إلى ذوي السلطان »[١] .

فظهر الشعراء المادحون المتقلبون المتجولون على أبواب الملوك والأمراء، ومن بين الملوك الذين طرق الشعراء أبوابهم ابن أبي عامر الذي أشرنا إليه من قبل ، فقد « دانت له الأندلس كلها ، و لم يضطرب عليه شيء من نواحيها ، وكان محبًّا للعلوم ، مؤثرًا للأدب ، مفرطًا في إكرام من يُنسب إلى شيء من ذلك ، ويفد عليه متوسلاً به »[٢] .

وكان من مشاهير الشعراء الذين وفدوا عليه شاعرنا القسطلي الذي كان كما قال عنه ابن بسام : « ممن طرحت به الفتنة الشنعاء ، واضطرته إلى النجعة ، فاستقرى ملوكها أجمعين ، ما بين الجزيرة الخضراء ، فسرقسطة من الثغر الأعلى ، يهز كلاً بمديحه ، ويستعينهم على نكبته ، وليس منهم من يصغي له ، ولا يحفظ ما أضيع من حقه ، وأرخص من علقه ، وهو يخبطهم خبط العضاة بمقولة فيصمون عنه »[٣] .

ابن درَّاج مدح جميع الملوك في تلك الفتنة ، ولكنه لم يجد منهم إلا الغدر والخيانة .

ويقول عنه إحسان عباس : « فقد حولته الفتنة إلى متسكع على الأبواب هارب من أشباح الجوع ، ينقل معه أولاده حيثما انتقل »[٤] .ابن

---

(١) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، د / أحمد هيكل ، ص ٣٤٩ .

(٢) تاريخ آداب العرب ، مصطفى صادق الرافعي ، ص ٢٤٨ .

(٣) الذخيرة ، لابن بسام ، ص ٦٠ ، ق ١ ، م ١ .

(٤) تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة ، د / إحسان عباس ، ص ٢١٣ .

درَّاج من الشعراء الذين تأثروا بالفتنة البربرية ، هـــذه الفتنـــة جعلتـــه ينتقـــل مـــن مكان إلى آخر ، ومن أمير إلى آخر ، مادحًا لهم بـــأنهم قـــد آوَوْا غربتـــه، وأبعـــدوه هو وأبناءه عن حياة التشرد والاغتراب ، ولكن ما يلبـــث القـــسطلي حينمـــا تثـــار الفتن أن يعود إلى الانتقال وإعادة الكَـــرَّة مـــرة أخـــرى ، أو إذا « كـــان العطـــاء هزيلاً لا يشجع الشاعر على الاستمرار في مدحه يجعله يبحـــث عمـــن يجـــزل لـــه العطاء »[1] .

هكذا كانت حياته الانتقال والترحـــال ، ممـــا جعلـــه يفتقـــر إلى الأمـــن ، والهدوء ، وجعله يبحث عن الظل القوي ، واليـــد القويـــة الحانيـــة عليـــه ، والـــتي تحميه من غدر الأيام . وهذا ما جعله – أيـــضًا – يكثـــر المـــديح حـــتى « صـــار المدح لغذاء روحه كـــالملح لطعـــام جـــسمه »[2] ، ولكـــن عـــدم وجـــود الآذان الصاغية له أمرٌ جعله يشعر بأنه ضيف غريب عـــن ذلـــك الأمـــير أو الملـــك الـــذي يمتدحه ، ومن ذلك قوله[3] :

وصَرَّت بها أقلامُ ضَيْفِكَ صَرَّةً

تصرّ لها الآذانُ بصرى وجاسِمُ[4]

---

(١) الغربة في الشعر الأندلسي عقب سقوط الخلافة ، د / أشرف علي دغرور ، ص ٦٦ .

(٢) تاريخ آداب العرب ، لمصطفى صادق الرافعي ، ص ٢٥١ .

(٣) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٣٦ .

(٤) بُصرى : قصد هنا البصرة ، والبصرى : هي أرض حجارتها جص وجاسم . موضع بالشام .

ويُقصد بأقلام الضيف درره الشعرية التي ألقاها على ذلك الحاكم وسمعه صَــرَّة من الناس، وربما قصد بتلك الصرة أو الجماعة الوزراء والقضاة ، أو ممن كان في حضرة ذلك المجلس ، ولكن صوت تلك القصائد قد تجاوز آذان تلك الجماعة ، ووصــل إلى جميع أرجاء البلاد .

وقال أيضًا(١) :

وأَنْ يَــسمعوا مــن ضــيفهِ في ثنائــهِ

غَرائب حلى مِــنْ جواهِرِهَــا الــدنيا

وإذا نظرنا إلى معنى (السياسة) وجدنا أنها تعني : القيام علــى الــشيء بمــا يصلحه، والقائم بالشيء بغرض إصلاحه هو الوالي أو الحاكم في الدولة المتصرف فيها ، ومالك أمر الرعية ، فإذا لم يصلح الحاكم أمر رعيته ، ولم يسمع ما يسوؤهم سينتج عن ذلك الشعور بالغربة، خاصة إذا كان ذلك الشخص ممن ألف الاقتــراب مــن بــلاط الحكام.

فانتشار الغدر والخيانة من قبل أولئك الحكام جعل ابــن درَّاج يــشعر بغربــة سياسية بسبب تلك الفتنة الشنعاء . يقول الدكتور أشرف نجا : « كما جعلت شاعرًا كابن درَّاج على فحولته ، ومتانة نسجه الشعري ، وحساسية مزاجه ، واستواء خلقه ، وترفعه عن المجون والتحرر ، رجلاً متشردًا كثير التنقل والارتحال برًّا وبحرًا بين حكــام الطوائف ؛ ليخطب ودَّ المقربين منهم للشعراء ، والمشجعين لهم بالهدايا والأموال ؛ علَّه يجد في رحابهم ما يفي بحوائجه وحاجات أسرته المادية والمعنوية »(٢) .

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٥٤ .

(٢) قصيدة المديح في الأندلس ، قضاياها الموضوعية والفنية ، عصر الطوائف ، د/ أشرف محمود نجا ، ص ٢٢١.

هذه الفتنة وهذه الأجواء المشحونة بالغدر جعلت ابن درَّاج مغتربًا كبيرًا «قــد تجاوز الخمسين عندما نشبت الفتنة ، ولكن تلك الحادثة أثرت في نفــسيته وشــعره ، وتحولت به تحولاً ما لم تستطع أن تحدثه تلك السنوات الطوال التي عاشها قبلها »[١] .

ومع هذا فقد عبَّر ابن درَّاج عن غربته وعن مدى حاجته للاستقرار مما دفعه إلى أن ينتقل، فشعر بغربة سياسية؛ لأنه لم يكافأ من قِبَل هؤلاء الحكام بما يستحق من كرم وحسن معاملة . فيضطر إلى الرحيل ليعيش في عالم حزين ذليل ، فقد كان القــسطلي يعيش في تلك الأراضي كالأرجوحة التي تميل به في كل مكان ، حيث كانت الفتنــة البربرية الشنعاء سببًا في تمزيق كيان الدولة الأندلسية ، كما كانت – أيضًا – عاملاً في تمزيق شمل الأندلسيين بصفة عامة ، وشمل ابن درَّاج بصفة خاصة ، إذ جعلته يشعر بأنه غريب في كل مكان ، وعند أي حاكم أو ملك ، وهذا أسوأ من الموت ذاته ، ولكــن ابن درَّاج استطاع التقاط الكلمات التي تجوب في خاطره ، فعبر عن إحساسه مادحًــا أولئك الملوك بأنهم أنجدوه وأبعدوه عن حياة الغربة ، وهذا ليس أمرًا حقيقيًّا ، وإن كان فهو لفترة يسيرة ، فحين تنقلب عليه الأمور ، يعود إلى سابق عهده مغتربًا .

إنما قال ذلك رغبة منه وأملاً في الاستقرار تحت شخصية قوية قــادرة ، وقــد آثرنا في هذا البحث أن نبدأ في استعراض القصائد التي نظمها ابــن درَّاج في أولئــك الحكام الذين انتقل إليهم مادحًا إياهم على أنهم أبعدوه عن حياة التشرد والغربة .

ورأينا أن نبدأ بالقصائد التي استطاع محقق الديوان إثبات التاريخ الذي قيلــت فيه القصيدة لتتبع رحلاته ، ولكننا وجدنا صعوبة في ذلك ؛ لأن معظم قــصائده ، لم يستطع المحقق توثيقها تاريخيًّا .

(١) تاريخ الأدب الأندلسي ، د / إحسان عباس ، ص ٢١٣ .

فمن الأبيات التي تـــدور حول هذا الموضوع (الغربة الـــسياسية) قولـــه في المنصور بن أبي عامر ، سنة (٣٨٢هـــ) اثنتين وثمانين وثلاثمائة[١] :

إليكَ منكَ فرارُ الخَـــائِفِ الوَجِـــلِ[٢]

وفي يَـــدَيكَ أمـــانُ الفـــارس البَطَـــلُ

تَقابَلَـــتْ نَحْـــوَكَ الآفـــاقُ واجْتَمعَـــتْ

على يَمِينِكَ شَـــتَّى الطُّـــرْقِ والـــسُّبُلُ

فمن خلال الأبيات تتراءى خيوط خفيفة وراء هذا المديح الذي نـــسجه ابـــن درَّاج ، والذي يحمل عليه طلب الأمن والاستقرار في ظل المنصور بعيدًا عـــن الغربـــة والتشرد ، فالخائف الذي يفر أو يهرب من شيء يرعبه يتجه إليه ، وكـــذلك الأمـــان الذي يهفو إليه الفارس يجده عند المنصور كما أن جميع الآفاق قد اجتمعـــت وتـــرابط شملها في حمى المنصور بعد أن كانت متفرقة السبل .

هذه الأبيات تشير إلى أن ابن درَّاج نفسه هو الخائف من الغربة والغدر ، وهـــو الذي – أيضًا – يفتقد الأمان ، كما أنه هو – أيضًا – صاحب الشمل المشتت .

ويقول في ابن المظفر ، محمد بن عبد الملك بن أبي عامر ، وتاريخ هذه القصيدة بين سنتي (٣٩٢هـــ - ٣٩٨هـــ)[٣] :

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٣٥٠ .

(٢) الوَجَلُ : الفزع والخوف .

(٣) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٦ .

فـــآن يـــا نفـــسُ أن تُـــسَري

بِكـــلِّ مـــا شِـــئْتِ أن تُـــسَرِّي

وَحَـــانَ يـــا عَـــيْنُ أَنْ تَقَـــرِّي

بِكُـــلِّ مـــا شِـــئْتِ أن تَقَـــرِّي[1]

غَيـــثُ سَـــحَابٍ غَيْـــثُ جُـــودٍ

وطيـــبُ عَـــرْفٍ وطِيـــبُ ذِكْـــرِ

وتعلو نبرة الأمل والتفاؤل بالخير والسرور في ظل محمد بن أبي عـــامر ، فكـــم كانت نفسه تحلم وتتمنى أن تسر وتطرف ، وقد حان الوقت لذلك ، وإن كانت عينه تعشق القرار فقد حان لها الوقت أن تهنأ وتقرَّ بكل ما تريد أن تقرَّ به .

إذًا بلغ الأمل والتفاؤل في نفس القسطلي مبلغه فلماذا هذا الاستبشار ؟

لأنه يعلم يقينًا بأنه سيقف تحت غيث كريم كثير العطاء والجود ، فينال طيـــب المقام وأجلَّ مكان ، وفي المظفر عبد الملك حين ولي ابنه الوزارة وهو محمد بن عبدالملك بن أبي عامر .

وقد قيلت القصيدة سنة (٣٩٨هـــ) يقول[2] :

أَنْتَ الـــذي فرَّجْـــتَ عَنِّـــي كُرِبَـــةً

للدَّهْرِ قد سَـــدَّتْ عَلـــيَّ رِتاجَهَـــا[3]

(١) تقري : القرار : الهدوء والسكون ، ورؤية كل ما هو متشوق لرؤيته .

(٢) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٤ .

(٣) الرِّتاج : الباب المغلق ، أو الطريق الضيق .

وَجَلَوْتَ لي فَلَقَ[1] المُنَـى مـن ليلـةٍ

طاوَلَتْ في ظُلَمِ الأسَـى إدْلاجَهـا[2]

وَسَقَيْتَني مـن جُـودِ كَفِّـكَ مُنْعِمًـا

كأْسًا وجدتُ مـن الحيـاةِ مِزَاجَهـا

وهنا يفرِّج عنه المظفر همه وضيقه، ذلك الهم الذي صوبه إليه الدهر ، فأصاب الصميم، ولكن ما هو هذا الهم أو ما هي هذه الكربة ؟

إنه همُّ الغربة ، وكربة الرحيل والانتقال ، فهو بهذا التفريج أزال عنه الظلم والحزن ، هذا الظلم الذي طال في الإحاطة به حتى انغمس وأدلج في بحور الحزن والأسى ، ولكن المظفر أخرجه من ذلك الهم بجوده وكرمه ، فسقاه كأس النعيم ، فما هو هذا الكأس ؟

إنه كأس الحظوة بنيل القرب من المظفر .

وقوله – أيضًا – في علي بن حمود سنة (٤٠٤هـ) أربع وأربعمائة[3] :

إلى المُستْجارِ مـن المُستَجيرِ[4]

إلى المُستْقالِ مِـنَ المُستْقيلِ[5]

إلى المُستـضافِ المليـكِ العَزيـزِ

مِـنَ المُسْتـضيفِ الغريـبِ الـذَّليلِ

---

(١) الفلق : الفجر .

(٢) الإدلاج : سير الليل كله .

(٣) ديوان ابن درَّاج ، ص ٦٧ .

(٤) المستجار : الذي يمنعه أو يمنع عنه الظلم ، والمستجير : السائل أن يمنع عنه الظلم .

(٥) المستقال : المطلوب منه ، والمستقيل : الطالب ، وأقال بمعنى صفح .

سَـــلامٌ وأَنْـــتَ ابْـــنُ بَـــدْءِ الـــسَّلا
مِ مِـــنْ ضَـــيْفِهِ المُكْـــرَمينَ الـــدُّخولِ
غَـــداة يُـــضيفُ أَهْـــلِ الـــسَّماءِ
إلى مَنْـــــزِلٍ آلـــــفٍ للنَّزيــــــلِ

هو الذي سيجيره من جور وغدر الأيام ؛ لأنه هو المستجير وهو الحامي الـــذي سيدفع عنه ألم الغربة ؛ لأنه هو – أيضًا – المستضيف الذي يحسن إكرام ضيفه الغريب الذليل ، فيضعه في أجلِّ وأعلى منـــزلة . وقد تجاوز به الكرم وحسن الضيافة إذا أصبح هو المقصد الذي يقصده الغرباء حتى أَلِفُوا هذا النـــزل الكريم .

وفي المرتضى آخر ملـــوك بني مروان ، وهو عبد الرحمن بن محمد بن عبدالملك بن عبد الرحمن الناصر ، انتقل إلى بلنسية حيث قام بأمره خيران العامري ، ومنذر بـــن يحيى التجيبي في سنة (٤٠٧هـــ - ٤٠٨هـــ) يقول[١] :

مَـــسَرَّتُهُ مَـــأْوَى الغَريـــبِ وسِـــتْرُهُ
ولَذَّتُـــهُ خَيْـــرُ المُقِـــلِّ[٢] ورِفْـــدُهُ[٣]

فما الذي يدخل السرور والفرح إلى قلب المرتضى ؟

إنه إيواء الغريب وستره ، أما لذته فهي تقديم العون والمساعدة للفقراء .

ويمدح المهدي محمد عبد الجبار بأنه حليم قد آواه تحت ظله ، وتـــاريخ هـــذه القصيدة على ترجيح محقق الديوان سنة (٣٩٩هـــ) يقول[٤] :

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٦٩ .
(٢) المُقِلُّ : الفقير .
(٣) رفده : الإعانة .
(٤) ديوان ابن درَّاج ، ص ٤٣ .

قُــلْ لِلخِلافَــةِ قَــدْ بَلَغْــتِ مُنــاكِ
ورَأَيْــتِ مــا قَــرَّتْ بِــهِ عَيْنــاكِ
مَهْــــدِيُّ أُمَّــــةِ أَحْمَــــدَ وكَرِيمُهـــا
وحَلِيمُهـــا يَـــأْوِي إِلَـــى مَـــأْوَاكِ

ويقول في خيران العامري سنة (٤٠٧هـ) سبع وأربعمائة[١] :

لَكَ الخَيرُ قَدْ أَوْفَى بِعَهْـدِكَ خـيرانُ
وَبُــشْراكَ قَــدْ آواكَ عِــزٌّ وسُــلْطانُ

يلقي ابن درَّاج بين أيدينا هذه القصيدة المفعمة بروح التفاؤل والاستبشار بالخير الذي سيجده في حمى السلطان خيران العامري ، ولكن « لم يكافئ خيران هذا النفس الطويل بما يستحـق ، فبخسه حظه في الجائزة ، وسمع بذلك طبيب فاضل اسمه أبـو جعفر بن جواد ، فقصد ابن درَّاج بخمسة عشر مثقالاً ودفعها إليه ، وقال له : « اعذر أخاك فإنه في دار غربة »[٢].

ويقول في المنصور بن يحيى سنة (٤٠٨هـ) ثمان وأربعمائة[٣] :

بُشْراكَ من طُولِ التَّرَحُّـلِ والـسُّرَى[٤]
صبحٌ بِرَوْحِ الـسَّفْرِ لاحَ فأسْـفَرا[٥]
مِنْ حاجِبِ الشَّمْسِ الذي حَجَبَ الدُّجَى

---

(١)ديوان ابن درَّاج ، ص ٧٣ .
(٢) جذوة المقتبس ، للحميدي ، ص ٣٠٧ .
(٣) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٠٢ – ١٠٣ .
(٤) السرى : المضي ليلاً .
(٥) السفر : الفجر ، وأسفر بمعنى طلع الفجر وأشرق .

فَجْــــرًا بأنْهــــارِ النَّــــدَى مُتفَجِّــــرًا

القسطلي يستبشر بالخير والاستقرار في رحاب المنذر ، فلا رحيل في النهار ولا سرى في الليل ؛ لأن حاجب الشمس - وهو المنذر - سيحجب عنــهم الترحـــال في دياجي الليل المظلم .

ويقول فيه – أيضًا – في السنة نفسها[1] :

وإلَيْكَ (يا منصور) حَطُّــوا أَرْحُــلاً

لَعِبَـــتْ بِهِــنَّ تَنَـــائِفٌ وَبِحـــارُ[2]

فَزَعًــا إليْــكَ مِــنَ الجَــلاءِ بأَوْجُــهٍ

في كُـــلِّ عــــامٍ للجَـــلاءِ تُثــــارُ

ورَأَوْا بِقُرْبِكَ أنَّهُــمْ قَتَلُــوا النَّــوَى

فاسْـــتُحْييتَ واهـــا عَلَـــيْهم ثـــارُ

ويقول في المظفر يحيى بن المنصور سنة (٤١٢هـــ - ١٠٢٢م)[3] :

تُـــشَرِّدُ آفـــاقُ الـــبِلادِ فَتُؤُونَـــا

وَتَجْــرَحُ أَيْــدِي النَّائبــاتِ فَتَأْسُــونَا

تُداوونَ مِنْ رَيبِ الزَّمــانِ فَتَــشْفَوْنَا

وتسْقونَ مِنْ كَــأْسِ الحَيــاةِ فتُرْوُونَــا

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٢٩ .

(٢) نتائف : القفر من الأرض وهي المفازة .

(٣) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٠٢ .

إن ابن درَّاج قد تشرد في فيافي الأرض وجرحته المصائب والنوائب ، وهو بحاجة ماسة إلى من يأويه ويواسيه ويداوي جروحه وآلامه ، ولذلك حطَّ رحاله عند المظفر ، الذي سيسقيه من كأس الحياة ويرويه بعد ظمأ الغربة والتشرد .

وله في المنذر بن يحيى بن منذر في سنة (٤١٦هـ) ، يقول(١) :

فإنْ نُؤْوِ منْها يا (مُظَفَّرُ) غربةً
فَنازِحَةُ الأوْطانِ مُؤْيِسَةُ الرَّجْعِ

وإنْ أعْلَقَتْ في حَبْلِ مُلْكِكَ حَبْلَها
فحَبْلٌ من الأحْبابِ مُنْصَرِمُ القَطْعِ

وإنْ أخْصَبَتْ في زَرْعِ نعماكَ رَعْيَها
فَكَمْ قدْ تَخَطَّيْتَ واديًا غَيْرَ ذي زَرْعِ

وإنْ أرْفَهَتْ في بَحْرِ جُودِكَ شِرْبَها(٢)
فَمِنْ ظِمْإِ عشرٍ في الهَجِيرِ إلى تِسْعِ(٣)

ويخاطب المظفر منذر بن يحيى قائلاً : إن الغربة والنزوح عن الوطن أمر مؤيس، ومؤلم كما أن الرجوع والاستقرار في الوطن أمر بدا صعبًا إلا في ظل المظفر ، كما أن حبال الود في رحاب المظفر متصلة ، ولكن حبل الأحباب وودهم قد انقطع ، كما أن حياتهم قد أخصبت وترعرعوا في النعيم والرخاء بعد أن تخطوا أودية وأراضي خالية من الزرع ، وفي هذا إشارة إلى قصة سيدنا إبراهيم u وفي ظل المظفر منذر

(١)ديوان ابن درَّاج ، ص ٢١٥ – ٢١٦ .

(٢) الشرب : الحظ من الماء .

(٣) ظِمْإ : ما بين الشربين والوردين ، وربما قصد أنه لم يبق من رحلتهم سوى الشيء اليسير .

أغرقهم بجوده وكرمه من بعد ظمأ وعذاب ، وقصد بقوله : فمن ظلم عشير إلى عـــدد أبنائه ، وقال – أيضًا – في منذر بن يحيى بن منذر التجيبي سنة (٤١٦هـــ) [١] :

فأصبحَ حَمْدِي فِيكَ مُلْتَحِمَ السَّدى[٢]

كما راحَ شَمْلي فيكَ مُلْتَـــئِمَ الجَمْـــعِ

فثناء ابن درَّاج واعترافه بكرم المنذر أصبح ثناءً متصلاً نديًّا كما أن شمله غـــدا ملتئمًا وملتحمًا ، ويقول في مجاهد العامري سنة (٤١٩هـــ) [٣]:

إلى أيِّ ذكْـــرٍ غَـــيرِ ذِكْـــرِكَ أرْتـــاحُ

ومِنْ أيِّ بَحْـــرٍ بعـــدَ بَحْـــرِكَ أمْتـــاحُ

إليكَ انتهَى الرَّيُّ الذي بـــكَ يَنْتَهِـــي

ولاحَ لِيَ الرَّأْيُ الذي بِـــكَ يَلْتـــاحُ[٤]

وفي مائِكَ الإغْداقُ والصَّفْوُ والـــرَّوى

وفي ظِلِّكَ الرِّيْحانُ والرَّوْحُ والـــرَّاحُ[٥]

بعد أن طرق ابن درَّاج أبوابًا كثيرة ، ألم يحن له الوقت بحياة مستقرة وهـــدوء يحيط به بعد طول عناء ومشقة وغربة ؟

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢١٧ .
(٢) السَّدى : النسج .
(٣) ديوان ابن درَّاج ، ص ٤٠٤ – ٤٠٥ .
(٤) يلتاج : يظهر .
(٥) الروح : رحمة ورزق ، أو استراحة وبرد ، والراح : المكان .

هذا السؤال الذي يملأ فؤاد القسطلي ، فانفجر في صيغة سؤال الحائر الذي انقطعت عنه كل السبل والطرق ، فلم يجد أمامه غير طريق واحد .

مجاهد آخر آماله ، فهو أمله ورجاؤه الأخير ، فأي ذكر غير ذكر مجاهد يُريح فؤاد هذا المغترب المهدور المغدور الذي صاغ درر شعره جواهر نفيسة ، وأملى له عقله ، إنه سيجد بمقابلها كل الأمان وكل الاطمئنان ، ولكن ماذا كانت النتيجة ؟ غربة دائمة وعذاب دائم ، ولكن هذه الغربة ستنجلي وتنتهي عند مجاهد لأنه مغدق في كرمه وفي ظله الراحة والاستقرار .

وقال في المنذر بن يحيى(١) :

وَأَنْتُمْ سَقَيْتُمْ ثَراةَ اغْتِرابي
سِجال(٢) الغمامِ وصَوْبَ الغَوادي(٣)

ويهنئ كل غريب تغرب في البلاد بأن غربته ستنقضي لأنه سينزل عند المنذر، يقول(٤) :

وهَنيئًا لَنا وللدِّينِ والدُّنْيا
وللبِيضِ والقَنا والجيادِ
وغَريبٍ تَهْوي بِهِ كُلُّ أرضٍ
وشَريدٍ يَنْبُوبُهُ كُلُّ وادِ

---

(١) ديوان ابن درّاج ، ص ٤٢٥ .
(٢) سجال : الدلو ممتلئ بالماء .
(٣) الغوادي : السحابة تنشأ فتمطر غدوة .
(٤) ديوان ابن درّاج ، ص ٢١١ .

يقول الدكتور إحسان عباس : « على أنه في هذه الفترة مثال الشكور العارف بالجميل لا يزال في كل حين يذكر صنيع المنذر لديه ، وما لقيه من راحـــة وأمـــن في ظله»[(١)] .

حيث يقول[(٢)] :

وَجَزاءُ مـــا آوَيْـــتَ وَحْـــشَ تَغـــرُّبِي
وفَسَحْتَ رَوْضَكَ لارْتِعاءِ سَـــوَامِي[(٣)]
وفَعَمْـــتَ لي بَحْـــرَ الحَيـــاةِ مُبـــادِرًا
بِحَيـــاةِ ذابِلَـــةِ الكُبُـــودِ ظَـــوامِي[(٤)]
وَبَسَطْتَ لي وَجْهًـــا كَـــسَفْتُ بِنـــورِهِ
كُـــرَبَ الجَـــلاءِ وخَلَّـــةَ الإعْـــدامِ
وَوَجَدْتُ ظِلَّكَ بَعْـــدَ يَـــأْسِ تَقَلُّبِـــي
وَطَـــنَ الرَّجـــاءِ وَمَنْـــزِلَ الإكْـــرامِ
فَكَأنَّ وَجْهَكَ غُـــرَّةُ الفِطْـــرِ الَّـــذِي
وافَى بِفِطْـــرِي بَعْـــدَ طُـــولِ صِـــيامِي

إن المنذر قد آواه بعد أن عانى وحشة الغربة ، فأوسع له المقام ، وبسط عليـــه الرزق ببحر عطائه وجوده ، فرد الحياة إليه وبعثها في روحه من جديد بعـــد أن ذبـــل كبده من الظمأ ، فأدخل السرور إلى قلبه حتى استبشر وجهه بعد أن كسف من كثرة الكروب والمصائب ، وقلَّة الإخوان ، فوجد الظل والمنـــزل بعد اليأس الذي تقلب فيه،

---

(١) تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة ، للدكتور / إحسان عباس ، ص ٢٣٠ .

(٢) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٨٠ .

(٣) السوام : كل ما رعى من المال في الفلوات إذا خلى .

(٤) الكبود : جمع كبد وهي اللحمة السوداء في البطن ، وربما أراد بها معنى العناء والشقاء .

فكأن وجه المنذر أولَّ يوم يفطر فيه الصائم بعد طول صيام ومكابدة ، وهذا دليل قاطع على أن ابن درَّاج لم يجد أحدًا يلتفت إليه ، فجسَّد أمله كله في كل ملك يقرع بابه .

ويقول فيه – أيضًا[1] :

يا مُـــدْنِي الأمـــلِ البَعيـــدِ وإنْ نَـــأَى
ومُبْعِـــدَ الخَطْـــبِ الجَليـــل وإن دَنـــا
ومُـــسَلِيَّ الغُربـــاءِ عَـــنْ أَوْطـــانِهِمْ
حَتَّـــى تبَـــوَّأَ كُـــلَّ قَلْـــبٍ مَوْطِنَـــا

وهو هنا يقرب الأمل وإن كان بعيد النيـــل والمطلـــب ، ومبعـــدًا للخطـــوب والمصائب ، وإن كانت عظيمة وقريبة ، وهو – أيضًا – مؤنسًا ومسليًا للغرباء الـــذين نأوا عن أوطانهم؛ لأنهم وجدوا قلبًا كبيرًا يرحب بكل مغترب ، فأصبح هـــو وطنـــه وداره،ويقول فيه – أيضًا[2] :

فَـــإنْ تَـــضَايَقَتِ الـــدُّنْيا بِمُغْتَـــرِبٍ
(فمنذرُ) بعدُ رَحْبُ الـــصَّدْرِ واسِـــعُهُ
وإنْ دَجَا فلقٌ[3] يوْمًـــا بِـــذِي أَمَـــلٍ
فَذُو الرِّياساتِ[4] طلقُ الليلِ ناصِـــعُهُ[5]

---

(1) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٢٠ .

(2) المصدر السابق ، ص ١١٨ .

(3) فلق : الشق .

(4) الرياسات : الكبير .

(5) ناصع : شديد البياض .

وَمَـــنْ سِـــواهُ لِمَقْطـــوعٍ أَواصِـــرُهُ

وَمَـــنْ سِـــواهُ لَمـــرْدُودٍ شَـــوافِعُهُ

فإن ضاقت الأرض بما رحبت ، و لم يجد ذلك المغترب مكانًا يحويه ويرحب به ، فإن منذر واسع الصدر كثير الترحيب به ، وإن شقَّ عليه يومًا تحقيق حلمـــه وأملـــه، فمنذر قادرٌ على ذلك؛ لأنه هو كبيرهم ورئيسهم ، فهو مثل الأمر الناصع الذي يظهر في ظلمة الليل ، وهو – أيضًا – الواصل لكل شيء تقطعت أواصره ، ورافعًا للظلم عن كل مظلوم ومشفوع .

ويقول فيه – أيضًا[1] :

رَأَيْـــتَ لَنـــا مَوْضِـــعَ الحَـــقِّ فيهـــا

بِمَـــا قَـــدْ (أَرَتْـــكَ) المَقـــادِيرُ فِينـــا

فَنَـــادَى نِـــداكَ بَهـــا نَحْوَهـــا

ســـلامٌ لَكُـــمْ فـــادْخُلُوا آمِنينَـــا

لَكُـــمْ ذِمَّـــةُ اللهِ فِي صِـــدْقِ عَهْـــدِي

فَـــلا خَـــائِفِينَ ولا مُخْرَجِينـــا

فَظَلَّـــتْ تُـــنَفِّسُ عَـــنْ رُوحِهَـــا

غَرِيبًـــا سَـــلِيبًا وَنَـــضْوًا حَزِينَـــا[2]

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٩٧ .

(٢) النِّضْو : الدابة التي هزلتها الأسفار .

فالمنذر هو الحاكم القائم على أمر الدولة ، فكان من سياسته أن أجزل لهم العطاء وأكرم مثواهم ، فعاشوا حياة يملؤها السلام والأمان ، ووعدهم بذلك وكان عهده وعد صدق وحق ، فقد عاشوا تحت ظله وكنفه حياة بعيدة عن كل المنغصات من خوفٍ وفقرٍ وخروجٍ من الديار ، فظلَّ المنذر كذلك ينفس عنهم كربهم ويجلو عنهم مصائبهم ، كما كان ينفس عن كل غريب سلب من كل شيء ، حتى عاد هزيلاً قد أهزلته وأرهقته الأسفار فرُمِيَ في دياجير الحزن والألم .

ويظل ابن درَّاج يكثر الحديث والإشارة إلى منوال المنذر وكرمه وما يأمله ويرجوه لديه من استقرار وأمان .

والسؤال الذي سيرد في ذهن القارئ بعد هذا الثناء والشكر : **ما الذي دعا ابن درَّاج أن يتركه ويرحل إلى حاكم آخر ؟ وماذا فعل به المنذر حتى يتوقد لديه الإحساس بالغربة ؟**

إن رحيل ابن درَّاج عنه دليل واضح على أنه لم يلتفت إليه ، ولم يضعه في المكانة التي يستحقها شاعر كابن درَّاج ، يقول إحسان عباس : « في ظل منذر لا يزال يحس بالفقر ، دع عنك إحساسه بالغربة »(١) .

ويقول في ابن المنصور ، يحيى بن أبي عامر(٢) :

وفي اسْمِ المُظَفَّرِ فألُ الحياةِ
لِيَحْيا الغَريبُ بِهِ والمُقيمُ
يُبَشِّرُنَا بِسَناهُ الصَّباحُ(٣)

(١) تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة ، د / إحسان عباس ، ص ٢٢٧ .
(٢) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٢٩ .
(٣) السنا : الضوء .

وتُخْبِرُنـــا عـــن نَـــداهُ الغُيـــومُ

فَفي كُــلِّ بَحْــرٍ لَنــا مِنْــكَ شِــبهٌ

وفي كُلِّ فَجْــرٍ لَنــا فِيــكَ خِــيَمُ[(١)]

وَمَرْعـــاكَ في كُـــلِّ أَرْضٍ نَـــرُودُ

وسُـــقْياكَ في كُـــلِّ بَـــرْقٍ نَـــشِيمُ[(٢)]

وفي كُـــلِّ نـــادٍ مُنـــادٍ إِلَيْـــكَ

هَلُـــمَّ إلى حَيْـــثُ يُغْنَـــى العَـــدِيمُ

هَلُـــمَّ إلى حَيْـــثُ تُنْـــسَى الرَّزَايـــا

هَلُـــمَّ إلى حَيْـــثُ تُؤْسَـــى الكُلُـــومُ[(٣)]

هَلُمَّ إِلَـــى حَيْـــثُ يُـــؤْوَى الغَريـــبُ

هَلُـــمَّ إلى حَيْـــثُ يُحْمَـــى الحَـــرِيمُ

فالمظفر هو فأله وأمله في هذه الحياة ؛ لأنه يحيي الغريب والمقيم بكرمه وعطائه ، ولذلك فقد بشَّره المجد وأخبرته الغيوم عن كرم وعطاء ممدوحه ، فهو البحـــر الـــذي سيقيم عنده ، ولن يبرحه أبدًا لأنه سينسيه الهموم ، ويداوي جروحه وآلامه ، ويؤويه ويحميه .

ويقول فيه – أيضًا[(٤)] :

---

(١) خيم : السجية و الطبيعة .

(٢) نشيم : تبدى وظهر .

(٣) الكلوم : الجروح .

(٤) ديوان ابن درَّاج ، ص ٤٤٥ – ٤٤٦ .

هَرَبْنَـــــا إلَـــــيْكُمْ فآوَيْتُمُونَـــــا

وَخِفْنَـــا الحُتُـــوفَ فأمَّنْتُمونَـــا[1]

وشَـــرَّدْنا الـــسَّيْفُ مِـــنْ أَرْضِـــنَا

سِـــرَاعًا إلَـــيْكُمْ فآسَـــيْتُمُونَا[2]

وهَـــوَّنَ أقْـــدَارَنا الاغْتِـــرابُ

عَلَـــى كُـــلِّ خَلْـــقٍ فأَكْرَمْتُمونَـــا

إلى أن قال :

وَآواكُـــــــمُ اللهُ في ظِلِّــــــهِ

مُقَارَضَـــةَ حِـــينَ آوَيْتُمُونـــا[3]

فابن درَّاج هرب إلى يحيى فآواه ، وخاف من الهلاك فأمن له الحيـاة الهادئـة ، وهرب ابن درَّاج من سيوف الفتنة والمعارك القائمة ، فخرج من وطنه ، فأحطه يحـيى بكرمه وهون عليه الاغتراب بجوده .

ونرى معادلة الإيواء والدعاء وجمع الشمل تتكرر – أيضًا – عند مدح المنصور بن أبي عامر ، يقول[4] :

رَعَى اللهُ (للمنـصور) نُـصْرَةَ دِينِـهِ

فَجازَاهُ خَيْرَ ابْـنٍ تَـلا خَيْـرَ والِـدِ

(١) الحتوف : الموت والهلاك .

(٢) فآسيتمونا : عالجتمونا .

(٣) مقارضة : جزاء ما أخذته .

(٤) ديوان ابن درَّاج ، ص ٣٤٥ .

وأيَّدْ هـــذا المُلْـــكَ والـــدِّينَ منْهُمَـــا
بأيْمَنَ[1] يُمْنَى ساعَدَتْ خَيْـــرَ ســـاعِدِ
فَيا جَامِعَ الإسْـــلامِ شَـــمْلاً وتَارِكًـــا
دِيارَ الأعَـــادِي مُوحِـــشاتِ المَعَاهِـــدِ

إلى أن قال :

ولا زِلْـــتُمْ مَـــأْوَى غَريـــبٍ وآمـــلٍ
ومَفْـــزَعَ مَلْهُـــوفٍ وفرْصَـــة قاصِـــدِ

ووصف المنصور بن أبي عامر – أيضًا – بأنه مأوى لكل غريب تكبَّد الأرض وكـــافلاً لكل يتيم فقد أحد أبويه ، يقول[2] :

وَحَوى عنِ (المنصور) غُـــرَّ شَـــمائلي
قَـــادَتْ لـــهُ الـــدُّنْيا بِغَيْـــرِ زِمـــامِ
يـــا رَبَّنـــا فـــاحْفَظْ عَلَيْنـــا منْهُمـــا
ذُخْـــرَ الرجـــاءِ وعُـــدَّةَ الإســـلامِ
يا مُوسِـــعَ الـــرَّاجينَ إفْـــضالاً ويـــا
مَـــأْوَى الغَريـــبِ وكَافِـــلَ الأيْتـــامِ

والمكوث تحت ظل المنصور يعوضه البُعد عن الأهل والوطن ، يقول[3] :

---

(١) أيمن : جمع يمين ، وهو نقيض اليسار.
(٢) ديوان ابن درَّاج ، ص ٣٦١ .
(٣)المصدر السابق، ص ٣٠١ .

وأجـــــارَ خَلْــــقَ اللهِ فـــــاعْتَرَفوا

عِوَضًـــا مِـــنَ الأوْطـــانِ والأهْــــلِ

والذي جعله يشعر بهذا الإحساس قيام المنصور برد جور الأيام عنه ، تلك الأيام التي أشبعته ألمًا وعذابًا ، فقد قرض أيامه بالسير نهارًا ، والإدلاج ليلاً ، يقول[1] :

لا وَمَـــــــــنْ آوَى اغْتِـــــــرَابي

وشَـــــــفَى حَـــــــرَّ مُـــــــصابي

وَكَفـــــاني صَـــــرْفَ الـــــدَّهْرِ

ســـــامَني سُـــــوءَ العَـــــذابِ

ويأويه وينصره كما آواه ونصر خلقًا كثيرًا ، يقول[2] :

هُمُ الَّذينَ (هُمُ) آوَوْا وَهُــمْ نَــصَرُوا

لَمَّا أتاهُمْ مِنَ الــرَّحْمَنِ مــا عَرَفُــوا

ويمدح المنصور بأنه بوأه المكانة المرموقة وأكرم نزله وجمع شمله ، يقول[3] :

بِنَــــسْبَتِنَا في رقِّ مَـــوْلىً أضـــافنا

فبَوَّأَنـــا الإكْـــرامَ والمَنْــزلَ الرَّحْبـــا

وحَسْبكِ و(المنصور) جــامِعُ شَــمْلِنا

وكُنْتِ لَهُ شَــرْقًا وكُنْــتُ لَــهُ غَرْبًــا

---

(١)ديوان ابن درَّاج ص ٣٠٢ .

(٢)المصدر السابق، ص ٣٠٤ .

(٣) المصدر السابق، ص ٢٩٩ .

ويقول – أيضًا[1] :

فَبَيْنَ يَـــدَيْكَ أصْــبَحَ فَــضَّ شَــمْلي

أليـــفَ الـــشعْبِ مُتَّـــسِقَ النِّظَـــامِ

وعِنْدَ حِمــاكَ أمْــسَى نَــشْرُ سِــرْبِي

خـــصيبَ الرَّعْـــي مَرْعِـــيَّ الـــسَّوامِ

وفي مَـــأْواكَ عـــادَ شَـــريدُ رَحْلِـــي

عَزِيـــزَ الجـــارِ مَـــضْرُوبَ الخِيـــامِ

إلى أن قال :

وآوَيْـــتَ الغَريـــبَ وهـــلْ غَريـــبٌ

تَـــوَخَّى ركـــنَ عِـــزِّكَ باسْـــتِلامِ ؟

فابن درَّاج جعل ممدوحه وكأنه استحال كعبة يقصدها الناس ، ولعل حـــرص الشاعر على تصوير إحساسه هو الذي دفعه إلى رسم هذه الصورة ، كما كان المصدر الديني وثقافة الشاعر من أهم المؤثرات التي يصور بها ابن درَّاج اغترابه وغربته .

ويقول فيه – أيضًا[2] :

وَمَـــنْ ذا يـــا مَليكًـــا مُـــسْتَجارًا

سِـــواكَم لِلْغَريـــبِ المُسْتَـــضامِ[3]

---

(١)ديوان ابن درَّاج، ص ١٩٠ .

(٢) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٩٤ .

(٣) المستضام : من الضيم وهو الظلم .

فإنْ هَــاجَ الرَّحيــلُ دَفــينَ سُــقْمِي

فكَــمْ دَافَعْــتَ مِــنْ ذاكَ الــسَّقَامِ

ويقول - أيضًا[1] :

فَيــا بُعْــدَ مَــسْرَاكَ للْمُــدْلجينَا[2]

ويــا قُــرْبَ مَــأْوَاكَ للرائحينَــا

فَحَقَّــا إلَيْــكَ رَحْلَنَــا قَطَعْنَــا

إليــكَ الــشُّهورَ بِهَــا والــسِّنينا

إلى أن قال :

فَغَــادَرْنَ أَوْطانَنَــا عَافِيَــاتٍ

وجِــئْنَ إليْــكَ بِنَــا مُعْتَفِينَــا[3]

دِيــارًا تــسُحُّ[4] عَليهــا الــدُّموع

وفيهــا قُتِلْنَــا وفيهــا سُــبِينَا

وفيهــا صــدَقْنا إليــكَ الرَّجــاءَ

وهُــنَّ يُــرجَمْنَ فِينــا الظُّنونَــا

أهِمْنَــا بِغُرْبَتِنَــا أَمْ هُــدِينَا

ومُتْنَــا بِكُرْبَتِنــا أَمْ حَيِينَــا

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٩٥ – ١٩٦ .

(٢) مدلجين : الإدلاج : السير في الليل كله .

(٣) معتفينا : طلب الرزق .

(٤) السح : سحَّ الماء بنفسه أي : سال ، سَحَّ هو الماءَ : صبَّه .

فتحت ظلّه يكون ابن درَّاج بعيدًا عن السير في لجة الليل، وفي الوقت نفسه قريبًا من النازلين عليه يأويهم ويهيئ لهم سُبل الراحة بعد أن قطعوا مسافات طويلة استغرق سيرهم إليه الشهور والسنين ، تاركين مواطنهم لأجل الطمأنينة ، ويأتي السؤال المحير للشاعر : **هل سيصيبه الهم في غربته** ؟ أم سيُبوأ أعلى منزلة ؟ **وهل سيموت من شدة الكربة أم سَيَحيا** ؟ ولكن رحيله كان جوابًا قاطعًا لسؤاله،ويقول فيه[1] :

بِذِكْرِ أَيادِي العَامِرِيِّ الَّتي طَمَتْ[2]

عَلَى نَأْيِ آفاقِ البِلادِ مُنَاهَا

ويقطع ابن درَّاج الفيافي أملاً في التقرب للمنصور ، وطمعًا في كرمه ، يقول[3] :

فَقَطَعْتُ يا مَنْصورُ نَحْوَكَ نَازِعًا

خُدَعَ المُنَى وعلائِقَ الأسْبابِ

فَرِضاكَ تَأْمِيلي وقُرْبُكَ هِمَّتِي

ونَدَاكَ مَحْيائي وحَمْدُكَ دَابي[4]

وقَدْ احْتَلَلْتُ لَدَيْكَ أَمْنَعُ مَعُقِلِ

وَحَطَطْتُ رَحْلي في أَعَزِّ جَنَابِ

في ذِمَّةِ المَلِكِ الذي آمالُنا

مِنْ راحَتَيْهِ تَحْتَ صَوْبَ سَحَابِ

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٠ .

(٢) طمت : كثرت .

(٣) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٤ .

(٤) دابي : أي دأبي .

سبب رحيل ابن درَّاج هو طلب الرضا والتقرب من الحاكم ، ولـــذلك جعلـــه المنصور في أمنع المعاقل وأعز مكانة ، وحقق له جميع آماله وطموحاته ، وأجزل لـــه في العطاء .

ويصيره هنا حاجبًا للشمس كونه حجب عنه الأسى والأحزان ، يقول(١) :

أَهْلاً بِمَـــنْ قَهَـــرَ الْملُـــوكَ وَمَرْحَبَـــا
وأَعَزّ مَنْ حُلَّـــتْ لِرُؤْيَتِـــهِ الحُبَـــى(٢)
وبِحَاجِبِ الشَّمْسِ الذي حَجَبَ الأَسَى
عنَّـــا وحـــاشَ لِجُـــودِه أنْ تُحْجَبَـــا

وتتراءى الآمال والمطالع لابن درَّاج عند المنصور ابن أبي عامر ، بعد أن استبدَّ به التغرُّب ، فيأتي الوقت معلنًا بنهاية الرحيل والغربة ، يقول(٣) :

وَلَقَـــدْ تَـــراءَتْ في ذَراكَ مَطَـــالِعي
حِـــينَ اسْـــتَبَدَّ تَغَـــرُّبي بِمَغَـــارِبي
فَخَتَمْـــتُ طُـــولَ تَقَلُّبِـــي بِتَقَلُّبِـــي
وَجَزَيْـــتَ غُـــرَّ غَـــرائِبي برَغَائِـــبِ
وأجَرْتَنِي من كُـــلِّ خَطْـــبٍ طـــارقٍ
حَتَّـــى مُناجَـــاةِ الرَّجَـــاءِ الخَائِـــبِ

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٨١ .

(٢) الحبى : جمع حبوة ، وهو الثوب الذي يشتمل به ، يقال : حلَّ حبوته ، كناية عن الإعجاب .

(٣) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٤٢ .

وَوَجَدْتُ عِنْدَ يَدَيْكَ سَــدَّ مَفــاقِرِي

وسُـــلُوَّ أحْزانِــــي وبُــــرْءَ مَــــصائِبِي

ويختتم القسطلي قصة رحيله واغترابه بنيل القبول والرضا ؛ لأن المنـــصور قـــد جازاه ، وحقق له رغائبه ، وحماه من كل الخطوب ، ووجد عنده جمعًا لشمله الـــذي بدده الرحيل ، فأزال عنه أحزانه ، وداوى جروحه ومصائبه .

فهل ختم القسطلي حقًّا قصة رحيله ؟ أم هو ما كان يرجوه ويأمله فقط ؟

وتعلو الأصوات مرة أخرى إيذانًا ببدء حياة الاستقرارية بعد التشرد ، يقول(١):

سَـــرَيْتَ فأَلْحَقْـــتَ لَـــيْلاً بِلَيْــــلِ

وسِـــرْتَ فَوَصَّـــلْتَ بِيـــدًا بِبِيــــدِ

كَمَا قَـــدْ وَصَـــلْتَ حِبــالَ الغَرِيـــبِ

وقَرَّبْــــتَ مَــــأْوَى القَـــصِيِّ البَعِيــــدِ

ونَـــادَى نَـــداكَ عَلَـــى الأَرْضِ حَـــيَّ

عَلَـــى مُـــسْتَقَرِّ الـــشَّرِيدِ الطَّرِيـــدِ

فها هي سلسلة الرحيل تتواصل وتستمر ، ويواصل السير ليلاً بليل ، وبيدًا ببيد حتى وصل إلى المنصور الذي جمع شمل هذا الغريب ، وقرَّبه وآواه بعد أن عانى التـــشرد والضياع ، وحينما حطت رحاله عند المنصور فإنه داوى بحورًا من الهموم ، وبقية مـــن خطوب الغربة والتشرد ، يقول(٢):

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٨٤ .

(٢)المصدر السابق، ص ١٥٢ .

وإليكَ يا (مَنْــصورُ) حَــطَّ رحالهــا

دأْبَ الــسَّرَى والــيَعْمَلاتِ[1] وَدَابي

وَبُحُورُ هَــمٍّ كَــمْ وَكَــمْ دَاوَيْتُهــا

بِبُحــورِ يَـــمٍّ أَوْ بُحُـــورُ سَـــرَابِ

وبإكرام الكريم تملكه ، فملك المنصور ابن درَّاج بكرمه وعطفــه ، ولهــذا أراد القسطلي تخليد كرم المنصور، وتسجيل خصاله لتبقى سيرته عطرة طيبة جزاء إكرامه ، وما جزاء الإحسان إلا الإحسان .

يقول[2] :

فـــأَنْطَقَ غَرْبِـــي قَلْبِـــهِ ولِـــسانِهِ

بِتَخْليدِ ما سَيَّرْتَ مِنْ طِيِّـــبِ الــذِّكْرِ

وتتكرر نغمة الإشادة بمواقف المنصور .

يقول[3] :

ورَفَعْتَ ذِكْرِي في عَبِيــدِكَ فــاعْتَلَى

ونَظَمْنَ شَــمْلِي في جِــوارِكَ فــانْتَظَمْ

وتَبَــوَّأْتَ بي مِـــنْ جَنابِــكَ مَوْطِنًـــا

وَقْفًا عَلَى كَــرَمِ الوَســائِلِ والــذِّمَمِ

---

(١) اليعملات : مفردها عميم ، وهي الغنيمة ، ويعمول : طويل .

(٢) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٦١ .

(٣)المصدر السابق، ص ٣٥٨ .

فَحَطَطْتُ رَحْلِي مِنْكَ فِي عِــزِّ الحِمَــى

وَمَنَعْتَ أَهْلِي مِنْــكَ فِي أَهْــلِ الحَــرَمْ

فالمنصور قد رفع ذكره وقدره ، ونظم شمله ، وبوَّأه أجــل مكانــة ، وأعظــم منــزلة، وحماه ومنع عنه السوء والأذى ، كما منع عن أهله فلا يدنو منهم السوء .

ويقول في عبد الملك بن أبي عامر[١] :

ليالي في مَــأْواكَ أَمْــني مــن الــرَّدَى

وفي ظِلِّكَ المدودِ نَثرِي من الــرَّمْسِ[٢]

إلى أن قال :

ولا ماتَ مَنْ والاكَ مِنْ غُرْبَةِ النَّــوَى

ولا عاشَ مَنْ عَاداكَ مِنْ عَشْرَةِ الــتَّعْسِ[٣]

فإيواء ابن عامر له يحميه من الردى والموت في الغربة ، ولذلك يدعو له بعــدم السقوط في التعس ، ويقول في منذر بن يحيى[٤] ، فَنُورُ الوفاء والصدق يــسطع عنــده وشمله المبدد سيجمع عنده .

نُورُ الوَفــاءِ بِأَرْضِــنَا لَــكَ ســاطِعُ

والحَــقُّ شمــلٌ عِنْــدَنا بِــكَ جَــامِعُ

---

(١)ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٦٢ .

(٢) الرمس : القبر .

(٣) التعس : السقوط على أي وجه كان ، والانحطاط والعثور والهلاك .

(٤) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٦٣ .

وسيظل يشكره جزاء ما أولاه وما قدَّمه له من شرف الحياة وجزيـــل العطـــاء وكرم إيواء .

يقول(١) :

مِـــنَنٌ بأَيْـــسَر شُـــكْرِها أَعْيَيْتَنِـــي
فَمَتَـــى أقـــومُ بِـــشُكْرِ مـــا أَوْلَيْتَنِـــي

أَعْطَيْتَنِـــي ذُخْـــرَ الزَّمـــانِ وَإنَّمـــا
شَـــرفُ الحَيـــاةِ وعِزُّهـــا أعْطَيْـــتَني

لَبَيْكَ شَـــاكرَ نِعْمَـــةٍ أَنْـــتَ الَّـــذي
لَمَّـــا دَعَـــوْتُ غِياثهـــا لَبَّيْتَنِـــي

فَقَتَلْتَ هَمَّـــا ذُقْـــتُ حَـــدَّ سُـــيوفِهِ
بِـــسُيوفِ إنْعـــامٍ بِهـــا اسْـــتَحْيَيْتَنِي

وَخَطَطْتَ بِالكَفِّ الكَرِيمَـــةِ مُلْحَقـــي
والفَخْرُ فَخْـــرِي مِنْـــكَ إذْ سَـــمَّيْتَنِي

حَـــسْبِي فَحـــينَ ذَكَرْتَنِـــي كَرَّمْتَنِـــي
وَكَفِّـــي فَحِـــينَ نَطَقْـــتَ بِي أَعْيَيْـــتَني

ذِكْـــراكَ أَعْظَـــمُ نِعْمَـــةٍ أَلْبَـــسْتَنِي
وَرِضَـــاكَ أَعْلَـــى خُطَّـــةٍ وَلَّيْتَنِـــي

(١)ديوان ابن درَّاج ، ص ١٦ .

فَفِــدَاؤُكَ الأَمْــلاكُ يَــوْمَ سَــمِعْتَنِي

لَهَفَــاتِ فِي أســرْ الأسَــى فَفَــدَيْتَنِي

وسُقيتُ غَيْثَ النَّصْرِ حِينَ بَــصُرْتَ بِي

ظَمْــآنَ مُلْتَهِــبَ الحَــشا فــسَقَيْتَنِي

آواكَ ظِــــلُّ اللهِ فِي سُــــلْطانِهِ

ونَعِيمِــهِ بِجَــزاءَ مــا آوَيْــتَنِي

وَرَعَى لَكَ الــرَّحْمَنُ مــا اسْــتَرْعاكَهُ

مِــنْ دِينِــهِ أَجْــرًا بِمــا رَاعَيْــتَنِي

القسطلي يشكر ابن أبي عامر ، ويثني عليه جزاء ما قدَّمه له من خير ونعيم ، فقد هيأ له حياة شريفة، فحينما كان ابن درَّاج تائهًا في الأرض حيران ، لم يكن هناك من يسمع له ، لبَّى هو نداءه ، وأهطل عليه غيث عطائه ، وبذلك قتل همًّا كبيرًا قد تعايش في صدر هذا الشاعر الذي ذاق الكثير والكثير من الأحزان ، فابن أبي عامر أكرمه ورفع من شأنه ، واستجاب لندائه ، وخلَّصه من دياجير الأسى والظمأ ، فقد كان ملتهب الفؤاد ، فَسَقاهُ وأطفأ لهيب ظمأه ، وهو في النهاية لا يملك سوى الدعاء له بأن يدوم مجده وسلطانه جزاء ما أولاه من نعيم وكرم .

ويقول – أيضًا : إنه جلا عنه الهموم بإيوائه، وبث الأمل في قلبه من جديد[١] .

وَقَــلَّ لِمَــنْ جَــلا الإظْــلامَ عَنِّــي

ولَقَــى نــاظِرِي وَجْــهَ الــصَّباحِ

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٤٢ .

وَمَـــنْ بِيَمينِـــهِ وَرِيَـــتْ زنـــادِي[1]

سَــنًا وبِيُمْنِـــهِ فَـــازَتْ قَـــداحِي

وَمَنْ نادَيْتُ : حَــيَّ عَلــى التَّلاقــي

فلَبَّـــا بي بِحَـــيَّ علـــى النَّجـــاحِ

وآواني إلى رُكْــــــنٍ شَــــــديدٍ

وأَوْفَـــى بِـــي عَلَـــى أَمَـــلٍ مُتـــاحِ

ويقول : إن سليمان المستعين جامع للشمل مجلٍ للهم[2] :

لِيَجْلُوَ عَنِ الدُّنْيا بِكَ الهَـمَّ والأســى

ويَجْمَعَ في سُلْطانِكَ الغَرْبَ والــشَّرْقا

ويرد روحه بجمع شمله ، فهو بفعلته تلك آنس وحدته بعـد أن عـاش حيـاة موحشة مقطوعة الوصل ، يقول[3] :

فَحَمْدًا لِمَنْ رَدَّ النُّفــوسَ فَأَصْــبَحَتْ

لَهُمْ كالَّذِي كُنَّا وَهُمْ كالَّــذي كــانُوا

وأُونِـــسَ شَـــمْلٌ بـــالتَّفَرُّقِ مُـــوحِشٌ

وَحَـــنَّ خَلـــيطٌ بالـــصَّبابَةِ حَنَّـــانُ

(١) وريت : أظهرت ناره ، وزناد : العود الذي يقدح به النار ، وقداح : هو قدح السهم ، يقـال : قـدَحَ في القِدْحِ يَقْدَحُ ، وذلك إذا خرق في السهم بسنخ النصل .

(٢) ديوان ابن درَّاج ، ص ٥٧ .

(٣)المصدر السابق، ص ٥٠ .

ابن درَّاج مدح سليمان المستعين « وقد كان إلى وقته ثاويًا بقرطبة يحسب أن سليمان سيجيره من الزمان ، وكان النجم أدنى من ذلك إليه »[1] .

ويقول في لبيب العامري بطرطوشة ، وهو كما ذكر محمود مكي « من موالي الدولة العامرية ، اشترك مع خيران العامري ومنذر التجيبي في القيام بأمر عبدالرحمن بن محمد المرتضي حتى قُتل في سنة ٤٠٩هـ ، ثم استولى على طرطوشة»[2]، بأنه سيلقي عليه درره الشعرية ؛ لأنَّ هذه الدرر وهذه الجواهر الشعرية هي الباقية ، وستكون ذخرًا للزمان مثل القلائد التي ترتديها الكواعب ، كما أن هذه القصائد ستشفي سقام تغربه وسلو جراحه ومصائبه ، يقول[3] :

فَلَئِنْ طَلَبْتَ هُنَاكَ حَقًّا صاعِدًا

فَلأَنْتَ أقْرَبُ مِنْ وَرِيدِ الطَّالِبِ

ولَئِنْ وَهَبْتَ لَقَدْ وَهَبْتَ مَساعِيًا

أصْبَحْنَ حَلْيَ مآثِري ومَنَاقِبِي

شِيَمًا بِها حَلَّيْتُ غُرَّ قَصائِدِي

وَجَعَلْتَهُنَّ أَهِلَّةً لِكَواكِبي

وذَخَرْتُ للأَزْمانِ مِنْ حَسَناتِها

مِثْلَ القَلائِدِ في نُحورِ كَواعِبِ

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، لابن بسام ، ق ١ ، م ١ ، ص ٦٧ .

(٢) ديوان ابن درَّاج ، ص ٩٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٩٤ .

ولأَشْـــفِيَنَّ بِهـــا سَـــقامَ تَغَـــرُّبِي

ولآسُـــوَنَّ بِهـــا جِـــراحَ مَـــصائِبِي

ولأَجْعَلَـــنَّ مِنْهـــا تَمـــائمَ خـــائفٍ

مِنْ طـــائفٍ أَوْ مِـــنْ رَجـــاءِ خائـــبِ

ولأَتْـــرُكَنَّ ثَناءَهـــا وَجَزاءَهـــا

قُـــوتَ المُقـــيمِ غَـــدًا وَزَادَ الرَّاكِـــبِ

وسُـــرورَ مَحْـــزُونٍ وأُنْـــسَ مُغَـــرَّبِ

وحُلـــيَّ أَوْتـــارًا وَرَوْضَـــةَ شـــارِبِ

وَلَقَدْ نَثَرْتُ عَلَيْكَ شَـــكْلَكَ جَـــوْهَرًا

لا ما قَمَشْتُ وضَـــمَّ حَبْـــلُ الحاطِـــبِ

ابن درَّاج هنا يُلَّمِح إلى أن مدائحه تلك لم يكن يلتمس منها سوى الاســـتقرار والبعد عن الغربة والاغتراب .

ويقول فيه – أيضًا-[1] :

يـــا مَـــنْ يُلاقِـــي النَّـــازِلِينَ قِبابَـــةً[2]

بِجَـــبِينِ مَوْهُـــوبٍ وَرَاحَـــةِ واهِـــبِ

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٩٣ .

(٢) قبابة : جمع قبة ، وهي الخيمة .

ويقول في ابن باق[1] :

تَـــسَمَّعْ لِـــدَعْوَةِ نَـــاءٍ غَريـــبِ

كَـــثيرِ الـــدُّعاءِ قَليـــلِ الُمجيـــبِ

يَهـــيمُ[2] إلَيْـــكَ بَهَـــمٍّ شُـــجاعٍ

وَيَجْـــبُنُ عَنْـــكَ بِـــسَتْرٍ هَيُـــوبِ[3]

وَيَقْتـــادُهُ مِنْـــكَ صِـــدْقُ الـــيَقينِ

فَيَرْتـــابُ مِنْـــهُ بِظَـــنٍّ كَـــذوبِ

فها هو ابن باقٍ قد سمع دعوة ذلك الغريب الذي نأى عن وطنه ، فأصبح كثير الدعاء ، ولكن قليل من يسمعون دعاءه .

وهذا دليل يقدمه ابن درَّاج على مدى إحساسه بالغربة السياسية ، فـــابن درَّاج « تراخت أيامه ، وأغضى عنه حمامه حتى أخرجته المحن وســالت به تلــك الفــــتن »[4] .

ابن درَّاج لم يجد من يسمعه ومن يستجيب له ، فيخرجه من دائرة الهم والغربة، وإن وجد فهم أقل من القليل مقارنة بالعدد الهائل من الحكام والوزراء الذين مدحهم .

وكما قلنا إن ابن درَّاج لم يترك أميرًا ولا واليًا ولا كاتبًا ولا وزيرًا ولا قاضيًا إلا مدحه رغبةً في الحماية والاستقرار ، وهنا يمدح أحد وزراء قرطبة الذي هبــت ريـــاح عطاياه ومنواله وكرمه على ذلك الغريب ، يقول[5] :

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٣٩٦ .

(٢) يهيم : يسرع إليك .

(٣) هيوب : جبان يهاب كل شيء .

(٤) الذخيرة ، لابن بسام ، ص ٦٠ ، ق ١ ، م ١ .

(٥) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٩٢ .

عَرَفْـــتُ عَوارِفَـــكَ[1] الـــسَّابِقاتِ

بَوَادِي الـــسَّنا وَاضِـــحَاتِ الـــسِّماتِ

وَمَا كِدْتُ أبْـــسُطُ لَحْـــظَ الغَرِيـــبِ

وَمَـــا أَنْ حِلـــيَ عِقـــالَ الأنـــاةِ

وَبَـــيْنَ أراقِـــبُ نَـــشْءَ الـــسَّحا

بِ هَبَّـــتْ رِياحُـــكَ لِـــي بالهِبـــاتِ

ويقول في الوزير عيسى بن سعيد[2] :

وَبَـــوَّأَني في قَـــصْرِهِ أَعَـــلَّ مَنْزِلَـــةٍ

وَحَظيَ مُلْقىً يَـــسْتَغيثُ مِـــنَ الـــسُّفْلِ

وبعلو مكانة ابن درَّاج تعلو نبرة الأمل ، فقد تبوَّأ عند هذا الوزير أعلى المنـــازل والمراتب ، ولا يكون ذلك إلا بإجابة الدعوة وإجزال العطاء والكرم ، ولذلك نـــراه في أبيات أخرى له في ابن يحيى وهو منذر بن يحيى يقول : إن البرَّ والبحر قد شهد له بـــأن ابن يحيى سيجيب دعوته ، ويسمع له بعد أن صَمَّ الكثيرون آذاهم عن ندائه.

يقول[3] :

وَقَـــدْ شَـــهِدَ البَـــرُّ والبَحْـــرُ أَنِّـــي

بقُرْبِ (ابْنِ يَحْيَى) مُجَـــابَ الـــدُّعاءِ

(١) عوارفك : أي ما عرف من كرمه .

(٢) ديوان ابن درَّاج ، ص ٣٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٨٦ .

وَأَنَّـــكَ أَنْـــتَ الـــصَّرِيخُ الـــسَّمِيعُ

إذا صَـــمَّ مُـــسْتَمِعٌ عَـــنْ نِـــدائي

ويقول في بعض رؤساء الكتاب[١] :

ولَـــيْسَ بِـــأَوَّلِ شـــعبٍ رَأَيْـــتَ

ولا صَدْعَ شَـــمْلٍ ضَـــمِنْتَ الْتِئامَـــهْ

فَمَـــا دَوِيَ الثَّغْـــرُ إلاَّ بَعَثْـــتَ

إليـــهِ شَـــمَائِلَ تَـــشْفَي سَـــقامَهْ

ويقول – أيضًا – في بعض رؤساء الكتاب[٢] :

دَعَـــوْتُ فَلَبَّـــاني وَآوَى تَغَـــرُّبِي

إلى كَرَمٍ لِلْعِـــزِّ ذِي مُرْتقـــىً صَـــعْبِ

وَجَلَّى هُمُـــومي مِـــنْ سَـــناهُ بِبَـــارِقِ

أضاءَ بِهِ مَا بَيْنَ شَـــرْقٍ إلَـــى غَـــرْبِ

ويمدح ابن درَّاج كاتبًا آخر بأنَّه أكرم مقامه بعد أن تحول في الفلوات والبحار ، حاملاً معه أفلاذ قلبه ، فأنساهم بكرمه أمواج البحار والسير في الليل ، وأزال عنـــهم الهموم والحزن ، يقول[٣] :

(١)ديوان ابن درَّاج ، ص ٩٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٩٧ .

فَــــإنْ ذَكَّــــرَتْني لَيــــالي المَقــــامِ

لَــــدَيْكَ نَعيمًــــا بِــــدارِ المُقامَــــهْ

فَكَمْ لُــجٍّ بَحْــرٍ وضَحْــضاحِ قَفْــرٍ

أَجُــولُ الفَــلا بَــيْنَ غُــولٍ وهَامَــهْ

مُعــــنى بــــأفْلاذِ قَلْــــبٍ حَــــوامِ[1]

تُبــارِي إلى كُــلِّ مــاءِ سَــمامَهْ[2]

وكُلُّهُــــمْ نَمِــــري وَإنِّــــي

لِكُلٍّ هُنالِــكَ (كَعْــبُ بــن مامــهْ)

وأعــذرَ مُــبْلِغهُمْ حَيْــثُ أَلْقَــوا

عِــصِيَّ النَّــوَى ورِحــالَ الــسَّآمَهْ

وأنــسُوا بِبَحْــرِكَ مَــوْجَ البِحــارِ

وَمَيــدَ الــسَّفِينِ بِهــا وارْتِطامَــهْ

وظِلُّــكَ أنْــساهُمْ لَيْــلَ هَــمٍّ

يُقاسُــونَ في لَيْــلِ يَــمٍّ غَرامَــهْ

وَنُــورُكَ أَنْــساهُمُ آلَ قَفْــرٍ

---

(١) أفلاذ : القطعة من اللحم ، كعب بن مامة : يشير إلى ما يذكر عن كعب بن يمامة الإيادي ، أحـد أجـواد العرب المشهورين ، من رفيقه النمري حتى مات عطشًا ، ونجا النمري .

(٢) سمام : ضرب من الطير .

وَحَــــرَّ الهَجـــيرِ بِهَـــا واحْتِدامَـــهْ[١]

وَوَعْـــــدُكَ بالفَـــــضْلِ أنْـــــساهُمُ

وَعيدَ الرَّدَى حَيْـــثُ حَلُّــوا خِيَامَــهْ

وله في بعض القضاة[٢] :

وَتبْـــسُطُ مِنْـــكَ للغُرَبـــاءِ وجَهـــاءَ

يُجَلِّــــي عـــــنْهُمْ كُـــرَبَ الجَـــلاءِ

إلى أن قال :

وَكَـــمْ أَحْيَيْـــتَ مِـــنْ نَـــاءٍ غَريـــبِ

فَقيـــدِ الأهْـــلِ مُنْبَـــتِّ الإخـــاءِ

وَكَـــمْ نَفَّـــسْتَ كُرْبَـــةَ مُـــسْتَكِينٍ

تَـــأَخَّرَ عنْـــهُ نَـــصْرُ الأوْليـــاءِ

وَكَمْ جَلَّيْـــتَ مِـــنْ خَطْـــبٍ جَليـــلٍ

وَكَـــمْ دَاوَيْـــتَ مِـــنْ دَاءٍ عَيـــاءِ

ويقول في مدح يحيى بن علي ، وهو كما ذكر محقق الديوان الملقـب بـالمعتلي بالله، وقد تولى الخلافة مرتين :

الأولى : بقرطبة في جمادى الأولى سنة ٤١٢هـ ، بعد فرار عمه القاسم بن حمود .

---

(١) آل : الآل : السراب .

(٢) ديوان ابن درّاج ، ص ٢٧١ – ٢٧٢ .

الثانية : بعد خلع المستكفي بالله سنة ٤١٦هـ ، يقول ابن دراج[١] .

سَلامٌ عَلَى مُسْتَوْدَعِ الرُّوحِ والـنَّفْسِ
وذُخْرِ غَدِي مِمَّا انْتَحَبْتُ لَـهُ أَمْـسِ
بحَيْـثُ تَخَطَّيْـتُ المَنايَـا إلى المُنَـى
وآنسَ وَحْشي بـالفَلا كَـرَمُ الأُنْـسِ

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٦٠ .

ثالثاً – الغربـــة المكانيـــة

ولقد قصدنا بالغربة المكانية ذلك الإحساس الذي يحاول الشاعر تصويره حينما ينتقل من مكان إلى مكان لتحقيق رغباته وأحلامه واصفًا إحساسه بالغربة ، وذاكـــرًا تلك الأقاليم أو المدن التي توجه إليها ، وحينما يصل إلى تلك البلاد يُصاب بخيبة أمـــل كبيرة ؛ إذ يُفاجأ الشَّاعر بأنه لا يستطيع تحقيق طموحاته ولو كان جزءًا بسيطًا منها .

فالغربة كما نعلم تحمل معاني متعددة منـــها : الـــشعور بـــالانفراد، والتيـــه، والوحشة، والشعور بالغدر والخيانة، كما أنها تضج بمعاني الشوق والحنين إلى المـــوطن الأول . فهناك شعراء كثيرون تحدثوا عن هذه الغربة ، إلا أن ابن درَّاج كان من أكثـــر الشعراء الذين تناولوا هذا الجانب ، كما صرح بذلك الدكتور أشرف دغرور(١) .

فابن درَّاج قد شاع في عصره الفتن وهذا يعني بأنه كان مضطرًا للرحيل ، فقد غادر ابن درَّاج قسطلة موطنه الأول ، متجهًا إلى قرطبة عاصمة الدولـــة الأندلـــسية ، مادحًا رؤسائها ، واستمر في مدحهم حتى آخر أمير لها ويدعى القاسم .

« ويبدو أن ابن درَّاج لم يجد لدى القاسم ما كان يأمله وحينئذٍ قرر مغـــادرة قرطبة »(٢) .

فيغادر القسطلي بلاد الأندلس تاركًا وراءه كل مـــا تعـــج بـــه مـــن فـــتن واضطرابات، فنراه يتجه إلى سبتة « وقـــد كانـــت هـــذه أول رحلـــة لابـــن درَّاج خارج حدود الأندلس ، وآخرها على ما يظهر »(٣) .

---

(١) الغربة عقب سقوط الخلافة د / أشرف دغرور ، ص ٨٣ .

(٢) ديوان ابن درَّاج ، ص ٦٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٦٧ .

ولكن تتابع الفتن وتواصلها أضف إلى ذلك خيبة الأمل التي جناها ابن درَّاج في سبتة ، تلك الأمور التي كانت كفيلة له بأن تجعله يترك مدينة سبتة التي انقطع فيها أمله، فيعود إلى بلاد الأندلس مرة أخرى قاصدًا أقاليمها ، فتغرب فيها وطرق أبوابها ، ومن تلك الأقاليم : بلنسية والمرية « وقد تردد ابن درَّاج ما بين سنتي ٤٠٤هـ - ١٠٤٠م ، و ٤٠٨هـ - ١٠١٨م ، مادحًا أمراء هذه المدن دون أن يظفر منهم بطائل »[١] .

هذا الرحيل الدائم – كما قلنا سابقًا – جعله يشعر بالوحشة والغربة ، فابن درَّاج رجل محب للوطن ، محبٌّ للاستقرار ، ولذلك لم يعرف القسطلي قط حياة الاستقرار والهدوء ، فحمله هذا الأمر إلى الشعور بالغربة المكانية حيث يكون في إقليم من أقاليم الأندلس ، ويرى فيه الوطن البديل ، ولكنه يشعر بالوحدة والتفرد ، ومدى الحاجة إلى الأمن ، وبهذا نرى الدكتور أحمد هيكل يقول عنه : « ثم شيء أخير يلاحظ في طبيعة ابن درَّاج ، وهو الشعور بالحاجة إلى الأمن والإحساس بضرورة الحامي الذي يتحقق في ظله الاستقرار »[٢] .

فهناك شُعراء كثيرون قد عبروا عن هذا النوع من الغربة «ولكن يختلف بالنسبة لشعراء الأندلس الذين اضطروا وأُجبروا على ترك أوطانهم في ظل تلك الأوضاع المتردية التي أعقبت سقوط الخلافة ، وقيام الفتنة ، فهاجروا وتغربوا باحثين عن مدن أكثر أمنًا واستقرارًا في داخل الأندلس ، أو خارجها »[٣] .

---

(١)ديوان ابن درَّاج ، ص ٦٨ .

(٢) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، د / أحمد هيكل ، ص ٣٠٨ .

(٣) الغربة عقب سقوط الخلافة ، د / أشرف دغرور ، ص ١٢٣ .

ابن درَّاج اختلف عن الشعراء الذين تحدثوا عن هذا النوع من الغربة ، كونــه أجبر على ترك وطنه ، وحينما يجبر المرء على ترك ما يحب فلا بد أن يكون حنينه وألمه نابعًا من تجربة إنسانية صادقة ؛ وكذلك حينما يُجبر على التغرّب ثم لا يجد مــا كـــان يأمله من حسن ضيافة ، « يعني عدم الترحيب بالضيف يعني رحيله »(١) .

يقول ابن دراج(٢) :

وَمَنْ يَمْنَعِ الــضَّيْفَ رَحْــبَ الفِنَــاءِ

فَقَـــدْ قَـــادَهُ للْفَـــضاءِ الرَّحِيـــبِ

ولا شك أن عدم الترحيب به كان يترك أثرًا يبعث في نفسه أقـــسى وأقـــصى شجن وألم مما يجعله يتذكر كل الصعاب وكل الخطوب التي وقع فيها أثناء انتقالـــه إلى ذلك الإقليم.

يقول ابن دراج(٣) :

فَلَئنْ صَــفا مــاءُ الحَيــاةِ لَــدَيْكَ لي

فَبِمَا شَرَقْتُ إلَيْكَ بالمــاءِ الــصَّرى(٤)

وَلَئنْ خَلَعْتَ عَلَــيَّ بُــرْدًا أَخْــضَرا

فَلَقَدْ لَبِــسْتُ إلَيْــكَ عَيْــشًا أَغْبَــرَا

وَلَــئنْ مَــدَدْتَ عَلَــيَّ ظِــلاًّ بــارِدًا

فَلَكَمْ صُلِيتُ إلَيْــكَ جَــوًّا مــسعرَا

---

(١) تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة ، د / إحسان عباس ، ص ٢٣١ .

(٢) ديوان ابن درَّاج ، ص ٤٠٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٠٥ .

(٤) الصَّرَى : هو الماء الذي طال استنقاعه .

فما ذكره الشاعر هنا لم يكن إلا جزءًا من تطلعاته وأمانيه التي يأمل أن يجنيها في تلك البلاد ، ولكن حينما يصل لا يجد فيه ما كان يرجوه ، فيتابع رحيله وينتقل ، ويكفي أنه في بعض الأحيان يجوب تلك البلاد وحيدًا منفردًا غريبًا ، كما يقول[1] :

تَغَـــرَّبَ فِي الـــبِلادِ فأفْرَدَتْـــهُ

فَقِيـدَ العِـزِّ مَجْحُـودَ[2] الـذمامِ[3]

هذه النبرة وهذه الحسرة التي تغلف هذه الكلمات تنقل لنا الإحساس الصادق الذي يغمر الشاعر بالحزن العميق ، فهو قد تغرب في البلاد ، وقطع القفاري وحيدًا منفردًا ، فاقدًا للعزِّ ، قد جُحِد وأُنْكر من الناس ، ومضيعًا لذمامه ، فابن درَّاج يحاول أن يصور لنا مدى تغربه ، ويحاول أن يضع يده على موضع جرحه ، ولكن خيبة الأمل دائمًا تلاحقه ، ولذلك فهو لا يقوى على الاستمرار في الإقامة في تلك البلاد . فها هو ذا يجر أذيال الخيبة ، فيترك قرطبة ويتجه إلى سبتة التي كان يرأسها علي بن حمود آنذاك. و لم يغفل ابن درَّاج عن بث الشكوى ووصف نفسه بالغريب الذي نأى عن موطنة ، وانقطع عن الناس ، فتتابعت عليه الهموم والأحزان ، يقول[4] :

غَرِيـبٌ وَكَـمْ غَرَّبَـتْ راحَتَـا

هُ فِي الأَرْضِ مِنْ وَجْهِ بِكْـرٍ بَتُـولِ[5]

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٩٣ .

(٢) جحد : هو الإنكار مع العلم والضيق في المعيشة .

(٣) الذمام : كل حرمة تلزمك إذا ضيَّعتها .

(٤) ديوان ابن درَّاج ، ص ٦٥ .

(٥) بِكْر : الفتاة العذراء . بَتول : العفيفة ، ويريد بناته .

ولكنه – أيضًا – بالرغم من هذا التغرب لم يجد ما كان يأمله في قرطبة ، فقرر الرحيل « و لم ينسَ مرارة ثماني سنوات من الاغتراب والشقاء وخيبة الأمل ، قضاها في رحاب العامريين الذين لم يجد منهم أذنًا مصغية »[1] .

فاتجه إلى بلنسية التي كان يرأسها مبارك ومظفر العامريان ، يقــول في ذكــره لبلنسية[2] :

فَــإِنْ وَجَبَــتْ للمَغْــرِبَيْنِ جُنُوبُهَــا
فَدَاوِي بِرَقْرَاقِ الــسَّرابِ خُمــارَكِ[3]
وَأورِي بِزَنَــدي سُــدْفةٍ وَدُجْنَــةٍ
إذا كانَتَــا لي مَرْخَــكِ وعفــارِكِ[4]
وَإِنْ خَلَعَ اللَّيْــلُ الأصــائِلَ فــاخْلَعي
إلى المَلِكَــيْنِ الأكْــرَمِينِ عِــذارَكِ
(بَلَنْــسِيَة) مَثْــوَى الأمَــاني فــاطْلُبي
كُنُــوزَكِ في أَقْطَارِهَــا وادِّخــارَكِ
سَيُنْبِيكِ زَجْرِي عن (بــلاء نَــسيته)
إذا أَصْبَحَتْ تِلْكَ القُــصُورُ قــصارَكِ

فهل كانت (بلنسية) هي مثوى آماله وأحلامه كما قال ؟ وهل استطاع نسيان ذلك البلاء ؟ وما هو هذا البلاء ؟

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٣٨ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٨٩ .
(٣) الرقراق : هو كل شيء له بصيص وتلألؤ فهو رقراق . خمارك : الخمرة : الرائحة الطيبة .
(٤) المرخ والعفار : هو شجر النار أو الزندة .

ترك ابن درَّاج لبلنسية دليل قاطع على أنه أصيب فيها بخيبة الأمل ، ولم يستطع نسيان بلائه ، بل ما زال البلاء والرحيل ملازمًا له في كل مكان يقصده .

ويتوجه ابن درَّاج متابعًا سلسلة رحلاته، واتجهت آماله هذه المرة إلى المرية التي كان واليها آنذاك خيران العامري ، فكان يرى في المرية الأمل الذي سيطمس به اليأس اللازم له في كل مدينة ينتقل إليها .

يقول[1] :

ولا قَنَطٌ واليُسرُ لِلعُسرِ غالِبٌ
وفي العَرْشِ رَبُّ الخَلائِقِ رَحْمَانِ
ولا يَأْسَ مِنْ رَوْحِ وفي اللهِ مَطْمَعٌ
ولا بُعْدَ مِنْ خَيْر وفي الأرض (خَيْرانُ)
سَتَنْسَوْنَ أَهْوَالَ العَذاب ومَالِكًا
إذا ضَمَّكُمْ في جَنَّةِ الفَوْزِ رَضْوانُ
مَتَى تَلْحَظُوا قَصْرَ (المَرِيَّةِ) تَظَفَّرُوا
بِبَحْرِ حَصَى يُمْنَاهُ دُرٌّ وَمَرْجانُ
وَتَسْتَبْدِلُوا مِنْ مَوْجِ بَحْرِ شَجَاكُمُ
بِبَحْرٍ لَكُمْ مِنْهُ لُجَيْنٌ وعِقْيانُ

فهل نسي هو وأولاده الأهوال والعذاب ؟ وهل ألقى عليهم الدر والمرجان والذهب والفضة حينما كانوا في المرية ؟

---

(١) لجين : ماء الفضة . عقيان : هو الذهب .

« فهو يُمَنِّي أولاده بالخير ، و لم يكافئ خيران هذا النفس الطويل بما يستحقه فبخسه حظه في الجائزة »[1] .

و لم ينسَ ابن درَّاج مرارة الخيانة ، فقد أخرج من تلك البلاد ويرى أن الزمان هو المسؤول عن هذه الخيانة ، فجعل الدهر هو الخائن، وتوهم الشَّاعر أن بلاد العراق وخراسان قد رحبتا بقدومه ، والذي جعله يشعر بهذا الإحساس هو شعوره بالغربة في تلك البلاد. يقول[2]:

فإنْ غرَّبَتْ أرضُ المغاربِ مَوئِلي
وأنكَرَني فيها خَليطٌ وخِلاَّنُ
فَكَمْ رَحَّبَتْ أرضُ العِراق بمقدمِي
وأجْزَلَتِ البُشْرى عَلَيَّ خُراسانُ
وإنَّ بلادًا أخرَجَتْني لعُطَّلٌ
وإنَّ زمانًا خان عَهدي لخوَّانُ

وبعد أن غادر ابن درَّاج المرية اتجهت أنظاره وطموحاته نحو طرطوشة ثم إلى شاطبة ، ولكنه أيضًا لم ينل مطلبه.

فالشعور بالغربة المكانية وخيبة الأمل كما قلنا سابقًا شعور ملازم لابن درَّاج. يقول الدكتور محمود مكي : «وهكذا نرى كيف تردد القسطلي على هؤلاء الموالي العامريين دون أن يجد منهم أذنًا مصغية أو يدًا رفيقة»[3].

---

(١) تاريخ الأندلس ، د. أحسان عباس ، ص ٢٢٣ .
(٢) ديوان ابن درَّاج ، ص ٧٥ .
(٣)المصدر السابق، ص ٧١ .

ولذلك رحل ابن درَّاج عن تلك البلاد فاتجه إلى سرقسطة، واستدعى في هـــذه الأبيات شخصيات تاريخية توهم بأنه التقى بها أثناء انتقاله، فقد ورد ميـــاه مـــأرب ، ووقف بخيله وسط جنة عبقر ، كما نظم قلائد من تاج كسرى وقيصر، وآنس بقـــوم هود، وأصاب من ملك سبأ وتبع، ولقي الحارث الجفني وحط رحاله عند حاتم الطائي.

يقول(١):

فلئنْ تركْـــتَ اللَّيْـــلَ فـــوْقي داجيًـــا
فلقد لقيتُ الـــصُّبحَ بعـــدَكَ أزْهـــرَا

ولقدْ وردتُ ميـــاهَ (مـــأربَ) حُفَّـــلاً
وأسَمْتُ خيلي وسْـــط جنَّـــةِ عبقـــرا

ونظمْـــتُ للغِيـــدِ الحِـــسانِ قَلائِـــدًا
من تاج كِسرى ذِي البـــهاءِ وقيـــصرَا

وحللتُ أرْضًـــا بُـــدِّلتْ حَـــصباؤها
ذَهَبًـــا يَـــرِفُّ لنـــاظِرَيَّ وجَـــوْهَرَا

ولـــيَعْلَمِ الأمْـــلاكُ أَنِّـــيَ بَعـــدهمْ
ألفيتُ كُلَّ الـــصَّيدِّ في جَـــوْفِ الفـــرا

إلى أن قال :

كَلاَّ وقد آنسْتُ من (هـــود) هُـــدًى
ولقيتُ (يَعْرُبَ) في القُيُولِ و(حِمْيَـــرَا)

---

(١)ديوان ابن درَّاج ، ص ١٠٦ .

وأصَبْتُ في (سَــبَأٍ) مُــورَّثَ مُلْكِــهِ

يَسبي المُلوك ، ولا يَدُبُّ لهــا الــضَّرا

فكأنمــــا تابَعْــــتُ (تُبَّـــعَ) رافِعًـــا

أعلامَـــهُ مَلكًـــا يـــدينُ لـــه الـــورَى

و(الحارث الجَفــنيِّ) ممنـــوعَ الحِمَـــى

بالخيـــل والآســـادِ مَبـــذول القِـــرَى

وحَططْتُ رحْلي بين نـــارَيْ (حـــاتمٍ)

أيـــام يقـــري مُوسِـــرًا أو مُعْـــسِرًا

والسؤال : ما الذي جعل ابن درَّاج يتوهم هذه الرحلة التي قطعها في خياله ؟

لعل رغبة الشاعر في الهروب من واقعه السيئ وحظه التعيس في ظل الولاة الجفاة الذين أنزلوه في أقل المراتب ، ولم يلتفتوا إلى شاعريته الممتازة وطموحه العالي . هـــذا التجاهل دفعه ودفع شاعريته المتقدة إلى استحضار رحلة قام بها في وحي خياله ، وهذه طريقة للتخلص من ضغوط نفسية حادة يمر بها الشاعر كما ذكرنا من قبل أثناء الحديث عن الاغتراب النفسي.

ورأي آخر ؛ وهو رغبة الشاعر في إثارة عواطف ممدوحه ليجزل له العطـــاء ، فعنصر الخيال من أقوى أدوات الشاعر ؛ إذْ به تُستثار العواطف وكوامن النفس .

ولعل هذا ما دفعه أيضًا إلى ذكر شخصيات تاريخية اشتهرت بالشجاعة والجود أمثال حاتم الطائي والحارث الجفني .

وسؤال آخر : كيف آنس الهدى من هود ، وورث من سبأ ملكه ؟

ربما قصد أنه وجد عند هود الراحة والاطمئنان ، فالأنس والهدى اللذان وجدهما عند هود بمعنى الاستقرار والراحة .

وهناك سؤال آخر : هل قصد قوم هود وقوم سبأ ؟ أم قصد النبي هـــودًا u وملكة سبأ ؟

والذي نعتقده أنه قصد النبي هودًا u وملكة سبأ وليس أقوامهم ؛ لأن ابـــن درَّاج يعيش حالة اغتراب وغربة ، وهو في حاجة ملحة إلى مـــن يزيـــل عنـــه هـــذا الإحساس، وبذلك لم يقصد إلا من بيده أن يدفع عنه جور الأيام، ويبعده عن حيـــاة التشرد ؛ فالنبي بهديه الذي سيضفي عليه الراحة النفسية والروحية ، وملكة سبأ بمالهـــا وكرمها وجودها .

إن هذه الرحلة تصور آمال ابن درَّاج ورغبته في الاســـتقرار المكـــاني الـــذي سيجلب بدوره راحة نفسية للشاعر .

«ولم يخب أمل ابن درَّاج في هذه المرة ؛ فقد أتيح له في سرقسطة جـــو مـــن الاستقرار لم ينعم به منذ فارق قرطبة في سنوات الفتنة وفي بلاط التجيبي وابنه يحـــيى ، الذي قضى معه ابن درَّاج نحو عشر سنوات تمتع خلالها ببعض الهدوء والنعمة»[(١)].

ويبدو أن ابن درَّاج بالرغم مما قد أتيح له من وسائل السعادة والهناء في سرقسطة إلا إنه لم ينس قرطبة التي نعم فيها بالرخاء .

فنراه يحن إليها قائلاً[(٢)]:

واجْـــنَحْ لِقُرْطُبَـــةٍ ، فعـــانِقْ تُرْبَهَـــا
عَنِّـــي بِمِثْـــلِ جَـــوَانِحِي وتَرَائِبِـــي

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٧٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٨ .

ويقول أيضًا[١]:

ودَولــــةٌ ســـبقتْ آمالنــــا كَرَمًــــا

كَــــأَنَّ مــــا قـــــد تمنَّيْنـــــا تمنَّانــــا

ودَعـــوةٌ أعلـــنَ الـــدَّاعِي فأسمَعَهَـــا

من قصْرِ (قُرْطُبَـــةٍ) أقـــصى خُراســـانا

إلا أن الحال تغير سريعًا ، فلم يسلم ابن درَّاج من تقلب الأيام عليه ، فـساءت العلاقة بينه وبين والي سرقسطة يحيى بن المنذر ، فاتجه إلى (دانية) التي كـان أميرهـا آنذاك مجاهد العامر « فهو يرى في مجاهد آخر أمل له بعد أن أدركه اليأس »[٢].

يقول ابن درَّاج بعد أن ضاق به المقام ورأى في مجاهد آخر أمل له[٣]:

إلى أيِّ ذكـــر غـــير ذكـــرِكَ أرتـــاحُ

ومــــن أيِّ بعـــــد بحــــركَ أمتـــــاحُ

إليكَ انتهى الرِّيُّ الذي بـــكَ ينتـــهي

ولاحَ لِيَ الرَّأْيُ الــذي بــك يَلْتَــاحُ

ويقول محمود مكي أيضًا : «ولا يستبعد أن تكون العلاقات قد سـاءت بينـه وبين يحيى بن منذر إلى حد أنه خاف على حياته فقرر الهجرة من سرقسطة ، وعاد مرة أخرى إلى الاستجارة بأحد الموالي العامريين ، وكان هذه المرة مجاهدًا العامري»[٤].

هكذا أخذ ابن درَّاج يبث الشكوى ، ويوضح مدى إحساسه بخيبة الأمل .

---

(١)ديوان ابن درَّاج ، ص ١٠٨ .

(٢)المصدر السابق ، ص ١٠٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٠٤ – ٤٠٥ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٧٨ .

يقول[1]:

غريـــــــبٌ تَحَلَّـــــــتْ بآدابِـــــــهِ

بـــــــلادٌ تَوَاصَـــــــتْ بتَعْطِيلِـــــــهِ

ويكاد ابن درَّاج يموت من الأسى دون أن يحقق أي طموح في تلك البلاد الـــتي تواصت على تعطيله وإخراجه. يقول[2]:

وها أنذَا ما إنْ أمـــوتُ مـــن الأســـى

بِـــوَقْرٍ علَـــيَّ وثِقْـــلٍ علـــى ثِقْـــلِ[3]

وَلِيَّ النَّدى أصْبَحْتُ في دَوْلَـــةِ النَّـــدى

كأنِّي عَدُوُّ البخـــل في دَوْلَـــةِ البُخْـــلِ

يُقتِلُ أخْفى اليـــأس أَحْـــيى أمَطـــالبي

ليَاليَ جلَّ الوعْدُ عن ريبـــةِ المَطْـــلِ[4]

وأبْدي لِلسْعِ الدَّبْرِ وجْهي مُنازعًـــا[5]

وقد فازَ غيري ســـالًما بجَـــنى النحـــلِ

---

(١)ديوان ابن درَّاج ، ص ٤٦٤ .

(٢)المصدر السابق، ص ٣٩ .

(٣) وقر : الثقل يحمل على ظهر أو على رأس دليلاً على الذلة والمهانة . والوقر : الخطب الشديد .

(٤) المطل : المماطلة .

(٥) أبدي : أظهر . اللسع : الضرب بمؤخرة النحل . والدَّبر : ذكور النحل .

رابعًا - الغربـــة الاجتماعيـــة

١- غربـــــة الناس.

لقد ساعدت الظروف السياسية القلقة في فترة ملوك الطوائف إلى ظهور نـــوع آخر من أنواع الغربة ، وهي الغربة الاجتماعية .

وقد تمثلت هذه الغربة عند ابن درَّاج في غربة الناس ، فـــالظروف الـــسياسية الحرجة التي مرت بها المدن الأندلسية في تلك الحقبة الزمنية كان لها أثر شـــديد علـــى شخصية ابن درَّاج ؛ فقد أُجبِرَ القسطلي على الرحيل والانتقال بحثًا عن مكان آمـــن ، وهذا الرحيل كان من نتائجه التعرف على مجتمعات مختلفة ، وعلى أناس مخـــتلفين في عاداتهم ، وتقاليدهم ، ويختلفون في وفائهم وغدرهم .

فابن درَّاج الشاعر المسالم المحب للخير ، و« قد صدم في أول عهده بالانتقـــال إلى قرطبة و عانى كثيرًا من الدس والتحريض والاتهام بانتحال الشعر . . . وقد خلـــف في نفسه نوعًا من القلق وعدم الاطمئنان ، مما حمله حملاً على البحـــث عـــن المـــستقر والإلحاح في طلب الحامي واللجوء إلى ظل القوي »[١] .

فأول غربة شعر بها ابن درَّاج من الناس أو الأفراد انعدام (الوفاء والأمـــان) ، فكان ابن درَّاج يشعر بأن جميع المحيطين به ما هم إلا أعـــداء لـــه يريـــدون التنكيـــل والإطاحة به ، هذا الشعور جعله يفتقر إلى الوفاء والأمان اللذين يسعى إليهمـــا كـــل إنسان ، سواء كان في وطنه أو خارج وطنه .

ولكن الأمر يختلف عند ابن درَّاج الذي كان غريبًا عن تلك البلاد ، ولـــذلك كانت حاجته إلى الوفاء والأمن من الضروريات التي تساعده على التكيف والاستقرار واستمرار الحياة في تلك البلاد .

---

(١) الأدب الأندلسي ، د / أحمد هيكل ، ص ٣١٠ .

ولكن انعدامها كان له أثرٌ سلبي على شخصية ابن درَّاج ، فالإحساس بالغربة بين أناس تتفق معهم في عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم إحساس يبعث على المرارة والحزن .

وقد تمثل غدر هؤلاء الناس لابن درَّاج في عدة أمور ، وهي :

أولاً- الحسد :

فقد تمثل غدر هؤلاء الناس لابن درَّاج في اندفاعهم بطريقة همجية عمياء في التحريض والتشكيك في قدرات ابن درَّاج الشعرية. هذا السلوك العدواني جعل ابن درَّاج يبحث عن الحامي والناصر الذي يدفع عنه غدر هؤلاء الحساد . ولكي يجد الناصر لا بد أن يلجأ إلى المديح على نحو قوله[1] :

وَقَدْ وَجَدْتُ عِياذَ اللهِ أمَّنَنِي
في ذِمَّةِ المَلِكِ المَنْصورِ ما حَزَبَا
مِنْ شَرِّ تَشْغِيبِ حُسَّادِي إذا حَسَدُوا
وَشَرِّ غَاسِقِ[2] أيَّامِي إذا وَقَبَا[3]
وفَلَّ عَنِّي أَحْزَابَ العِدَى مَلِكٌ
مُعَوَّدٌ أنْ يَفُلَّ الجَحْفَلَ[4] اللَّجِبَا[5]

إذاً « لابد للقسطلي لكي يتلاءم مع فترة الحجابة ، وحتى لا ينال من الأذى ما ناله كثيرون ، أن يُسخِّر فنه في خدمة المنصور ومدحه ومدح ولديه . ثم أظلت بعد

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٣١٠ – ٣١١ .
(٢) الغاسق : هو ظلام الليل .
(٣) وقب : أي دخل .
(٤) الجحفل : الجيش الكثير .
(٥) اللجب : صوت العَسْكَر ، وعسكر لجب عرمرم : ذو لجب وكثرة .

ذلك فترة الفتنة بما فيها من قلق وخوف وضياع ، مما يدفع دفعًا إلى طلب الحِمَى ، والبحث عن المستقر ، واللجوء إلى القادرين على الحماية المحققين للاستقرار من ذوي النفوذ والسلطان ، فلعل ذلك كله كان من أسباب أمداح ابن درَّاج الكثيرة . فالحق أن أحواله الخاصة ، وأحوال عصره العامة تفسر هذا ، بل تسوغه إلى حد كبير »[١] .

فهؤلاء الناس قد طبع على قلوبهم الغدر والحسد ، وليس هناك ما يشغلهم سوى الغدر بابن درَّاج . فهذا الشعور كان شعورًا ملازمًا لابن درَّاج والذي زاد في حدة هذا الإحساس هو بعده عن وطنه ، فهو يرى أنه غريبٌ عن الناس ، مما أتاح للحسود والحاقد أن ينهشا من لحمه ، ويتربصا له ، يقول[٢] :

بَعِيدٌ مِنَ الأَوْطَانِ مُسْتَشْعِرُ العِدَى
غَرِيبٌ عَلَى الأَمْوَاهِ مُتَّهَمُ الصَّحْبِ
أَقَلُّ من الرِّئْبَالِ في الأرْضِ آلِفًا[٣]
وَإِنْ كَانَ لَحْمِي لِلْحَسودِ ولِلْخِبِّ[٤]
وَأَعْظَمُ تَأْنِيسًا لِدَهْرِي مِنَ المُنَى
وَأَوْحَشُ مِنْهُ مِنْ فَتَى الجُبِّ فِي الجُبِّ[٥]

فإحساس ابن درَّاج بالغربة عن الناس جعله يشعر أن كل إنسان يحاول تحقيق طموحاته وأحلامه لا بد أن يكون محسودًا من الناس ، ويكنون له الغدر والحقد .

---

(١) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، د / أحمد هيكل ، ص ٣١٠ – ٣١١ .

(٢) ديوان ابن درَّاج ، ص ٨٢ .

(٣) الرئبال : الأسد والذئب .

(٤) اللخب : الخداع .

(٥) يعني بفتى الجب : سيدنا يوسف u ، والجب : الحفرة العميقة أو البئر .

هذا الشعور جعله يشعر أن المنصور بن أبي عامر محسود من جميع ملوك الأرض قاطبة . وبالرغم أن كل ذي نعمة محسود عليها ، إلا أن الأمر قد تجاوز حـــده عنـــد القسطلي ، ولذلك أكثر الحديث عن هذا الأمر على نحو قوله[1] :

وآبَ مَنْـــــصورُ قَحْطـــــانٍ بعِزَّتِـــــهِ

أَوْبًا تَذُوبُ مُلوكُ الأَرْضِ مِنْ حَـــسَدِهِ

فـــاللهُ يَـــنْقُصُ مِـــنْ أَعْدَائِـــهِ أَبَـــدًا

وَيَـــسْتَزِيدُ مِـــنَ الإسْـــلامِ في عَـــدَدِهِ

ويقول[2] :

أَوْ يَحْـــــسُدُونَكَ رُتْبَـــــةً فَلْيَرْتَقُـــــوا

فالشَّمْسُ في جَـــوِّ الـــسَّماءِ الـــسَّامِي

وقال- أيضاً[3] :

وهَفَتْ بِهِ خُدَعُ الظُّنونِ وَلَـــمْ يَـــزَلْ

حَـــسَدُ القَرابَـــةِ طَـــائِشَ الأَحْـــلامِ

فالناس في نظر ابن درَّاج حساد حاقدين ،ولهذا نرى ابن درَّاج يدعو ممدوحه إلى فقـــأ كل عين حاسدة، ويقول[4] :

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٢٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٧٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٧٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٠٨ .

تُصْمِي بِـــسَعْيِكَ كُـــلَّ أَنْـــفٍ شَـــامِخٍ
قَهْـــرًا وَتَفْقَــأُ كُـــلَّ عَـــيْنٍ حَاسِـــدَهْ

ويقول[1] :

كَحَدِّ سَيْفِكَ يـــا مَنْـــصورُ إِنْ سَـــلِمَتْ
مِنْهُ مُلوكُ العِـــدَى مـــاتُوا لَـــهُ حَـــسَدَا

ثانيًا : كما تمثل غدر الناس لابن درَّاج في : ابتعاد الناس عنه ؛ لضيق الحـــال ، ولذلك نراه في الأبيات التالية يخاطب كل من ابتعد عنه ، و لم يقدم يد العون والمساعدة بأنه سيحقق آماله وطموحاته .

يقول[2] :

عَـــسَى الَّـــذِينَ نَـــأَوْا عَنِّـــي أُخَبِّـــرُهُمْ
بِـــــأَنَّ نَفْــــسِي مَبْلُــــوغٌ أَمَانِيهـــــا

فالإنسان بطبعه الشرير قد يحقد ويغدر ، ولكننا نجد الأمر قد تفاقم وتجاوز حدّه عند ابن درَّاج ، فلم يكتف بإسناد الغدر للإنسان فقط ، بل يرى أن الدهر – أيضًا – يغدر به ، بل إن الوفاء – أيضًا – يغدر به ، ويصفه بالخيانة ، يقول[3] :

واسْأَلْ بِضَيْفِكَ كَيْـــفَ بَعْـــدَكَ حَالُـــهُ
وَقَـــــدِ اقْتَــــــضَتْهُ بَعْــــــدَ دَارٍ دَارُ

---

(١) ديوان ابن دراج ، ص ٣٠٠ .

(٢)،المصدر السابق ص ٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٢٩ .

غَـــدَرَتْ بِـــهِ أَيَّـــامُ عـــامٍ قَـــدْ وَفَـــى

أنَّ الوَفـــــــاءَ بِعَهْـــــــــدِهِ غَـــــــــدَّارُ

فانتشار الغدر من الناس والدهر ، بل حتى من الوفاء بذاته شيء مرعب ، أرعب ابن درَّاج ، ولذلك نراه يلح إلحاحًا شديدًا في ضرورة انتشار الأمن والاستقرار ، هذه الرغبة المُلِحَّة ظهرت بطريقة جليَّة في شعره ، فحينما يمدح ملوك الأنـــدلس في تلـــك الحقبة الزمنية المضطربة يمدحهم على أنهم استطاعوا أن ينشروا الأمن والاستقرار.

على سبيل المثال قوله[١] :

لَبِـــــسْتَ الأَمْـــــنَ حِـــــينَ تَمَنَّعَـــــتْ

آفاقُهــــــا وَتَبَاعَـــــــدَتْ أَقْطَارُهـــــــا

فهو يرى أن الأمن عبارة عن ثياب يُلبس .

ويرى أن الأمن ما هو إلا عهد لا بد من الوفاء به ، يقول[٢] :

أَلْقُوا إِلَيْكَ بِأَيْـــدِي الـــذُّلِّ فاعْتَقَـــدُوا

عَهْدًا مِنَ الأَمْنِ مَحْفُوظًـــا لَـــهُ الـــذِّمَمُ

ويجعل الأمن الذي انتشر في عهد ممدوحه حصنًا قويًّا يفتك ويصرع كل غادر ومخادع ، يقول[٣] :

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٣٤٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٤٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣١٩ .

فَتِلْــكَ مَــصَانِعُ الأَمْــنِ اسْــتَحالَتْ[1]

مَــصارِعَ كُــلِّ ذي خَتْــرٍ وَمَــيْنِ[2]

كما يستعير لفظة الرياض للأمن ، فيقول [3] :

فَهَذِي رِيــاضُ الأَمْــنِ تُزْهِــرُ بِــالْمُنَى

وَهَذِي سَماءُ الفَــضْلِ تَهْمِــي بإفْــضالِ

كما يتصور الأمن في صورة ظلال يستظل بها لامتداد ظل الأمن في كل أنحــاء المعمورة ، يقول[4] :

ظِــــلٌّ لِمَـــنْ مَـــدَّ ظِــلَّ أَمْـــنٍ

في كُــــلِّ أَرْضٍ وَكُــــلِّ ثغْــــرِ

ويقول – أيضًا[5] :

فَبِهَــا وَسِــعْتَ الأَمْــنَ أُمَّــةَ فِتْنَــةٍ

نَعِمَــتْ بِعَطْفِــكَ فِي الظِّــلالِ البَــارِدَهْ

كما يرى الأمن في صورة نظام مترابط ، فيطير إليه خوفًا من تبدده ، فيقول[6]:

رَأَى نِظَــــامَ الأَمــــانِ في تَأَلُّفِــــهِ

فَطَــارَ نَحْــوَكَ خَوْفًــا مِــنْ تَبَــدُّدِهِ

(١) مصانع : الحصون والأبنية .

(٢) الختر : الفساد ويكون في الغدر ، المين : الكذب .

(٣) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٣٤ .

(٤)المصدر السابق ، ص ٢١٣ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٠٧ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٢٠٤ .

ويجعل الأمن شيئًا يستلذ بطعمه ، فيقول[1] :

وَبِكَ اسْــتَبانَ الــصُّبْحَ طَــارِقُ لَيْلِــهِ

والْتَــذَّ طَعْــمَ الأَمْــنِ خَــائِفُ حَتْفِــهِ

ويقول[2] :

لَيالِي فِي مَــأْوَاكَ أَمْنِــي مِــنَ الــرَّدَى

وفي ظِلِّكَ المَمْدُودِ نَشْرِي مِــنَ الــرَّمْسِ

---

(١)ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٥٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٦٢ .

- غربـــــة الأصدقـــــاء

وترتفع نغمة الغربة الاجتماعية في نفس ابن درَّاج إلى نغمة حزينة يلفها الخذلان والغدر ، وهذا الخذلان كان أكثر مأساوية؛ لأنه ينبثق من غدر الأصدقاء والإخـــوان ، وهذه اللفظة الأخيرة لفظة غنية بطاقاتها الانفعالية ، وتتكدس فيها المشاعر ، فهي تحمل معنى التضامن ، والتلاحم والتآزر ، ففي الحديث النبوي الشريف : « **المؤمن للمـــؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا** » ، وشَبَّك بين أصابعه ، وأيـــضًا : « **مثـــل المـــؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى لـــه سائر الجسد بالحمى والسهر** » ، هذا الود وهذا التراحم الذي يجمـــع بـــين المـــؤمن والمؤمن هو كذلك ما يجمع بين الصديق وصديقه ، إذا كانت صداقتها يربطها الحـــب في الله ؛ لقول الرسول r : « **سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظلَّ إلا ظله** » ، وذكر منهم : « **اثنان تحابَّا في الله ، اجتمعا عليه وافترقا عليه** »(١) .

فالعلاقة بين الصديق وصديقه لا بد أن تكون علـــى أســـاس الحـــب في الله ، والبغض في الله ، ففي الحديث : « **ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان** » ، وذكـــر منهم : « **أن يحب المرء لا يحبه إلا لله** »(٢) ، فمثل هذه الصداقة حريًّا بها أن توصـــف بالأخوة القائمة على الترابط والتكافل والتعاهد على عمل الخير ، فالصداقة والأخـــوة تحمل معنى المساندة والمساعدة والوقوف مع الصديق في السراء والضراء ، وفي الفـــرح والترح . والصديق – أيضًا – هو الذي يحفظ حق صديقه في قربه وبعده ، فيشتاق له وكأنهما يشتركان في قلب واحد .

هذه العلاقة الحميمة التي تجمع بين الأصدقاء علاقة وطيدة إذا تقطعت روابـــط هذه العلاقة كان أثرها أكثر عذابًا للنفس الحساسة ولاسيما شخصية كشخصية ابـــن

---

(١) رياض الصالحين للنووي،الباب : الأول صدر الحب في الله،ص١٣٣.

(٢) فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، للعسقلاني ، ص ٧١ .

درَّاج الذي اتصف بشدة الحساسية ، ورهافة الحس والوجدان ، كما قال عنه الدكتور أحمد هيكل: « كذلك كان في طبيعته كثير من الجد والحساسية المسببين لشيء غير قليل من الأسى »[١] .

فالحياة لا تخلو أبدًا من غير صديق وفيٍّ أمين محافظ على أسرار صديقه ، ولكننا نجد أصدقاء ، أو ممن يدَّعون الصداقة يهجرون أصدقاءهم ، ويخسرونهم لأبسط الأسباب؛ فهؤلاء عاجزون عن كسب الإخوان

. فلماذا هذا الهجران والغدر الذي تعرض له شاعر كابن درَّاج ؟

هذا السؤال جعل كثيرًا من الناس يقعون في الحيرة والدهشة ؛ لذلك نجد الدكتور السيد جاسم يتساءل عن أسباب غدر الأصدقاء قائلاً : « ويحار الإنسان في ظاهرة تعرض الشرفاء لغدر وخيانة الأصدقاء ، هل هو سوء الحظ أم البلاء ؟ وهل الشريف يغري الصديق بخيانته بسبب شرف طبعه، ونبل نفسيته، وترفُّعه عن العقاب ؟ أم أن الحسد يحرك ذيله في نفس الصديق الذي يبر بنفسه علوَّ مكانة صديقه الشريف، فيغار ويحقد وينتقم[٢] ؟

وقد يكون الحقد والحسد وراء هذا الغدر – كما قال الدكتور السيد جاسم – ولكن لا نغفل – أيضًا – أن للسفر مساوئ ، كما أشار إلى ذلك الدكتور أبو عمر الندوي في كتابه[٣] ، حيث ذكر إن من هذه العيوب اختلاط الأمور على المسافر ، فقد يظن العدو صديقًا ، والصديق عدوًّا ، ويرى الأمين خائنًا ، والخائن أمينًا .

فهل وقع ابن درَّاج في هذا الاختلاط ، وتشابكت معه الأمور حتى أصبح لا يفرق بين الصديق والعدو بسبب كثرة أسفاره ؟

---

(١) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، د / أحمد هيكل ، ص ٣٠٨ .

(٢) الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي ، د / السيد جاسم ، ص ١٠٢ .

(٣) أنيس المسافر ، د / أبو عمر الندوي ، ص ٤٤ .

يقول ابن درَّاج [١] :

بَعِيدٌ مِنَ الأَوْطَـانِ مُسْتَـشْعِرُ العِـدَى

غَرِيبٌ عَلَى الأَمْـواهِ مُـتَّهَمُ الـصَّحْبِ

يقول : (مستشعر العدى) و(متهم الصحب) إذًا هو الذي يتهم أصحابه ، ويستشعر بالعداوة اتجاههم ، وهذا دليل على أن بعض الأمور قد اختلطت على شاعرنا، ولكن ليس في كل الأوقات .

والسؤال : **هل عانى ابن درَّاج من غدر الأصدقاء حقًّا ؟ وهل استطاع ابن درَّاج أن يكتشف أثناء رحيله الدائم من هو صديقه ؟ وما هي الصفات التي يتصف بها الصديق الصادق ؟ وهل كان ابن درَّاج محبًّا للصداقة ومهتمًّا بإقامة علاقات صداقة حميمة ؟ أم أنها كانت علاقات عابرة تنتهي بمجرد رحيله عن تلك البلاد ؟**

هذه التساؤلات تجيب عليها أبياته الشعرية ، والتي تفوح منها رائحة التنديد بالغدر والخيانة من الأصدقاء ، هذا الغدر الذي كان سببًا فاعلاً لإحساسه بالغربة والتفرد .

ولكن عاطفة ابن درَّاج الجياشة تعكس مدى حبه وتمسكه بالأصدقاء ، فها هو ذا يلقي السلام على أصدقائه ، ويدعو لهم بالحياة الرغدة والعيش الهنيء ، ويدعو - أيضًا – للدهر الذي كان له فيه أصدقاء ، وهذا يعني أنه لم يَعُد له صديق ، وإنما كان له ذلك الصديق الوفي في الزمن الغابر .

يقول[٢] :

سَلامٌ عَلَـى الإِخْـوانِ تَـسْليمَ آيِـسٍ[٣]

وَسُقْيًا لِـدَّهْرِ كَـانَ لِي فِيـهِ إخْـوانُ

هذا الحب الكبير للأصدقاء حب ينبض به قلب ابن درَّاج ، ولكن هيهات هيهات له أن يهنأ بتبادل هذا الحب بين الأصدقاء ، فها هي نغمة

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٨٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٥ .

(٣)آيس : قانط يائس.

الحزن تعاوده مرة أخرى لتعزف أبياتًا يلفها الحزن والجفـاء ، فهـو غريـب لـيس له صديق في دار الغربة ، يقول(١) :

وَلا عَرَّفَـتْ بي خَلَّـةٌ دَارُ خُلَّـةٍ

عَفَـا رَسْـمَها مِنْهَـا جَفَـاءُ ونِـسْيانُ

فخيانات الأصدقاء كثيرة مروعـة ، تتمثـل في الجفـاء والنـسيان ، هـذا الجفاء الذي حطَّم قلب ابن درَّاج ، فاستطاع أن يفرق ويميز بـين الـصديق الحـق وغيره ممن يدَّعون الصداقة ،فهو بلا شك لا يجهـل هيئـات أصـدقائه ، ويعـرفهم حق المعرفة ، ولكن بمساعدة الخطوب والمصائب الـتي توالـت وتـدافعت عليـه في ديار الغربة ، استطاع أن يعرف معنى الإخـاء ومعـنى الـصداقة ، ومـدى عمـق هذه الصداقة،وبالرغم من هذه المعرفة القوية فإنه لم يَـسْلَم مـن غـدر الأصـدقاء وجفائهم ، يقول(٢) :

قَـدْ ضَرَّسَـتْنِي حُـرُوبُ الخُطُـوبِ

وَأَبْطَـأْتِ يـا نُـصْرَةَ الأَوْلِيـاءِ

وَعُرِّفْـتُ في نَكَبـاتِ الزَّمـانِ

بِكُنْـهِ الـصَّدِيقِ وَمَعْنَـى الإخـاءِ

فَواقَـدَمِي مِـنْ سَـلامِ العِثـارِ(٣)

ويـا أَلَمِـي مِـنْ سِـهَامِ الجَفـاءِ

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٧٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٨٦ .

(٣) العثار : بمعنى التعيس .

هذا الأنين الذي يتصعد ويتصعد، ويزداد قوة في صوت ابن درَّاج كلما تــذكر غدر أصدقائه ، والذي تمثل هذه المرة في المماطلة وعدم مد يد العون له ، يقول[١] :

وَيَا خُلَّةَ التَّسْوِيفِ قُــومِي فَأَغْــدِقِي[٢]
قِنَاعَــكِ مِــنْ دُونِــي وَشُــدِّي إِزَارَكِ

وَحَسْبُكِ بِي يَا خُلَّــةَ النَّــايِ خــاطِرِي
بِنَفْسِي[٣] إلى الحَظِّ النَّفِــيسِ[٤] خِطَــارَكِ

ويقول – أيضًا[٥] :

ويَا خَلَّتِي إِنْ سَوَّفَ الغَــوْثُ[٦] بــالمُنَى
ويا غُلَّتِي[٧] إِنْ أَبْطَــأَ الغَيْــثُ بالــسُّقْيَا

فجحود الأصدقاء وغدرهم تكرر ذكره عند بعض الشعراء ، فعبروا عن هــذا النكران بأساليب مختلفة مع اختلاف عمق التجربة ، ودرجة المعاناة .

وتظل حسرة ابن درَّاج على انعدام الصديق الوفي تعول وتعلو بآهات حزينة كئيبــة ، وكيف لا ، وهو يجوب الأرض غريبًا وحيدًا من غير خليل وصديق معترف بصداقته ؟ ونجد الداهية العظمى التي وقع فيها ابن درَّاج هي نكران الصديق له .

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٨٨ .
(٢) أغدقي : أي أرسلي .
(٣) نفسي : أي الروح .
(٤) النفيس : أحبه وأكرمه .
(٥) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٤٩ .
(٦) الغوث : الإعانة والنصرة .
(٧) غلتي : شدة العطش وحرارته .

يقول[١] :

فَـــإِنْ غَرَّبَـــتْ أَرْضُ المَغَــارِبِ مَـــوْئِلِي

وَأَنْكَرَنِــــي فِيهـــا خَلِـــيطٌ وخِــــلاَّنُ

هذا النكران وهذا الجحود من قِبَــل الأصــدقاء جعــل ابــن درَّاج يــصرخ ويصرخ بصوت حزين ، ينبثق من قلب جريح يعــاني القــسوة والغــدر . ولــذلك نراه في الأبيات التالية يخاطب من يسأله عــن ودِّ الأصــدقاء ووفــائهم ، وكيــف أنه لم يجد صديقًا وفيًّا ، فبقي في لُجَجِ الأسى متجرعًا منه ألوانًا .

يقول[٢] :

وَمُـــــسائِلٍ عَنِّـــــي الرِّفـــاقَ ووُدَّهُ

لَوْ تَنْبُـــذُ الـــسَّاداتُ رَحْلِـــي بـــالعَرا[٣]

وَبَقِيـــتُ فِي لُجَـــجِ الأَسَـــى مُتَـــضَلِّلاً

وَعَدَلْتُ عَـــنْ سُـــبُلِ الهُـــدَى مُتَحَيِّـــرَا

وها هي زفرات ابن درَّاج ازدادت في تصعيدها وقوتها كلما تذكر عدم وفــاء القرين له ، يقول[٤] :

عَـــنْ كُـــلِّ مَعْـــدُومِ القَـــرِينِ مُكَـــرَّمٍ

وَمُعَظَّـــــمٍ في المَــــالِكِينَ مُبَجَّــــلِ

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٧٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٦ .

(٣) تنبذ : أي الشيء القليل ، أو المتنحي ، والسادات : أي له ذلك مدى الليل والنهار .

(٤) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٠٦ .

هذه هي خطرات نفس ابن درَّاج وهواجسها ، ودمعات مقلته التي تزداد قوة في الانسياب .

فكانت تلك المقطوعات طافحة بالعاطفة والإحساس العميق بالخيانة والغدر .

يقول بعد أن بلغ اليأس مبلغه ؛ لعدم وجود الصديق الحميم من البشر فيرى أن صديقه الوفيَّ الزمان(١) :

غَـــرَارَةُ عَـــيْشٍ أَرَاهَـــا الغُـــرورُ

بِـــأَنَّ الزَّمـــانَ صَـــدِيقٌ حَمِـــيمُ

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٢٧ .

- الغربـــة عند الأســـرة والأقـــربـــاء:

« توصف الأسرة أول نظام إنساني قائم على وجـــه الأرض ، فهـــي عبـــارة عن مجتمع صغير متكامل قديم قِدم الإنسان ، كما تتكـــون الأســـرة مـــن مجموعـــة أعضاء يعيشون تحت سقف واحـــد ، يتحمـــل مـــسؤوليتهم الأب ، فيـــوفر لهـــم حاجاتهم المادية والوجدانية التي تساعد علـــى اســـتمرار هـــذا الهيكـــل الأســـري . ولكن قد توجد في حياة الأسرة فتـــرات حرجـــة تتعـــرض لهـــا روابـــط الأســـرة بالتفكك والضعف . والعوامل التي تؤدي إلى هـــذا الـــضعف قـــد تكـــون عوامـــل اجتماعية أو اقتصادية ، أو سياسية ، فتنهار بها وحـــدة الأســـرة وتتـــصدع نتيجـــة لتلك الأجواء المتوترة .

ومعروف أن رب الأسرة هو الذي يقوم بتوفير الغذاء والمأوى ، وغيرها من المطالـــب المادية المحافظة على استمرار حياة الأسرة واستقرارها . ولكن إذا كان جو الأسرة ، أو الظروف المحيطة بها مشحونة بالتقلبات ، والتغيرات المفاجئة كانت كفيلة بأن تهدم هذا الكيان الأسري – كما قلنا سابقًا . وهدم هذا الكيان يؤدي بلا شك إلى شقاء أفـــراد الأسرة ، فيتحمل كل شخص نصيبه من الحزن مهما كان عمر ذلك الفرد صغيرًا ، أو كبيرًا ، ذكرًا أو أنثى. »(١)

وقد استطاع الشعراء أن يعبروا ويصفوا هذا الكيان ، وما يعتريه من ظروف قاسية ساعدت في تشتيت شمل هذا الكيان وتفرقه . واستطاعوا – أيضًا – أن يعبروا عن أحزانهم وأحزان أسرهم حينما ينتقلون من موطنهم إلى بلد آخر . فالظروف السيئة التي مرت بها البلاد الأندلسية جعلت بعض الشعراء يرحلون مع أُسَرهم بحثًا عن مكان آمن يستقرون فيه بعيدًا عن الغربة والتشرد . فإذا كان شعور الغربة الاجتماعية قد تمثل في غربة الأفراد فهو حريٌّ بأن يتمثل في غربة الأسرة والأقرباء . ولذلك نرى ابن درَّاج

---

(١) الأسرة ومشكلاتها،د.محمود حسن،انظر المقدمة بتصرف .

من خلال شعره يحاول أن يصور هموم أسرته وإحساسهم بالغربة والتشرد في دار الغربة، كما صور همومه حينما يتركهم .

فقد اضطر ابن درَّاج إلى مغادرة موطنه ومـوطن أجـداده بلـدة (قـسطلة) متنقلاً إلى قرطبة ، تاركًا وراءه أبناءه إلى أن هيأ له ولهـم حيـاة مـستقرة هنـاك . ولكن الأمر لم يدم طويلاً ، فقد وقعـت الفتنـة واضـطر ابـن درَّاج الـضرب في مناكب الأرض مغتربًا طالبًا لنفسه ولأولاده مكانًا آمنًـا يلـوذون بـه . وكـان في أحيان كثيرة يرحل عنهم ، وأحيانًا أخرى يرحلون معـه مـع كثـرهم ، إذْ كـان يبلغ عددهم بضعة عشر ذكورًا وإناثًـا ، فكـان يتحمـل مـسؤوليتهم جميعًـا ، ويلبي طلباهم تحت تلك الظروف القاسية ، ولذلك نراه يقول[1] :

فَمَا جَهَدُوا فُلْكًا كَمَـا جَهَـدُوا يَـدِي
ولا أَنْقَضُوا رَحْلاً كَمَا أَنْقَـضُوا ظَهْـرِي
كَأَنَّ لَهُمْ وِتْرًا[2] عَلَـيَّ وَمَـا انْتَحَـى
لَهُمْ حَـادِثٌ إلاَّ وفِي نَفْـسِهِ وَتْـرِي[3]
وَلَـوْلاهُمُ لَـمْ أُبْـدِ صَـفْحَةَ مُعْـدِمِ
وَلَمْ أُسْـمِعِ الأَعْـداءَ دَعْـوَةَ مُـضْطَّرِّ
وَلا جُـدْتُ لِلْـدُّنْيَا بِخُلَّـةِ وَاصِـلِ
وَلَوْ بَرَزَتْ لِـي فِي غَلائِلِهَـا[4] الخُـضْرِ

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٦٠ .
(٢) وتر : الثأر .
(٣) وتري : اصابني بمكروه .
(٤) غلائل : مفرده غلالة ثوب يلبس تحت الدثار، الخضر : هو القطع .

ويقول في كثرة مطالبهم[١] :

تَمُـــورُ بِـــضَعْفِ نُجُـــومِ الثُّرَيَّـــا

لَـــوِ انْفَـــرَدَتْ بِـــأَدِيمِ الـــسَّماءِ

ثَمـــانٍ كَأَسْـــرارِ قَلْـــبِ الكَئِيـــبِ

وَرَابِعَـــةٌ كَقِـــدَاحِ الـــسِّرَاءِ[٢]

مَطَـــالِبُهُمْ لِمَطـــالِ الـــضَّمَارِ

وَآجَـــالُهُمْ لاقْتِـــضاءِ القَـــضاءِ

فابن درَّاج في خضم الانهيارات والنكبات كان يحـــن إلى أســـرته ، ويـــصور قسوة الأيام عليهم ، وتغلغل إحـــساسهم بالغربـــة في نفوســـهم ، ولـــذلك يقـــول الدكتور / أحمد هيكل عنه : « هذا شعر ابـــن درَّاج مـــن حيـــث الموضـــوعات ، وقد رأينا أن الموضوع الغالب في الظاهر هـــو موضـــوع المـــدح ، ولكـــن خـــلال قصائد المدح المستبدة بالديوان أغراض كـــثيرة هامـــة ، أبرزهـــا – كمـــا تقـــدم : وصف مواقف الوداع للزوجة والأولاد ، ووصـــف الأســـفار بـــرًّا وبحـــرًا ، نهـــارًا وليلاً ، وتصوير الغربة والقلق والضياع ، وخاصة غربـــة الأبنـــاء ، وقلـــق الأهـــل ، وضياع الأسرة »[٣] .

ومن هنا برزت « سمة الشعور الأسري ، فنعني بها غلبـــة العاطفـــة الأســـرية واتضاحها بشكل يلفت النظر ، وقد كـــان ذلـــك الجانـــب بـــارزًا في شـــعر ابـــن درَّاج ، فقارئ شعره يطالع ألوانًـــا مختلفـــة مـــن الحـــديث عـــن الزوجـــة والأولاد

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٨٥ .

(٢) يقول محمود مكي : « لم نهتد لمعنى واضح لهذا البيت ، وقد يكون قصد بالسراء : نصل صغير قصير مدور ، وهو أدق ما يكون في السهام »ص٢٨٥ .

(٣) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، د / أحمد هيكل ، ص ٣٢١ .

والبنـــات ، في رحيلـــهم وحاجتـــهم وضـــياعهم وثقـــل مـــسؤوليتهم ، وشـــدة الإحساس بمطالبهم »[1] .

ويقول – أيضًا : « إن من أبـــرز ملامـــح شخـــصية ابـــن درَّاج إحـــساسه العميق بالأسرة ، وتعلقه الشديد بالزوجة والأولاد »[2] .

ولذلك أكثر في ذكر أسرته واصفًا مدى تـــشردهم حـــتى « بلغـــت أكثـــر من عشرين مرة في ديوانه، وهذه ظـــاهرة قـــد لا يـــشاركه فيهـــا شـــاعر عـــربي آخر»[3] .

ويقول محمود مكي : « إنه أصدق ما يكون عنـــد الحـــديث عـــن أبنائـــه ، والذي يطالع هذا الديوان يرى كيـــف يـــستغرق جانبًـــا عظيمًـــا منـــه ، حـــديث الشاعر عن أبنائه وتصوير عاطفة الأبوة نحوهم »[4] .

وفي موضع آخر يقول : « ومتصفح الديوان سيرى كيـــف لا يكـــف ابـــن درَّاج عن الحديث عن أبنائه حتى يدركه الموت »[5] .

فابن درَّاج – كما ذكرنا – كثير الحديث عـــن وداعـــه لزوجتـــه وأولاده ، ففي الأبيات التالية يشعر ابن درَّاج بالغربة في دار الغربة ، فيتـــذكر موقفًـــا محزنًـــا، وهو وداعه لزوجته التي كانت تبكي عليه بدمع كالجمـــان ، وقـــد تـــأثر الـــشاعر بذلك الموقف حتى كاد قلبه أن يتمزق إربًا إربًا من الحـــزن ، فلـــم تكـــن الزوجـــة وحدها ، بل كانت هناك ابنته ذات الثمان من عمرهـــا ، والـــتي كانـــت أحـــشاء فؤادها تخفق بقوة اضطرابًا ، وحزنًا لفراق والدها .

---

(١)الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، د / أحمد هيكل ، ص ٣٢٦ .

(٢) دراسات أدبية ، د / أحمد هيكل ، ص ٢٥٤ .

(٣) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، د / أحمد هيكل ، ص ٣١٦ .

(٤) ديوان ابن درَّاج ، ص ٣٧ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٣٨ .

ويصور موقف تلك الطفلة الحزينة المنزعجة من رحيل والدها ، وقد تعلقت يداها بكتف أبيها تشكو له حالهم بعد رحيله ، وما سوف يعانونه من غربة وألم ، وما سيصيبهم من جفاء الأقارب وقسوتهم ، يقول[١] :

وللهِ عَزْمِي يَوْمَ وَدَّعْتُ نَحْوَهُ
نُفُوسًا شَجَانِي بَيْنُها وشَجَاهَا

وَرَبَّةُ خِدْرٍ كَالجُمَانِ دُمُوعُهَا
عَزِيزٌ عَلَى قَلْبِي شُطُوطَ نَوَاهَا

وَبِنْتُ ثَمانٍ مَا يَزالُ يَرُوعُنِي
عَلَى النَّأْيِ تَذْكَارِي خُفُوقَ حَشَاهَا

وَمَوْقِفَها والبَيْنُ قَدْ جَدَّ جِدُّهُ
مَنُوطًا بِحَبْلَيْ عَاتِقِي[٢] يَدَاهَا

تَشْكِي جَفاءَ الأَقْرَبِينَ إذَا النَّوَى
تَرَامَتْ بِرَحْلِي في البِلادِ فَتَاهَا

ويحاول ابن درَّاج أن يجسد غربة أبنائه ، وكما قلنا سابقًا الشاعر لم يصف إحساسه بالغربة فقط ، بل أبرز – أيضًا – إحساس أسرته بالضياع والتشرد في ديار الغربة .

والذي يبدو في القصيدة التالية أن عددًا من أبنائه كانوا راحلين معه ، ويبلغ عددهم ستة أطفال لا حول لهم ولا قوة صعقتهم رياح الغربة ، فأصبحوا متشردين في الأرض هائمين مهمومين ، يقول[٣] :

---

(١)ديوان ابن درَّاج ، ص ١١ .

(٢) العاتق : موضع الرداء من المنكب أو ما بين المنكب والعنق .

(٣) ديوان ابن درَّج ، ص ٦٣ .

في سِـــتَّةٍ ضَـــعُفُوا وَضَـــعُفَ عَـــدُّهُمْ[1]

حَمْـــلاً لِمَبْهُـــورِ الفُـــؤادِ مُبَلَّـــدِ[2]

شَـــدَّ الجَـــلاءُ رِحـــالَهُم فَتَحَمَّلَـــتْ

أفْـــلاذَ قَلْـــبٍ بِـــالهُمُومِ مُبَـــدَّدِ

وَحَدَتْ بِهِـــمْ صَـــعَقاتُ رَوْعٍ شَـــرَّدَتْ

أَوْطَـــانَهُمْ في الأَرْضِ كُـــلَّ مُـــشَرَّدِ

لا ذَاتُ خِـــدْرِهُم يُـــرامُ لِوَجْهِهَـــا

كُـــنَّ وَلاذُوا مَهْـــدهُمْ بِمُمَهَّـــدِ

عَادُوا بِلَمْـــعِ الآلِ[3] في مَـــدِّ الـــضُّحَى

مِـــنْ بَعْـــدِ ظِـــلٍّ في القُـــصُورِ مُمَـــدَّدِ

وَرَضُوا لِبـــاسَ الجُـــودِ يَنْهَـــكُ مِـــنْهُمُ

بِـــالبُؤْسِ أبْـــشارِ النَّعِـــيمِ الأَرْغَـــدِ

واسْـــتَوْطَنُوا فَزَعًـــا إلى بَحْـــرِ النَّـــدَى

أَهْـــوالَ بَحْـــرٍ ذِي غَـــوارِبَ مُزْبَـــدِ[4]

ويبلغ شدة إحساسهم بالغربة ، حتى إنهم ليشعرون بالأسى والحزن كلما مـــروا

(١) ضعفوا : من الضعف والإرهاق ، ضُعِّف : الزيادة في العدد .

(٢) المبهور : أي تتابع النفس من الإعياء ، مبلد : أي لزمه ولصقه ، أو المتلهف غير المتجلد .

(٣) الآل : السراب .

(٤) غوارب : بمعنى التمادي ، مزبد : البحر إذا هاج موجه وزبد الماء هو خلاصه .

بديارٍ خالية من سكانها ، وكلما سمعوا أصوات الحمائم ، وتغريدها مستمتعة بإقامتها في أعشاشها هانئة مستقرة . يقول الدكتور أحمد هيكل : « لا ومن ذلك – أيضًا – قوله في قسوة غربتهم وشدة حنينهم إلى دارهم حتى إنهم ليحزنون كلما تخيلوا دارًا لساكنين، ويتألمون كلما رأوا حيوانًا ، أو طائرًا يستمتع بمربضٍ ، أو عشٍ على حين هم مشرَّدون هائمون »[1] ،يقول ابن دراج[2] :

فِي أَهْلِ دَارٍ كَالكَواكِبِ والنَّوَى
بَعْدَ النَّوَى فَلَكٌ بِهِمْ دَوَّارُ
كَانُوا جَمَالاً لِلْزَّمَانِ فَأَصْبَحُوا
وَهُمُ عَلَيْهِ بِالتَّغَرُّبِ عَارُ
تَنْبُو الدِّيَارُ بِهِمْ وَتِلْكَ دِيارُهُم
غَرَضُ المَصائِبِ مَا بِها دَيَّارُ
قَدْ أَقْفَرُوا وَطَنَ الأَنْيسِ وَأُونِسَتْ
بِهِمُ مَفَاوُزُ بالفَلا وقِفَارُ
يَتَأَوَّهُونَ إذا رَمَتْ أَوْهَامُهُمْ
دَارًا لِساكِنِيها بِها اسْتِقْرَارُ
وَيَهِيجُهُمْ عِيْنٌ لَهُنَّ مَرابِضٌ
وَيَشُوقُهُمْ طَيْرٌ لها أَوْكَارُ

(١) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، ص ٣١٨ .
(٢) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٢٩ .

وهذه قطعة شعرية أخرى مزج فيها ابن درَّاج صورة السيف والمــوت الــذي يتربص بأفلاذ قلبه ، وكأنه قصد بالسيف تلك الفتن التي جعلت منه مغتربًــا ، ومــن أسرته مغتربين نازحين عن ديارهم . وكان ذلك الاغتراب بمثابة الموت لهم ، فــأطلقوا عنان الزفرات والآهات ، يقول(١) :

شَــرِيدُ الــسُّوفِ وفــلُّ الحُتــوفِ
يَكيــدُ بِــأَفْلاذِ قَلْــبٍ مَهُــولِ(٢)

تَهَــاوَتْ بِهِــمْ مُــصْعِقاتُ الرَّوَاعــ
ــدِ في مُدْجنَاتِ الــضُّحَى والأَصِــيلِ(٣)

بَــوَارِقُ ظَلْمَــاءِ ظُلْــمٍ تُبِــيحُ
دُمًى مِــنْ حِمَــىً أَوْ دَمًــا مِــنْ قَتِيــلِ

فَأَذْهَــلَ مُرْضِــعَةً عَــنْ رَضِــيعٍ
وأَنْــسَى الحَمَــائِمَ ذِكْــرَ الهَــدِيلِ

وَشَطَّ الصَّرِيخُ عَلَى العَيْنِ فِيهــا سَــبيلاً
سِــوَى سَــبَلِ العَبَــراتِ الهُمُــولِ

وَلا يَعْــرِفُ المَــوْتُ فِيهــا طَرِيقًــا
إلى الــنَّفْسِ إلاَّ بِغَــضَبٍ صَــقِيلِ

ويبدو في الأبيات التالية أن ابن درَّاج قد ترك أبناءه واضطر للرحيل وحيــدًا ،

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٦٥ .

(٢) مهول : مخيف ، يكيد : يستدرجهم ، ويُقال : فلان يكيد أمرًا ما أدري ما هو إذا كان يريغه .

(٣) مدجنات : ظلمة الغيم .

فيشعر بالغربة ، فيتذكر ذلك اليوم الذي أوجب عليه الرحيل ، فقد كان ذلك اليوم بمثابة الصدع الذي مزَّق شمله ، وتتوالى عليه الذكريات فيتذكر موقف وداعه لزوجته ، فقد كان موقفًا حزينًا تتقطع له القلوب وتشجو لشجوه النفوس .

ويقف ابن درَّاج واصفًا ذلك الوداع حيث اجتمعت أسرته حوله يودعونه بحرقةٍ وألم ، ثم يفترقون عنه كتشعب أغصان الأشجار التي تهب عليها العواصف .هذه الصورة وما فيها من صدعٍ وشجوٍ وتفرقٍ ودموعٍ تمثل لنا غربة أسرته ، فقد كان فراق ابن درَّاج لأسرته كفراق الأرواح من الأجساد ، ولكن الشاعر أراد أن يخفف من تلك الأجواء الحزينة ، أو يحاول أن يطمئن أبناءه بأنه سيأتي لهم بالخير ، وأن عيشهم سيصبح محمودًا .إذًا هذه القطعة – كما قلنا – سابقًا تضج بمعاني الغربة وحنين الشاعر لأسرته، يقول[1] :

وَيَارُبَّ يَوْمٍ بَانَ صَدْعُ سَلامِهِ
بِصَدْعِ النَّوَى أَفْلاذُ قَلْبِي إِذْ بَانُوا
نُوَدِّعُهُمْ شَجْوًا بِشَجْوٍ كَمِثْلَمَا
أَجابَتْ حَفِيفَ السَّهْمِ عَوْجاءُ مِرْنَانُ[2]
وَيَصْدَعُ ما ضَمَّ الوَدَاعُ تَفَرُّقٌ
كَمَا انْشَعَبَتْ تَحْتَ العَواصِفِ أَغْصانُ
إذا شَرَّقَ الحَادِي[3] بِهِمْ غَرَّبَتْ بِنَا
نَوَىً يَوْمانِ والحِينُ أَحْيانُ

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٧٥ – ٧٦ .
(٢) عوجاء : الضامرة من الإبل ، ويقال : ناقة عوجاء إذا عجفت فاعوجَّ ظهرها ، والمرنان : مرن الشيء يمرن مرونًا إذا استمر وهو لين في صلابة .
(٣) الحادي : هو سائق الأبل .

فَــــلا مُــــؤْنِسٌ إلاَّ شَــــهِيقٌ وَزَفْـــرَةٌ

ولا مُــــسْعِدٌ إلاَّ دُمُــــوعٌ وأَجْفــــانُ

وَمَــا كَــانَ ذَاكَ البَــيْنُ بَــيْنَ أَحِبَّــةٍ

وَلَكِــــنْ قُلُــــوبٌ فَارَقَتــــهُنَّ أَبْــــدَانُ

فَيَــا عَجَبًــا للــــصَّبْرِ مِنَّــا كَأَنَّنــا

لَهُمْ غِيَرُ مَنْ كُنَّا وَهُمْ غَيْرُ مَــنْ كَــانُوا

قَضَى عَيْشُهُمْ بَعْدِي وَعَيْــشِي بَعْــدَهُمُ

بِأَنِّي قَدْ خُنْــتُ الوَفــاءَ وَقَــدْ خَــانُوا

وَأَفْجَعُ بِمَنْ آوَى صَــفِيحٌ وَجَلْمَــدٌ(١)

وَوَارَتْ رِمَــــالٌ بــــالفَلاةِ وَكُثْبــــانُ

وُجــوهٌ تَنَــاءَتْ في الــبِلادِ قُبورُهــا

وَإِنَّهُــمُ في القَلْــبِ مِنِّــي لَــسُكَّانُ

وَمَــا بَلِيَــتْ في التُّــرْبِ إلاَّ تَجَــدَّدَتْ

عَلَيْهَــا مِــنَ القَلْــبِ المُفَجَّــعِ أَحْــزَانُ

هُمُ اسْتَخْلَفُوا الأحْبــابَ أَمْــواجَ لُجَّــةٍ

هِيَ المَوْتُ أَوْ في المَوْتِ عَــنْهُنَّ سُــلْوانُ

(١) أفجع : من الفجع وهو التوجع والتضور ، جَلْمد : الصخر أو الصخرة .

بَقَايـــاَ نُفُـــوسٍ مِــــنْ بَقِيَّـــةِ أَنْفُـــسٍ

يُميتُونَ أَحْزَانِـــي فَـــدينُوا بِمَـــا دَانُـــوا

أَقُولُ لَهُـــمْ صَـــبْرًا لَكُـــمْ أَوْ عَلَـــيْكُمْ

عَسَى العَيْشُ مَحْمُودٌ أَوِ المَوْتُ عَجْـــلانُ

فإذًا كان ابن درَّاج يدعو أبناءه إلى التجلد والصبر على فراقـــه ، نجـــد الـــصبر يضعف ويقل عند المتنبي ، كما يضعف الجسم عند مفارقة أحبابه ، يقول[١] :

والوَجْدُ يَقْوَى كَمَا تَقْوَى النَّـــوَى أبَـــدًا

والصَّبْرُ يَنْحَلُ في جِـــسْمِي كَمَـــا نَحِـــلا

الفُرَاق كان عظيمًا ، فراق تغادر فيه القلـــوب الأبدان فتتركها أبدانًا هامدة لا حياة فيها . هذه الفكرة نلحظها – أيضًا – عند المتنبي ، ولكن بصورة مختلفة ، فهو لم يجعل القلوب تغادر الأبدان ، بل جعل الأرواح تسيل من العيون في صورة الدموع عند مفارقة الأحباب ، يقول[٢] :

أشـــاروا بِتَـــسْليمٍ فَجُـــدْنَا بِـــأَنْفُسٍ

تَسِيلُ مِـــنَ الآمَـــاقِ والـــسمُ أَدْمُـــعُ[٣]

ويقول: إن أولاده لا تسليهم فرحة قدوم والدهم بالهبات والعطايا.

يقول[٤] :

حَيْـــثُ اسْـــتَكانَتْ للعَفَـــاءِ مَنَـــازِلِي

وَهَـــوَتْ بِـــأَفْلاذِ الفُـــؤادِ نَجَـــائِبِي[١]

(١) ديوان المتنبي ، بشرح الواحدي ، ج ١ ، ص ٧٧ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٠٠ .

(٣) الآماق : طرف العين .

(٤) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٣٨ .

ذُلُـــــلاً تَعَـــسَّفْنَ الــــدُّجَى بِأَذِلَّــــةٍ

وَلَوَاغِبًـــا جُـــبْنَ الفَـــلا بِلَواغِـــبِ[٢]

وَكَواكِـــبٌ نَـــاءَتْ بِقرْبَتِهَـــا النَّـــوَى

فَقَـــضَتْ مَـــدَامِعُهَا بِنَـــوْءِ الغَـــارِبِ[٣]

مِـــنْ كُـــلِّ مَفْجُـــوعٍ بَتَرْحِـــةِ رَاحِـــلٍ

لَـــمْ يُـــسْلِهِ طَمَـــعٌ بِفَرْحَـــةِ آيِـــبٍ

فحدة التفجع والشعور بالغربة قد بلغ من الشاعر مبلغه ، فغربة أسرته ورحيلهم وترك المنازل شيء يبعث الذلة والحسرة .إذ يعاتب الشاعر نفسه ، فهنا حوارٌ داخلـــي يحاسب فيه الشاعر نفسه ويلومها بتشتيتها شمل أسرته الذي نتج عنه الإحساس بالغربة والضياع حتى إنهم أَلِفُوا حياة الترحال والتشرد .يقول الدكتور أشـــرف دغـــرور : « فالرحيل الدائم حياتهم ، وقد أَلِفُوا الغربة التي لا نهاية لها إلا مع نهاية حياتهم »[٤] .

وفي موضع آخر يقول : « فلا يكاد أحدهم يستقر بموضع حتى يرحل عنه ممـــا عمق هذا الإحساس بالغربة »[٥] ،يقول[٦] :

وَشَعَبْتُ أَفْـــلاذَ الفُـــؤَادِ وَلَـــمْ أَكَـــدْ

فَحَـــذَوْتُ مِـــنْ حَـــذْوِ الثُرَيَّـــا مَنْظَـــرَا

---

(١) نجائب : أفضل أنواع الإبل .

(٢) لواغب : السير حتى التعب والإعياء .

(٣) نوء الغارب : النوء عن الحقيقة سقوط نجم في المغرب ، وطلوع آخر في المشرق .

(٤) الغربة في الشعر الأندلسي عقب سقوط الخلافة ، د / أشرف دغرور ، ص ١١٥ .

(٥) المرجع السابق ، ص ١١٤ .

(٦) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٠٤ .

سِـــتٌّ تَـــسَرَّاهَا الجَـــلاءُ مُغَرِّبًـــا

وَحَدَا بِهَـــا حَـــادِي النَّجَـــاءِ مُـــشَمِّرَا

لا يَـــسْتَفِيقُ الـــصُّبْحُ مِنْهَـــا مَـــا بَـــدَا

فَلَقًا ولا جَـــدْيُ الفَراقِـــدِ مَـــا سَـــرَى

ظعنٌ أَلِفْـــنَ القَفْـــرَ فِي غَـــوْلِ الـــدُّجَى

وَتَـــرَكْنَ مَـــأْلُوفَ المَعَاهِـــدِ مُقْفِـــرَا

إلى أن قال مخاطبًا أحد أبنائه :

أَبُنَـــيَّ لا تَـــذْهَبْ بِنَفْـــسِكَ حَـــسْرَةٌ

عَنْ غَـــوْلِ رَحْلِـــي مُنْجِـــدًا أَو مُغـــورَا

و لم يكتف ابن درَّاج بوضع مسؤولية تمزيق شمل أسرته على عاتقه فقط ، بـــل نراه يوجه أصابع الاتهام إلى الدهر . فيقول[١] :

وَفِلْـــذَةُ قَلْبِـــي فِي حِمَاهَـــا رَهِينَـــةٌ

وَإِنْـــسانُ عَيْنِـــي فِي ذُرَاهَـــا مُخَيِّمَـــا

تَقَسَّمَ رَيْـــبُ الـــدَّهْرِ والنَّـــأْيِ شَـــمْلَنَا

وَقَلْبًـــا غَـــدَا للبَـــيْنِ نَهْبًـــا مُقَـــسَّمَا

فَمَـــا نَأْتَـــسِي إلا أَسَـــىً وَتَعَزِّيَـــا

وَمَـــا نَلْتَقِـــي إلاَّ كَـــرىً وَتَوَهُّمَـــا

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٤٤٣ – ٤٤٤ .

لَيَـــالِي كالإعْـــدَامِ طَوَّلَهـــا الأَسَـــى

وَطَاوَلْتُهـــا حَـــوْلاً وَحَـــوْلاً مُجَرَّمَـــا

ويخاطب ابن درَّاج زوجته ، ويطلب منها أن تترك شؤونها وتقضي ساعة تأمل ، فتتخيل تلك الليلة التي سيزف صباحها بشرى سارة ، وهذه البـــشرى انتـــهاء حيـــاة الترحال والشعور بالحزن والأسى ، ويطلب منها أن تتحمل لواعج الشوق والحـــنين ، وتتحمل حرقة الوداع ، وأن تتجرع غصص النوى ، وإن رحلـــت معـــه فعليهـــا أن تستوطن الفلاة ، وتسير في الليل ، يقول(١) :

كُفِّـــي شُـــؤُونَكِ سَـــاعَةً فَتَـــأَمَّلِي

فِي لَيْلِهَـــا بُـــشْرَى الـــصَّبَاحِ المُقْبِـــلِ

وَتَنَجَّـــزِي وَعْـــدَ المَـــشَارِقِ وَانْظُـــرِي

واسْتَخْبِرِي زُهْـــرَ الكَواكِـــبِ واسْـــأَلِي

فَلَعَـــلَّ غَايَـــاتِ الـــدُّجَى أَنْ تَنْتَهِـــي

وَعَـــسَى غَيابـــاتِ الأَسَـــى أَنْ تَنْجَلِـــي

لا تَخْدَعِي بِدُمُوعِ عَيْنَيْـــكِ فِي الـــوَرَى

قَلْبًـــا يَعِـــزُّ عَلَيْـــهِ أَنْ تَتَـــذَلَّلِي

وَتَجَمَّلِـــي لِـــشَجَا النَّـــوَى لا تُمْكِنِـــي

أَيْـــدِي الـــصَّبابَةِ مِـــنْ عَنَـــانِ تَجَمُّلِـــي

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٣٥٣ – ٣٥٤ – ٣٥٥ .

إلى أن قال :

وَتَجَرَّعِي غُــصَصَ التَّنَــائِي واجْمَعِــي

بَـــيْنَ المَطِـــيِّ وَلَــيْلُهُنَّ الأَلْيَـــلِ

واسْــتَوْطِنِي وَحْــشَ الفَــلاةِ وَوَطِّنِــي

نَفْــسًا لِبَــرْحِ تَــوَدُّعٍ وَتَرَحُّـــلِ

وتعلو خفقات قلب الشاعر المهموم ، والذي يصور نفسه طائرًا مدَّ جَناحيه في السماء حاملاً معه ثمانية من أبنائه، هذا الحمل كان أثقل من الطود العظيم .

فيقول(١):

كَأَنَّ خُفُــوقَ القَلْــبِ مَــدَّ جَــوانِحِي

بِأَجْنِحَةٍ رِيشَتْ مِــنَ الــرَّوْعِ والــذُّعْرِ

وَتَحْــتَ جَنــاحَيْ مَقْــدِمِي وَتَعَطُّفِــي

ثَمَــانٍ وَعَالَــتْ بِــالبَنِينَ إلى الــشَّطْرِ

أَخَذْتُ لَهُــمْ إصْــرَ الحَيــاةِ فــأَجَّلُوا

وقَدْ أَخَذَ الإشْفاقُ مِنِّــي لَهُــمْ إِصْــرِي

فَحَمَّلْــتُهُمْ وِزْرًا وَلَــوْ خَــفَّ مِــنْهُمْ

جَنَاحِي لَكَانَ الطَّوْدُ أَيْــسَرَ مِــنْ وِزْرِي

فَلِلَّــه مِــنْ أَعْــدَادِ أَنْجُــمِ يُوسُــفَ

تَحَمَّلَهَــا مِنْهَــا أَقَــلُّ مِــنَ العَــشْرِ

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٥٧ .

إلَى كُلِّ مَــأْوَى لِلْجَــلاءِ هَــوَى بِنَــا

إلَى حَيْثُ لا مَهْوَى عُقَــابٍ ولا نَــسْرِ

وفي وحشة الوحدة والغربة يظمأ ابن درَّاج لرؤية أولاده الخمسة عشرة ، فهــو طريد بعيد عنهم ، يقول[1] :

ويا طُــولَ ظِمْئِــي لَخَمْــسٍ وَعَــشْرٍ

طَرِيــدَ الحِيــاضِ بَعِيــدَ الإِضــاءِ[2]

كــأَنّي بِعْـــتُ التُّقَـــى بالنِّفــاقِ

فَـــلا هَــــؤُلاءِ ولاَ هَــــؤلاءِ[3]

وَكَــمْ عُقِــرَتْ دُونَ عُقْــرِ الحِيــاضِ

سَــــوَامِي وَأَزَّتْ أَمــــامَ الإِزَاءِ[4]

فَرحْــتُ بِهَــا مُخْمِــصًا في البِطــانِ

وَأَصْــــدَرْتُها مُظْمِئًــا في الــــرِّواءِ

إلى أن قال :

بِــسَبْعٍ كَــسَبْعِ سَــمَامِ الــسَّمُومِ[5]

وأَرْبَعَــــةٍ كَرُبُــــوعِ العَفــــاءِ

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٨٦ – ٢٨٧ .

(٢) الإضاء : الغدير .

(٣) فلا هؤلاء ولا هؤلاء : إشارة إلى أنه كان وسطا بين الطائفتين .

(٤) الإزاء : مصب الماء في الحوض .

(٥) سبع:عدد بناته أربعة ،وسمام:ضرب من الطير نحو السماني،والسموم:هي الرياح.

يُفَـــدُّونَ نَفْـــسِي مِـــنَ الحَادِثَـــاتِ
وَمَـــالِي ولا لَهُـــمْ مِـــنْ فِـــداءِ
وَكَـــمْ ضَـــرَبُوا بِقِـــداحِ الحُنُـــوِّ
عَلَـــيَّ فَفَـــازُوا بِقِـــسْمٍ سَـــواءِ
وَقَـــدْ أَسْـــلَمْتَهُمْ سَـــمَائي وأَرْضِـــي
فَـــلا مِـــنْ ثَـــرَايَ وَلا مِـــنْ ثَرَائـــي
فَيَـــا ضِـــيقَ ذَرْعِـــي لَهُـــمْ بِـــالزَّفِيرِ
عَلَـــى ضِـــيقِ ذَرْعِـــي بِـــضِيقِ الـــشِّتَاءِ
وَقَـــدْ آذَنَـــتْهُمْ يَـــدِي واضْـــطِّلاعِي
بِعُـــدْمِ الوِقَـــاءِ لَهُـــمْ والـــصِّلاءِ[1]

ويصور ابن درَّاج إحساسه بالغربة وإحساس أبنائه ، وغدر أقاربه بهم بعد رحيله، يقول[2] :

وَكَمْ زَفْـرَةٍ نَمَّـتْ عَلَـيْهِمْ بِحَـسْرَةٍ
أَرَتْ بِنَـــارِ الـــسِّرِّ فِي عِلْـــمِ الجَهْـــرِ
وَنَادَتْ عُيُـونُ الـشَّامَتَيْنِ إِلَـى القِـرَى
بِـــأَفْلاذِ أَكْبَـــادٍ كَـــصَالِيَةِ الجُـــزْرِ
وَمَـاذا جَـلا وَجْـهُ الجَـلاءِ مَحَاسِـنًا
تَهَـابُ العُيُـونُ مـا نَثَـرْنَ مِـنَ الـدُّرِّ

(١) الصلاء : طلب الدفء .
(٢) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٥٨ – ١٥٩ .

وَمَــاذا تَلَظَّــى الحَـــرُّ في حُـــرِّ أَوْجُـــهٍ

تَنَـــسَّمُ فيـــهِ بَـــرْدَ ظِـــلٍّ عَلَـــى نَهْـــرِ

وَمَاذَا أَجَـــنَّ اللَّيْـــلُ في مُـــوحِشِ الفَـــلا

أَوْ آنِـــسَ بِـــالأَتْرَابِ في يَـــانِعِ الزَّهْـــرِ

وَمَــاذا تَرَامَــى المَــوْجُ في غَــوْلِ لُجَّــةٍ

بِلاهِيَـــــةٍ بَـــــيْنَ الأَرَائِـــــكِ والخِـــــدْرِ

فَإنْ نَبَـــتِ الأَوْطَـــانُ مِـــنْ بَعْـــدُ عَـــنْهُمُ

فَلا مَحْجَرِي حَجْرٌ عَلَـــيْهِمْ وَلا حِجْـــرِي

وَإِنْ ضَاقَ رَحْبُ الأَرْضِ عَـــنْ مُنْتَـــواهُمُ

فَرَحْبٌ لَهُمْ مَا بَيْنَ سَحْرِي إِلَى نَحْـــرِي(١)

وَإِنْ تَقْـــسُ أَكْبَـــادٌ كِـــرَامٌ عَلَـــيْهِمْ

فَوَا كَبِدِي مِمَّنْ تَـــذُوبُ لَـــهُ صَـــخْرِي(٢)

ويتكرر الحديث عن غربة الأبناء ، وغربه الأقارب ، ولكن هذه المرة أبرز ذلك من خلال ثقافته القرآنية ، فيصف غدر أقاربه كجهل إخوان يوسف u الـــذي رأى في المنام مجموعة من النجوم ، فأخبر والده وخشي عليه من جهل إخوانه ، وتغـــرَّب في الأرض ، وكانت عاقبة تغربه فضلاً من الله – تعالى – إذْ أصبح نبيًّا فتقمص ابن دراج شخصية يوسف u ،وتابع ابن درَّاج وصف سجنه ، وما شَعر به مـــن تغـــرب ، وجلاء هذا الشعور الذي شعر به ابن درَّاج وأبناؤه الذين يجوبون الصحاري ، والبحار وعانوا الكثير من المتاعب والصعاب . هذه الرجفة الحزينة قد بلغت ذروة التـــصعيد ،

(١) سَحْر : الرئة ، نحري : هو النحر ، وهذا البيت تضمين حديث عائشة – رضي الله عنها : « مات رسول الله r بين سحري ونحري » .

(٢) صخر : الحجر العظيم الصلب .

فهم لم تواجههم بعض الخطوب والمصائب ، بل حاصرتهم كل الخطوب فلم ينفع فيها الحزم ولا الذكاء هذه الخطوب ظهرت وتراءت لهم كظهور النجوم في الظهر ، وأشرقت فيها الشمس في غير وقتها ، حتى ضاقت بهم الأرض بما رحبت ، وبكت عليهم السماء ، هذا الإحساس أخذ يتراكم ويتراكم في نفوس هؤلاء الأبناء ، فماذا كانت النتيجة ؟

الشعور بالغربة والتفرد والهوان على الناس ، يقول ابن دراج(١) :

أَخُو ظَمَإٍ يَمُصُّ حَشاهُ سَبْعٌ

وَأَرْبَعَةٌ وَكُلُّهُمْ ظِمَاءُ

كَأَنْجُمِ يُوسُفَ عَدَدًا وَلَكِنْ

بِرُؤْيَا هَذِهِ بَرِحَ الخَفَاءُ

خُطُوبٌ خَاطَبَتْهُمْ مِنْ دَوَاهُ

يَمُوتُ الحَزْمُ فيها والدَّهَاءُ

تَرَاءَتْ بِالكَوَاكِبِ وَهْيَ ظَهْرٌ

وَآذَنَ فيهِ بالشَّمْسِ العِشاءِ

فَهَلْ نَظَرِي تَخَفَّى أَوْ بِصَدْرِي

وَضَاقَ البَحْرُ عَنْهَا والفَضَاءُ

وَكُلُّهُمُ كَيُوسُفَ إذْ فَدَاهُ

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٧٦ – ٢٧٧ – ٢٧٨ .

مِـــنَ القَتْـــلِ التَّغَـــرُّبُ والجَـــلاءُ

وإنْ ســـجنٌ حَـــواهُ فَكَـــمْ حَـــوَاهُمْ

سُـــجُونُ الفُلْـــكِ والقَفْـــرُ القَـــواءُ[1]

وَأَيَّـــةُ أُسْـــوَةٍ في الحُـــسْنِ مِنْـــهُ

لإِحْـــسَانِي إِذَا ارْتُخِـــصَ الـــشِّرَاءُ

وفِـــي باكِيـــهِ مِـــنْ بُعْـــدٍ وصَـــدْرِي

وَأَجْفَـــانِي بِمَـــنْ أَبْكِـــي مِـــلاءُ

وَأَوْحَشُ مِنْ غُـــرُوبِ الـــشَّمْسِ يَوْمًـــا

كُـــسُوفٌ في سَـــناها وامِّحَـــاءُ

وأَفْـــلاذُ الفُـــؤَادِ أَمَـــضُّ قَرْحًـــا

إذا رَمَـــتِ العُيُـــونَ بِمَـــا تُـــساءُ

فَمَـــا كَـــسُرُورِهِمْ في الـــدَّهْرِ حُـــزْنٌ

ولا كَـــــشِفائِهِمْ في الـــــصَّدْرِ دَاءُ

نَقَائِـــــدُ فِتْنَـــــةٍ وخُلُـــــوفُ ذُلٍّ

أَلَـــذُّ مِـــنَ البَقـــاءِ بِـــهِ الفَنَـــاءُ

فَـــإِنْ أَقْـــوَتْ مَغَـــانِي العِـــزِّ مِـــنْهُمْ

(١) القواء : بمعنى قفر لا أحد فيها .

فَكَــــمْ عَمِـــرَتْ بِهِـــمْ بِيــــدٌ خَـــلاءُ

وَإِنْ ضَـــــاقَتْ بِهِـــــمْ أَرْضٌ فـــــأَرْضٌ

فَمَـــــا بَكَـــــتْ لِمِـــــثْلِهِمُ الـــــسَّماءُ

وَإِنْ نَـــسِيَ الـــرَّدَى مِـــنْهُمْ ذِمَـــاءً

فأَعْـــــذَرَ زَاهِـــقٌ عَنْـــــهُ الـــــذمَاءُ

فَكَـــــمْ تَرَكُـــوا مَعَاهِـــدَ مُوحِـــشاتٍ

عَفَـــتْ حَتَّـــى عَفَـــا فيهـــا العَفَـــاءُ

فَـــأَظْلَمَ بَعْـــدَها الإِصْـــباحُ فِيهـــا

وَكَـــمْ دَهْـــرٍ أَضَـــاءَ بِهَـــا المَـــساءُ

وَجَـــدَّ بِهَـــا البِلَـــى فَحَكَـــتْ وُجُوهَـــا

نَـــأَتْ عَنْهَـــا فَجَـــدَّ بِهـــا الـــبَلاءُ

وَهَـــوْنُ هَوَانِهَـــا فِي كُـــلِّ عَـــيْنٍ

جَـــــدِيرٌ أَنْ يَعِـــــزَّ لَـــــهُ العَـــــزَاءُ

بَـــــسَطْنَ لِكُـــــلِّ مَقْبُـــــوضٍ يَـــــدَاهُ

فما فِــيهنَّ غَيْـــرُ الـــدَّمْعِ مَـــاءُ

شُـــــمُوسٌ غَالَهَـــــا ذُعْـــــرٌ وَبَـــــيْنٌ

فَهُـــــنَّ لِكُـــــلِّ ضَـــــاحِيَةٍ هَبَـــــاءُ

وَكَـــمْ لَبِـــسُوا مِـــنَ النَّعْمَـــى بُـــرُودًا

جَلاهَـــا عَــــنْ جُـــسُومِهِمُ الجَـــلاءُ

مَلابِـــسُ بأمَّـــةِ لَـــمْ يَبْـــقَ مِنْهَـــا[(١)]

لَهُـــمْ إلاَّ ابْـــنُ يَحْيَـــى والحَيَـــاءُ

ويتذكر ابن درَّاج الحوار الذي دار بينه وبين زوجته التي منعته مـــن الرحيـــل ، فطلب منها أن تدعه يرحل لعل بعد الذلّ عزّ وكرم ، فكما أن هناك عزيزًا في بلـــده ، ذليلاً في سفره ، فإنَّ هناك ذليلاً يعز في سفره ، فقد يجد في غربته من يقدره حق قدره، ويعرف منـــزلته وفضله وينـــزله منـــزلته التي يستحقها ، ثم أخذ ابن درَّاج يصور لنا لحظة الوداع الحارقة التي أُطلقَت فيها الآهات والأنات ، فالشاعر لم يترك زوجته فقط، بل ترك معها طفلاً صغيرًا مازال في المهد ، فأخذت الزوجة تذكره بـــذلك الرضـــيع ، يقول ابن دراج[(٢)] :

دَعِـــي عَزَمـــاتِ المُسْتَـــضامِ تَـــسيرُ

فَتُنْجِـــدُ في عُـــرْضِ الفَـــلا وَتَغُـــورُ

لَعَلَّ بِمَا أَشْـــجَاكِ مِـــنْ لَوْعَـــةِ النَّـــوَى

يُعَـــزُّ ذَليـــلٌ أَوْ يُفَـــكُّ أَسِـــيرُ

أَلَمْ تَعْلَمِـــي أَنْ الثَّـــوَاءَ هُـــوَ الثَّـــوَى

وَأَنَّ بُيـــوتَ العَـــاجِزينَ قُبُـــورُ

وَلَمْ تَزْجُرِي طَيْـــرَ الـــسُّرَى بِحُرُوفِهَـــا

(١) بإمة : النعمة . والعرب تقول للشيخ إذا كان بـــاقي القـــوة فـــلان بإمـــة ، معنـــاه : راجـــع إلى الخـــير والنعمة لأن بقاء قوته من أعظم النعمة .

(٢) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٤٩ – ٢٥٠ – ٢٥١ .

فَتُنْبِئُــــكِ إِنْ يَمَّــــنَّ فَهْــــيَ سُــــرورُ

تُخَــــوِّفُنِي طُــــولَ الــــسِّفارِ وإِنَّــــهُ

لِتَقْبيــــلِ كَــــفِّ العــــامِرِيِّ سَــــفيرُ

دَعِــــيني أَرِدْ مَــــاءَ المَفَــــاوِزَ آجنًــــا

إِلَــى حَيْــثُ مَــاءُ المَكْرُمَــاتِ نَمِــيرُ

وَأَخْــتَلِسْ الأَيَّــامَ خِلْــسَةَ فَاتِــكٍ

إلى حَيْــثُ لِــي مِــنْ غَــدْرِهِنَّ خَفِــيرُ

فَــإِنَّ خَطِــيرَاتِ المَهَالِــكِ ضُــمَّنٌ

لِرَاكِبِهَــــا أَنَّ الجَــــزَاءَ خَطِــــيرُ

وَلَمَّــا تَــدَانَتْ لِلْــوَدَاعِ وَقَــدْ هَفَــا

بِــــصَدْرِي مِنْهَــــا أَنَّــــةٌ وَزَفِــــيرُ

تُنَاشِــدُنِي عَهْــدَ المَــوَدَّةِ والهَــوَى

وفِــي المَهْــدِ مَبْغُــومُ النِّــداءِ صَــغِيرُ

عَيِّــيٌ بِمَرْجُــوعِ الخِطَــابِ ولَفْظُــهُ

بِمَوْقِــعِ أَهْــوَاءِ النُّفُــوسِ خَــبيرُ

تَبَــوَّأَ مَمْنُــوعَ القلــوبِ وَمُهِّــدَتْ

لَــــهُ أَذْرُعٌ مَحْفُوفَــــةٌ وَنُحُــــورُ

فَكُــلٌّ مُفَــدَّاةِ التَّرَائِــبِ مُرْضِــعٌ

وكُــلٌّ مُحَيَّــاةِ المَحَاسِــنِ ظِــيرُ

عَصَيْتُ شَــفِيعَ الــنَّفْسِ فِيــهِ وَقَــادَنِي

رَواحٌ لِتِـــدْآبِ الـــسُّرَى وَبُكُـــورُ

وَطَارَ جَنَاحُ الشَّوْقِ بِـي وَهَفَـتْ بِهَـا

جَـوانِحُ مِـنْ ذُعْـرِ الفِـراقِ تَطِـيرُ

لَـئِنْ وَدَّعَـتْ مِنِّـي غَيُـورًا فَـإِنَّني

عَلَـى عَزْمَتِـي مِـنْ شَـجْوِهَا لَغَيُـورُ

فحرمان ابن درَّاج من الاجتماع الأسري جعله يحن لأسرته ، ويتذكر وداعه لزوجته وأبنائه . فلا يقرُّ له قَرارٍ ولا يجد الراحة وهو بعيد عنهم ، وإنما كان الشعور بالغربة وحرقة الفراق أمرًا ملازمًا له ولذلك يقول أن من عاش ذليلاً فإنه يعيش حياة ذليلة مهضوم الحق ،فالموت في العزِّ أخف وطأة من العيش في الذل ،يقول(١) :

وَأَسْـبَلَ لِـي مِـنْ فَـوْقَ سِـتَّةٍ(٢)

أهِيمُ بِهِمْ في الأَرْضِ مِثْلَ القَطَا الزُّغْبِ

ويبرز ابن درَّاج مدى تغلغل الغربة في نفوسهم ، والمتاعب التي مروا بها أثناء رحيلهم ، يقول(٣) :

وَكَمْ وَجَّهُـوا وَجْهًـا لِبَارِقَـةِ الظُّبَـى

وَكَـمْ وَطَّنُـوا نَحْـرًا لِنافِـذَةِ النَّحْـرِ

وَكَمْ أَقْدَمُوا بَيْنَ المَنَايـا كَمَـا هَـوَتْ

فَرَائسُ أُسْدِ الغـابِ للنَّـابِ والظُّفْـرِ

---

(١) ديوان ابن دراج ، ، ص ٨٣.

(٢)ستة : يقصد أبناءه كانوا يبلغون هذا العدد.

(٣) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٥٨ .

وَكَمْ بَدَّلُوا مِـــنْ وَجْــهِ رَاعٍ وَحَـــافِظٍ

وُجُوهَ المَنَايَا الـــسُّودِ والحَـــدَقِ الحُمْـــرِ

وَمِنْ رَفْـــرَفِ الأَسْـــتَارِ دُونَ حِجَالِهَـــا

تَرَقْـــرُقَ لَمْـــعِ الآلِ فِي المَهْمَـــهِ القَفْـــرِ

وَمِنْ سَاجِعِ الأَطْيَـــارِ فَـــوْقَ غُـــصُونِهَا

مُرَاسَـــلَةَ الأَلْحَـــانِ فِي نَغَـــمِ الـــوَتْرِ

تُنَادِي عَزِيفَ الجِـــنِّ فِي ظُلَـــمِ الـــدُّجَى

وَهَوْلَ الْتِطَامِ المَـــوْجِ فِي لُجَـــجِ البَحْـــرِ

وَكَمْ زَفْـــرَةٍ نَمَّـــتْ عَلَـــيْهِمْ بِحَـــسْرَةٍ

أَثَـــارَتْ بِنَـــارِ الـــسِّرِّ فِي عَلَـــمْ الجَهْـــرِ

وكم ؟ وكم ؟ سؤالاً كرره القسطلي يجسد فيه سيطرة الغربة على أبنائه الذين أقدموا بين المنايا التي هوت بهم ، فجعلتهم فرائس لأسد الغاب ، حيث اســتمعوا إلى عزيف الجن في الليل الحالك ، مما أثار فيهم الرعب والهلع . واستمعوا – أيــضًا – إلى ارتطام أمواج البحر بقوة هائلة ، مما جعلهم يطلقون الزفرة تلو الأخرى . ويلتمس ابن درَّاج الغدر من أبنائه في هذه الأبيات .

يقول[(١)] :

قَلِيلٌ غِنَـــاهُمْ عَـــنْ يَـــدِي وغِنَـــاؤُهُمْ

سِوَى أَنَّهُمْ مِنْ ضَيْمِ كَسْبِي لَهُمْ عُـــذْرِي

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٥٩ - ١٦٠ .

وَأَنِّي لَهُـــمْ فِـــي مـــاءِ وَجْهِـــي تَـــاجِرٌ

أُغَـــنِّمُهُمْ غُنْمِـــي وَأَرْبحُهُـــمْ خُـــسْرِي

وأُسْلِمُ فِي وَخْزِ الـــسَّفَى ثَمَـــرَ المُنَـــى[1]

وَأَبْذُلُ فِي قَذْفِ الحَصَى جَـــوْهَر الـــشُّكْرِ

وَإِنْ نَفَقَـــتْ عِنْـــدِي بِـــضَاعَةُ قَـــانِعٍ

تَقَنَّعَـــتُ مِنْهَـــا فِي خَزَايَـــةِ مُعْتَـــرِّ[2]

رَجـــاءً لِـــضُمْرٍ طَالَمَـــا قَـــدْ عَهِدْتُـــهُ

يُرِينِي أَناةَ الـــسَّهْلِ فِي المَـــسْلَكِ الـــوَعْرِ

وَخِزْيًا لِوَجْـــهٍ هَـــانَ فِي صَـــوْنِ أَوْجُـــهٍ

كَرِيمٍ بِهِم رِبْحِـــي لَئِـــيمٍ بِهِـــم تَجـــري

بِعِـــدَّةِ أَبْـــرَاجِ الـــسَّماءِ وَمَـــا سَـــرَى

مَدَاها إِلَـــى صُـــبْحٍ يُـــضِيءُ ولا فَجْـــرِ

وكَيْـــفَ وَمَـــا فِيهـــا مُعَـــرَّجُ مَنْـــزِلٍ

لِـــشَمْسٍ تُجَلِّـــي لَيْـــلَ هَـــمٍّ ولا بَـــدْرِ

وَلَكِـــنْ قُلُـــوبٌ قُـــسِّمَتْ وَجَـــوانِحٌ

مَنَـــازِلَ مَقْـــدُورٌ لَهَـــا نُـــوَبَ الـــدَّهْرِ

وَأَنْجُـــمِ أَنْـــوَاءٍ تَنُـــوءُ بَهَـــا النَّـــوَى

---

(١) السَّفي : هو شوك السنابل .

(٢) خزاية المعتر : الخزاية هي الاستحياء ، والمعتر : هو المتعرض للمعروف من غير أن يسأل .

وَلَــيْسَ لَهَــا إلاَّ دُمُــوعِيَ مِــنْ قَطْــرِ

ولا مَطْلَـــعٌ إلاَّ مِهَـــادِيَ أَوْ حِجْـــرِي

ولا مَغْــرَبٌ إلاَّ ضُــلُوعِي أَوْ صَــدْرِي

إذا ازْدَحَمُوا في ضَنْكِ شِــرْبِي تَمَثَّلُــوا

بِأَسْباطِ مُوسَى حَوْلَ مُنْفَجَــرِ الــصَّخْرِ

وَلَوْ بِعَــصَا مُوسَــى أُفَجِّــرُ شُــرْبَهُمْ

وَلَكِــنْ بِــذُلِّ الفَقْــرِ في عِــزَّةِ الــوَفْرِ

ابن درَّاج أراد صون وجوه أبنائه بعد أن شعروا بالذل والهوان ، فرحل بهم لِيُهيأ لهم حياة كريمة بعيدة عن الفقر والحاجة مع كثرتهم ، فقد كان عددهم كــبيرًا بعــدة أبراج السماء ، يسير بهم ودموعهم تفيض من الحزن والألم ، فكانوا إذا ازدحموا حول ماء يشربون منه كانوا مثل أسباط موسى u حينما ضرب بعصاه الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا ، فالشاعر متأثرٌ بالقصص القرآني .

المعاناة كانت شديدة الإحساس بغربة أبنائه ، كان إحساسًا عميقًا ، ولهذا نراه في الأبيات التالية يتحدث فيها ابن درَّاج عن تشرُّد أبنائه قائلاً(١) :

وَلا كَبَنِــــي سَـــــبِيلٍ شَـــــرَّدَتْهُمْ

عَـــنِ الأَوْطَـــانِ قاضِـــيَةَ القَـــضَاءِ

عَوَاصِـــــفُ فِتْنَـــــةٍ غَمَّـــــتْ بِغَـــــيْمٍ

بَوَارِقُـــــــهُ سَـــــيُوفُ الاعْتِـــــدَاءِ

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٧٢ – ٢٧٣ – ٢٧٤ .

فَأَصْـــــعَقُهُمْ بِرَاعِـــــدَةِ المَنَايَـــــا
وَأُمْطِـــــرُهُمْ شَـــــآبِيبَ الفَنَـــــاءِ[1]
وَطَـــــافَ عَلَـــــيْهِمُ طُوفَـــــانُ رَوْعٍ
أفَـــاضَ بِهِـــمْ إِلَـــى القَفْـــرِ الفَـــضَاءِ
سِـــــهَامُ نَـــوىً إِلَـــى بَـــرٍّ وبَحْـــرٍ
وَأَغْـــــرَاضٌ لِنُـــــشَّابِ الـــــبَلاءِ[2]
سَـــــرَوْا فَـــشَرَوْا بِأَفْيَـــاءٍ ضَـــوافٍ
فَيَـــافِيَ لا يَقِـــينَ مِـــنَ الـــضَّحَاءِ[3]
وَحُمْـــرَ المَـــوْتِ مِـــنْ خُـــضْرِ المَغَـــانِي
وَسُـــودَ البِيـــدِ مِـــنْ بَـــيْضِ المُـــلاءِ
وَمِنْ كِلَـــلِ الـــسُّتُورِ كِـــلال خُـــوصٍ
وَعَـــدْنَهُمُ النَّجَـــاةَ عَلَـــى النِّجَـــاءِ[4]
وقَـــدْ جَـــدَعَتْ أُنُـــوفَ العِـــزِّ مِـــنْهُمْ
خُطُـــوبٌ سُـــمْنَهُمْ أَنْـــفَ الإِبَـــاءِ
وأَلْبَـــسَهُمْ ثِيَـــابَ الـــذُّلِّ خَطْـــبٌ

---

(١) شآبيب : هو البرد وسجام المطر .
(٢) نشاب : هو النبل أو علق ووقع فيه ، ولا مخلص له منه .
(٣) الضحاء : أعلى ارتفاع للشمس .
(٤) النجاء : ما ارتفع من الأرض ، فلم يعله السيل فظننته نجاءك .

يَلِــــيهُمْ فِي ثِيَـــابِ الكِبْرِيــــاءِ

فَوَشْـــكًا مَـــا هَـــوَى بِهِـــمُ هَـــواءٌ

تــــــأَلَّفَهُمْ بِأَفْئِـــــــدَةٍ هَـــــواءِ

وَحَـــالَ المَـــوْجُ دُونَ بَـــني سَـــبيلِ

يَطِـــيرُ بِهِـــمْ إلى الغَـــوْلِ ابْـــنُ مَـــاءٍ

أَغَـــرٌّ لَـــهُ جَنَـــاحٌ مِـــنْ صَـــبَاحٍ

يُرَفْـــرِفُ فَوْقَـــهُ جُـــنْحٍ مِـــنْ مَـــسَاءٍ

يُـــذَكِّرُهُمْ زَفِيـــفُ الـــرِّيحِ فِيــهِ[1]

تُناوُحَهَـــــا بِــــــرَبْعِهِمُ الخَـــــلاَءِ

وَمَحْـــوُ المـــاءِ مَـــا يَخْـــتَلِطُ فِيـــهِ

دِيـــــارًا خَلَّفُوهَـــــا لِلْعَفَـــــاءِ[2]

وَصَـــكَّ المَـــوْجُ فيهـــا كُـــلَّ وَجْـــهٍ

وُجُوهًـــــا ســـــاوُرَتْهُمُ بالجَفَـــــاءِ

وَعُـــــدْمُهُمُ صَـــــفَاءَ المَـــــاءِ مِنْـــــهُ

بِعُـــــدْمِهُمُ لإِخْـــــوَانِ الـــــصَّفَاءِ

بِحَيَـــــثُ تَبَـــــدَّلُوا بِـــــاللَّهْوِ هَـــــوْلاً

---

(١) الزفيف : صوت هبوب الريح .

(٢) العفاء : ذهاب الأثر أو التراب .

وَرَحْبَ المَاءِ مِنْ رَجْبِ الفَنَاءِ

وَمِنْ قَصْفٍ وَرَاحَ قَصْفَ رِيحٍ

وَمِنْ لَعِبَ الهَوَى لَعِبَ الهَوَاءِ

كَأَنَّ البَرَّ والبَحْرَ اسْتَطَارَا

تجَارًا هَمُّهُمْ بُعْدُ الثِّنَاءِ[1]

يَبِيعُونَ الرَّغَائِبَ بَيْعَ بَخْسٍ

وَيَشْرُونَ المَصَائِبَ بِالغَلاءِ

وَلَكِنَّ البَضَائِعَ مِنْ هُمُومٍ

عَلَّتْ بِالرَّبْحِ فِيهِمْ والنَّمَاءِ

فَكَمْ طَلَبُوا الأَمَانِي بِالأَمَانِي

وَكَمْ بَاعُوا السَّعَادَةَ بِالشَّقَاءِ

وَكَمْ فَاضَتْ مَدَامِعُهُمْ فَمَدَّتْ

عُبَابَ البَحْرِ بِالمَاءِ الرَّوَاءِ

وَقَدْ وَفَدَتْ جَوَانِحُهُمْ بِشَجْوٍ

يُنَادِي الشَّمْسَ : حَيَّ عَلَى الصَّلاءِ[2]

وَكَمْ خَاضُوا كَهَمِّهِمُ بُحُورًا

---

(١) الثناء : هو الحبل ، ولعله يعني بذلك - كما قال محمود مكي – بعد الثناء وطول الأجل وامتداده .

(٢) الصلاء : طلب الدفء .

وَكَمْ عَــدِمُوا الثَّــرَى عَــدَمَ الثَّــرَاءِ[1]

وَجَـــاءَ المَـــوْتُ مُقْتَـــضِيًا نُفُوسًـــا

لَـــوَتْ بِقَـــضَائِهِنَّ يَـــدُ القَـــضَاءِ

وَمَـــا رَدَّ الـــرَّدَى عَنْهَـــا حَنَانًـــا

وَلَكِـــنْ مَطْـــلَ دَاءٍ بالـــدَّوَاءِ

فَلأْيًـــا مـــا أَهَـــلَّ بِهِـــمْ بَـــشِيرٌ

إلَـــى أَرْضٍ تَخَيَّـــلُ في سَـــمَاءِ

وَلأْيًـــا مـــا تَجَـــافَى الـــيَمُّ عَـــنْهُمْ

تُجَافِيـــهُ عَـــنْ الزَّبَـــدِ الجُفَـــاءِ

وَيَـــا عَجَـــبَ اللَّيَـــالِي أيُّ بَحْـــرٍ

تَغَلْغَـــلَ بَـــيْنَ أَثْنَـــاءِ الغُثَـــاءِ

وَمَـــنْ يَـــسْمَعْ بِـــأَنَّ نُجُـــومَ لَيْـــلٍ

هَـــوَتْ مَـــعَ بَـــدْرِهَا فَهُـــمُ أُولاءِ

فقد قادهم الفتنة إلى التشرد عن الأوطان فرمتهم في طريق الغربة والأهــوال . وأمطرت عليهم مطر سوء وهلاك ، فحاصرهم طوفان الروع والهلع في كــل حــدبٍ وصوب ، فشعروا بالذل والغربة ، فقد بدلوا حياة اللهو بالهول ، ورحب الماء برحــب الفناء ، وباعوا الرغائب بثمن بخس ، وابتاعوا المصائب والأهوال بأغلى ثمــن ، وقــد كانت بضاعتهم عبارة عن هموم تزداد نماء وكثرة ، فتزداد دموعهم وتفيض حتى تمــد

(١) الثرى : التراب ، الثراء : الغنى .

عباب البحر ، فتعلو أشجانهم . هكذا فقد شعر ابن درَّاج بغربة أبنائه ، فعبَّر عن هـــذا الإحساس بعاطفة أبوية قوية .

ويقول – أيضًا – في وداعه لزوجته[1] :

تَصَدَّتْ لِوَشْكِ البَيْنِ مِنْ جَفْــوَةِ الــصَّدِّ
وَحَلَّتْ قِنَاعَ الصَّبْرِ عَنْ زَفْــرَةِ الوَجْــدِ
وَأَلْقَتْ إِلَى حُكْمِ الأَسَى عِزَّةَ الأسَـــا[2]
فَنَمَّ بِمَـــا تُخْفِـــي تَبَـــارِيحُ مَـــا تُبْـــدِي
وَأَسْفَرَ رَيْـــبُ عَـــنْ صَـــادِقِ الرِّضَـــا
ولاحَ هِلالُ الوَصْلِ مِنْ مَغْـــرِبِ الــصَّدِّ
فَوَشْكَانَ مـــا لَفـــتْ قَـــضِيبًا بِقاضِـــبٍ
وَأَدْنَتْ نِجادَ السَّيْفِ مِنْ مَسْلَكِ العِقْــدِ
فَجَرَّعَـــــتْ مِـــــنْ بَـــــرَدِ الحَيـــــارِ
وَزَوَّدَتْ مُرَّ الصَّبَابِ مِنْ دَائِبِ الــشَّهْدِ
وَهَـــبَّ غَلِيـــــلُ في غَلَـــــلِ اللَّمَـــــى
وَسالَ جُمَـــانُ الخَـــدِّ في يَـــانِعِ الــوَرْدِ
وَقَالَتْ وَتَوْدِيعُ التَّفَــرُّقِ قَـــدْ هَفَـــا[3]
بِصَدْرٍ إِلَـــى صَـــدْرٍ وَخَـــدٍّ إِلَـــى خَـــدٍّ

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٤٢٥ – ٤٢٦ .

(٢) الأسا : الحزن .

(٣) هفا : خف وأسرع واشتد .

عَسَى قُرْبُ مَـا بَـيْنَ الجَـوانِحِ فألَنـا

لِمَجْني ثِمار القُرْبِ مِنْ شَـجَرِ البُعْـدِ[١]

« وهكذا فقد سخرت الأيام سخرية رقيقة بابن درَّاج ، فقـد بـدأ مذهبـه الشعري بالاتكاء على تصوير فراقه لزوجه وأطفاله وتعلقهم به ، ورقته عليهم في حال الفراق المتخيل ، ثم انتهى إلى التحدث عن هؤلاء الأطفال ، أو الأبناء حديثًا مـستمدًا من الواقع لا من الخيال ، وأضرته النكبة من أجلهم في الواقع لا في الخيال – أيـضًا – كان غير راضٍ بالنعمة دون رضي ، فأصبح يرضى بالرزق من أي كف جاءه ،وتلـك حال من الانهيار النفسي »[٢] .

وهكذا نجد ارتباط التجربة الشعرية عند ابن درَّاج بالناحية النفسية ، والناحيـة السياسية، والمكانية، والاجتماعية المتمثلة في غربة الناس ، والأصدقاء ، وتصوير غربـة الأهل وغدر الأقرباء ، فقد خلع ابن درَّاج كل تلك النواحي وجسدها في شعره الذي صور لنا ذلك الصراع بكل نواحيه التي ذكرناها سابقًا ، فعبر عن تلك الهموم بأجـل تعبير وأصدقه ، ولا سيما عند حديثه عن أبنائه ، هذا الحديث الذي تفرد به ابن درَّاج عن غيره من شعراء عصره ، والذي أصبح سمة بارزة في شعره .

---

(١) هكذا وردت في الديوان ، والجنى : هو كل ما يجمع ، والمَجْنُ : هو خلط الجد بالهزل .

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة ، للدكتور إحسان عباس ، ص ٢٣٢ .

الفصل الثاني

ألوان الغربة والاغتراب في شعر ابن درّاج

- دراسة فنية -

أولاً – البناء الفني .

ثانياً – المعجم الشعري .

ثالثاً – الصورة الشعرية .

رابعاً – الموسيقى .

أولاً - البناء الفني لشعر الاغتراب

نظرًا لأنَّ الاغتراب عند ابن درَّاج مرتبط بقصيدة المديح لزم علينا الوقوف على قصائد المديح التي تناولت هذا الجانب لنرى كيف كان بناؤها في هذا العصر .

هل اتخذت قالبًا جديدًا أم أنها حافظت على الاتجاه القديم ؟ كما صرَّح بـــذلك الدكتور / جودت الركابي ، حينما قال : « فقد حافظ المدح على الأسلوب القديم ، وكان الشعراء يعنون بالاستهلال وحسن التخلص ، وربما جعلوا صـــدور مـــدائحهم وصفًا للخمر أو للطبيعة أو للبلد الذي نشأ فيه الشاعر ، أو للمرأة التي أحبها ، وقلَّمـــا شذَّ بعضهم عن هذا السبيل . . . وكانت مدائحهم محشوة بالتملُّق والاستجداء علـــى طريقة المَشَارِقة »[1] .

إذًا بناؤها يتلخص في المقدمة وحسن التخلص.

فالأسلوب القديم هو الابتداء بالوقوف على الأطلال وذكر ديار الأحبة ، كمـــا يقول ابن قتيبة : « إن مقصّد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار ، فبكى وشكا وخاطب الربع ، واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سببًا لذكر أهلـــها الظـــاعنين عنها، إذْ كان نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر لانتقـــالهم عن ماء إلى ماء ، وانتجاعهم الكلأ وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان ، ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد ، وألم الفراق ، وفرط الصبابة والشوق ، ليميـــل نحـــوه القلوب ، ويصرف إليه الوجوه وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه؛ لأن التشبيب قريـــب من النفوس لائط بالقلوب ؛ لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغـــزل وإلـــف النساء ، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقًا منه بسبب وضاربًا فيه بسهم حلال أو حرام.....، فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وذمامة التأميل ، وقرر

---

(١) في الأدب الأندلسي ، للدكتور/ جودت الركابي ، ص ١١٥ .

عنده ما ناله من المكاره في المسير ، بدأ في المديح فبعثه على المكافأة ، وهزه للسماح ، وفضله على الأشباه ، وصغر في قدره الجزيل ، فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب ، وعدل بين هذه الأقسام فلم يجعل واحدًا منها أغلب على الشعر ، و لم يطل فيمُلَّ السامعين ، و لم يقطع ، وبالنفوس ظمآء إلى المزيد »[١] .

و لم يكن ابن قتيبة وحده من اهتم وتحدث عن المقدمات ، وإنما اهتم بها نقاد آخرون من أمثال ابن رشيق ، في كتابه (العمدة) ، وابن الأثير في (المثل السائر) ، والقرطاجني في كتابه (منهاج البلغاء) ، حيث يقول : « فأكثر ما تبدأ القصائد الأصلية بما يرجع من ذلك إلى المحب ، كالوقوف على الربوع ، والنظر إلى البروق ، ومقاساة طول الليل »[٢] .

ولذلك حرص هؤلاء النقاد على ضرورة تحسين المقدمة أو حسن الابتداء ، وهو كما عرفه علماء البلاغة : « إذا انتقى المتكلم لابتداء كلامه الألفاظ العذبة الخالية من الثقل والتنافر ، وتخير النظم الأجود البعيد عن التعقيد ، وأتى بالمعنى الصحيح المطابق لمقتضى الحال وصف ابتداؤه عندئذٍ بالحسن »[٣] .

ولذلك بنى الشعراء قصائد على الطريقة التقليدية للقصيدة الجاهلية بالوقوف على الأطلال والديار ، « كانت أولى الأطلال التي تغنى بها شعراء الجاهلية . ومن ثم فإنَّ لها مكانتها كما أنَّ لها أهميتها في الاحتفاظ بطابع النظام الاجتماعي والخصائص الأخلاقية والاهتمامات الإنسانية التي كانت تشغل المجتمع القبلي »[٤] . وبما أن الشعراء الأندلسيين كانوا متأثرين بالشعراء العباسيين ، ساروا حذوهم وتمثلوا بهم يقول

---

(١) الشعر والشعراء ، لابن قتيبة ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، ج ١ ، ص ٧٤ – ٧٦ .

(٢) منهاج البلغاء ، لحازم القرطاجني ، ص ٣٠٤ .

(٣) علم البديع – دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع ، بسيوني فيود ، ص ٢٥٦ .

(٤) الأطلال في الشعر العربي ، دارسة جمالية ، أ . محمد عبد الواحد حجازي ، ص ١٩٧ .

القرطاجني : « وأنت لا تجد شاعرًا مجيدًا منهم إلا وقد لزم شاعرًا آخر لمدة طويلة ، وتعلم قوانين النظم ، واستفاد عنه الدربة في أنحاء التصاريف البلاغية ، فقد كان كثير أخذ عن جميل . . . . وكذلك جميع شعراء العرب المجيدين المشهورين »[1] . فقد كانت الكتلة الأندلسية تنساق نحو تقليد المشرق بكل ما فيه . . . . ونحن لا نغلو إذا قلنا إن الأدب الأندلسي مدين في نهضته للتراث العربي العام »[2] . إلا أن أولئك الشعراء الذين دعوا إلى ترك ذلك النمط التقليدي تأرجحوا بين بناء قصائدهم على البناء القديم والبناء المستحدث ، ولهذا نرى ابن درَّاج ينساق بشدة وراء هذا التيار ، فيتخذ شعر أبي نواس والمتنبي أنموذجًا يحذو حذوه ، فنراه تارة يبدأ بمقدمة طللية مفعمة بالحنين والشوق، وتارة يبدأ بمقدمة تتحدث عن شكوى الدهر ، ووصف مواقف الوداع ، وذكر رموز الطبيعة على طريقة المشارقة المجددين . إذًا « كانت الفكرة الأساسية عند من يريد أن يكتب شعرًا أن يكون شعره على نمط الشعر عند المشارقة من القدماء العباسيين ، ومعنى ذلك أن الشاعر الأندلسي لم يحاول أن يخضع الشعر العربي لشخصيته ، بل رأيناه هو يخضع له »[3] .

ولهذا نرى أن نستعرض بعض مقدمات ابن درَّاج التقليدية والمستحدثة . فمن مقدمات الغزلية التي مزج فيها بين الغزل بمحبوبته وبين عناصر الطبيعة يقول[4] :

أَنُورُكِ أَمْ أَوْقَدْتِ بِاللَّيْلِ نَارَكِ

لِبَاغٍ قِرَاكِ أَوْ لِبَاغٍ جِوارِكِ

---

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، لحازم القرطاجني ، ص ٢٧ .

(٢) الفن ومذاهبه ، د . شوقي ضيف ، ص ٤١٢ .

(٣) الفن ومذاهبه ، ص ٤١٧ .

(٤) ديوان ابن درَّاج ، ص ٨٤ .

وَرَيَّـــاكِ أَمْ عَـــرْفُ المَجَـــامِرِ أشْـــعَلَتْ

بِعُـــودِ الكِبَـــاءِ والألُـــوَّةِ نَـــارَكِ[1]

وَمَبْسِمُكِ الوَضَّاحُ أَمْ ضَـــوْءُ بَـــارِقٍ ؟

حَـــدَاهُ دُعَـــائِي أَنْ يَجُـــودَ دِيَـــارَكِ

وَخَلْخَالُكِ اسْتَنْـــضَيْتِ أَمْ قَمِـــرٌ بَـــدا

وَشَـــمْسٌ تَبَـــدَّتْ أَمْ أَلَحَّـــتْ سِـــوَارُكِ

وَطُـــرَّةُ صُـــبْحٍ أَمْ جَبِينُـــكِ سَـــافِرًا

أَعَـــرْتِ الـــصَّبَاحَ نَـــورَهُ أَمْ أَعَـــارَكِ

فامتزاج الطبيعة بالغزل عند ابن درَّاج يتجلى فيه إبراز محاسن محبوبته ، وأدوات الزينة ، فيتساءل ابن درَّاج عن نور محبوبته أهو نور وجهها ، أو أنها أوقـــدت النـــار بالليل، ليستدل بها الضيف ، وهذه الرائحة الطيبة هل هي منبعثة منـــكِ أم أن رائحـــة العود والألوة الذي أوقدته فأفحت رائحته في كل مكان ؟ وهذه الابتسامة الوضـــاحة التي تظهر بها أسنانها البراقة ، وهذا البريق والبياض الذي يظهر أهو من بريق ابتسامتها ؟ أم هو ضوء البرق الذي يبرق في ديارك ليسقيها ويجود عليها ؟

وهذا الخلخال الذي ترتدينه في ساقك حينما ظهر بياضه هل هو بياض ساقك أم القمر هو الذي ظهر ؟ أم الشمس هي التي تبدت ؟!

وهذا البياض الذي يشع من جنبيك هل هو بياضك أم أنـــه بيـــاض وإشـــراق الصباح ، فأعار هذا الصباح من ذلك النور ، وذلك الإشراق ؟ أم أنكِ أنتِ من أعرتِ منه ؟!

---

(١) الكباء : ضرب من العود يتبخر به ، وكذلك الألوة .

ابن درَّاج يرى جمال محبوبته في جمال الطبيعة أو بالأصح يرى جمال الطبيعة في جمال محبوبته ، فالنَّار هي التي تستمد نورها من نور محبوبته والعود والبخور ، وكل الروائح الطيبة مبعث تلك الرائحة محبوبته ، وكذلك كلاًّ من البرق والقمر والشمس والصباح يستمد نوره وبريقه وبياضه وإشراقه من محبوبته .

وقوله – أيضًا[(١)]:

غَرَامٌ ولا شَكْوَى وَعَتْبٌ ولا عُتْبَى
وَشَوْقٌ ولا لُقْيَا وَصَبْرٌ ولا عُقْبَى

وَكَمْ حَنَّ مَعْشُوقٌ وَأَعْتَبَ عاشِقٌ
وَقَلْبُكِ مَا قَسَى وَقَلْبِيَ ما أصْبَى

سَأَصْدَعُ أَحْنَاءَ الضُّلُوعِ بِزَفْرَةٍ
تُطِيرُ إِلَيْكِ القَلْبَ لَوْ أَنَّ لي قَلْبَا

وَأسْبِلُ آمَاقَ الجُفُونِ بِعَبْرَةٍ
وَإنْ حُرِمَتْ مِنْكِ المَوَدَّةُ في القُرْبَى

وقول – أيضًا[(٢)] :

شَوْقٌ شَدِيدٌ وَوَصْلٌ مِنْ حَبِيبَيْنِ
فَلَيْتَ شِعْرِي ما خَطْبُ العَذُولِينَ

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٩٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٩٥ .

ومن مقدماته الطللية قوله عند مغادرة وطنه[1] :

أَهَـــلَّ بـــالبَيْنِ فانْهَلَّـــتْ مَدَامِعُـــهُ
وَآنَـــسَ النَّفَـــرَ فاسْـــتَكَّتْ مَـــسامِعُهُ
ووَدَّعَ المَنْـــزِلَ الأَعْلَـــى فَأَوْدَعَـــهُ
في القَلْـــبِ لاعِـــجَ بـــثٍّ لا يُوَادِعُـــهُ
يَا مَعْهَدًا لَمْ يُـــضِعْ عَهْـــدَ الوَفَـــاءِ لَـــهُ
مُكَسَّفُ النُّـــورِ عَـــافِي القَـــدْرِ ضَـــائعُهُ

يصور ابن درَّاج في الأبيات السابقة الغرام الملتهب والشوق الشديد والصبر على هجر الأحباب الذين انصرفوا عنه وهجروه ، فلم يبادلوه الغـــرام ، ولا الـــشوق ، ولم يحنوا إلى لُقياه، كما حنَّ هو؛ ولهذا برح به الحب وأطلق الزفرات التي كانـــت بمثابـــة الريح العاصف ، فعصفت تلك الزفرات بانحناء الضلوع ، فأسبل الدموع لأنه محروم من المودَّة في قربهم منه. أما الأبيات التالية يصور فيها ابن درَّاج – أيضًا – الشوق المتأجج، ولكن هذه المرة هناك لقاء ووصل بين حبيبين .

والسؤال : **ما الذي دعا ابن درَّاج إلى أن يوظف عنصر الغـــزل في شـــعره ، بالرغم من الضغوط النفسية التي يمر بها ؟ هل هو محاولة منه لجذب ممدوحه فيذكره بالعادات العربية ليجزل له العطاء ؟**

وليس ثمة شك أن ابن درَّاج في حاجة ملحة لينفس عن نفسه بسبب الظـــروف القلقة والمتوترة التي يمر بها ، ولذلك لجأ إلى المقدمة الغزلية ، وإن كان تقليدًا ، ولكنه لم يكن تقليدًا جامدًا لا حياة فيه ، وإنما هو تقليد أبدع الشاعر فيه ، فعبر عن إحـــساسه وانفعالاته التي تلونت بألوان الأسى والحزن ، ومن هنا تبرز سمة الذاتية في مقدمات ابن درَّاج ، وليس الأمر مقتصرًا فقط في المقدمة الغزلية والحديث عن الذات وإظهار لواعج الشوق والحنين والصد والهجر من المحبوبة فيه جذب للنفوس ، وخاصة الممـــدوح ممـــا يحمله على إجابة رغائبه وتحقيق أحلامه .

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ١١٣ .

أما الأبيات التي وصفت الطلل ، فإنَّ ابن درَّاج لم يصف تلك الـديار ببيـان اندثارها ، بل وصف فيها الشاعر ما يثيره الطلل (الوطن) في نفسه عنـد مغادرتـه وتوديعه، كما يصف ما يثيره الفراق من شجن وألم ، يقول[١] :

ولا ثَنَـى عَبَرَاتِـي عَـنْ تَـذْكِرَةٍ
دَهْـرٌ تُقَـارِعُ فِي صَـدْرِي قَوارِعُـهُ

حَسْبِي ضُـلُوعٌ ثَـوَتْ فيهـا مَـصائِبُهُ
وَمُقْلَـةٌ رَبَعَـتْ فيهـا مَرَابِعُـهُ

ومن مقدماته التي يبث فيها الشكوى ، قوله في رثاء شبابه[٢] :

فَيـا لِلـشَّبَابِ الغَـضِّ أَنْهَـجَ بُـرْدُهُ
وَيـا لِرِيَـاضِ اللَّهْـوِ جَـفَّ سَـفَاهَا

وَمَا هِيَ إلاَّ الـشَّمْسُ حَلـتْ بِمَفْرِقِـي
فَأَعْـشَى عُيُـونَ الغَانِيـاتِ سَـنَاهَا

وَعَيْنُ الصِّبَا عَـار المَـشِيبِ سَـوادُها
فَعَـنْ أَيِّ عَـيْنٍ بَعْـدَ تِلْـكَ أَرَاهَـا

سَلامٌ عَلَـى شَـرْخِ الـشَّبَابِ مُـرَدَّدٌ
وَآهًـا لَوَصْـلِ الغَانِيَـاتِ وَآهـا

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ١١٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨ .

وقول – أيضًا – شاكيًا ظلم الخطوب له[1] :

كَـــمْ أَسْـــتَطِيلُ تَـــضَلُّلِي وَتَلَـــدُّدِي
وأَرُوحُ فِي ظُلَـــمِ الخُطُـــوبِ وَأَغْتَـــدِي
وَالأَرْضُ مُـــشْرِقَةٌ بِنُـــورَيْ رَبِّهَـــا
والفَجْـــرُ مُنْـــبَلِجٌ لِعَـــيْنِ المُهْتَـــدِي

وقوله – أيضًا[2] :

وَلِلْفَجَـــائِعِ أَقْـــدَارٌ وَأَفْجَعُهَـــا
لِلنَّفْسِ حَيْـــثُ تَـــرَى أَظْفَارَهَـــا تَقَـــعُ
كَـــأَنَّ لِلْمَـــوْتِ فِينَـــا ثَـــأْرَ مُحْـــتَكِمٍ
فَمَـــا بِغَيْـــرِ الكَـــرِيمِ الحُـــرِّ يَقْتَنِـــعُ

ويبث الشكوى – أيضًا – قائلاً[3] :

أَصْـــخِ نَحْـــوِي لِـــدَعْوَةِ مُـــسْتَقِيلِ
يُنَـــادِي مِـــنْ غَيَابَـــاتِ الخُمُـــولِ
رَهِينَـــةِ كُـــلِّ هَـــمٍّ مُـــسْتَكِنٍ
وَنُهْـــزَةِ كُـــلِّ خَطْـــبٍ مُـــسْتَطِيلِ

أما مقدماته التي يصف فيها مواقف الوداع ، منها قوله[4] :

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ، ص ٦٠ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٢٦٧ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٤٥٩ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٤٢٥ .

تَصَدَّتْ لِوَشْكِ البَيْنِ مِنْ جَفْـوَةِ الـصَّدِّ

وَحَلَّتْ قِنَاعَ الصَّبْرِ عَنْ زَفْـرَةِ الوَجْـدِ

وَأَلْقَتْ إِلَى حُكْمِ الأَسَى عِزَّةَ الأَسَـا[1]

فَنَمَّ بِمَـا تُخْفِـي تَبَـارِيحُ مَـا تُبْـدِي

وَأَسْفَرَ رَيْبُ السُّخْطِ عَنْ صَادِقِ الرِّضَـا

وَلاحَ هِلالُ الوَصْلِ مِنْ مَغْـرِبِ الـصَّدِّ

فَوَشْكَانَ مَـا لَفَّـتْ قَـضِيبًا بِقَاضِـبٍ

وَأَدْنَتْ نِجَادَ السَّيْفِ مِنْ مَسْلَكِ العِقْـدِ

وَهَبَّ غَلِيلُ الـشَّجْوِ فِي غُلَـلِ اللَّمَـى

وَسَالَ جُمَـانُ الخَـدِّ فِي يَـانِعِ الـوَرْدِ

فَجَرَّعْتُ حَرَّ الشَّوْقِ مِـنْ بَـرْدِ الحَيَـا

وَزَوَّدْتُ مُرَّ الصَّابِ مِنْ ذَائِـبِ الـشَّهْدِ

وَقَالَـتْ وَتَوْدِيـعُ التَّفَـرُّقِ قَـدْ هَفَـا

بِصَدْرٍ إِلَـى صَـدْرٍ وَخَـدٍّ إِلَـى خَـدِّ

وقوله – أيضًا[2] :

دَعِـي عَزَمَـاتِ المُسْتَـضَامِ تَـسِيرُ

فَتُنْجِـدُ فِي عُـرْضِ الفَـلا وَتَغُـورُ

---

(١) الأسا : جمع أسوة ، أو إسوة ، وهي سلوة الحزين .

(٢) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٤٩ – ٢٥٠ .

لَعَلَّ بِمَا أَشْـــجَاكِ مِـــنْ لَوْعَـــةِ النَّـــوَى

يُعِـــــزُّ ذَلِيـــــلٌ أَوْ يُفَـــــكُّ أَسِـــــيرُ

ومن مقدماته – أيضًا – التفجع والحزن على الذات ، يقول[١] :

بَلَّغَـــتْ عَبْـــدَكَ الخُطُـــوبُ مَـــدَاهَا

يَـــوْمَ تَبْلِيغِـــكَ النُّفُـــوسَ مُنَاهَـــا

وَتَنَـــاهَى جَهْـــدُ الحَيَـــاةِ بِمَـــنْ لَـــمْ

يَـــسْعَ فِيمَـــا رَضِـــيتَ إلاَّ تَنَـــاهى

ومن مقدمات ابن درَّاج – أيضًا – أنه جعل عناصر الطبيعة تشاركه مـــشاركة وجدانية « وهذه الصور أو الرموز الطبيعية لها تأثيرهـــا علـــى الـــشعور والخيـــال ، والإحساس والفكر حسب اللحظة الوجودية النفسية التي يكون عليها الشاعر ، فتترك انطباعاتها في تصوره وخياله، إذْ أنه يتذوقها تذوقًا جماليًّا، أو يستمتع بهـــا اســـتمتاعًا جماليًّا، وبهذا الاستمتاع تنشأ ألوان من التآلف الوجداني بين الشاعر وتلـــك الرمـــوز »[٢]، فمن تلك المقدمات قوله[٣] :

قُلْ لِلرَّبِيـــعِ اسْـــحَبْ مُـــلاءَ سَـــحَائبِ

فَـــاجْرُرْ ذُيُولَـــكَ في مَجَـــرِّ ذَوَائِبِـــي

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٥٩ .

(٢) الأطلال في الشعر العربي ، دراسة جمالية وفلسفية ، لمحمد عبد الواحد حجازي ، ص ٢٣٥ .

(٣) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٣٨ .

وقوله – أيضًا[1] :

الـــشَّمْسُ شَـــاهِدَةٌ وَإِنْ تَـــكُ وَاحِـــدَهْ
فَـــشَهَادَةُ الإقْـــرَارِ أَعْـــدَلُ شَـــاهِدَهْ

عَرَفَتْـــكَ فاعْتَرَفْـــتَ بِأَنَّـــكَ وَاحِـــدٌ
فِينَا كَمَا هِـــيَ في الكَوَاكِـــبِ واحِـــدَهْ

فَغَـــــدَوتَمَا صِـــــنْوَيْنِ إنْ يُبْعِـــــدْهُمَا
نَأْيُ الـــدِّيَارِ فَمَـــا الـــصِّفَاتُ مُبَاعِـــدَهْ

وقوله – أيضًا[2] :

كَذَا يَنْتَهِي البَدْرُ الُمـــنِيرُ إِلَـــى الـــشَّمْسِ
وَتَمْتَـــزِجُ الـــنَّفْسُ الكَرِيمَـــةُ بـــالنَّفْسِ

وقوله[3] :

إِنَّ رَوْضَـــا لَـــمْ تَـــسْقِهِ مُنْـــذُ عَـــامٍ
لَمَخُـــــوفٌ عَلَيْـــــهِ حَـــــرُّ الأُوامِ

وقوله – أيضًا[4] :

لَعَلَّـــكِ يَـــا شَـــمْسُ عِنْـــدَ الأَصِـــيلِ
شَـــجِيتِ لِـــشَجْوِ الغَرِيـــبِ الـــذَّلِيلِ

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٠٦ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٤٣١ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٤٤١ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٦٤ .

فَكُونِي شَـفِيعي إلَـى ابْـنِ الـشَّفِيعِ

وَكُونِي رَسُـولِي إلَـى ابْـنِ الرَّسُـولِ

هكذا بنى ابن درَّاج قصائده فتنوَّعت مقدماته الشعرية التي تمثلت في الوقوف على الأطلال ، وذكر الديار ، ووصف مواقف الوداع ، وبث الشكوى ، وإبراز مدى التفجع والحزن على الذات ، ومشاركة رموز الطبيعة له ، كما تمثلت – أيضًا – في المقدمات الغزلية ، وليس هناك ثمة شك أن ابن درَّاج حينما وقف على تلك المقدمات كان متأثرًا بالظروف السيئة التي تضج بها البلدان الأندلسية آنذاك ، ولذلك نراه حينما يبدأ قصيدته بالمقدمة الغزلية أو الطللية يريد أن يبعث النشوة والذكريات الجميلة التي تكاد أن تضمحل وتندثر ، مقارنةً بالخطوب الضخمة التي واجهها ، ومن هنا كان ذكره لمواقف الوداع وإبراز التفجع ، وبث الشكوى أمرًا ملائمًا للظروف النفسية التي يمر بها ، والجمع بين الحالتين (الفرح والألم) من أحسن الأشياء كما قال القرطاجني : « وأحسن الأشياء التي تعرف ويُتأثر لها أو يتأثر لها إذا عرفت الأشياء التي فطرت النفوس على استلذاذها ، أو التألم منها ، أو ما وجد فيه الحالان من اللذة والألم ، كالذكريات للعهود الحميدة المتصرِّمة ، التي توجد النفوس تلتذ بتخيلها وذكرها ، وتتألم من تقضِّيها وانصرامها »[1] .

« والإنسان هو الذي يشهد ويألف ويتقلب بين الفرح الذي يبشر بالرغد والسلام ، وبين الشظف الذي يقلق ويخيف »[2] . ولهذا نلمح في تلك المقدمات تأرجح ابن درَّاج في طريقة تعبيره عن قلقه ومدى إحساسه بالغربة والاغتراب .

---

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، لأبي الحسن القرطاجني ، ص ٢١ .

(٢) الأطلال في الشعر العربي - دراسة جمالية وفلسفية ، محمد حجازي ، ص ٢٣٥ .

حسن التخلص :

« حرص الشعراء الأندلسيون على تحسين انتقالاتهم وتخلصاتهم من مقـدمات مدائحهم إلى موضوع المديح الذي يقصدون إليه ليكون بين المقدمة والمديح ، ممازجة والتئام وانسجام ، وقد استجابوا في ذلك إلى آراء النقاد والبلاغيين »(١) الذين عرفوا حسن التخلص بقولهم : « الانتقال مما ابتُدئ به الكلام من تشبيب أو ذكر للديار ، أو وصف للخمر ، ونحوٍ إلى الغرض المقصود منه الكلام مع رعاية الملاءمة بين ما ابتدئ به وما انتقل إليه لأنَّ المخاطب مترقبًا ومنتظرًا لهذا الانتقال »(٢) .

ولذلك أشار القرطاجني إلى ضرورة التخلص الحسن ، يقول : « ويجب أن يكون التخلص لطيفًا ، والخروج إلى المدح بديعًا »(٣) ، وعلل لذلك بقوله : « إن النفوس والمسامع إذا كانت متدرجة من فن الكلام إلى فن مباين له من غير جامع بينهما، وملائم بين طرفيهما ، وجدت الأنفس في طباعها نفورًا من ذلك »(٤) ، ولا يخلو التخلص من أن يكون في شطر بيت أو في بيت بجملته ، أو في بيتين ، وكلَّما قرب السبيل في ذلك كان أبلغ ، وقد يستحسن التخلص الواقع في البيت بأسره ، ويقع من النفوس أحسن موقع »(٥) . « وسلك شعراء الأندلس مسالك عدة للتخلص الرقيق، والانتقال الهادئ في قصائد المديح باستخدام أدوات للربط »(٦) .

وبما أن موضوع الاغتراب والغربة يظهر في قصيدة المديح ، نريد أن نلحظ كيف كان ابن درَّاج يتخلص من ذلك الموضوع إلى الغرض الرئيس له . والملحوظ أنه استخدم أدوات الربط كالواو والفاء ، كما ركز على استخدام أسلوب التمني ، كما استخدم أسلوباً تميز به .

---

(١) قصيدة المديح في الأندلس - قضاياها الموضوعية والفنية ، عصر الطوائف ، لأشرف نجا ، ص ١٧٣ .

(٢) علم البديع – دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع ، بسيوني فيود ، ص ٢٥٩ .

(٣) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، لأبي الحسن القرطاجني ، ص ٣٠٦ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣١٩ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٣٢٠ .

(٦) قصيدة المديح في الأندلس – قضاياها الموضوعية والفنية ، عصر الطوائف ، د / أشرف نجا ، ص ١٧٤ .

« وربما يستهل الشاعر الأندلسي مدحته بمقدمة يعترض في وسطها مدح قصير لممدوحه ، ثم يعود بعد ذلك إلى مقدمته حتى يخلص منها إلى المدح ثانية ، وتبدو هذه الظاهرة في بعض مدائح ابن درَّاج خاصة »[١] .

ومن تخلصات ابن درَّاج ، قوله[٢] :

وَمِنْ كُلِّ مَرْأَى مُحَيَّا جَمِيلٍ
تَلَقِّي الخُطُوبِ بِصَبْرٍ جَمِيلِ

لَعَلَّ عَواقِبَهُ أَنْ تَتِمَّ
فَيُهْدَى الغَرِيبُ سَوَاءَ السَّبِيلِ

إِلَى الهَاشِمِيِّ إِلَى الطَّالِبِيِّ
إِلَى الفَاطِمِيِّ العَطُوفِ الوَصُولِ

إلى أن قال :

إِلَى المُسْتَضَافِ المَلِيكِ العَزِيزِ
مِنَ المُسْتَضِفِ الغَرِيبِ الذَّلِيلِ

فإذا كان حديث ابن درَّاج عن تمني تحقيق آماله وهدايته إلى سواء السبيل لأنه غريب ذليل ؛ ليتخلص إلى مدح ممدوحه ، فيذكره بنسبه الهاشمي وقرابته للنبي وإسماعيل وإبراهيم – عليهم السلام ، فهو عطوف يصل الأرحام، ليعود مرة أخرى مؤكدًا أن ممدوحه ملك كريم عزيز ، وهو ضيف غريب ذليل ، إذًا هو يستحق العطف وتحقيق آماله لذله ومهانته .

---

(١) قصيدة المديح في الأندلس ، ص ١٧٧ .

(٢) ديوان ابن درَّاج ، ص ٦٦ – ٦٧ .

والملحوظ أن هذا التخلص مناسب للمقدمة التي بدأ بها الشاعر ، إذْ يصف نفسه بالغريب الذليل الحزين الذي تحزن الشمس لحزنه ، حيث يقول[1] :

لَعَلَّــكِ يــا شَــمْسُ عِنْــدَ الأَصِــيلِ

شَــجَوْتِ لِــشَجْوِ الغَرِيــبِ الــذَّلِيلِ

ومن تخلصات ابن درَّاج – أيضًا – قوله[2] :

حتَّى بَــدا الــصُّبحُ مَــشمَطًا ذوائِبــهُ

يُطــارِدُ اللَّيْــلَ مَوْشِــيًا أَكَارِعُــهُ

كَأنَّ جَمْــعَ ضَــلالٍ حــانَ مــصرَعُهُ

وأنتَ بالــسيف يــا منــصورُ صــارِعُهُ

إلى أن قال :

وَإِنْ يَرُعْ نَازِحَ الأَوْطَــانِ عَنْــكَ فَقَــدْ

رَاعَ العِــدَى مِنْــهُ يَــوْمٌ أَنْــتَ رَائِعُــهُ

ومنها – أيضًا – قوله[3] :

ولَقَدْ قَــضَيْتُ مِــنَ الــصَّبَابَةِ حَقَّهَــا

فَقَضَتْ مِــنَ الأَمَــلِ البَعِيــدِ مَــآرِبِي

قنعَتْهَــا الــصَّبْرَ الجَمِيــلَ فأَسْــفَرَتْ

فِي آلِ (يَحْيَى) عَــنْ جَمِيــلِ عَوَاقِــبِ

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٦٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص١١٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٤٠ – ١٤١ .

ثم يعود ابن درَّاج ليتحدث عن غربته ، فيقول :

فَهَلْ يَا أَنْتَ يَــا زَمَــنَ الرَّبِيــعِ مُبَلِّــغٌ
بِــــالمَغْرِبَيْنِ أَحِبَّتِــــي وَأَقَــــارِبِي

وبعد تسعة عشر بيتًا يعود إلى المديح ، فيقول :

وَنَظَمْتُ يا مَنْــصورُ ذِكْــرَكَ وَسْــطَهَا
نَظْمَ العُقُــودِ عَلَــى تَرَائِــبِ كَاعِــبِ

فابن درَّاج – كما رأينا – يتخلص من موضوع الغربة ليتحدث عن صفات ممدوحه، ثم ما يلبث أن يتخلص من ذلك الموضوع ليعود بنا إلى الحديث عن غربته ، وهذا دليل على ملازمة هذا الإحساس للشاعر، ودليل على حذقه ، كما يقول ابن الأثير: « ويعد النقاد التخلص الحسن في الشعر خاصة دليلاً على حذق الشاعر ، وقوة تصرفه نظرًا لاتباع الشعر نظام الوزن والقافية، مما يضيق على الشاعر مجال الكلام، فلا تواتيه الألفاظ بحسب إرادته ، ويشق عليه الانتقال من معنى إلى معنى »[١].

وفي ذلك يقول ابن طباطبا : « فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة مَحَّض المعنى الذي يريد الشعر عليه في فكره نثرًا ، وأعدَّ له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه والقوافي التي توافقه والوزن الذي يسلس له القول عليه »[٢] .

ويقول ابن رشيق : « وأولى الشعر بأن يُسمَّى تخلصًا ما تخلص فيه الشاعر من معنى إلى معنى ثم عاد إلى الأول ، وأخذ في غيره ثم رجع إلى ما كان فيه »[٣] .

---

(١) المثل السائر لابن الأثير ، المجلد ٢ ، ص ١٢١ .
(٢) عيار الشعر ، لابن طباطبا ، ص ٧ .
(٣) العمدة في صناعة الشعر ونقده ، لأبي علي ، الحسن بن رشيق ، ص ٣٧٦ ، م ١ .

الخاتمـــة :

« وأمَّا الانتهاء فهو قاعدة القصيدة ، وآخر ما يبقى منها في الأسماع ، وسـبيله أن يكون محكمًا لا تمكن الزيادة عليه ، ولا يأتي بعده أحسن منه ، وإذا كان أول الشعر مفتاحًا له وجب أن يكون آخره قفلاً عليه »[١] .

وكما اهتم النقاد بالمقدمة والتخلص اهتموا – أيضًا – بالخاتمة ، فأكَّدوا علـى ضرورة حسن الانتهاء ، ولهذا عرَّفه البلاغيون بقولهم : « حسن الانتهاء يتم بمراعاة ما روعي في حسن الابتداء من تخير الألفاظ والنظم الجيد وصحة المعنى ومطابقته لمقتـضى الحال »[٢] .

والغالب في خواتيم القصائد أن تكون مدحًا أو دعاءً ، ومع تنامي إحساس ابن درَّاج بالاغتراب في قصائده نرى أن نقف على خواتيم تلك القصائد لنرى أدعية ابـن درَّاج لمن كان يمدحه، وماذا كان يدعو لهم ؟ وهل كانـت تلـك الأدعيـة متـصلة بإحساسه بالغربة ، فيدعو لممدوحه بالاستقرار وراحة البال ؟

والحق أن أغلب قصائد ابن درَّاج يختمها بالدعاء للممدوح بأن يحميه الله من غدر الزمان وتقلب الدهر عليه كما حلَّ به هو، فيدعو له بالاستقرار في الدار. ومن ذلـك قوله[٣]:

وأَجَـارَ قَـدْرَكَ أَنْ يَـسُوغَ لِقَائـلٍ
(جارَ الزَّمـانُ) وأنْـتَ مِنْـهُ جَـارُ
وَلَحَقٌّ مَنْ أَبْقَـى ثَنَـاءَكَ في الـوَرَى
أَنْ تَـسْتَقِرَّ بِـهِ لَـدَيْكَ الـدَّارُ

---

(١) العمدة في صناعة الشعر ونقده ، لأبي علي الحسن بن رشيق ، م ١ ، ص ٣٧٨ .
(٢) علم البديع – دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع ، لبسيوني فيود ، ص ٢٧٤ .
(٣) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٣٠ .

وهُنَا يَخْتِمُ قصيدة أخرى يمدح ممدوحه على أنه آواه وحماه من التشرد ، يقول[1] :

وَكَفَى بِمَنْ آوَى إِلَيْكَ مُشَرَّدًا

قَلِقَ الرَّكائبِ في البِلادِ مُغَرَّبَا

حَتَّى يَرَى البُؤْسَ غرَابًا أَعْصَمًا

بنَدَاكَ والضَّرَّاءَ عَنْقًا مُغْربا

ويقول – أيضًا – أن ممدوحه ببره وعطفه قرب البعيد واستبشر الزوار بجمع الشمل[2] :

وبرُّك للأضيافِ قرَّب بُعْدهَا

وبِشْرُكَ بِالزوَّارِ أَلَّفَ شَمْلَهَا

ويقول[3] :

فَأَصْبَحَ حَمْدِي فِيكَ مُلْتَحِمَ السَّدَى

كَمَا رَاحَ شَمْلِي فيكَ مُلْتَئِمَ الجَمْعِ

ويدعو – أيضًا – لمدوحه بالسقاية والرعاية ، يقول[4] :

فَتَمَلَّؤُوا يا آلَ (يحيى) غَمَرَكُمْ

في مُلْكِ (يَحْيَى) بالمُنَى مَعْمُورا

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٨٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٨٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢١٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٢٤ .

وَسَـــــقَيْتُمُ وَرَعَيْـــــتُمُ بِحَيَاتِـــــهِ
وَوَفَيْـــتُمُ مِـــنْ فَقْـــدِهِ المَحْـــذُورَا

ويقول[1] :

لا زَالَ دِيـــنُ اللهِ يُـــؤْوِي ظِلَّكُـــمْ
مَا ظَلَّلَتْ خُـــضْرُ الغُـــصُونِ حَمَامَهَـــا

ويقول[2] :

ولا مَاتَ مَنْ وَلاَّكَ مِنْ غُرْبَـــةِ النَّـــوَى
وَلا عَاشَ مَنْ عَادَاكَ مِنْ عَثْرَةِ الـــتَّعِسِ

ويقول – أيضًا[3] :

فَآوَاكُمَا ذُو العَـــرْشِ فِي ظِـــلِّ أَمْنِـــهِ
ولا حَلَّ عَقْدَ النَّـــصْرِ مِنْـــهُ عَلَيْكُمَـــا
جَـــزَاءً لِمَـــا أَوْلَيْتُمَـــا وَكَفَيْتُمـــا
وَآوَيْتُمَـــا مِـــنْ غُرْبَـــةٍ وَكَنَفْتُمَـــا

ولا يعني أن ابن درَّاج اقتصر في خواتمه على الـــدعاء والمـــدح فقـــط ، وإنمـــا هناك قصائد انتهت بالثناء والشكر للمدوح جـــزاءً لأفـــضاله وكرمـــه ، والافتخـــار بقصائده الشعرية النفيسة التي يلقيها على ممدوحـــه ، والـــدعاء لـــه بالنـــصر علـــى الأعداء .

وإنما آثرنا ذكر تلك الخواتيم التي اقتصر فيهـــا الـــشاعر بالـــدعاء للمـــدوح بأن يعيش حياة هادئة مستقرة ، بعيدة عن حياة الاغتـــراب والانتقـــال ، وأن يجـــد

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٤٩ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٢٦٢ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٤٤٥ .

المأوى الظليل لما له صلة بموضوعنا (الاغتراب) ولنؤكد – أيضًا – تعمق هذا الإحساس في نفس ابن درَّاج الذي ذاق التشرد والهوان .

وهكذا يمكن للمتأمل في مقدمات ابن درَّاج وتخلصاته وخواتيمه أن يلحظ تنامي الشعور بالغربة والاغتراب عند ابن درَّاج الذي ما ينفك يتحدث عن هذا الموضوع نتيجة إحساسه بالخوف والضياع .

ومن هنا ثمة موضوع لا بد أن نتطرق للحديث عنه وهو الوحدة الفنية أو العضوية أو البناء الفني لشعر (الاغتراب) لنرى مدى تشابك تلك الأجزاء وتلاحمها ؛ لتشكل لنا تلك الوحدة أو ذلك البناء .

الوحدة الفنية :

إنَّ موضوع الوحدة الفنية في قصيدة الاغتراب يعتمد اعتمادًا كبيرًا على مجموعة من الأفكار التي يستدعيها الشاعر لتشكل لنا تلك الوحدة . وكما قلنا سابقًا : إنَّ موضوع الاغتراب يتماهى ويتنامى في قصيدة المديح ، و نجد من خلال استنطاق بعض الدوال التي استخدمها الشاعر وحدة نفسية تربط بين تلك الأجزاء « فتتضافر لتشكيل (كليته) و(وحدته) فيكون النَّص وفق هذا التَّصور له فكرة رئيسة يدور حولها أفكار أساسية تتكامل لتشكل تلك الفكرة»[١] ، فابن درَّاج يعيش حالة نفسية متمثلة في القلق والتوتر والخوف من الضياع، وكان ذلك نتاج اغترابه وتغربه ، ولهذا نجد الشاعر يحاول إبراز ذلك الإحساس أو تلك الحالة النفسية في جميع أجزاء قصيدته ، وبذلك يتمثل لنا موضوع الوحدة الفنية والتي لا تتحقق « ما لم تنتظم القصيدة وحدة نفسية أو إحساس واحد ينساب في أطرافها كما تنساب العصارة الخضراء التي تغذي

---

(١) من النص إلى النص المترابط مدخل إلى جماليات الإبداع التفاعلي ، د . سعيد يقطين ، ص ١٦٠ .

الشجرة جذرًا وساقًا أغصانًا وأوراقًا »[١] . ولهذا نرى صاحب عيار الشعر يعبِّر عن موضوع الوحدة الفنية قائلاً : « فإنَّ للشعر فصولاً كفصول الرسائل ، فيحتاج الشَّاعر إلى أن يصل كلامه – على تصرفه في فنونه – صلة لطيفة ، فيتخلص من الغزل إلى المديح ، ومن المديح إلى الشكوى ..... ومن الإباء والاعتياص إلى الإجابة والتسمح بألطف تخلص وأحسن حكاية بلا انفصال للمعنى الثاني عما قبله ، بل يكون متصلاً به وممتزجًا معه »[٢] .

إذًا « لا بد أن يبدأ الشاعر بموقف عاطفي أو نفسي ليحقق تلك الوحدة ، فيظل ذلك الموقف شائعًا في لوحته غالبًا على كل أجزائها إن لم يقصد قصدًا إلى رسم لحظات نفسية مختلفة متداخلة ومتعاقبة »[٣] ، وعلى هذا فإننا نلمس توفر هذه الوحدة الفنية في بعض قصائد ابن درَّاج والتي تناولت موضوع الاغتراب والغربة ، فهذه الحالة النفسية تتردد في شعر ابن درَّاج بالتصريح بها من خلال حديثه عن القلق والضياع والغربة والغدر به ، وتارة أخرى من خلال استخدامه للتضاد والذي أسهب الشاعر في استخدامه، ولهذا اعتبر التضاد لغة خاصة بالمغتربين يعبرون بها عن مدى إحساسهم بالغربة والقلق والتوتر . وبهذا نستطيع أن « نتخذ من التوتر عند الشاعر أساسًا ديناميًّا لوحدة القصيدة ، فهو يسهم بنصيب كبير في تحديد الهدف والطريق إليه ، ونهاية القصيدة تكون على الدوام ذات صلة واضحة ببدايتها ، وبذلك يتم للشاعر تحقيق فصل متكامل في صميمه ينتهي في موضع شبيه بموضع بدئه ، وإن لم يكن هو بالضبط ، لأنه عود إلى هذا الموضع بعد رحلة أكسبت

---

(١) دراسات في الشعر والمسرح ، د . مصطفى بدوي ، ص ٧ ، الطبعة الثانية ، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة ، سنة ١٩٧٩م .

(٢) عيار الشعر ، لأبي الحسن ، محمد بن طباطبا ، تحقيق : د . عبد العزيز المانع ، ص ٩ .

(٣) الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر ، د . عبد القادر القط ، مكتبة الشباب ، سنة ١٩٧٨م ، ص ٦٢ – ٦٣ .

الشاعر خبرات جديدة »[1] . إلا أنَّ دراسة الشعر في هـذه الحالـة يُـشترط فيـه أن تكون هذه التجربة نفسية أو أنْ يكون هناك « خـيط نفـسي دقيـق يـستعيره الشاعر من تجربته في مجرى عيشته »[2] .

وبهذا فابن درَّاج يتحدث عـن تجربـة نفـسية خاضـها وهـي إحـساسه بالاغتراب والغربة نتيجة انتقاله ورحيله . وبمـا أنَّ الـشاعر الـذي نحـن بـصدد الحديث عن تجربته تلك يحاكي الشعر العباسـي ، والـذي تقلـب – كمـا قلنـا سابقًا – بين الحديث والقديم ،فإننا نـرى تقـسيم تلـك القـصائد إلى لوحـات وأجزاء لنرى ونلمس مدى الترابط والتفاعـل بـين تلـك الأجـزاء والـتي تبـدأ بالحديث عن حالة نفسية يعيشها الشاعر لتنتهي بنا – أيضًا – بتلك الحالة .

طغيان الاغتراب مع الرغبة المُلِحَّة في الاستقرار – بين الأمل واليأس .

هَلْ تَثْنِـيَنَّ غُـرُوب دَمْـع سَـاكِبِ
مَنْ شَـامَ بَارِقَـةَ الغَمَـامِ الـصَّائِبِ
أَبَـتِ العَزِيمَـةُ مِـنْ فُـؤادٍ جَامِـدٍ
أَنْ تَـسْتَقْيِدَ لِمَـاءِ جَفْـنٍ ذَائِـبِ
مَنْ تَرْمِـهِ حَـدَقُ المَكَـارِمِ تُـصْبُهُ
عَـنْ مُـصْبِيَاتِ أَحِبَّـةٍ وَحَبَائِـبِ
فَفِـرَاقُ رَبَّـاتِ الخُـدُورِ مُكَفَّـرٌ
بِلِقَـاءِ نَجْـمِ المَكْرُمَـاتِ الثَّاقِـبِ

---

(١) الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة ، د. مصطفى سويف ، ص ٢٩٧ ، الطبعة الثالثة – دار المعارف ، سنة ١٩٧٠م .

(٢) في النقد التطبيقي والمقارن ، د / محمد غنيمي هلال ، ص ٢٢ ، طبعة دار نهضة مصر للطبع والنشر .

قَالَتْ وَقَدْ مَــزَجَ الــوَدَاعُ مَــدَامِعًا

بِمَــــــدَامِعٍ وَتَرَائِبًـــــا بِتَرَائِـــــبِ

أَتَفَــرُّقٌ حَتَّـــى بِمَنْـــزِلِ غُرْبَـــةٍ ؟

كَمْ نَحْـــنُ للأَيَّـــامِ نُهْبَـــةَ نَاهِـــبِ !

فِي كُـــلِّ يَـــوْمٍ مُنْتَـــوَىً مُتَبَاعِـــدٌ

يَرْمِـــي حُـــشَاشَةَ شَـــمْلِنَا المُتَقَـــارِبِ

وَثَنَـــتْ تُـــذَكِّرُ مُقربَـــاتِ سَـــفَائِنِ

عُدْنَا بِهَـــا مِـــنْ مُقْفِـــرَاتِ سَبَاسِـــبِ

أَيَّـــامَ تُؤْنِـــسُنَا فَـــلا وَسَـــوَاحِلٌ

عَـــنْ آنِـــسَاتِ مَقَاصِـــرِ وَمَلاعِـــبِ

نَعَبَ الغُـــرَابُ بِهَـــا فَطَـــارَ بِأَهْلِهَـــا

سِرْبًا عَلَى مِثْـــلِ الغُـــرَابِ النَّاعِـــبِ

خرقُ الجَنَـــاحِ إلى الرِّيَـــاحِ مُـــضَلَّلٌ

بِـــشَمَائِلٍ لَعِبَـــتْ بِـــهِ وَجَنَائِـــبِ

يَهْوِي بِذِي طِمْـــرَيْنِ مَـــزَّقَ لِبْـــسَهَا

أَيْـــدِي لَوَاهِـــفَ لِلنُّفُـــوسِ نَـــوَادِبِ

فِي غَوْلِ ذِي لُجَـــجٍ لَبِـــسْنَ دَيَاجِيَـــا

تَرَكَ الحَيَـــاةَ لَنَـــا كَـــأَمْسِ الـــذَّاهِبِ

قَاسَـــــيْتُهُنَّ غَوَارِبًـــــا كَغَيَاهِـــــبِ

وَسَـــــرَيْتُهُنَّ غَيَاهِبًـــــا كَغَـــــوَارِبِ

نَجْلُو ظــلامَ اللَّيْــلِ قَبْــلَ صَـبَاحِهِ
بِلَظَـــى زَفــيرٍ أَوْ بِـــرَأْسٍ شَـــائِبِ

يـــا هَــــذِهِ لله تِلْـــكَ حَــــدائِقًا
زَهْــــرَاتُهُنَّ مَفــــارِقِي وذَوائــــبِي

مِثْــلَ الرِّيَــاضِ تَفَتَّحَــتْ أَكْمَامُهَــا
عَنْ مُحْكَمَــاتِ بَــصائِرِي وَتَجَــارِبِي

فَــذَخَرْتُ للألْبَــابِ كِفَّــةَ حَابِــلٍ
وَلأَشْــطَرَ الأَيَّــامَ كَفَّــيْ حَالِــبِ

وَرَمَيْـــتُ آفــاقَ العِــرَاقِ بِــشُرَّدٍ
لَــيْسَ العَجَائِــبُ عِنْــدَهَا بِعَجَائِــبِ

مِـــنْ كُــلِّ سَــاحِرَةٍ كَــأَنَّ رَوِيَّهــا
فِي أَلْــسُنِ الــرَّاوِينَ رِيقَــةُ كاعِــبِ

وَلَكَـــمْ وَصَــلْتُ تَنَائِفًــا بِتَنَــائِفٍ
حَتَّـــى وَصَــلْتُ مَــشَارِقًا بِمَغَــارِبِ

فَكَأَنَّمَـــا قَفَيْـــتُ إِثْـــرَ بَــدائِعِي
فِي الأَرْضِ أَوْ نَاوَيْــتُ شَــأْوَ غَرَائِبِــي

أوْ رُمْتُ حَظِّي فِي السَّماءِ وَقَدْ جَــرَى
لِمَــدَاهُ فِي فَلَــكِ الفَــضَاءِ الغَائِــبِ

وَلَئِنْ دَجَتْ لِي الحَادِثَــاتُ فَمــا أَرَى
نُورَ الــيَقِينِ بِطَــرْفِ ظَــنٍّ كَــاذِبِ

صَـــــدَقَتْني الأَنْبَـــــاءُ ضَـــــرْبَةَ لاَزِمٍ

أَنْ لَيْسَ هَــمُّ الــدَّهْرِ ضَــرْبَةَ لازِبِ

فَــشَفَيْتُ فِي حُــرِّ التَّجَمُّــلِ غلَّتِــي

وَقَضَيْتُ مِنْ حُــسْنِ العَــزَاءِ مَــآرِبِي

وَحَرَسْتُ عِرْضِي بالتَّوَكُّلِ مَــنْ نَــأَى

عَنِّــي بِجَانِبِــهِ نَأَيْــتُ بِجَــانِبِي

وَلَقَــدْ رَأَيْــتُ الجَــدَّ لَــيْسَ بِبَــالِغٍ

والعَجْزَ لَيْسَ عَنِ الــصِّرَاطِ بِنَاكِــبِ

كَمْ قَدْ سَعِدْتُ بِمَا تَمَنَّــى حَاسِــدِي

قَدْرًا وَخِبْــتُ بِمَــا تَخَيَّــرَ صَــاحِبِي

وَوَجَدْتُ طَعْمَ السُّمِّ فِي شَــهْدِ الجَنَــى

وَأَجَــاجَ شُــرْبِي فِي نَمِــيرِ مَــشَارِبِي

وَرَفَلْتُ فِي الــنِّعَمِ الــسَّوابِغِ مُلْبَــسِي

أَثْوَابَهَا الــدهرُ الــذي هُــوَ ســالِبِي

يَا رَبَّــةَ الخِــدْرِ اسْــتَجِدِّي سَــلْوَةَ

جَــدَّ النَّجــاءُ بِهَــائِمٍ بِــكِ لاعِــبِ

إِمَّا شَــجِيتِ بِرِحْلَتِــي فَاسْتَبْــشِرِي

بِجَمِيلِ ظَنِّــي مِــنْ جَمِيــلِ عَــوَاقِبِي

وَلَئِنْ جَنَيْتُ عَلَيْــكِ تَرْحَــةَ رَاحِــلٍ

فَأَنَــا الــزَّعِيمُ لَهَــا بِفَرْحَــةِ آيِــبِ

وَهَلْ أَبْصَرَتْ عَيْنَــاكِ بَــدْرًا طَالِعًــا

في الأُفْــقِ إلاَّ مِــنْ هِــلالٍ غَــارِبِ

واللهُ مِــنْ بَعْــدِي عَلَيْــكِ خَلِيفَتِــي

وَخَلِيفَــةٌ هُــدِيَتْ إليــهِ مَــذَاهِبِي

بَيْنِــي وَبَيْنَــكِ أَنْ يُلبِّــي دَعْــوَتِي

دَاعِي (لبيب) مــن مُنَــاخِ رَكَــائِبِي

وَأُهِــلَّ نَحْــوَ فِنائِــهِ وَعَطَائِــهِ

فَيْهِــلَّ نَحْــوَ وَســائِلِي وَرَغَــائِبِي

وَأَشِــيمُ بَــرْقَ يَمِينِــهِ وَجَبِينِــهِ

وَيَــشِمُ رِيــحَ أوَصِــرِي وَمَطَــالِبِي

وَأَهُــزَّهُ بِــشَوافِعٍ مِــنْ عَــامِرٍ

تُــزْرِي بِكُــلِّ قَرَابَــةٍ وَمَنَاسِــبِ

فَهُنَاكَ جَاءَتْــك الخُطُــوبُ خَواضِــعًا

وَمَشَى إِلَيْك الــدَّهْرُ مــشْيَةَ تَائِــبِ

وَأَنَابَ سُــلْطانُ النَّوائِــب وانْثَنَــتْ

ذُلُلاً وَأَعْتَــبَ كُــلَّ مَــوْلًى عاتِــبِ

مَلِــكٌ مَتَــى أَرْم الحَــوادِثَ باسْــمِهِ

تَقْتُــلْ أَفَاعِيهــا سُــمُومُ عَقَــارِبِي

الرَّافِــعُ الأَعْــلاَمَ فَــوْقَ خَــوافِقي
والقائِــدُ الآســادَ فَــوْقَ شَــوازِبِ
مَلِكٌ تَكَــرَّمَ عَــنْ خَلائِــقِ غَــادِرِ
فأَثَابَــهُ الــرَّحْمَنُ قُــدْرَةَ غَالِــبِ
يقضي فَيُمْضِي كُــلَّ حَــقٍّ وَاجِــبٍ
إلاَّ إذا أَعْطَــى فَفَــوْقَ الوَاجِــبِ
قفلٌ علــى الإســلام مَمْنــوعٌ لَــهَ
عَنْ قَلْــبِ كُــلِّ مُعانِــدٍ ومُنَاصِــبِ
لا يَخْلَــعُ الإســلام حُلَّــةَ آمِــنٍ
مِنْــهُ ولا الإشْــرَاكُ ربقــةَ هَائِــبِ
حَرَمُ الهَدَى ، سُــمَّ العِــدَى ، أمْنِيَّــة
لِمُــسالِمٍ ، وَمَنِيَّــةٌ لِمَحَــارِبِ
وَقْفٌ عَلَى عَلَــمِ الثُّغُــورِ ، مُقَــارِبٌ
لِمُباعِــدِ ، وَمُباعِــدٌ لِمُقَــارِبِ
فَمُراقِــبُ الإسْــلامِ غَيْــرُ مُرَاقِــبِ
وَمُصاقِبِ الأَعْــداءِ غَــيرُ مُــصاقِبِ
مُــوَفٍّ بِعَلْيــاءِ الثُّغُــورِ لِرَغْبَــةٍ
مِنْ رَاغِــبٍ أَوْ رَهْبَــةٍ مِــنْ رَاهِــبِ

تُـــضْحِي عَطَايَـــاهُ تَحِيَّـــةَ زَائـــرٍ

وَتَبيـــتُ رَوْعَتُـــهُ نَجِيَّـــةَ هَـــارِبِ

يـــا مَـــنْ يُلاقِـــي النَّـــازِلينَ قِبَابَـــهُ

بجَـــبينِ مَوْهُـــوبٍ وَرَاحَـــةِ وَاهِـــبِ

وإذَا الْتَقَـــى الجَمْعَـــانِ أَوَّلُ طَـــاعِنٍ

وَإذا اسْـــتَحَرَّ الطَّعْـــنُ أَوَّلُ ضَـــارِبٍ

وإذَا تَـــؤُوبُ الخَيْـــلُ آخِـــرُ نَـــازِلٍ

وَإذَا دَعَـــا الـــدَّاعِي فَـــأَوَّلُ رَاكِـــبٍ

كَرُمَـــتْ أَيَادِيـــكَ الَّتِـــي أَنْـــشَأْتَهَا

أَتْـــرَابَ كُـــلِّ مُؤَمِّـــلٍ أَوْ رَاغِـــبِ

مِـــنْ كُـــلِّ بِكْـــرٍ فِي يَمِينِـــكَ حُـــرَّةٍ

يَـــرْفُلْنَ بَـــيْنَ قَلائِـــدٍ وَجَلابِـــبِ

هَـــذي لأَوَّلِ خَاطِـــبِ وَلِـــدَأْتِهَا

يَهْتِفْنَ فِي الأفَاقِ هَـــلْ مِـــنْ خَاطِـــبِ

وَيَجِلُّ قَـــدْرُكَ عَـــنْ ولادَةِ (يافِـــث)

أَوْ قَيْـــصَرٍ أَوْ عَـــنْ أَرُومِ صَـــقَالِبِ

بَلْ أَنْتَ بَكْـــرُ غَمَامَـــةٍ مِـــنْ بَـــارِقٍ

لَقِحَتْ بِهِ أَوْ صَـــعْدَةٍ مِـــنْ قَاضِـــبِ

قبلتـــك أَيْـــدي هِمَّـــةٍ وَسِـــيادَةٍ

وَرَضَـــعْتَ دَرَّ مَكَـــارِمٍ وَمَوَاهِـــبِ

في عِـــزِّ مَهْـــدٍ مــا اسْـــتَقَرَّ مَكَانُــهُ

إلاَّ بِقُـــرْبِ مَنَـــابِرٍ وَمَحَـــارِبِ

وَفُطِمْتَ يَوْمَ فُطِمْتَ في رَهَجِ الـــوَغَى

عِنْـــدَ الْتِفَـــافِ كَتَائِـــبَ بِكَتائِـــبِ

حَتَّى حَلَلْـــتَ مِـــنَ الـــسَّماءِ مَرَاتِبًـــا

تَرَكَـــتْ كَواكِبَهَـــا بِغَـــيرِ مَرَاتِـــبِ

فَلَئِنْ طَلَبْـــتَ هُنَـــاكَ حَقًّـــا صـــاعِدًا

فَلأَنْتَ أَقْرَبُ مِـــنْ وَرِيـــدِ الطَّالِـــبِ

وَلَئِنْ وَهَبْتَ قَـــدْ وَهبْـــتَ مَـــسَاعِيًا

أَصْـــبَحْنَ حَلْـــيَ مَـــآثِرِي وَمَنَـــاقِبِي

شِيَمًا بِهَـــا حَلَّيْـــتُ غُـــرَّ قَـــصائِدِي

وجَعَلْـــــتُهُنَّ أَهِلَّـــــةً لِكَـــــواكِبِي

وَذَخَـــرْتُ للأَزْمَـــانِ مِـــنْ حَـــسَنَاتِهَا

مِثْـــلَ القَلائِـــدِ في نُحُـــورِ كَوَاعِـــبِ

وَلأَشْـــفِيَنَّ بِهَـــا سَـــقَامَ تَغَرُّبِـــي

ولآسُـــوَنَّ بِهَـــا جِـــرَاحَ مَـــصَائِبِي

وَلأَجْعَلَـــنْ مِنْهَـــا تَمَـــائِمَ خَـــائِفٍ

مِنْ طَـــائِفٍ أَوْ مِـــنْ رَجَـــاءٍ خَائِـــبِ

وَلأَتْـــــرُكَنَّ ثَنَاءَهَـــــا وَجَزَاءَهَـــــا

قُـــوتَ المُقِـــيمِ غَـــدًا وَزَادَ الرَّاكِـــبِ

وَسُـــرُورَ مَحْـــزُونٍ وَأُنْـــسَ مُغَـــرَّبٍ

وحُلِّـــيَّ أَوْتَـــارٍ وَرَوْضَـــةَ شَـــارِبِ

وَلَقَدْ نَثَرْتُ عَلَيْكَ شَـــكْلَكَ جَـــوْهَرًا

لا مَا قَمَشْتُ وَضَمَّ حَبْـــلُ الحَاطِـــبِ[1]

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٩٠ – ٩٤ .

لوحة الوداع والعتاب :

هَلْ تَثنِيَنَّ غُرُوب دَمْع سَاكِبِ

مَنْ شَامَ بَارِقَةَ الغَمَامِ الصَّائِبِ

القصيدة تبدأ باستهلال يفيض منه معنى القلق والحيرة ؛ إذ أن هذه البداية تنبجس وتنفجر من نفس حائرة ضائعة مغتربة .

فزوجته تثني الدموع وتوقفها ، ولكن لماذا هذا الاستفهام : (هل تثنين) هذه الأداة التي يطلب بها التصديق أي معرفة النسبة بمعنى يريد الشاعر أن يثبت أو ينفي بكاء زوجته عليه .

فالشاعر يعلم علمًا يقينًا أنها ستزرف الدموع لفراقه ، ولكن شدَّة الضغط النفسي والقلق الحاد الذي يعيشه ابن درَّاج لحظة بلحظة جعله يطلق هذا السؤال الذي يطلب فيه معرفة حال زوجته عند فراقه لها ، هل ستثني الدموع وتوقفها فالسؤال خرج إلى معنى الطلب فهو يطلب منها أن تكف دموعها ولا نغفل هنا صيغة المبالغة في (ساكب – صائب) والإجابة في قوله : (قالت وقد مزج الوداع مدامعًا بمدامع . . .)

إذًا قد أنهمرت الدموع ، وفاضت وامتزجت ، وبهذا نقول أنَّ السؤال يُجسِّد مدى إحساس ابن درَّاج بالاغتراب ، لماذا ؟ لأن ابن درَّاج خبير وعالم بحال زوجته عندما يفارقها ، فالاستفهام قصد به معنى التوجع والتحسر ، كيف ؟ لأن زوجته ستبكي عليه بدموع ساكبة ، ولهذا سيشعر هو بالألم والوجع ، وسيتحسر لفراقها ، وهي في هذا الحال من الألم والعذاب والشجن الذي يكسو قلبها .

أَبَتِ العَزِيمَةُ مِنْ فُؤادٍ جَامِدٍ

أَنْ تَسْتَقِيدَ لِمَاءِ جَفْنٍ ذَائِبِ

ولكن قوة العزيمة جعلت قلبه يجمد ولا يلتفت إلى ذلك الجفن الذي سالت دموعه ، فما الذي زاد في قوة عزيمته ؟ حتى إنه صاغ قوة جمود قلبه على وزن فاعل ، وهو من صيغ المبالغة (جامد) للدلالة على قوة تلك العزيمة.

مَنْ تَرْمِهِ حَدَقُ الْمَكَارِمِ تَصِبْهُ

عَنْ مُصْبِيَاتِ أَحِبَّةٍ وَحَبَائِبِ

إذًا مكارم ممدوحه التي أصابته فأصبته عن حبائبه، فهو هنا يشبه مكارم ممدوحه بعين فاتنة، أصمت فؤاده بسهامها الفاتكة حتى أصبته عن أحبته وحبائبه، ثم يعود الشاعر ليؤكد لنا مرة أخرى قائلاً :

فَفِرَاقُ رَبَّاتِ الخُدُورِ مُكَفَّرٌ

بِلِقَاءِ نَجْمِ الْمَكْرُمَاتِ الثَّاقِبِ

ففراق ربات الخدور أمرًا ليس بالسهل ، ولكن ما يسهل ويخفف عنه حدَّة ذلك الفراق هو لقاء نجم المكرمات الثاقب ، فهو هنا يشبه ممدوحه بكرمه وعلو مترلته بالنجم الثاقب العالي المترلة .

ابن درَّاج بدأ قصيدته بقوله : « هل تثنين » ثم : « أبت العزيمة » ، ثم : « من ترمه » ، ثم : « ففراق ربات الخدور » ، هذه الأبيات التي دار الحديث فيها عن الاستفهام عن كف الدموع وإيقافها ، ثم نراه يذكر أنها بكت ، ولكن لم يستجب لبكائها ؛ لقوة عزمه وجمود فؤاده ؛ لأنه سينزل عند ملك كريم يغمره بالعطاء والكرم ؛ ليخفف عنه ألم الفراق والبعد عن ربات الخدور.

والسؤال : **هل جمد حقًّا فؤاد الشاعر ، ولم يلتفت لبكاء زوجته عند وداعه ؟ أم ضعفت عزيمته وفاضت عيونه بالدموع ؟**

يقول :

قَالَتْ وَقَدْ مَــزَجَ الــوَدَاعُ مَــدَامِعًا

بِمَـــــدَامِعٍ وَتَرَائِبًـــــا بِتَرَائِــــــبِ

إذًا فقد مزجت الدموع بالدموع ، والـــدموع هـــي إحـــدى الطـــرق الـــتي يعبِّر بها المهموم والحزين عن همه وحزنه . فالشَّاعر ببكائـــه وانهمـــار دموعـــه قـــد ضعفت عزيمته ، ففراقه لزوجته أمرٌ مفجعٌ يبعـــث علـــى الهـــمِّ والحـــزن والقلـــق ، ولذلك فهو بحاجة ماسة للاطمئنان، ولذلك مـــزج الـــوداع – أيـــضًا – الـــصدور بالصدور ، إذًا الشاعر يمر بظروف نفسية سيئة ، وليبرز لنـــا كثـــرة تلـــك الـــدموع عمد إلى استخدام جمع التكسير (مدامع) ، فبعد أن قـــال : « أبـــت العزيمـــة مـــن فؤاد جامد » وسبب هذا الجمود هو « لقاء نجـــم المكرمـــات الثاقـــب » ، نـــراه يقول : « وقد مزج الوداع مـــدامعًا » فالقـــصيدة تحمـــل هنـــا موضـــوعين ، أو تزامنين وهما المديح ، والحديث عن ألم الاغتـــراب الـــذي تمثـــل في حـــدَّة القلـــق والوجع لفراق زوجته والتزامن كما يقول الربّاعي : « يعـــني تكـــوين علاقـــة بـــين موضوعين فأكثر داخـــل القـــصيدة ، ومـــن مجمـــوع التزامنـــات يتـــشكل معـــنى القصيدة ، ويستطيع الناقـــد أن ينظـــر إلى مجمـــوع التزامنـــات أو العلاقـــات مـــن خلال تشكيلين أساسيين للمعنى في الـــشعر همـــا : التـــشكيل المكـــاني والتـــشكيل الزماني »[١] .

فما العلاقة التي تربط بين موضوع المدح وموضوع الاغتراب ؟

إنَّ ممدوحه هو الوحيد بكرمه وعطائه يستطيع أن يمحـــو ويزيـــل قلـــق ابـــن درَّاج وهمه الذي تكتوي به نفسه في دار الغربـــة ولهـــذا القـــصيدة تحمـــل بعـــدين مكاني وزماني ، فالزماني يتمثل في فـــراق ابـــن درَّاج لزوجـــه وبكائهـــا عليـــه في

---

(١) الصورة الفنية في النقد الشعري ، للدكتور عبد القادر الربّاعي ، ص ١٦٩ .

الماضي قبل وصوله للمدوح ، أما الحاضر ، فيحمل لنـــا مـــدى الإحـــساس بـــالقلق من ردة فعل ممدوحه، ولذلك قام الشَّاعر باســـتدعاء تلـــك الـــذكريات ووصـــف موقف الوداع ليرق قلب ممدوحه ويغمره بالعطـــاء ، ولكـــي يخفـــف – أيـــضًا – من حدة ذلك القلق .

ولذلك صاغت تلك النفسية القلقة سؤالاً صاغه على لسان محبوبته .

أَتَفَـــرُّقٌ حَتَّـــى بِمَنْـــزِلِ غُرْبَـــةٍ ؟

كَمْ نَحْـــنُ للأَيَّـــامِ نُهْبَـــةَ نَاهِـــبِ !

أوصل بك الأمر أن تفرق وتترك كل شيء حتى مترل الغربة تفرط به وتتركه إذًا هذا السؤال جسد فيه ابن درَّاج البعد المكاني والذي تمثل في دار الغربة .

فبغياب ابن درَّاج عن أسرته تصبح تلك الأسرة نهبة لكل ناهب وطامع ؛ ولهذا استخدم هنا (كم الخبرية) ليلقي علينا هذا الخبر الذي يجلب له ولأسرته الهم والقلق ، وليكشف لنا – أيضًا – عن كثيرة أولئك الذين يتربصون به وبأسرته (كم نحن للأيام نهبة ناهب) !

وبهذا تنكشف حقيقة سؤال ابن درَّاج (هل تثنين ؟) وحقيقة وصفه لموقـــف الوداع ، فلم يكن ذلك سؤال استفهام عابر ، ولا الوصف كذلك وصفًا تقليديًّا ، وإنما أراد إظهار حقيقة اغترابه ، وإبراز مدى قلقه ، فالاستفهام تضمن معنى القلق والتـــوتر الذي برز في قوله : (دموع – غروب) ، ثم الصورة التشبيهية التي جاء بها ليوضـــح غزارة تلك الدموع (دمع ساكب – غمام – صائب) ، ثم يعود بنا الشاعر بعد الجمل الخبرية في الأبيات (أبت العزيمة) ، (من ترمه) ، (ففراق ربات الخدور) ، (قالت وقد مزج الوداع) إلى الاستفهام مرة أخرى ، وبأداة أخرى وهي الهمزة : (أتفـــرق حتى بمنـــزل غربة) والاستفهام هنا خرج إلى معنى الإنكار .

إذًا تأرجح ابن درَّاج بين جمل الاستفهام والجمل الخبرية إضـــافة إلى الـــدوال اللفظية التي استخدمها ، كقوله : (تثنين – دموع – برق – فراق – وداع – غربة – نهبة ناهب) كلها دلالات تنبئ على قلق تكتظ به نفسية ابن درَّاج المغتربة .

فِي كُـــلِّ يَـــوْمٍ مُنْتَـــوَىً مَتَباعِـــدٌ

يَرْمِـــي حُـــشَاشَةَ شَـــمْلِنَا الْمُتَقَـــارِبِ

فحالة القلق وموضوع الاغتراب والغربة مـــازال مـــستمرًّا ومتـــصلاً ، ففـــي القراءة الأولية للبيت تبرز حالة القلق (ففي كل يـــوم) ، وكـــل تفيـــد الـــشمول والعموم والرحيل كل يوم ينتج عنه التوتر .

والشعور بالضياع والإرهاق، وكذلك حالة التضاد التي بُـــني عليهـــا البيـــت (متباعد – متقارب) وما فيه من مد وطـــول تـــبرز إحـــساسه بالـــضياع الـــذي استوطن قلبه .

فالغربة ترميه في مكان سحيق شديد البعد ، ولـــذلك قـــال (متباعـــد)، وفي الوقت نفسه ترمي بحشاشة شمله المتقارب ، فأبنائه من أقرب الأقربين له .

هناك شدة في البعد وشـــدة في القـــرب، فالبيـــت يجمـــع بـــين متـــضادين (القرب والبعد) ؛ ولذلك جاء البيت يفـــيض بـــالقلق والتـــوتر ، ولهـــذا تزاحمـــت العناصر المكونة للاغتراب والغربة .

وَثَنَـــتْ تُـــذَكِّرُ مُقربَـــاتِ سَـــفائِنِ[(١)]

عُدْنَا بِهَـــا مِـــنْ مُقْفِـــراتِ سَبَاسِـــبِ

---

(١) سفائن : مفرده سفينة .

أَيَّـــامَ تُؤْنِــــسُنَا فـــلاً وســـــواحِلٌ

عَـــنْ آنِـــسَاتِ مَقَاصِـــرِ ومَلاعِـــبِ

العتاب والتذكير مازال متَّصلاً ، فالتَّذكُّر في الظـروف القاسـية الـتي يمـر بها الشَّاعر في أثناء رحيله ، ولربما إذا تـذكر تلـك الـصعاب تثنيـه عـن رغبتـه ورحيله ، فقطع القفاري الواسعة المتصلة ، والرحيـل عـبر الـسفائن الـتي تجـوب بهم عباب البحر ، ليس هناك ثمة شـك بأنـه أمـرٌ مفجـع باعـث علـى القلـق والتوتر، فبقدر ما تبعثه تلك الغربة وذلك الانتقال مـن خـوف ورعـب وضـياع بقدر ما يشعرون به من أنس وسعادة في القصور والملاعـب ، وهـو مـا يُـسمى بالتقابل الإيحائي، ولكن تلك السعادة لم تَدُم طـويلاً ، وهـذا مـا كـان يجلـب الحزن والأرق لابن درَّاج .

كما أن الجمع بين مكان الأنـس وعدمـه يـبرز حالـة التـوتر والقلـق ، فالسير في القفار والسباسب - عدم الأنس لما في تلك الأماكن مـن أهـوال وقلـق وأسى ، أما الاستقرار في المقاصر والملاعب - الأنس لمـا في تلـك الأمـاكن مـن دلالات الرحابة والانشراح ويتابع ابن دراج في وصف الرحيل قائلا:

لوحة الرحيل والانتقال :

نَعَبَ الغُــرَابُ بِهَــا فَطَــارَ بِأَهْلِهَــا

سِرْبًا عَلَى مِثْــلِ الغُــرَابِ النَّاعِــبِ

خرقُ الجَنَــاحِ إلى الرِّيَــاحِ مُـضَلَّلٌ

بِــــشَمَائِلٍ لَعِبَــــتْ بِــــهِ وَجَنائِــــبِ

يَهْوِي بِذِي طِمْــرَيْنِ مَــزَّقَ لبــسَهَا

أيْــدِي لَوَاهِــفَ للنُّفُــوسِ نَــوادِبِ

فَقد نَعَبَ غُرَاب البين ، ونعبه يعني الرحيل والاغتراب ، وكان هـذا الرحيل سريعًا (فطار بأهلها) ، فهذه الكلمة فيها من دلالات التفرق والانتشار السريع .

الشاعر هنا شبه رحيلهم المفاجئ برحيل جماعة من الغربان ، فكأنَّ هذا الرحيل بمثابة الغُرَاب الذي يمد جناحيه فيطير بهم ، فتهب عليهم الرياح ، وتنقلـهم في كـل الاتجاهات ، وهذه الكلمات تنبجس فيها حدة القلق التام وتشتت الشاعر .

فالغراب : يتصف بالسوداوية ، كما يثير التشاؤم .

والسرب : الجماعات من الطيور ، واجتماعها يعني الرحيل .

مزق : وما فيه من دلالات التشتت .

فِي غَوْلِ ذي لُجَجٍ لَبِسْنَ دَياجِيَا[1]
تَرَكَ الحَيَاةَ لَنَا كَأَمْس الذَّاهِبِ
قَاسَيْتُهُنَّ غَوَارِبًا كَغَياهِبِ[2]
وَسَرَيْتُهُنَّ غَيَاهِبًا كَغَوارِبِ
نَجْلُو ظلامَ اللَّيْلِ قَبْلَ صَبَاحِهِ
بِلَظَى زَفِيرٍ أَوْ بِرَأْسٍ شَائِبِ

فالغول ظهرت لهم وتلوَّنت باللون الأسود ، فكانت حياتهم كأمس الذي ذهب ومضى ، فقد لبسوا في رحيلهم دياجي المشقة والظلمة ، فكانت حياتهم كأمس الذاهب ، وحينما شعروا بهذا الإحساس كابدوا ذلك الأمر الشديد ، فتارة يغطيهم أعالي الموج ، وتارة سواد الليل ثم تتنامى وتتكدس

(١) غول : أي مشقة . ولجج : أي ظلمة .

(٢) قاسيتهن : المكابدة في الأمر الشديد . وغوارب : الماء أعاليه ، وقيل : أعالي موجه ، وغياهب : غيهب ، وهو شدة سواد الليل .

السوداوية عند ابن درَّاج في قوله : « نجلو ظلام الليل » ، فبعد مكابدة أمواج البحر بقوتها وهيمنتها ، وتحمل سواد الليل الحالك لم يكن بمقدورهم دفع تلك الأمواج ولا إزالة ذلك السواد ، ولكن كان بمقدورهم إطلاق الزفرات والآهات ليعبروا عن تمكن الخوف والرعب والقلق في نفوسهم مما أتاح للشيب أن يغزو رأس الشاعر .

ثم تبرز سيطرة الاغتراب في نفسية ابن درَّاج في الدوال التي استخدمها الشاعر كقوله :

غول : وما فيه من كدٍّ وتعب وإرهاق .

ظلام الليل : وما يشعر فيه من رعب وقلق .

الإجلاء : محا .

لظى : يتضمن معنى الحرقة والعذاب .

زفير : وتحمل هذه الكلمة كل معاني الهم والغم .

ثم نلحظ بعد هذا الانفعال الذي تضمن كل معطيات القلق والتوتر الذي شعر به ابن درَّاج ، نراه ينقلنا إلى انفعال أكثر حيوية وأكثر عذوبة حيث يقول :

يـا هَـذهِ لله تِلْـكَ حَـدائقًا
زَهْـراتُهُنَّ مَفـارقي وذَوائـبي[1]
مِثـلَ الرِّيـاضِ تَفَتَّحَـتْ أَكْمامُهَـا
عَنْ مُحْكمَـاتِ بَـصائِرِي وَتَجَـارِبِي

---

(١) مفارق : مفرق الشعر .

فمن حالة وصف الهموم والحديث عن المعاناة إلى حالة وصف الحدائق والرياض التي تفتحت فيها الأزهار والورود ، فكانت تلك الأزهار مفارقه وذوائبه ، حيث شبه مفارقه وذوائبه بالأزهار التي تفتحت فملأ أريجها الكون .

ففي الوقت الذي يظهر ابن درَّاج صورة الرحيل والسير في لجة الليل ولطمة الأمواج ، وبكل ما تشير إليه الدلالات التي استخدمها من قلق وتوتر وانقباض ورهبة ، أبرز صورة الرياض وما فيها من ألوان تشرح الصدر ، فهذه الحالة وما فيها من تضاد تبرز سيطرة الاغتراب على نفسية ابن درَّاج .

لوحة الحديث عن الذات (التجربة الذاتية) :

فَذَخَرْتُ للأَلْبَابِ كِفَّةَ حَابِلٍ[1]

وَلأَشْطَرِ الأَيَّامَ كَفَّيْ حَالِبِ

ابن درَّاج كان بمثابة الصيد الثمين لكل صائد ، ذا عقل لبيب لأنه عالم بكل ما تفعله الأيام فهو حالب لتلك الأيام ومشاطرها ونلحظ الجناس في قوله (حابل – حالب) ويدلُّ على حالة شعورية مضطربة ، ولهذا قال :

وَرَمَيْتُ آفَاقَ العِرَاقِ بِشُرَّدٍ[2]

لَيْسَ العَجَائِبُ عِنْدَهَا بِعَجَائِبِ

الشعور بالاضطراب والاغتراب يمتد في نفس ابن درَّاج ليصل إلى مرحلة التشرُّد والضياع ، فقد قصد آفاق العراق برحيله الذي لا حدَّ له ولا نهاية له ، ويقول : ليس العجيب والمدهش فيه بعجيب ، ولا مدهش ، فما المدهش عنده إذًا ؟

---

(١) كفة حابل : يريد الفطن العاقل .

(٢) العراق : وسمي بذلك لأنه على شاطئ دجلة .

مِـــنْ كُـــلِّ سَـــاحِرَةٍ كَـــأَنَّ رَوِيَّهـــا

في أَلْـــسُنِ الـــرَّاوِينَ ريقـــة كاعِـــبِ

فكل شيء يسحر يثير الدهشة والاستغراب لابد أن تتناقله الألسنة ، وهنا تشبيه حيث شبه شعره الذي تتناقله الألسن بريقة فتاة كاعب ؛ ولهذا يحلو إنشاده .

وَلَكَـــمْ وَصَـــلْتُ تَنَائِفًـــا بِتَنَـــائِفٍ

حَتَّـــى وَصَـــلْتُ مَـــشَارِقًا بِمَغَـــارِبِ

فكم تنوفة قطعها ابن درَّاج حتى وصل مشارق بمغارب ، ابن درَّاج في البيت السابق قال بأن شعره وصال آفاق العراق محددًا ، وهنا قطع تنائف حتى وصل المشارق بالمغارب بدون تحديد المدن التي قصدها ، وهذا يدل على تشتت الشاعر واضطرابه ، والذي برز – أيضًا – في التضاد (مشارق – مغارب) والتكرار في (وصلت – وصلت) و (تنائف – بتنائف) .

فَكَأَنَّمَـــا قَفَيْـــتُ إِثْـــرَ بَـــدائِعِي

فِي الأَرْضِ أَوْ نَاوَيْـــتُ شَـــأْوَ غَرَائِبِـــي

فابن درَّاج يفتخر بدرر شعره كما افتخر الشعراء من قبل ، فابن درَّاج يقول : إنه ربما كان في رحيله يتبع إثر بدائعه ودرره الشعرية التي ملأت الآفاق وتناقلتها الألسن لسحرها وجمالها ، أو أنه يتبع البعيد والغريب من شعره ، إذًا الغريب والساحر هو شعره . فما الذي دعا ابن درَّاج إلى أن يفتخر في هذا الموضوع بالذات ؟ فابن درَّاج حينما شعر بالتشتت والقلق أراد أن يبحث عن ذاته ، وعن وجوده ، وذاته الذي يتمثل في قصائده الشعرية ، ولكي يهيئ جوًّا من التوازن العاطفي والتقليل من حدة القلق لجأ إلى ذكر قصائده التي ملأت آفاق البلاد ، وقد أراد بذلك إثبات تفوقه الشعري ليوصله هذا التفوق إلى عالم الأمن والاستقرار في رحاب لبيب العامري .

أَوْ رُمْتُ حَظِّي فِي السَّماءِ وَقَدْ جَــرَى

لِمَـــدَاهُ فِي فَلَـــكِ الفَـــضَاءِ الغَائِـــبِ

ويتحدث عن حظه الغائب ، وكأنَّ الأفلاك هي التي جرت به حتى غاب عنه . فبعد نشوة الأمل والبحث عن الذات يفجؤنا ابن درَّاج بنظرة يأس وبؤس ، وهذه النقلة السريعة توحي وتشير إلى امتداد مرارة الاغتراب في نفس ابن درَّاج حتى بلغت مبلغًـــا عظيمًا فيه ، ثم استخدمه لكلمة (جرى) وما فيها من دلالات السرعة والانقضاء .

وَلَئِنْ دَجَتْ لِي الحَادِثـــاتُ فَمـــا أَرَى

نُورَ الـــيَقِينِ بِطَـــرْفِ ظَـــنٍّ كَـــاذِبِ

صَـــــدَقَتْنِي الأَنْبَـــــاءُ ضَـــــرْبَةَ لاَزِمٍ

أَنْ لَيْسَ هَـــمُّ الـــدَّهْرِ ضَـــرْبَةَ لازِبِ

وبعد تلك النظرة اليائسة يعود ابن درَّاج ليخلق جوًّا آخر ليسلي نفسه ، فيؤكد أنه حينما تلم به الحوادث وتظلم الدنيا أمام ناظريه لا يمني نفـــسه بالآمـــال والأمـــاني الكاذبة الخادعة ؛ لأنه يعلم علمًا يقينًا أن الدهر لا يبقى كما هو ، ولذلك يقول :

فَـــشَفَيْتُ فِي حُـــرِّ التَّجَمُّـــلِ غلَّتِـــي

وَقَضَيْتُ مِنْ حُـــسْنِ العَـــزَاءِ مَـــآرِبِي

وَحَرَسْتُ عِرْضِي بالتَّوَكُّلِ مَـــنْ نَـــأَى

عَنِّـــي بِجَانِبِـــهِ نَأَيْـــتُ بِجَـــانِبِي

سيرضى بقضاء الله وقدره ، ويشفي علَّته بالصبر ، ويلتمس السلوان ، ويصون عرضه بالتوكل على الله – عز وجل – ليحفظ كرامته وعرضه بالابتعاد عن اللئام وكل من ابتعد عنه .

وَلَقَــدْ رَأَيْــتُ الجَــدَّ لَــيْسَ بِبــالِغٍ
والعَجْزَ لَيْسَ عَنِ الــصِّرَاطِ بِنَاكِــبِ
كَمْ قَدْ سَعِدْتُ بِمَا تَمَنَّــى حَاسِــدِي
قَدْرًا وَخِبْــتُ بِمَــا تَخَيَّــرَ صَــاحِبِي
وَوَجَدْتُ طَعْمَ السُّمِّ في شَــهْدِ الجَنَــى
وَأَجَــاجَ شُــرْبِي في نَمِــيرِ مَــشَارِبِي
وَرَفَلْتُ في الــنِّعَمِ الــسَّوابِغِ مُلْبَــسِي
أَثْوَابَها الــدهرُ الــذي هُــوَ ســالِبِي

وتعود نغمة اليأس والقلق مرة أخرى ، فرأى بعد تجربة وصبر أن الجاد والمجتهد هو ليس ببالغ أمله ، وقد توصل إلى هذا الأمر بعد تجربة وبرهان ، كم رأى أن يسعد في دنياه قدرًا بما تخير حاسده ، ويشقى بما أشار عليه أصحابه ، وكم وجد طعم السم في العسل ، ويغض بالماء النمير ، ويرفل في نعم الدهر السابغة بعد شظف عيش وطول سلب ، إذًا التشتت والتمزق والقلق يبدو جليًّا في شخصية ابن درَّاج ، فتارة يحيي الأمل في نفسه ، وتارة يكبح ذلك الإحساس باليأس « والتمزق كما هو متواضع عليه حالة ازدواج في الكيان النفسي ، ينعكس معها انشطار الوعي الشخصي بفضل ضغوط خارجية أو تناقضات داخلية نفسية انعكاسية تتبع من تقمص تجربة ذاتية واعية ، أو غير واعية ، فالتمزق تجربة جاهزة لدى الأديب تتحول عبر الحساسية الفنية معينًا خصبًا يغذي أدبه بروح وجودي ، فيصطبغ تعبيره عن المرارة المأساوية ، وما كان للتمزق أن يستحيل مولِّدًا أخلاقًا لولا أنه قوة محركة تفجر الطاقات الكامنة في نفس الأديب ليعبر عن حاله الكائنة ، ومآله الصائر بما يصور عادة نمطًا من التجارب الإنسانية ، فإذا بالأثر الفني يتبوأ منزلة الأدب الإنساني القاطع »(١) .

(١) الاغتراب في القصيدة الجاهلية ، لمحمود هياجنة ، ص ١٢٢ .

كما يظهر تشتت الشاعر في قوله : (ذخرتُ – رميتُ – وصلتُ – قفيتُ – ناويتُ – رمتُ) فاستخدم هنا الفعل الماضي وتاء الفاعل ، ثم استخدم الفعل الماضي وتاء التأنيث في قوله : (دجتْ – صدقتْ) ، ثم العودة مرة أخرى للفعل الماضي وتاء الفاعل في قوله : (شفيتُ – حرستُ – رأيتُ – سعدتُ – وجدتُ – رفلتُ) وهذا دليل على تأرجح الشاعر واضطرابه ، كما أنه أدى إلى ظهور (الأنا) بشكل واضح ، ثم التضاد في قوله : (كاذب – صادق – الجد – العجز – السم – الشهد) والتجانس في قوله : (لازم – لازب) يوضح – أيضًا – توتر الشاعر وقلقه ، وكذلك في قوله : (ملبسي – سالبي) هذه الدلالات تومئ إلى قلق لائب لازم لابن درَّاج، مما جعل الإحساس بالاغتراب يتنامى ويتنامى . وبعد شعور باليأس نلحظ في قوله : (ورفلتُ في النعم السوابغ) ظهور بصيص من الأمل والتفاؤل .

لوحة الأمل والتفاؤل :

يَا رَبَّةَ الخِدْرِ اسْتَجِدِّي سَلْوَةَ
جَدَّ النَّجاءُ بِهَائِمٍ بِكِ لاعِبِ

هنا يخاطب زوجته قائلاً : (يَا رَبَّةَ الخِدْرِ) طالبًا منها أن تستبشر بالخير ، وأن تستلهم بالسلوى والتحلي بالصبر والثبات ، ونجد أن هذه اللوحة لها صلة بالمقدمة الطللية ، فهناك بدأ بالاستفهام (هل تثنيين) دون ذكر اسمها أو صفة من صفاها ، وهنا يذكرها بقوله : (يَا رَبَّةَ الخِدْرِ) هذه اللوحة تعتبر امتدادًا للوحة الوداع والعتاب، ولذلك استخدم النداء للبعيد ، فقال : (يَا رَبَّةَ الخِدْرِ) فلماذا يناديها ؟

إمَّا شَجِيتِ بِرِحْلَتِي فَاسْتَبْشِرِي
بَجَمِيلِ ظَنِّي مِنْ جَمِيلِ عَوَاقِبِي

فقد حزنت وشجيت بسبب رحيلي ، فأبشري بالخير والعاقبة الحسنة ، فقوله : (شجيتِ – أنتِ – رحلتي – أنا) أسلوب التفات، وهو كما قال محمود هياجنة : «هو أحد المعالم البارزة في لغة المغتربين يتغنون به لذكر موطنه القديم ، وموقعه الجديد الحاضر ، وهو إلحاح نفسي يحمل قسوة الحاضر »[1] .

وَلَئِنْ جَنَيْتُ عَلَيْكِ تَرْحَةَ رَاحِلٍ

فَأَنَا الزَّعِيمُ لَهَا بِفَرْحَةِ آيِبِ

بالرغم من محاولات ابن درَّاج لإحياء الأمل من جديد إلا أننا نلحظ في القراءة الأولية للبيت التضاد في قوله : (ترحة – فرحة – راحل – آيب) هذا التضاد يضج بالقلق والحيرة ، ولكي يخفف من حدته قال : (فَأَنَا الزَّعِيمُ) تأكيدًا لها بأن الأتراح والآلام ستتحول إلى سرور وسعادة .

وَهَلْ أَبْصَرَتْ عَيْنَاكِ بَدْرًا طَالِعًا

فِي الأُفْقِ إلاَّ مِنْ هِلالٍ غَارِبِ

فالبدر لا بد أن يكون هلالاً ، والهلال لا بد أن يصير بدرًا ؛ لأنَّ بعد النقصان كمال ، ولذلك قال : (طَالع – غَارب) على وزن فاعل ، فأفاد المبالغة ، كما أننا نلحظ التَّضاد المثير للقلق ، مصاحب لشاعرنا ، فنجد (بَدر – هِلال – طَالع – غَارب) هذه القطعة أو اللوحة تظهر مدى رغبة ابن درَّاج في تحقيق أمله ، ولذلك لابد من الصبر والتجلد حتى يدرك مبتغاه ، ويحقق أمله . وهذه الدعوة برزت من نفس مغتربة تعاني القلق والاغتراب لتعالج قلقًا آخر يؤرق ويرهق زوجته وأسرته ، فهو حينما يطلب من ربة الخدر أن تتحلى بالصبر والسلوان والتجلد يدعو – أيضًا – نفسه ويحثها على الصبر كذلك ؛ ليحقق أمله ، ولكي يقترب ابن درَّاج من تحقيق حلمه (الاستقرار والأمان) لا بد له من المديح .

---

(١) الاغتراب في القصيدة الجاهلية ، لمحمود هياجنة ، ص ٩٤ .

لوحة الممدوح :

وَاللهُ مِنْ بَعْدِي عَلَيْكِ خَلِيفَتِي
وَخَلِيفَةٌ هُدِيَتْ إليهِ مَذَاهِبِي

بَيْنِي وَبَيْنَكِ أَنْ يُلبِّي دَعْوَتِي
دَاعِي (لبيب) مِن مُنَاخِ رَكَائِبِي

وَأُهِلَّ نَحْوَ فِنائِهِ وَعَطَائِهِ
فَيْهِلَّ نَحْوَ وَسَائِلِي وَرَغَائِبِي

وَأَشِيمُ بَرْقَ يَمِينِهِ وَجَبِينِهِ
وَيَشُمُّ رِيحَ أَوَصِرِي وَمَطَالِبِي

وَأَهُزَّهُ بِشَوَافِعٍ مِنْ عَامِرٍ
تُزْرِي بِكُلِّ قَرَابَةٍ وَمَنَاسِبِ

نلحظ في الأبيات بروز ذات الشاعر ، وبروز ذات ممدوحه ، فابن درَّاج يقول : بأنه سيهل نحو فناء الممدوح وعطاياه ، وفي المقابل الممدوح سيهل عليه ويستجيب لرغائبه وآماله بالعطاء والبذل .

ثم إنَّ ابن درَّاج يشيم نحو برقه ويمينه وجبينه ، وفي المقابل – أيضًا – الممدوح يشيم نحوه ويجمع أواصره ، ويلبي مطالبه ، ثم نرى نبرة الافتخار تعلو، حيث هو بدوره يهز ويطرب ممدوحه بجواهره الشعرية التي تناقلتها الألسن .

ابن درَّاج يريد أن يوضح صورة الشاعر المتفوق على نظرائه في تلك الحقبة (وتحول الشاعر بين النفس والممدوح من صور الاغتراب)[١] .

---

(١) الاغتراب في شعر المتنبي ، لصالح الزامل ، ص ٣ .

ولذا برز أسلوب الالتفات وهو من أساليب المغتربين ، كما ذكـــر الـــدكتور محمود هياجنة .

أهل – أنا يهل - هو

أشيم – أنا يشيم – هو

أهزه – أنا تزوي – هي .

فَهُنَاكَ جَاءَتْـــك الخُطُـــوبُ خَواضِـــعًا

وَمَشَى إِلَيْكِ الـــدَّهْرُ مـــشْيَةَ تَائِـــبِ

ويعود الشَّاعر ليخاطب ممدوحة مرة أخرى قائلاً لـــه : إنَّ الخطـــوب ســـتأتي خاضعة لك ذليلة ، وهنا استعارة ، حيث استعار الخضوع والذلة للخطوب ، فـــشبهها بالإنسان الذي يخضع ويذل لغيره، وكذلك الدهر يمشي إليك تائبًا عن رميك في مهب الأهوال، وهنا – أيضًا – استعارة، حيث شبَّه الدهر بالإنسان الذي يمشي كما أنـــه – أيضًا – جعل الدهر كالإنسان التائب من ذنب فعله .

وَأَنَابَ سُـــلْطانُ النَّوائِـــبِ وانْثَنَـــتْ

ذُلُلاً وَأَعْتـــبَ كُـــلَّ مَـــوْلىً عاتِـــبِ

الدهر جاء إليه تائباً فلم يعد بمقدوره أن يلقي به في مهب الأهـــوال ، فجعـــل النيابة لسلطان النوائب وسيدها ، ولكنه – أيضًا – انثنى عن أمره وجاءه ذليلاً منكسرًا ، وهنا – أيضًا – استعارة ، حيث جعل النيابة والسلطان للنوائب ، حيث شبه النوائب بالشخص الذي ينيب غيره ويعطيه الولية والسلطان . هذه الصورة التي جاء بهـــا ابـــن درَّاج تعكس مدى سيطرة القلق والذل في نفس شاعرنا ، إذْ كانت الخطوب والنوائب والدهر في نظرته من الأمور التي قادته إلى بوابة الاغتراب والغربة ، فيتمنى أن يتغلـــب على تلك الخطوب لتنتهي دوامة الاغتراب والانتقال ، ويبتعد عن حياة القلق والتـــوتر ليستقر عند :

مَلِــكٌ مَتَــى أَرْم الحَــوادِثَ باسْـــمِهِ

تَقْتُــــلْ أَفَاعِيهـــا سُـــمُومُ عَقَـــارِبِي

الرَّافِـــعُ الأَعْـــلاَمَ فَـــوْقَ خَـــوافِقي

والقَائِدُ الآســـادَ فَـــوْقَ شَـــوازِبِ[1]

مَلِكٌ تَكَـــرَّمَ عَـــنْ خَلائِـــقِ غَـــادِرِ

فأَثَابَـــهُ الـــرَّحْمَنُ قُـــدْرَةَ غَالِـــبِ

يصور ابن درَّاج ممدوحه في صورة البطل الذي إنْ ذكر اسمه فقط نال النـــصر ، فيقضي على الحوادث ، ويقتل الأفاعي والعقارب ، فهو دائمًا مرفوع الراية ، مكللـــاً بالنجاح والنصر، فهو القائد الذي يقود الشجعان إلى الأماكن الضامرة اليابسة ، فهـــو ملك من أعظم الملوك ، فهناك ملوك كثيرون إلا أنَّ ممدوحه تكرَّم وتفرَّد وتميَّز عن جميع الملوك لأنه ترفَّع عن صفة الغدر والخيانة ، فأثابه الرحمن ووهبه القدرة والغلبة .

هذه الصورة البطولية التي جسَّدها ابن درَّاج في ممدوحه تتماهى وتتراءى فيهـــا شخصية ابن درَّاج ، وبطريقة أخرى ابن درَّاج يريد إظهار ذاته عن طريق إبراز صفات ممدوحه ، فليس هناك ثمة شك أن ابن درَّاج هو البطل المغترب الذي يجوب القفار مـــع مجموعة من الأسود الشجعان وهم أبناؤه الذين ينتقلون معـــه ، فيقـــابلون الأفـــاعي والعقارب السامة .

يقضي فَيُمْضِي كُـــلَّ حَـــقٍّ وَاجِـــبٍ

إلاَّ إذا أَعْطَـــى فَفَـــوْقَ الوَاجِـــبِ

(١) شوازب : الضامر اليابس .

قفلٌ علــى الإســلام مَمْنــوعٌ لَــهَ

عَنْ قَلْــبِ كُــلِّ مُعانِــدٍ ومُنَاصِــبِ

لا يَخْلَــعُ الإســلام حُلَّـــةَ آمِـــنٍ

مِنْـــهُ ولا الإشْـــرَاكُ ربقـــةَ هَائِـــبِ

حَرَمُ الهُدَى ، سُــمَّ العِــدَى ، أمْنِيَّـــة

لِمُـــــسالِمٍ ، وَمَنِيَّـــــةٌ لِمَحَـــــارِبِ

وَقْفٌ عَلَى عَلَــمِ الثُّغُــورِ ، مُقَــارِبٌ

لِمُباعِـــــدِ ، وَمُباعِـــــدٌ لِمُقَـــــارِبِ

ممدوح ابن درَّاج قاضٍ عادل يعطي الحقَّ لأصحابه ويزيد ، فهو ناصر للإسلام ومحاربٌ لكل معاندٍ ، ولكل من ينصب العداء للإســلام ، ولــذلك ســاد الأمــن والاطمئنان، فقد شبه ممدوحه بالقفل المنيع الذي يمنع الأعداء من الدخول ؛ ولــذلك ساد الأمن ، فقصده كل مسالم طالبًا للاستقرار والأمان ، وهو – أيضًا – منية لكــل محارب ومقاتل أراد الإساءة ، وبانتشار الأمن تقرَّب إليه كل مباعد ، وأبعد عنه كــل لئيم ، إذًا الحرمان الذي يعيشه ابن درَّاج جعله يلح إلحاحًا شديدًا على طلــب حيــاة الأمن والاستقرار ، فانعدامهما كان سببًا فاعلاً لإحساسه بالقلق والتوتر .

ولذلك فهو يرى في ممدوحــه مبتغــاه وأملــه ، فالممــدوح عنــده يعــني الاستقرار والأمان والعطاء ، فابن درَّاج كــان يعــيش في مجتمــع يــضج بــالفتن والحروب والغدر ، ولهذا كان دائمًا ما يضطر للرحيل بحثًا عن مكــان أكثــر أمنًــا ، ثم نرى التضاد ما زال حاضرًا ، يقــول : (مــسالم – محــارب) ، (مقــارب – مباعد) والتكرار (مباعد مرتين ، ومقارب مرتين) والجنــاس في قولــه : (أمنيــة – منيَّة) .

فَمُراقِـــبُ الإسْـــلامِ غَيْـــرُ مُرَاقِـــبِ

وَمُصاقِبِ الأَعْداءِ غــيرُ مُــصاقِبِ[1]

مُـــوَفٍّ بِعَلْيـــاءِ الثُّغُـــورِ لِرَغْبَـــةٍ

مِنْ رَاغِـــبٍ أَوْ رَهْبَـــةٍ مِـــنْ رَاهِـــبِ

تُـــضْحِي عَطَايَـــاهُ تَحِيَّـــةَ زَائِـــرٍ

وَتَبِيـــتُ رَوْعَتُـــهُ نَجِيَّـــةَ هَـــارِبِ

يـــا مَـــنْ يُلاقِـــي النَّـــازِلِينَ قِبَابَـــهُ

بِجَـــبِينٍ مَوْهُـــوبٍ وَرَاحَـــةِ وَاهِـــبِ

فممدوحه يراقب ويحمي الإسلام ، ويقاتل الأعداء الذين يقطنون في الأمـــاكن القريبة، وغير القريبة ، ويحمي الثغور ، ويعطي العطايا ، ويقابل النازلين عليه بعطايـــا وأموال طائلة .

ونجد – أيضًا – التَّضاد في قوله : (مراقب – غير مراقب) ، (مصاقب – غير مصاقب) ، والجناس بين (رغبة – رهبة – راغب – راهب) .

وإذَا الْتَقَـــى الجَمْعَـــانِ أَوَّلُ طَـــاعِنٍ

وَإذا اسْـــتَحَرَّ الطَّعْـــنُ أَوَّلُ ضـــارِبٍ

وإذَا تَـــؤُوبُ الخَيْـــلُ آخِـــرُ نَـــازِلٍ

وَإذَا دَعَـــا الـــدَّاعِي فَـــأَوَّلُ رَاكِـــبٍ

---

(١) مصاقب : هو المكان القريب .

كَرُمَــــتْ أَيَادِيــكَ الَّتِــي أَنْـــشَأْتَهَا

أَتْـــرَابَ كُـــلِّ مُؤَمِّــلٍ أَوْ رَاغِـــبِ

مِـــنْ كُــلِّ بِكْــرٍ فِي يَمِينِــكَ حُــرَّةٍ

يَـــرْفُلْنَ بَـــيْنَ قَلائِـــدٍ وَجَلابِـــبِ

هَــــذي لأَوَّلِ خَاطِـــبِ وَلِــــدَاتِهَا

يَهْتِفْنَ فِي الأفَاقِ هَــلْ مِــنْ خَاطِــبِ

وَيَجِلُّ قَــدْرُكَ عَــنْ ولادَةِ (يافِــث)

أَوْ قَيْـــصَرٍ أَوْ عَـــنْ أَرُومُ صَـــقَالِبِ

ويعود ابـــن درَّاج – أيـــضًا – لـــصورة البطـــل ، فممدوحـــه إذا التقـــى الجيشان فهو السابق في الضرب والطعـــن ، فهـــو مِقـــدَام وشـــجاع ، ولـــذلك إذا أريد ترويض خيل عنيد ، فهو آخر من ينـــــزل عليـــه ، وإن دعـــي إلى امتطائـــه ، فهو أول من يمتطيه ، و لم يكن ممدوحه شجاعًا فقط ، بـــل كريمـــاً ، تميَّـــز بالعطـــاء والجود ، وحينما امتاز بهذه الصفات مدحه ابن درَّاج بقـــصائد هتفـــت في الآفـــاق والملحوظ أنه كرر (إذاً) أربع مرات ، ممـــا أعطـــى الأبيـــات تناغمًـــا موســـيقيًّا يخفف من حدة توتر الشاعر .

بَلْ أَنْتَ بَكْـرُ غَمَامَـةٍ مِـنْ بَـارِقٍ
لَقحَتْ بِهِ أَوْ صَعْدَةٍ مِـنْ قَاضِـبِ[1]
قبلتـك أَيْـدي همَّـةٍ وَسِـيادَةٍ
وَرَضَـعْتَ دَرَّ مَكَـارِمٍ وَمَوَاهِـبِ
في عِـزٍّ مَهْـدٍ مـا اسْـتَقَرَّ مَكَانُـهُ
إلاَّ بِقُـرْبِ مَنَـابِرٍ وَمَحَـارِبِ
وَفُطِمْتَ يَوْمَ فُطِمْتَ في رَهَجِ الـوَغَى
عِنْـدَ الْتِفَـافِ كَتَائِـبَ بِكَتائِـبِ
حَتَّى حَلَلْـتَ مِـنَ الـسَّماءِ مَرَاتِبًـا
تَرَكَـتْ كَواكِبَهَـا بِغَـيرِ مَرَاتِـبِ

هنا يشبه ممدوحه ببكر غمامة ، والجامع بينهما العطاء والارتفاع وعلو المكانة ، ولذلك فهو صاحب همة وسيادة ، وصاحب مكارم الأخلاق ، كما أنه خطيبٌ بـارعٌ قريبٌ من المنابر ، شجاع مقدام في الحروب ، وقد فُطِمَ من الرضاع في الوغى حينما اشتدت المعركة والتحمت الكتائب بالكتائب ، وبهذه الصفات حلَّ أعلـى المراتـب ، فترك النجوم بغير مراتب .

ونقول : إن ابن درَّاج عاجز عن توفير الأمن والاستقرار له ولأسرته ، ولهذا لجأ إلى إبراز صفات الممدوح ، والتي كدَّس فيها كل الصفات التي يرجو ويأمل أن تتوفر في ممدوحه ، ولعل أهمها الشجاعة والعطاء ، فالشجاعة والإقدام والضرب على كل يـد تعبث بأمن الدولة طريق لتحقيق الأمن والاستقرار الذي يصبو إليه ابن درَّاج .

(١) لقحت : بمعنى حملت ، وقاضب : أي : الضرب أو القطع .

لوحة الثناء والأمل المرجو :

فَلَئِنْ طَلَبْـــتَ هُنَـــاكَ حَقًّـــا صـــاعِدًا
فَلأَنْتَ أَقْرَبُ مِـــنْ وَرِيـــدِ الطَّالِـــبِ
وَلَئِنْ وَهَبْتَ قَـــدْ وَهبْـــتَ مَـــسَاعِيًا
أَصْـــبَحْنَ حَلْـــيَ مَـــآثِرِي وَمَنَـــاقِبِي
شِيَمًا بِهَـــا حَلَّيْـــتُ غُـــرَّ قَـــصائدِي
وجَعَلْـــــتُهُنَّ أَهِلَّـــــةً لِكَـــــواكِبِي
وَذَخَـــرْتُ للأَزْمَـــانِ مِـــنْ حَـــسَنَاتِهَا
مِثْـــلَ القَلائِـــدِ في نُحُـــورِ كَوَاعِـــبِ

فهو القريب المجيب له وهبه بالمآثر والمناقب والصفات الحسنة التي حلت وزينت قصائد الشاعر ، فأصبحت تلك القصائد كالهلال الذي يسطع بنوره ليضيئ الكواكب الأخرى ، فأصبحت تلك القصائد ذخرًا للزمان بحسنها ، فهي مثل القلائد التي تتـــزين بها الكواعب .

وَلأَشْـــفِيَنَّ بِهَـــا سَـــقَامَ تَغَرُّبِـــي
ولآسُـــوَنَّ بِهَـــا جِـــرَاحَ مَـــصَائِبِي
وَلأَجْعَلَـــنْ مِنْهَـــا تَمَـــائِمَ خَـــائِفٍ
مِنْ طَـــائِفٍ أَوْ مِـــنْ رَجَـــاءٍ خَائِـــبِ
وَلأَتْـــــرُكَنَّ ثَنَاءَهَـــــا وَجَزَاءَهَـــــا

قُــوتَ المُقِــيمِ غَــدًا وَزَادَ الرَّاكِــبِ

وَسُــرُورَ مَحْــزُونٍ وَأُنْــسَ مُغَــرَّبٍ

وحُلِّــيَّ أَوْتَــارٍ وَرَوْضَــةَ شَــارِبِ

وَلَقَدْ نَثَرْتُ عَلَيْكَ شَــكْلَكَ جَــوْهَرًا

لا مَا قَمَشْتُ وَضَمَّ حَبْــلُ الحَاطِــبِ(١)

فبقصائده سيشفي سقام تغربه ، فيداوي جروحه ومصائبه وستصبح تلك القصائد تمائم يعلقها الخائف لتحميه من خيبة الأمل ، وستكون القصائد سببًا لنيل عطاء ممدوحه ، فيصبح هذا العطاء زادًا لكل مقيم ولكل راحل ، وسيبعث السرور والسعادة لكل حزين ومهموم ، وأُنس كل مغترب ، وروضة غناء لكل حزين ؛ ولذلك صاغ تلك الجواهر وجمعها وأحكم صياغتها . فاللوحة تحمل دلالات الأمل المرجو في المجد والاستقرار والأمان ، ومن المهم أن نعي أن ابن درَّاج مازال يعيش في قلق لائب وتشتت لازب .

فتأرجح ابن درَّاج بين الحديث عن ذاته المتمثلة في قصائده ، وبين صفات الممدوح تمثل حضورًا لحال التشتت والقلق ، ثم كثرة التضاد يجسد – أيضًا – حالة من أحوال التوتر ، كقوله : (هناك للبعيد – أقرب) ، (أشفي – سقام) ، (المقيم – الراكب) ، (سرور – محزون) ، (أنس – مغرَّب) . فالتَّضاد « يبرز من خلاله بعض ملامح واقعه المضطرب الذي يموج بالثنائيات والمتناقضات والصراعات بين محوري التجاذب ، كما يعبر عن نفسه القلقة المتوترة التي تفتقد إلى الحياة الآمنة ،

(١) قمشت : بمعنى جمعت والحاطب : الذي يجمع الحطب .

والعيش المستقر في ظل مجتمع شديد التقلب والتغير »[1] ،وقصيدة آخرى تبرز سيطرة الاغتراب والتشت الذي يكتظ به قلب ابن دراج .

الاغتراب : **التشتت والأرق في أحلى الأيام** :

إذَا شِئْتِ كَانَ النَّجْمُ عِنْدَكِ شَـــاهِدِي
بِلَوْعَـــةِ مُـــشْتَاقٍ وَمُقْلَـــةِ سَـــاهِدِ
غَرِيبٌ كَسَاهُ البَيْنُ أَثْـــوَابَ مُـــدْنَفٍ
وحَفَّتْ بِهِ الأَشْـــجَانُ حَـــفَّ الوَلائِـــدِ
بِعِيْدِ الضَّحَى مِنْ بَعْدِ إِلْـــفٍ مُفَـــارِقٍ
طَوِيلِ الدُّجَى مِنْ طُولِ بَـــثٍّ مُعَـــاوِدِ
كَـــأَنَّ ظَـــلامَ اللَّيْـــلِ سَـــدَّ طَرِيقَـــهُ
تَعَلُّـــقُ أَجْفَـــانِي بِرَعْـــيِ الفَرَاقِـــدِ
وَقَدْ لَبِـــسَتْ آفَاقُـــهُ مِـــنْ دُجُونِـــهِ
حِـــدَادَ نَـــواعٍ لِلـــصَّبَاحِ فَوَاقِـــدِ
سَلِينِي عَـــنِ اللَّيْـــلِ التُّمَـــامِ قَطَعْتُـــهُ
بِزَفْـــرَةِ مُـــشْتَاقٍ وَأَنْفَـــاسِ وَاجِـــدِ
طَواكِ عَلَى طِيـــبِ الكَـــرَى فَطَوَيْتُـــهُ
بِشَكْوَى سَلي عَـــنْهُنَّ صُـــمَّ الجَلامِـــدِ

---

(١) قصيدة المديح في الأندلس ، قضاياهـــا الموضوعية والفنيـــة – عصر الطوائف ، د . أشـــرف محمود نجـــا ، ص ٢٧٧ .

يُطــاوِلُ لَيْــلُ الــتِّمِّ بَثِّــي مُــسْعِدًا

عَلَى ذِكْرِ إِلْفٍ بــانَ غَــيرَ مُــسَاعِدِ

وَيُوحِشُنِي مِــلْءُ الــسَّماءِ كَواكِبًــا

إِلَى كَوْكَبٍ فِي مَغْرِبِ البَــيْنِ وَاحِــدِ

أَلَمْ أَدْرِ أَنَّ الــصُّبْحَ شِــبْهُكِ قَبْلَهَــا

فَــأَعْرِفَ مِنْــه الآنَ خُلْــفَ المَوَاعِــدِ

سَتَرْعَى وَفَــاءَ العَهْــدِ لِي إنْ نَقَــضْتِهِ

لَوَاعِجُ بَــثٍّ فِــي هَــوَاكِ مُعاهِــدِي

ويُوشِكُ أَنْ تُجْلَــى وُجُــوهُ مَطَــالِبِي

بِــأَزْهَرَ وَضَّــاحٍ وَأَرْوَعَ مَاجِــدٍ

مَليكٍ لِشَمْلِ المُلْــكِ والعِــزِّ جَــامِعٍ

وَعَنْ حَرَمِ الأَحْسابِ والمَجْــدِ ذَائِــدِ

أَغَرَّ سَمَا للــدِّينِ فاعْتَــصَمَ الهُــدَى

بِهِ وَهَدَى المَعْــرُوفَ سُــبْلَ المَحَامِــدِ

حَيًا طَبَّــقَ الآفــاقِ شَــرْقًا وَمَغْرِبًــا

فَمَا تُقْتَفَــى فِي المَحْــلِ آثــارُ رَائِــدِ

بِــسَيْفٍ لأَقْــدَارِ الحُتُــوفِ مُــساوِرٍ

وَسَــيْبٍ لِتَهْتَــانِ الغُيُــومِ مُجَــاوِدِ

سَلِيلُ عُــلاً تَنْمِيــهِ أَنْــسَابُ حِمْيَــرٍ

إلى كُــلِّ بَــانٍ للمَفَــاخِرِ شَــائِدِ

هَمَّامٌ لَهُ مِنْ فَخْــرِ يَعْــرُبَ فِي العُــلاَ

ذرى كُلِّ سَامِي السَّبْكِ رَاسِي القَواعِدِ

مُحاتِـــدُ عِـــزٍّ واعْـــتِلاءٍ كَأَنَّمَـــا

سَنَا الشَّمْسِ مِنْ إشْراقِ تِلْكَ المَحَاتِـــدِ

فَتَىً أَذْعَنَ الــدَّهْرُ الأَبِــيُّ لِحُكْمِــهِ

فَأَضْـــحَى إلَيْـــهِ مُلْقِيًـــا بالمَقَالِـــدِ

هُوَ البَــدْرُ إشْـــرَاقًا وَنُـــورًا وســـيفُهُ

مَدَى الدَّهْرِ مِنْـــهُ في مَحَـــلِّ عُطَـــارِدِ

تَدَانَتْ مِـــنَ الآمَـــالِ أَنْـــوَاءُ كَفِّـــهِ

وَبَـــرَّزَ سَـــبْقًا في المَـــدَى المُتَباعِـــدِ

فَحَجَّبَ مِنْهُ الملـــكَ أَكْـــرَمَ حَاجِـــبٍ

وَقَـــادَ جُنـــودَ النَّـــصْرِ أَكْـــرَمَ قَائِـــدِ

كتَائِـــبُ تَوْحِيـــدُ الإِلَـــهِ شِـــعَارُهَا

وَمَا يَوْمُ خِزْيِ الكُفْـــرِ فيهـــا بِواحِـــدِ

إذا يَمَّمْـــتَ مِنْـــهُ حِمـــىً فَكَأَنَّمـــا

أَرَبَّـــتْ عَلَيْـــهِ مُـــصْعِقاتُ الرَّوَاعِـــدِ

لَئِنْ حَلَّ دَارَ المُلْكِ مِـــنْ بَعْـــدُ قَـــافِلاً

لَقَدْ شَـــدَّ أَقْـــصاها بِـــرَأْيِ مُجَاهِـــدِ

فَشَاهَدَ عَنْهُ النَّـــصْرُ إنْ لَـــمْ يُـــشَاهِدِ

وجَالَدَ عَنْـــهُ الـــصَّبْرُ إنْ لَـــمْ يَجالِـــدِ

رَعَـــى اللهُ لِلْمَنْـــصورِ نُـــصْرَةَ دِينِـــهِ

فَجَازَاهُ خَيْرَ ابـــن تَـــلا خَيْـــرَ وَالِـــدِ

وَأَيَّدَ هـــذا المُلْـــكَ والـــدِّينَ مِنْهُمَـــا

بِأَيْمَنِ يُمْنَى قَدْ سَاعَدَتْ خَيْـــرَ سَـــاعِدِ

فَيا جَامِعَ الإِسْـــلامِ شَـــمْلاً وَتَارِكًـــا

دِيَارَ الأَعـــادِي مُوحِـــشَاتِ المَعَاهِـــدِ

وَمُقْتَحِمَ الأَهْوَالِ في حومـــة الـــوَغَى

كَمَا بَادَرَ الظَمْـــآنُ عَـــذْبَ المَـــوَارِدِ

ليهْنِـــكَ أَنَّ العِيـــدَ وافَـــاكَ قَادِمًـــا

بِأَوْشَـــكِ بَـــادٍ للـــسُّرورِ وعائـــدِ

تَلَقَّـــاكَ بالبُـــشْرَى وَحَيَّـــاكَ بـــالمُنَى

وَسَـــاعَدَ للبُـــشْرَى لأَعْـــدَلِ شَـــاهِدِ

فَلا زَالَـــتِ الأَيَّـــامُ أَعْيَـــادَ فَـــضْلِكُمْ

لِكُلِّ مُوالٍ خَـــالِصِ الـــشُّكْرِ حَامِـــدِ

ولا زِلْـــتُمْ مَـــأْوَى غَرِيـــبٍ وآمِـــلِ

وَمَفْزَعَ مَلْهُـــوفٍ وَفُرْصَـــةَ قَاصِـــدِ[1]

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٣٤٤ - ٣٤٦ .

لوحة : لوعة الحنين وبث الشكوى :

إِذَا شئْتِ كَانَ النَّجْمُ عِنْدَكِ شَــاهِدِي

بِلَوْعَــةِ مُــشْتاقٍ وَمُقْلَــةِ سَــاهِدِ

الخطاب موجه إلى زوجته ، فإن شاءت في أي لحظة من اللحظات أن تنظر إلى النجم ، فتراه نجمًا ازداد في الإضاءة والإنارة بما به من لوعة الشوق وقلة السهد ، فهو مثل النجم في اللوعة والشوق .

ففي الاستهلالة الأولى للقصيدة نراها مفعمة بالشوق والحنين إلى الزوجة ، وقد يخطر سؤال لدى الباحث لما بدأ الشاعر الحديث عن الشوق والحنين ، هل هو مجــرد تقليد ، أم أراد شد انتباه ممدوحه ؟

لعل في طرح هذه الأسئلة ما يغني عن الجواب ، إذا علم أن المناسبة التي قيلــت فيها القصيدة هي (العيد) فالعيد مناسبة عظيمة يجتمع فيه الأحباب ، وتلتقــي فيــه الأنساب بعد فراق وغياب طال ، ولكن ابن درَّاج بالرغم ما في المناسبة من اجتمــاع والتقاء يقول :

غَرِيبٌ كَسَاهُ البَيْنُ أَثْــوَابَ مُــدْنَفٍ

وحَفَّتْ بِهِ الأَشْــجَانُ حَــفَّ الوَلائِــدِ

هو غريبٌ وحيدٌ منفردٌ لا اجتماع ولا أحباب ، وإنما لبس أثــواب المــرض ، وأحاطت به الأحزان والأشجان ، كما يحف ويجتمع حول الولائد ، فمتى شعر بهــذا الإحساس ؟

بِعِيْدِ الضَّحَى مِنْ بَعْدِ إِلْــفٍ مُفَــارِقٍ

طَوِيلِ الدُّجَى مِنْ طُولِ بَــثٍّ مُعَــاوِدِ

بعيد الضحى عاودته الأشجان والألم فشعر بطول الليل ، فعاوده القلق والأرق ، فهذه صورة عكسية لما يحدث في العيد من اجتماع ولقاء ، ولكن ابن درَّاج لم يشعر بالسعادة في هذا العيد، والعلة ظاهرة، فالشاعر يشعر بالغربة والوحدة، لا لقاء ولا أسرة، فإذا كان العيد عند الناس فرحة، فعند ابن درَّاج ترحة، إذًا الشاعر يقدم لنا صورتين متناقضتين .

الأولى : ابتهاج الناس في يوم العيد بلقاء أحبابهم ، والتئام شملهم بالرغم أنَّ الشاعر لم يصرح بهذا الكلام ، وإنما أوَّلناه من كلمة (عيد) .

الثانية : اكتئابه وقلقه في يوم العيد ؛ لتشتت شمله في تلك الأيام وضخامة همومه، ولذلك قال : (بعد إلفٍ مفارقِ) مفارق على وزن مفاعل، وهو من صيغ المبالغة ، ولهذا لابدَّ من بثِّ الشكوى علَّهُ يخفف من همه وحزنه .

كَأَنَّ ظَلامَ اللَّيْلِ سَدَّ طَرِيقَهُ

تَعَلُّقُ أَجْفَانِي بِرَعْيِ الفَرَاقِدِ

فكان ظلام الليل وسواده الدامس بمثابة الحاجز الذي حجزه ومنعه من مواصلة طريقه . فالشاعر يوضِّح شدَّة عجزهِ ، ولذلك فضَّل إطالة النظر إلى النجوم ؛ ولذلك قال : (تَعَلُّقُ) وما فيه من دلالات القوة وطول النظر ، ثم كلمة (برعى) وما فيها من دلالات المتابعة الدقيقة لهذه النجوم ، ولفظة (سَدَّ) وما فيها من قوة ومنعة ، كما تنجلي حقيقة ابن درَّاج القلقة المتوترة والتي تتدفق في قوله : (ظَلامَ اللَيْلِ) وما فيه من سوداوية وظلمة ورهبة وخوف .

وَقَدْ لَبِسَتْ آفَاقُــهُ مِــنْ دُجُونِــهِ[1]

حِــدَادَ نَــواعٍ[2] للــصَّبَاحِ فَوَاقِــدِ

صورة الخوف والقلق في ظلام الليل مازال متصلاً بل يَنضَافُ إليه – أيــضًا – ظلام الغيوم في الليلة الممطرة ، فسواد الليل مع ظلمة الغيوم في الليل مــع الإحــساس بالقلق والخوف تظهر صورة بالغة في السواد ، فكانت هذه الظلمة القاتمة بمثابة السجَّان الذي يمنعه من متابعة سيره .

سَلِينِي عَــنِ اللَّيْــلِ الثُّمَــامِ قَطَعْتُــهُ

بزَفْــرَةِ مُــشْتَاقٍ وَأَنْفَــاسِ وَاجِــدِ

ثم يطلب منها أن تسأله كيف قطع ذلك الليل بسواده الدامس ، فقد قطعه بزفرة شوق وحزن .

طَواكِ عَلَى طِيــبِ الكَــرَى فَطَوَيْتُــهُ

بِشَكْوَى سَلي عَــنْهُنَّ صُــمَّ الجَلامِــدِ

فبينما هي عزمت على طيب الكرى عزم هو على بث الشكوى التي صُم عنها ، كالصخرة التي لا ينفذ الماء فيها .

يُطــاوِلُ لَيْــلُ الــتِّمِّ بَثِّــي مُــسْعِدًا

عَلَى ذِكْرِ إِلْفٍ بــانَ غَــيرَ مُــسَاعِدِ

وَيُوحِشُنِي مِــلْءُ الــسَّماءِ كَواكِبًــا

إِلَى كَوْكَبٍ فِي مَغْرِبِ البَــيْنِ وَاحِــدِ

---

(١) دجون : الغيم في اليوم الممطر .

(٢) حداد : ، نواع : العطش والجوع .

فقوله : (يُطاوِلُ) نشعر فيه من مدٍّ وشدَّةٍ في الطول ، وكذلك قوله : (غَيرَ مُسَاعِدِ) فيه شدة الإعراض ، والملحوظ في الأبيات السابقة استمرار صورة الليل بسواده، وطوله ومجافاة النَّوم له ، في حين غيره يهنأون بنومهم . هذه الصورة تنجلي فيها دلالات القلق والحيرة .

أَلَمْ أَدْرِ أَنَّ الصُّبْحَ شِبْهُكِ قَبْلَهَا

فَأَعْرِفَ مِنْه الآنَ خُلْفَ المَوَاعِدِ

الصبح مثل محبوبته خالف للوعد ؛ لأنه شعر بطول الليل الذي يرى عدم انقضائه .

سَتَرْعَى وَفَاءَ العَهْدِ إنْ نَقَضْتِهِ

لَوَاعِجُ بَثٍّ فِي هَوَاكِ مُعاهِدِي

ويُوشِكُ أَنْ تُجْلَى وُجُوهُ مَطَالِبِي

بِأَزْهَرَ وَضَّاحٍ وَأَرْوَع مَاجِدِ(١)

وإن نقضه العهد له فسيرعاه لواعج الشوق والحنين التي سيبثها في معاهد أحبابه، ويوقظ الأمل في نفسه فيرى اقتراب موعد إجابة مطالبه ، وسَيَحِلُ عند رجل سخي كريم . إذًا تتجلى لنا في هذه اللوحة صورة الأمل ، ولهذا لابد من توفر أخلاق عظيمة لدى هذا الممدوح .

---

(١) أزهر : اللبن ساعة يحلب ، وهو الوضح ، وماجد : بمعنى الكرم والسخاء .

لوحة المديح وإبراز صفات الممدوح :

مَليكٍ لِشَمْلِ المُلْكِ والعِزِّ جَامِعٍ
وَعَنْ حَرَمِ الأَحْسابِ والمَجْدِ ذَائِدِ

أَغَرَّ سَمَا للدِّينِ فاعْتَصَمَ الهُدَى
بِهِ وَهَدَى المَعْرُوفَ سُبْلَ المَحَامِدِ

حَيًا طَبَّقَ الآفاقِ شَرْقًا وَمَغْرِبًا
فَمَا تُقْتَفَى في المَحْلِ آثارُ رَائِدِ

بِسَيْفٍ لأَقْدَارِ الحُتُوفِ مُساوِرٍ
وَسَيْبٍ لِتَهْتَانِ الغُيومِ مُجَاوِدِ

سَلِيلُ عُلاً تَنْمِيهِ أَنْسَابُ حِمْيَرٍ
إلى كُلِّ بَانٍ للمَفَاخِرِ شَائِدِ

هَمَّامٌ لَهُ مِنْ فَخْرِ يَعْرُبَ في العُلاَ
ذرى كُلِّ سَامِي السَّبْكِ رَاسِي القَواعِدِ

فممدوحه مليك للشمل ؛ هو قادر على جمع شمله ، الذي حكم عليه بالافتراق والانقسام ، كما أنه ملك العز والسلطان وجمع شمل المملكة ، وهو – أيضًا – جامعًا لكل الأحساب والأنساب ، فلماذا بدأ ابن درَّاج بوصف ممدوحه بهذه الصفات ؟ (مليك لشمل الملك والعزِّ – جامع الأحساب – صاحب المجد والرفعة) ؟ هل هو مجرد تقليد تعود الشاعر العربي أو الأندلسي بالذات مدح ممدوحه بها ؟ أم أن هناك دوافع نفسية وراء هذا المديح ؟

المعروف أن ابن درَّاج يفتقر إلى هذه الأمور فهو في حاجة ماسة لجمع شمله وإكرامه والذود عنه ، إذًا الرغبة الملحة لشاعرنا هي التي دفعته دفعًا قويًّا

للبدء بتلك الصفات ، ولا نغفل في أن المناسبة التي قيلت فيها القصيدة (عيد الأضحى) و لم تقف هذه الرغبة عند هذه الصفات فقط ، فممدوحه ناصر الدين ، ولهذا اعتصم وتمسك الهدى به ، وليس هو من اعتصم بالهدى ، ولذلك فهو الهادي إلى المعروف وطرق المحامد ومحاسن الأخلاق ، فطبق هذه المحامد في آفاق البلاد شرقًا وغربًا ، حتى لأنك لتجد آثار تلك المحاسن في كل بقعة من بقاع الأرض ، وقد استطاع القيام بذلك لشجاعته وبسالته وكرمه المجزل ، وهذا ليس بغريب عليه ، فهو سليل أسرة عريقة تتصل جذورها ونسبها بحِمْيَر التي يفخر بها كل شائد ، كما أنه من يَعْرُب التي يفخر بها ، فهي التي قَعَّدَت قواعد الأخلاق والمكارم والعُلا فهم أصلٌ العزِ ، وبذلك علا شأنهم ،كما ارتفعت الشمس عن غيرها في أساس الإشراق والنور ، فهنا تشبيه.

فَتىً أَذْعَنَ الدَّهْرُ الأَبِيُّ لِحُكْمِهِ
فَأَضْحَى إِلَيْهِ مُلْقِيًا بالمَقَالِدِ
هُوَ البَدْرُ إشْرَاقًا وَنُورًا وسيفُهُ
مَدَى الدَّهْرِ مِنْهُ في مَحَلٍّ عُطَارِدِ
تَدَانَتْ مِنَ الآمَالِ أَنْوَاءُ كَفِّهِ
وَبَرَّزَ سَبْقًا في المَدَى المُتَباعِدِ
فَحَجَّبَ مِنْهُ الملكَ أَكْرَمَ حَاجِبٍ
وَقَادَ جُنودَ النَّصْرِ أَكْرَمَ قَائِدِ
كتَائِبُ تَوْحِيدُ الإلَهِ شِعَارُهَا
وَمَا يَوْمُ خِزْيِ الكُفْرِ فيها بِواحِدِ

إذا يَمَّمْـــتَ مِنْـــهُ حِمـــىً فَكَأَنَّمـــا
أَرَبَّـــتْ عَلَيْـــهِ مُـــصْعِقاتُ الرَّوَاعِـــدِ
لَئِنْ حَلَّ دَارَ الْمُلْكِ مِـــنْ بَعْـــدُ قَـــافِلاً
لَقَدْ شَـــدَّ أَقْـــصاها بِـــرَأْيِ مُجَاهِـــدِ
فَشَاهَدَ عَنْهُ النَّـــصْرُ إنْ لَـــمْ يُـــشَاهِدِ
وجَالَدَ عَنْـــهُ الـــصَّبْرُ إنْ لَـــمْ يَجالِـــدِ

ممدوحه (فتى) ، « والفتى عند العربي يجمع القدرة على الـــرأي والإقـــدام ، ويجتمع فيه البأس والمروءة »[1] .

والفتوة صفتان : (هما السخاء وحب القرى من ناحية ، والشجاعة من ناحيـــة أخرى ، وكلتاهما ينبغي أن تبلغا حدّ الإفراط ، فالأولى حتى الإملاق ، والثانيـــة حـــتى الجود بالنفس »[2] .

ولذا فهو فتى شجاع أخضع الدهر القوي الأبي بحكمتـــه ورجاحـــة عقلـــه ، فأضحى الدَّهر خاضعًا ذليلاً له . إذًا الصورة تشير لنا بومضات خفيفة نلمـــس فيهـــا خيطًا من خيوط الاغتراب ، فابن درَّاج يرى أنَّ الدهر هو الذي دفعـــه نحـــو الغربـــة والاغتراب ، فشعر بالقلق وعدم الاستقرار ، ففي اللوحة السابقة يرى ابـــن درَّاج أنَّ الليل هو الذي منعه من متابعة سيره ، هذا الإحساس المؤلم جعله يشعر بنشوة الانتصار والسعادة حينما يرى الدهر خاضعًا ذليلاً منكسرًا ، كما أذله وأخضعه .

ثم إنَّ ممدوحه بدر يزداد إشراقًا ورفعة وتوهجًا ، وبسيفه وشجاعته الباسلة أبعد

(١) بنية التراث الروحي الاجتماعي في مرثية طليطلة ، حسين خـــرويش ، ص ٨٨ ، المجلـــة العربيـــة للعلـــوم الإنسانية، دمشق ، عدد ٦٨ ، سنة ١٩٩٩م .
(٢) المنتقى من دراسات المستشرقين فرانز تيشنز ، جمعها صلاح الدين المنجد ، ج ١ ، ص ١٧٧ .

الدهر وأقصاه وغرَّبه حتى وضعه محل عطارد ، وحينما فعل ما فعل بالدهر من الإقصاء والإبعاد تدانت وقربت منه الآمال فقصده البعيد ، ثم ممدوحه أكرم حاجب ، وهو قائد لجنود النصر التي كان شعارها توحيد الله ومحاربة الكفر ، ولا نغفل هنا صيغة المبالغة في قوله : (أكرم) مبالغة في وصفه بالكرم والعطاء . ممدوح ابن درَّاج حاكم شجاع استطاع أن يوطد أركان دولته بدهائه وصبره وتجلده ، وهو كريمٌ جامعٌ لشملٍ سديد الرأي صاحب مجد وسيادة ، فهذه الصفات إذا اجتمعت في حاكم أمَّة ظفرت هذه الأمَّة بالأمن والاستقرار ، وهذا ما يصبو ويحلم به ابن درَّاج ، ولهذا نسمع نبرة جمع الشمل والإيواء ما زال الشاعر يلحنها بقيثارته ، يقول :

رَعَى اللهُ لِلْمَنْصورِ نُصْرَةَ دِينِهِ
فَجَازَاهُ خَيْرَ ابنٍ تَلا خَيْرَ وَالِدِ
وَأَيَّدَ هذا المُلْكَ والدِّينَ مِنْهُمَا
بِأَيْمَنِ يُمْنَى قَدْ سَاعَدَتْ خَيْرَ سَاعِدِ
فَيا جَامِعَ الإِسْلامِ شَمْلاً وَتَارِكًا
دِيَارَ الأَعَادِي مُوحِشَاتِ المَعَاهِدِ
وَمُقْتَحِمَ الأَهْوَالِ في حومة الوَغَى
كَمَا بَادَرَ الظَمْآنُ عَذْبَ المَوَارِدِ
لِيهْنِكَ أَنَّ العِيدَ وافَاكَ قَادِمًا
بِأَوْشَكِ بَادٍ للسُّرورِ وعائدِ
تَلَقَّاكَ بالبُشْرَى وَحَيَّاكَ بالمُنَى
وَسَاعَدَ للبُشْرَى لأَعْدَلِ شَاهِدِ

فَلا زَالَــتِ الأَيَّــامُ أَعْيــادَ فَــضْلِكُمْ

لِكُلِّ مُوالٍ خَــالِصِ الــشُّكْرِ حَامِــدِ

ولا زِلْــتُمْ مَــأْوَى غَريــبٍ وآمِــلٍ

وَمَفْــزَعَ مَلْهُــوفٍ وَفُرْصَــةَ قَاصِــدِ

يدعو الله أن يحفظ المنصور ويجزيه خير الجزاء لنصرته للدين ، فهو ابن خير ووالده رجل خير ، ويدعو له بأن يمده باليمن وبخير مساعد ومعاون ، فهو جامع لشمل الإسلام وتارك ديار الكفر موحشة ، كما أنه مقتحم الأهوال وسباق لسقاية الظمآن ، وهو الذي حرم من الماء العذب بعد طول معاناة ، فحق له الآن أن يستلذ ويروي عطشه من ماء عذب لكل شارب ووارد .

فلتهنأ (لممدوحه) ولتسعد بقدوم العيد ، ولتبشر بالخير والمنى ، فالأيام مازالت أعياد بفضلكم الذي عَمَّ الأرجاء ، فلكم خالص الشكر لكل من أراد الثناء والشكر ، فأنتم مازلتم – أيضًا – مأوىً لكل غريب قد تشرَّد في الآفاق، وأمل كل خائف ومفزوع ، ولعلَّ إحساس ابن درَّاج بالاغتراب بدا واضحًا في هذه القصيدة ، فهو يحن إلى أسرته التي تمزق شملها في أجلِّ المناسبات التي يتعاود فيها الناس الزيارات والاجتماعات ؛ لقضاء أسعد اللحظات ، أمَّا ابن درَّاج لم يشعر بالسعادة لتشتت أسرته ؛ ولذلك حاول الشاعر إبراز رغبته في جمع شمله ، فمدح ممدوحه بتلك الصفات ، فهو مأوى كل غريب تغرب عن وطنه ، وجامع للشمل .

وقصيدة آخرى تجسد الضياع والتيه لدى الشاعر .

الاغتراب – الشعور بالضياع وفقدان الهدف :

تَـــسَمَّعْ لِــدَعْوَةِ نَــاءٍ غَرِيــبِ

كَــثِيرِ الــدُّعَاءِ قَلِيــلِ الُمجِيــبِ

يَهِــيمُ إلَيْـــكَ بِهَـــمٍّ شُـــجَاعٍ

وَيَجْـــبُنُ عَنْـــكَ بِـــسْتْرٍ هَيُـــوبِ

وَيَقْتَــادُهُ مِنْــكَ صِــدْقُ الــيَقِينِ

فَيَرْتَــابُ مِنْــهُ بِظَــنٍّ كَــذُوبِ

أَيَــأْذَنُ سَــمْعُكَ لِــي مِــنْ بَعِيــدِ

ولَحْظُكَ قَــدْ رَابَنِــي مِــنْ قَرِيــبِ

وَكَيْــفَ بِأَشْــجَانِ قَلْــبٍ عَزِيــزٍ

فَيُــسْعِدُهُ لَهْــوُ قَلْــبٍ طَــرُوبِ

فَنَــادَاكَ مِــنْ غَمَــرَاتِ التَّنَاسِــي

وَنَاجَــاكَ في ظُلُمَــاتِ الخُطُــوبِ

بِبَالِغَــــةٍ للتَّرَاقِــــي حَــــدَثْها

إلَيْــكَ وَصَــاةُ القَرِيــبِ الُمجِيــبِ

بِما خُــطَّ للجَــارِ وابْــنِ الــسَّبِيلِ

وَأَوْجَــبَ للمُسْتَــضَامِ الغَرِيــبِ

وَما قَدْ حَبَــاكَ الرِّضَــا مــن مَليــكٍ

بــلاكَ بــلاءَ الحُــسامِ الرَّسُــوبِ

فَحَــلاَّكَ إكرامَــهُ في العيــون

لِتَقْــدُمَ أَعْلامَــهُ في الحُــرُوبِ

فَأَرْعَيْتَــهُ صِــدْقَ حُــرٍّ شَــكُورٍ

تَــسَرْبَلَ إخْــلاصَ عَبْــدٍ مَنِيــبِ

وَأَبْلَيْتَــهُ نُــصحَ جَيْــبٍ سَــلِيمٍ

وفي الــضَّمَانِ بنَــصْحِ الجُيُــوبِ

تقــودُ إليــهِ رجــاءَ البعيــدِ

وتَتْلُــو عَلَيْــهِ ثَنَــاءَ القَرِيــبِ

وتَلْقــىَ وُجُــوهَ المُحِــبِّينَ عَنْــهُ

بِبــشْرِ المُحِــبِّ وَوَصْــلِ الحَبيــبِ

وَكَــمْ مِنْبَــرٍ للعُــلا قَــدْ بَنَــاهُ

لَــه اللهُ مِــنْ مُعْظِمــاتِ الــصَّليبِ

حَمَيْــتَ ذُرَاهُ بِــأَنْفٍ حَمِــيٍّ

وَرَحْــبَ ذراهُ بَــصَدْرٍ رَحِيــبِ

وَضاقَ بِمَــنْ أَسْــمَعَ الــضَّيْمَ عَنْــهُ

فياخطيــبٍ صَــريعِ الخُطُــوبِ

قَرِيــبٌ إلَــى كُــلِّ أُفُــقٍ بعِيــدٍ

بَعيــدٌ عَلَــى ذِكْــرِ مَــوْلىً قَرِيــبِ

وَقَدْ أَطْلَعَ الــشَّرْقُ والغَــرْبُ عَنْــهُ
كَوَاكِــبَ تَهْــوِي لِغَيْــرِ الغُــرُوبِ
نُجُومًا أَضَــاءَتْ بِفَــصْلِ الخِطَــابِ
لَـــهُ الـــدَّهْرَ إلاَّ مكَـــانَ الخَطِيـــبِ
وَعَنْـــهُ تَنَكَّبْـــتَ قَـــوْسَ النِّـــضَالِ
فَرَشْتَ لَهــا كُــلَّ سَــهْمٍ مُــصيبِ
فَأَوْتَرْتَهــــا لِقلُــــوبِ العُــــداةِ
وَأَغْرَقْـــتَ فيهـــا لِرَمْـــيِ الغُيـــوبِ
فَمَا لَــكَ عَــنْ غَــرَضٍ كالــصَّبَاحِ
تَجَلَّـــلَ أفـــقَ الـــصَّبا والجَنُـــوبِ
يُضاحِكُ مِنْ رَوْضِ فِكْـــرِي بِـــذِكْرِي
أَزَاهِـــيرَ نُـــورٍ بِنُـــورٍ مَـــشُوبِ
فَلِلَّـــــهِ إشْـــــراقُ ذَاكَ الـــــشَّبابِ
تَـــأَلَّقَ في حُـــسْنِ ذاكَ المَـــشِيبِ
فَفَـــاحَ تَـــضَوُّعُ ذَا مِـــنْ ضَـــياعِي
كَمَـــا لاحَ مَطْلَـــعُ ذَا مِـــنْ غُرُوبِـــي
فَتِلْـــكَ نَقَـــائِضُ سَـــعْيِي وَسَـــعْدِي
يُنَـــادِينَ : يَـــا لَلْعُجَـــابِ العَجِيـــبِ !
وَتِلْـــكَ بَـــضَائِعُ نَثْـــرِي وَنَظْمِـــي
ضَوارِبُ في الأَرْضِ : هَلْ مِنْ ضَرِيبِ ؟

ويـــا للخَلائِـــقِ هَـــلْ مِـــنْ مُـــساوٍ

ويا للـــدَّواوينِ هَـــلْ مِـــنْ مُجِيـــبِ ؟

وَيَا نَـــشْأَتِي عَبْـــدِ شَـــمْسٍ ..... [1]

وَمَنْ أَعْقَبَـــتْ هَاشِـــمٌ مِـــنْ عَقِيـــبِ

وَمَـــا خَطَّـــهُ أَثَـــرٌ عَـــنْ أَمِـــيرِ

وَسَـــطَّرَهُ أَرَبٌ عَـــنْ أَرِيـــبِ

فَهَلْ فِي الوَرَى غَيْـــرُ سَـــمْعٍ شَـــهِيدٍ

يُلَبِّيـــهِ كُـــلُّ فُـــؤَادٍ لَبِيـــبِ

وَغَيْـــرُ لِـــسانٍ صَـــدُوقِ البَيَـــانِ

يُقِـــرُّ لَـــهُ كُـــلُّ زَعْـــمٍ كَـــذُوبِ

بِأَنْ لَـــمْ يَفُـــزْ قَبْلَهَـــا مُلْـــكُ مَلْـــكٍ

بِقِـــدْحٍ كَقِـــدْحِ مَلِيكَـــيْ (تُجِيـــبِ)

فَأَنْجِـــبْ بِمَوْرُوثِـــهِ مِـــنْ مَلِيـــكٍ

وَأَسْـــعِدْ بِوَارِثِـــهِ مِـــنْ نَجِيـــبِ

وَأَعْجِـــبْ بِـــأَوْفَى مَلِيـــكٍ أَضَـــاعَ

مِنَ الذِّكْرِ والفَخْرِ أَوْفَـــى نَـــصِيبِ !

لِـــواءَ ثَنَـــاءٍ كَبَـــرْقِ الغَمَـــامِ

---

(١) يقول محمود مكي : « هكذا ورد الشطر ، وواضح أنه بهذه الصورة مختل الوزن ، نـاقص المعنى ، ولعل صحته أن يكون : (ويا نشأتي (في ذرا) عبد شمس » ، ص ٣٩٨ .

يُهِـــلُّ إِلَيْـــهِ لِـــواءُ الحُـــرُوبِ
وَمَا قَــدْ كَـسَا كُــلَّ بَــرٍّ وبَحْــرٍ
بِذِكْرَاهُ مِــنْ كُــلِّ حُــسْنٍ وَطِيــبِ
حَــدائِقَ مِـــنْ زَهَــرَاتِ العُقُــولِ
تَفُـــوحُ إلى ثَمَـــرَاتِ القُلُـــوبِ
تَغَنَّـــى العَــذَارَى بِهَــا في الخُــدُورِ
وتُحدى المَهَــارَى بِهــا في الــسُّهوبِ
وَقَدْ أَيْنَــعَ الحَــزْنُ والــسَّهْلُ مِنْهَــا
بِشِرْبِ ذُنُــوبٍ مَحَــا مِــنْ ذُنــوبِي
بَــلاغُ حَيــاةٍ وأَحْجَمْـــتُ عَنْـــهُ
لَعَـــوْدِ الخِبَـــاءِ وللعَنْـــدَلِيبِ
كَمَا ابْتَــرَّ صَــيْدَ العُقَــابِ الــذُّبابُ
وصَـــادَ النَّعـــامَ حَـــسيرُ الـــدَّبِيبِ
وَذُلِّـــــي أَوْدَعَ هَـــذا وهَـــذا
أَظَـــافِيرَ لَيْـــثٍ وَأَنْيَـــابَ ذِيـــبِ
مَظَـــالِمُ أَظْلَـــمَ حَـــقُّ المُحِـــقِّ
بِهِـــنَّ وَأَشْـــرَقَ رَيْـــبُ المُرِيـــبِ
وَأَنْـــتَ عَلَيْهَـــا شَـــهِيدُ العِيـــانِ
وحُكْمُكَ فِيهَــا صَــرِيحُ الوُجُــوبِ

وَوَعْـــدُكَ ألزَمَنِــــي مِــــنْ ذُرَاكَ
وصــالَ المُحِــبِّ ورَعْــيَ الرَّقِيـــبِ
فَحِـــينَ افْتَتَحْـــتَ بِنَـــصْرٍ عزِيـــزٍ
يُبَـــشِّرُ عَنْـــكَ بِفَـــتْحٍ قَريــــبِ
تَرَقَّيْـــتَ في هَـــضْبَةِ العِـــزِّ عَنِّـــي
وَأَهْوَيْـــــتَ بي لِمَهِيـــــلٍ كَثِيـــــبِ
وَلَفَّتْـــكَ دُونِـــي غُـــصُونُ النَّعِـــيمِ
وأَسْلَمْتُ ضَــاحِي مَرْعــىً جَــدِيبِ
فَمُلِّيتَهَــــــا جَنَّـــــةً لا يَـــــزَالُ
يَمِيـــدُ بِهَـــا كُـــلَّ عَـــيْشٍ خَـــصِيبِ
ولاَ بَرِحَتْهَــــا طُيُــــورُ الــــسُّرورِ
يَمِيـــدُ بَهــا كُــلُّ غــصْنٍ رَطِيـــبِ
وَإِنْ شَـــاقَنِي مِـــن صَـــبَاها نَـــسِيمٌ
يُفَـــرِّجُ عَنِّـــي بَـــرُوحَ الهُبُـــوبِ
وَأَظْمَيْـــتُ مِنْهَـــا إلى رَشْـــفِ مَـــاءٍ
يُمَثَّـــلُ لي فِيــــهِ رِيـــقُ الحَبِيــــبِ
وَكَـــمْ سُـــمْتُ أَوْرَاقَهَـــا فِي الرِّيَـــاحِ
لأخْـــصِفَ فيهـــا لِعَـــارٍ سَـــلِيبِ
وَأَمْـــسَحُهَا في مَـــآقِي جُفُـــونٍ
دَوَامِي القَــذَى قرحَــاتِ الغُــرُوبِ

بِمَـــا فَــتَّ فِــيهِنَّ رَمْـــيُ العُــدَاةِ

ومَـــا غَـــضَّ مِـــنْهُنَّ ذُلُّ الغَرِيـــبِ

فَـــإنْ رَمِـــدَتْ فَقَلِيـــلٌ لِعَـــيْنٍ

يُقَلِّبُهَـــا شَـــجْوُ قَلْـــبٍ كَئِيـــبِ

وإنْ قَـــدَحَتْ بِالحَـــشا في الحَـــشايا

فَزَنْـــدًا ضِـــرَامٍ لِنَـــارِ الكُـــروبِ

تُؤَجِّجُهَـــا حَـــسَراتُ التَّناســـي

وتَنْفُخُهَـــا زَفَـــراتُ النَّحِيـــبِ

وَكُـــلاًّ وَسْـــعْتُ بِـــصَبْرٍ جَمِيـــلِ

وَبَعْـــضًا كَفَفْـــتُ بِـــدَمْعٍ سَـــكُوبِ

لأُوقِـــدَ مِنْهَـــا مَـــصَابِيحَ جَمْـــرٍ

تُـــنِيرُ إلَيْـــكَ بِـــسِرِّ الغُيُـــوبِ

ولَوْ غَابَ عِلْمُكَ عَـــنْ بَحْـــرِ ظِـــمْءٍ

وما غِيضَ مِـــنْ شُـــرْبِهِ في الـــشُّروبِ

لأَغْنَـــاكَ عَـــنْ شُـــبْهَةِ الـــشَّكِّ فِيـــهِ

ذُبُـــولُ الجَنَـــى في ذُبُـــولِ القَـــضِيبِ

وَحَـــسْبِي لَهَـــا مِنْـــكَ حُـــرٌّ كَـــرِيمٌ

وَفِـــيُّ الـــشُّهُودِ أَمِـــينُ المَغِيـــبِ

وَأَرْجَـــى عَلِيـــلٍ لِبُـــرْءِ الـــسِّقامِ

عَلِيـــلٌ تَـــيَقَّنَ يُمْـــنَ الطَّبِيـــبِ

وَحُــسْنُ الظُّنُــونِ لِــصِدْقِ الــيَقِينِ

نَــسيبٌ ولا كالنَّــسِيبِ الحَــسِيبِ

فَــإنْ تُنْــهِ عَنِّــي فَــأَوْلَى مُجــابٍ

دَعَــا للمَكَــارِمِ أَهْــدَى مُجِيــبِ

وَكُنْــتُ بِــذَلِكَ أَحْظَــى مُثَــابٍ

لَــهُ مِــنْ ثَنــائِي أَوْفَــى مُثِيــبِ

وَمَنْ يَمْنَعِ الــضَّيْفَ رَحْــبَ الفَنَــاءِ

فَقَــدْ قَــادَهُ للفَــضَاءِ الرَّحِيــبِ(١)

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، تحقيق : محمود مكي ، من ص ٣٩٦ إلى ٤٠٠ .

لوحة الأرق (التجاهل) :

تَــــسَمَّعْ لِــــدَعْوَةِ نَـــاءٍ غَرِيــــبِ

كَـــثِيرِ الـــدُّعَاءِ قَلِيـــلِ المُجِيــــبِ

الشَّاعر لم يبدأ قصيدته بمقدمة طللية ، بل بدأ بالحديث بقوله : (تَسَمَّعْ لِدَعْوَةِ نَاءٍ غَرِيبِ) فأيقظ ذهن السامع وهيئته ليتفاعل معه ، ويطرح على نفسه أسئلة : أسمع ماذا ؟ وما هي هذه الدعوة التي كثرت وتكررت ، وقلَّ من يجيبون له ؟ ولماذا يطلب الشاعر الاستماع له ؟

وأنَّ هذه البداية توضح إحساس الشاعر بالضياع والحرمان ، أو مدى تملك اليأس فيه ، فابن درَّاج طرق أبوابًا كثيرة ، وسمع لصرخاته آذان عظيمة ، ولكنها وصَّدت أبوابها ، وصمَّت آذانها ؛ ولذلك قال : (تَسَمَّعْ لِدَعْوَةِ نَاءٍ غَرِيبِ) ، فمن خلال هذه الجملة نشعر بنبرة حزينة يائسة محرومة حتى من السماع لها بما تجول به أفكاره ، وبما يشعر من قلة الحيلة ، وضيق المعيشة ، وطول اغتراب ، فعدم السماع لابن درَّاج وصم الآذان عنه هو طريق نحو الغربة والاغتراب ؛ ولذلك قال : (نَاءٍ غَرِيبِ) فهو غريب ذليل منكسر ، زد على ذلك (كَثِيرِ الدُّعَاءِ قَلِيلِ المُجِيبِ) ، فقوله: (قَلِيلِ المُجِيبِ) هم من كان يؤمل منهم الأمن والحماية والإجابة ، فكانوا أقل من القليل، وهذا ما كان يبعث له القلق والتوتر ، فانعكس هذا الإحساس في الألفاظ التي استخدمها كالتضاد حينما قال : (كثير الدعاء ، قليل المجيب) .

يَهِـــيمُ إِلَيْـــكَ بِهَـــمٍّ شُـــجَاعٍ

وَيَجْـــبُنُ عَنْـــكَ بِـــسَتْرٍ هَيُـــوبِ

فَيَهُمُّ ويُقبِل عليه ، ولكنه متردد وخائف ، ولكن الهم الذي يحمله بين ضلوعه هم شجاع قوي . وهذا ما كان يبعث له القلق والأرق الذي ظهر – أيضًا – في ألفاظه ، فترى التضاد في قوله : (شجاع – جبان) ، والمجانسة في قوله : (يهيم – هم) .

وَيَقْتَـــادُهُ مِنْـــكَ صِـــدْقُ الـــيَقِينِ

فَيَرْتَـــابُ مِنْـــهُ بِظَـــنٍّ كَـــذُوبِ

الأمل وصدق اليقين يقودان الشاعر نحو ممدوحة بالرغم من محاصرة الشكوك والظـــن الكاذب به ، إذًا نغمة القلق ما زالت تتردد في التضاد في قوله : (اليقين – الظـــن – الصدق – الكذب) .

أَيَـــأْذَنُ سَـــمْعُكَ لِـــي مِـــنْ بَعِيـــدِ

ولَحْظُكَ قَـــدْ رَابَنِـــي مِـــنْ قَرِيـــبِ

وَكَيْـــفَ بِأَشْـــجَانِ قَلْـــبٍ عَزِيـــزٍ

فَيُـــسْعِدُهُ لَهْـــوُ قَلْـــبٍ طَـــرُوبِ

ابن درَّاج يريد أن يجسِّد ما تختلج به نفسه ، وهو الحديث عن أشجانه ، وعـــن حظه التعيس ، ومدى خوفه من الضياع والنسيان ؛ ولذلك قال : (أَيَأْذَنُ سَمْعُكَ لِـــي مِنْ بَعِيدِ) باستخدام أسلوب الاستفهام الذي خرج إلى معنى الترجي ، فيطلب منه أن يأذن له سمعه ليسمعه ، وليعرف كيف بأشجان قلبه التي تسعد حينما ترى قلبًا يـــسعد ويطرب ، فماذا يريد ابن درَّاج في استخدامه للاستفهام ، أيأذن وكيف ؟؟

الشاعر يريد أن يجعل من سماع دعوته ومعرفة أشجانه وأحزانه أمـــرًا في غايـــة الأهمية ؛ ولذلك وصل به الأمر إلى حد الترجي والالتفات إليه والسماع له ، فالإنسان بطبعه وفطرته التي فطرها الله عليها يحتاج من يسمع له ، ويجيب دعوته بطريقة مادية أو معنوية في كل الأحوال ، وخاصةً إذا وقع في أي ظرف قد يُعكر عليه صفو حياتـــه ، وابن درَّاج يعيش في حالة كدر وخوف وقلق وغربة ، أضف إلى ذلك كله اللامبـــالاة بعدم السماع له ، وليس ثمة شك أن من يعيش في مثل هذه الحالـــة سيـــشعر بالذلـــة والمهانة والانحطاط ، إذا لم يسمع منه وتناساه الجميع .

فَنَــادَاكَ مِــنْ غَمَــرَاتِ التَّنَاسِــي

وَنَاجَــاكَ فِي ظُلُمَــاتِ الخُطُــوبِ

بِبَالِغَــةٍ للتَّرَاقِــي حَــدَثْها

إلَيْــكَ وَصَــاةُ القَرِيــبِ المُجِيــبِ

ينادي ابن درَّاج بأقصى ما أوتي من صوت وقوة بعد أن أدلج في غمرات التناسي ، وقوقع في ظلمات الخطوب التي بلغت بها الروح التراقي في حدها وقوتها ، فرأى الموت قد دلف منه ؛ ولذلك عليه أن يوصي القريب المجيب له فمن هو ؟؟ إنه ابن باق الذي أخذ يدعوه ويتوسل إليه بأن يسمع لدعوته ليذكر منذر بن يحيى التجيبي به بعد أن غفل عنه ، والتناسي هو الموت بذاته ؛ ولذلك قال : (بِبَالِغَةٍ للتَّرَاقِي) ، وهنا اقتباس من قوله تعالى : ﴿ **كَلاَّ إِذَا بَلَغَتْ التَّرَاقِيَ** ﴾[1] .

لوحة التوسل – الخوف من الإعراض :

الانهيار :

بِما خُــطَّ للجَــارِ وابْــنِ الــسَّبِيلِ

وَأَوْجَبَ للمُسْتَضَامِ الغَرِيــبِ

وَما قَدْ حَبَــاكَ الرِّضَــا مِــن مَليــكٍ

بلاكَ بلاءَ الحُسامِ الرَّسُــوبِ[2]

فَحَــلاَّكَ إكرامَــهُ في العيــون

لِتَقْــدُمَ أَعْلامَــهُ في الحُــرُوبِ

(١) سورة القيامة ، آية (٢٦) .

(٢) الرسوب : أي القاطع الذي يغيب في الضريبة .

وأذكى سِـــراجَكَ وسَـــطْ القَـــصور

لِيُعْلي عَجاجَكَ خَلْفَ الدُّروبِ

فَأَرْعَيْتَـــهُ صِـــدْقَ حُـــرٍّ شَـــكُورِ

تَسَرْبَلَ إخْلاصَ عَبْـدٍ مَنِيـبِ

وَأَبْلَيْتَـــهُ نُـــصحَ جَيْـــبٍ سَـــلِيمِ

وفي الضَّمَانِ بنَصْحِ الجُيُـوبِ

يتوسل ابن درَّاج فيسأل ابن باق، فيقول : فبمقدار ما قسمت للجـــار وابـــن السبيل ، وبما أوجب للغريب الضامي ، وبقدر ما حباك به الملك من رضى ، وبقدر ما قطعت سيوفكم ، فرفعت راياتكم خفاقة ، فنلْتُم بذلك الإجلال والإكرام ، فـــارتفع ذكركم وسط القصور ، وعلا العجاج والدروب ، فرعيتم ذلـــك الـــذِّكْر بالـــصدق والشكر والإخلاص .

ابن درَّاج استنفد كل المعاني التوسلية ، وهذا « يدل على انهيار معنوي تـــام ، حتى ليطلب حق ابن السبيل والجار المستضام »[١] ، فماذا يريد ابن درَّاج مـــن ابـــن باق؟؟

تقـــودُ إليـــهِ رجـــاءَ البعيـــدِ

وتَتْلُـــو عَلَيْـــهِ ثَنَـــاءَ القَرِيـــبِ

وتَلْقَـــىَ وُجُـــوهَ الُمحِـــبِّينَ عَنْـــهُ

بِبـــشْرِ الُمحِـــبِّ وَوَصْـــلِ الحَبِيـــبِ

---

(١) تاريخ الأدب الأندلسي – عصر سيادة قرطبة ، د / إحسان عباس ، ص ٢٣١ .

يريد منه أن يقود رجاءه وثناءه للملك بدقة ، ويذكره بالحب ووصل الحبيب، بعد أن غفل عنه ، وهذه الغفلة كانت تبعث في ابن درَّاج القلق والانهيار ؛ ولهذا نرى التضاد يظهر في قوله: (البعيد – القريب) .

وَكَمْ مِنْبَرٍ للعُلا قَدْ بَنَاهُ
لَه اللهُ مِنْ مُعْظِماتِ الصَّليبِ
حَمَيْتَ ذُرَاهُ بِأَنْفٍ حَمِيٍّ
وَرَحْبَ ذراهُ بَصَدْرٍ رَحِيبِ

(كم) هنا خبرية أفادت التكثير والتعظيم من شأن ممدوحه الذي تميز عن غيره من الملوك ، فعزه ومجده قد بناه له الله ؛ ولذلك قد حمي من كل سوء .

وَضاقَ بِمَنْ أَسْمَعَ الضَّيْمَ عَنْهُ
فيالخطيبٍ صَرِيعِ الخُطُوبِ
قَرِيبٌ إِلَى كُلِّ أُفقٍ بعِيدٍ
بَعيدٌ عَلَى ذِكْرِ مَولًى قَرِيبِ

فقد قَلَّ من سمع عن ضيمه وألمه ؛ لأنه خطيب صريع للخطوب ، كما أنه قريب من كل مكان بعيد ، ولكنه بعيد عن ذكر ابن درَّاج ، فالشاعر يجمع بين صفتين متناقضتين في ممدوحه هي القرب والبعد ، وهذا من باب التشبيه التمثيلي ، فممدوحه قريب يصل إلى كل الآفاق البعيدة ، وفي الوقت نفسه هو بعيد عن ذكر ابن درَّاج ، وهذا ما كان يبعث لديه القلق ، إذًا النغمة الحزينة المليئة بإحساس الذلِّ والضياع ما زالت مستمرة .

وَقَدْ أَطْلَعَ الشَّرْقُ والغَرْبُ عَنْهُ
كَوَاكِبَ تَهْوِي لِغَيْرِ الغُرُوبِ

نُجُومًا أَضَاءَتْ بِفَصْلِ الخِطَابِ[1]
لَهُ الدَّهْرَ إلاَّ مكَانَ الخَطِيبِ
وَعَنْهُ تَنَكَّبْتَ[2] قَوْسَ النِّضَال
فَرَشْتَ لَهَا كُلَّ سَهْمٍ مُصيبِ
فَأَوْتَرْتَهَا لِقلُوبِ العُداة
وَأَغْرَقْتَ[3] فيهَا لِرَمْيِ الغُيوبِ

الشرق والغرب قد أطلعا ذلك الملك عن الكواكب التي تهوي وتتساقط في غير وقت الغروب ، فماذا يقصد ابن درَّاج ؟ هل أراد بالكواكب التي تهوي تشبيهًا لأبنائه الذين عانوا الغربة والاغتراب ؟

إذًا هم أبناؤه الذين أضاءت حياتهم في عهد ممدوحه ، ولذلك قال : (نُجُومًا أَضَاءَتْ بِفَصْلِ الخِطَابِ) ، فهم استطاعوا أن يميزوا بين الحق والباطل ، ولذلك فضلوا مكان الخطيب الذي يصرع الخطوب ، فأصاب بقوسه وسهمه الأعداء . وقوله مقتبس من قوله – تعالى : ﴿ **وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ** ﴾[4] .

ونجد التضاد – أيضًا – يلاحقنا في هذه الأبيات التي يتحدث فيها عن ممدوحه ليبرز لنا قلق الشاعر ، وذلك في قوله : (الشرق – الغرب) .

(1) فصل الخطاب : هو أن يحكم بالبينة أو اليمين ، وقيل : معناه أن يفصل بين الحق والباطل ، ويميز بين الحكم وضده .
(2) تنكبت : بمعنى أصابه .
(3) أغرق : أي استوفى مدها .
(4) سورة ص ، آية (٢٠) .

فَمَا لَـــكَ عَـــنْ غَـــرَضٍ كالـــصَّبَاحِ

تَجَلَّـــلَ أفـــقَ الـــصَّبا والجَنُـــوبِ

يُضاحِكُ مِنْ رَوْضِ فِكْـــرِي بِـــذِكْرِي

أَزَاهِـــيرَ نُـــورٍ بِنُـــورٍ مَـــشُوبِ

فَلِلَّـــــهِ إشْـــــراقُ ذَاكَ الـــــشَّبابِ

تَـــأَلَّقَ في حُـــــسْنِ ذاكَ المَـــشِيبِ

فَفَـــاحَ تَـــضَوُّعُ ذَا مِـــنْ ضَـــياعِي

كَمَـــا لاحَ مَطْلَـــعُ ذَا مِـــنْ غُرُوبِـــي

فتلك عبارة عن ذكريات تجول في فكر ابن درَّاج ، وهذا يعني أن ابن درَّاج قد ساءت أحواله عند ابن يحيى ، فذلك النعيم الذي تحدث عنه كان في الزمن الماضـــي ، ولذلك قال : (أضاءت) ، وأيضًا حينما قال : (ذكري) ، فتلك عبارة عن ذكريات يستدعيها ابن درَّاج ليسلو نفسه ، وتذكيرًا – أيضًا – لابن يحيى الذي تناساه ، مما أوقد في نفس شاعرنا الإحساس بالضياع ، ولهذا يسأل الله أن يعيد عليه تلك الأيام المشرقة لتتألق وتضيء له في مشيبه .

ويعلل ابن درَّاج سبب بث شكواه لابن باقٍ قائلاً أن إحساسه بالضياع ودنـــو رحيله هو الذي جعله يبث هذه الآلام والأوجاع ، ثم التضاد – أيـــضًا – في قولـــه : (الشباب – المشيب) دليل على قلقه .

فَتِلْـــكَ نَقَـــائِضُ سَـــعْيِي وَسَـــعْدِي

يُنـــادِينَ : يَـــا لَلْعُجَـــابِ العَجِيـــبِ !

وَتِلْـــكَ بَـــضَائِعُ نَثْـــرِي وَنَظْمِـــي

ضَوارِبُ في الأَرْضِ : هَلْ مِنْ ضَرِيبِ ؟

ويـــا للخَلائِـــقِ هَـــلْ مِـــنْ مُـــساوٍ

ويا للـــدَّواوينِ هَـــلْ مِـــنْ مُجِيـــبِ ؟

ويفتخر ابن درَّاج بشعره قائلاً : (فتلك نقائض) أشار إليها بتلك للبعيد دليلاً على بعد مكانته ، تلك القصائد التي تثير الدهشة والعجب ، إذًا فبعد نبرة الحزن والقلق تعلو نغمة الفخر التي يريد بها الشاعر التخلص من الضياع وفقدان الهدف ، فبحديثه عن شعره تذكيرًا لممدوحه بقوة شعره الذي ضرب في الآفاق ؛ ولذلك قال : (ضوارب) على وزن فواعل للمبالغة ، تلك البضائع الشعرية والنثرية تتحدى وتقول : هل من مثيل ؟ هل من مساوٍ ؟ وهل من مجيب ؟

فقوله : « (هَلْ مِنْ مُجِيبِ) نلحظ أن نبرة الإجابة مازالت تلاحقنا ، والسؤال: هل قصد حقًّا أن الدواوين هي التي تجيبه ؟ أم ممدوحه هو الذي سيجيبه بسماع همه وضيقه ، ولندع ابن درَّاج يجيب لنا على هذا السؤال .

فهذه النبرة القوية التي يفتخر فيها ابن درَّاج عن إبداعه وتفوقه بعد حديثه عن ممدوحه ، وما كان يقدمه له من حسن ضيافة ، ثم فجأة قابله بالصد والنسيان تأكيدًا على سيطرة القلق والإحساس بالضياع ، فالحديث أو الانتقال السريع بين ذكر صفات الممدوح ، ثم الحديث عن الذات (الشعر) يمثل صورة الاغتراب ، وتلك الحالة المثيرة لقلقه وتوتره الذي نجده لا يقف عند حدود الذات وإنسانيتها بل ينسحب إلى النص الذي فيه من الإثارات القلقة بحيث ازدحم حوله الرأي لتخلق هالة عاش شيئًا من أرقها»[(١)] .

ولهذا نجد التجانس في قوله : (سعي – سعدي – العجاب – عجيب – ضوارب – ضريب) ، والتضاد الذي ينبئ بوجود حالة قلق (نثري – نظمي) .

---

(١) المثال : الاغتراب عند المتنبي ، د . صالح زامل ، ص ٣ .

وَيَــا نَــشْأَتِي فِي ذُرَا عَبْــدِ شَــمْسٍ

وَمَنْ أَعْقَبَــتْ هَاشِــمٌ مِــنْ عَقِيــبِ

وَمَــا خَطَّـــهُ أَثَــرٌ عَــنْ أَمِــيرِ

وَسَـــطَّرَهُ أَرَبٌ عَــنْ أَرِيــبِ

فَهَلْ فِي الوَرَى غَيْــرُ سَــمْعٍ شَــهِيدٍ

يُلَبِّيــهِ كُــلُّ فُــؤَادٍ لَبِيــبِ

وَغَيْــرُ لِــسانٍ صَــدُوقِ البَيَــانِ

يُقِــرُّ لَــهُ كُــلُّ زَعْــمٍ كَــذُوبِ

بِأَنْ لَــمْ يَفُــزْ قَبْلَهَــا مُلْــكُ مَلْــكٍ

بِقِــدْحٍ كَقِــدْحِ مَلِيكَــيْ (تُجِيــبِ)

فَأَنْجِــبْ بِمَوْرُوثِــهِ مِــنْ مَلِيــكٍ

وَأَسْــعِدْ بِوَارِثِــهِ مِــنْ نَجِيــبِ

الذي سيجيبه هو ممدوحه الذي يتصل نسبه بهاشم ، ويقول : هل في الناس سميع يلبي مطالبه ، وصاحب لسان صادق يعترف بمحاسنه وأفضاله ، ويدفع عنه زعم كـل كاذب يريد الإساءة له ؟ وكل الملوك قد ظفروا بمثل هذا المرء الذي يقدح شعره ليذود ويدافع عن كل ملك أجاب دعوته ولبى مطالبه ، وهذه القصائد التي صـاغها ذلـك الشاعر لممدوحه ستكون بمثابة الإرث الذي سيرثه أبناء ذلك المدوح .

فكأن الشاعر هنا يشير إلى معادلة العطاء والثناء ، فبمقدار ما يعطيه المـمدوح ويوفر له سبل الراحة والاستقرار بمقدار ما يجد ذلك الممدوح من ثناء وشكر ومديح ، ولهذا نرى ابن درَّاج يصر ويؤكد على أهمية السامع منه ، فيقول : (فَهَلْ فِي الوَرَى غَيْرُ سَمْعٍ شَهِيدٍ) ، (وَغَيْرُ لِسانٍ صَدُوقِ البَيَانِ) ، فالقضية الكبرى التي أخذت حيزًا كبيرًا في هذه القصيدة هي الإجابة والسماع ، ولهذا نجد الشاعر يلح عليها إلحاحًا شـديدًا ،

وهذا الإلحاح يؤكِّد لنا قلق ابن درَّاج من هذا الأمر ، ولهذا لا يغيب التَّضاد ولا المجانسة – أيضًا – في هذه الأبيات كقوله في التجانس : (أرب – أريب – يلبي – لبيب – أنجب – نجيب) .

ثم نجده يقول بعد هذا الإصرار :

وَأَعْجِبْ بِأَوْفَى مَلِيكٍ أَضَاعَ
مِنَ الذِّكْرِ والفَخْرِ أَوْفَى نَصِيبِ !
لِواءَ ثَنَاءٍ كَبَرْقِ الغَمَامِ
يُهِلُّ إِلَيْهِ لِواءُ الحُرُوبِ

فالشاعر يتعجب من ذلك الملك الذي أضاع نصيبه من الذكر والفخر به في قصائد ذلك الشاعر الذي سيكون ثناؤه ومدحه لذلك الملك حينما يسمع له ويجيب مطالبه ، كبرق الغمام الذي سيهل عليه ، وسيكون ذلك الثناء قويًّا ساطعًا ، وسيواكب ذلك الشعر ويفخر بانتصارات وبطولات ذلك الممدوح ، وبالرغم من هذه النبرة القوية في الفخر، إلا أننا نلحظ توترًا بسيطًا يعاني منه الشاعر ، ولهذا نلحظ التكرار في قوله : (أوفى مرتين ولواء – أيضًا – ذكره مرتين) مع اختلاف الدلالة.

ومَا قَدْ كَسَا كُلَّ بَرٍّ وبَحْرٍ
بِذِكْرَاهُ مِنْ كُلِّ حُسْنٍ وَطِيبِ
حَدائِقَ مِنْ زَهَرَاتِ العُقُولِ
تَفُوحُ إلى ثَمَرَاتِ القُلُوبِ
تَغَنَّى العَذَارَى بِهَا في الخُدُورِ
وتُحدى المَهَارَى بِها في السُّهوبِ

وَقَدْ أَيْنَـــعَ الحَـــزْنُ والـــسَّهْلُ مِنْهَـــا

بِشرْبِ ذُنُــوبٍ مَحَــا مِــنْ ذُنــوبي

وذلك الثناء والذِّكر الحسن للمدوح سيكسو البر والبحر ؛ لأنه سيكون نتـــاج عقلية شاعرية عظيمة تستطيع أن تؤثر في قلوب السامعين ، فيتناقل ذلك الثنـــاء حـــتى يكسو البر والبحر ، وتتغنى به العذارى في خدورهن ، وتحدو به ألسنة الحوادي علـــى أجود أنواع النوق وأسرعها ، فَيَيْنَعَ السهل والحزن ، ويعذب الماء فيهما .

ابن درَّاج مازال يفخر ويفخر ، ولكننا نجد التَّضاد يعود بعد أن غاب في البيتين السابقين ، فنرى التَّضاد في قوله : (بر – بحر – سهل – حزن) .

بَـــلاغُ حَيَـــاةٍ وأَحْجَمْـــتُ عَنْـــهُ

لَعَـــوْدِ الخِبَـــاءِ وللعَنْـــدَليبِ(١)

كَمَا ابْتَرَّ صَيْدَ العُقَــابِ الــذُّبابُ(٢)

وصـــادَ النَّعـــامَ حَـــسيرُ الــدَّبِيبِ(٣)

وَذُلِّـــــي أَوْدَعَ هَـــــذا وهَـــــذا

أَظَـــافِيرَ لَيْـــثٍ وَأَنْيَـــابَ ذِيـــبِ

---

(١) الخباء : هو الموضع الخفي ، وهي سمة للناقة ، والعندليب : طائر أصغر من العصفور ، وقيل : هو البلبـــل ، أو الهزار .

(٢) العقاب : ذكر الحجل ، وهو نوع من الطيور .

(٣) النعام : الطائر المعروف ، والدبيب : صغير النمل .

مَظَـــالِمُ أَظْلَـــمَ حَـــقُّ المُحِـــقِّ

بِهِـــنَّ وَأَشْـــرَقَ رَيْـــبُ المُرِيـــبِ

وَأَنْـــتَ عَلَيْهَـــا شَـــهِيدُ العِيـــانِ

وحُكْمُكَ فِيهَـا صَـرِيحُ الوُجُـوبِ

فبعد نبرة الفخر القوية يعود ابن درَّاج إلى تلحين أحزانه وهمومه ، فقد أحجمت عنه الحياة ودبَّ في قلبه الرُّعب ، فصار كالطائر الذي يغرِّد ، لا لفرحه ، وإنما لحزنه ، وكالعقاب الذي يصيد الذباب ، وكالنعام الذي يصيد صغير النمل . ابن درَّاج يشير إلى قلة حظِّه في عدم نيَّله لما كان يستحقه من حسن ضيافة وكرم ، بل وجد العكس ، وجد الإحجام عنه ، ولذلك شعر بالذل والضياع ، وأصبح مغتربًا مهدور الحق ، وهذا الاغتراب وهذه الغربة جعلته فريسة سهلة لكل ليث وذئب ، ولم تقتصر معاناة الشاعر من الغربة فقط ، بل أضف إلى ذلك إحساسه بالظلم والمهانة ، وسلب حقه الذي يستحقه ، وابن باق شاهد على حقه الذي سلب منه ، وعالمٌ بالظلم الذي لقيه ، وكانت ردة فعله صريحة ، ثم يعود ويخاطب ابن باقٍ قائلاً : (وَوَعْدُكَ ألزَمَنِي) ، فابن باق وعده بأن يذكر ممدوحه بوصاله وإعطائه حقه الذي يستحقه ، ولكن هل استجاب ابن باق له ، وأوفى بوعده أم غدر به ؟؟

وَوَعْـــدُكَ ألزَمَنِـــي مِـــنْ ذُرَاكَ

وِصَـــالَ المُحِـــبِّ ورَعْـــيَ الرَّقِيـــبِ

وصال المحب من الأمور الضرورية عند ابن درَّاج ، وهذا الوصال يتمثل عنده في الإجابة والسماع له ، وحسن الضيافة والكرم ، ولكننا نرى ابن باق حينما وصل إلى أعلى المراتب غفل عنه – أيضًا – ولهذا شعر بالظلم من قِبَل يحيى ، ومن ابن باق – أيضًا .

لوحة الخيبة وتخلي الجميع عنه :

فَحِـــينَ افْتَتَحْـــتَ بِنَـــصْرٍ عزِيـــزٍ
يُبَـــشِّرُ عَنْـــكَ بِفَـــتْحٍ قَريـــبِ

فحين سمع بالانتصارات التي حققها استبشر ابن درَّاج بالخير ، ورأى أن انفراج همومه وزوال أحزانه قد أزف ، ولكن هل حدث ذلك فعلاً ؟؟

تَرَقَّيْـــتَ في هَـــضْبَةِ العِـــزِّ عَنِّـــي
وَأَهْوَيْـــتَ بي لِمَهِيـــلٍ كَثِيـــبِ

فحينما علت منـــزلته ، وترقى هضبة العز والمجد والسلطان أهوى وأسقط ابـــن درَّاج في مهيل كثيب ، إذًا « حتى ابن باق نفسه قد تغيَّر »[1] ، وهذا الـــتغير ســـبب لابن درَّاج أو بالأصح زاد وأوقد فيه الإحساس بالقلق والذل ، فحينما يشعر الإنـــسان أنه قائم أو موجود في مكان غير مرغوب فيه سيشعر حتمًا بالاغتراب والاكتئـــاب ، ولهذا نرى التضاد يعود في قوله : (ترقيت – أهويت) .

كما أن هناك اقتباساً في قوله : (مهيل – كثيب) من قوله – تعالى : ﴿ يَـــوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً ﴾[2] .

وَلَفَّتْـــكَ دُونِـــي غُـــصُونُ النَّعِـــيمِ
وأَسْلَمْتُ ضَـــاحِي مَرْعـــىً جَـــدِيبِ
فَمُلِّيتَهَـــــا جَنَّـــــةً لا يَـــــزَالُ
يَمِيـــدُ بِهـــا كُـــلَّ عَـــيْشٍ خَـــصِيبِ

---

(١) تاريخ الأدب الأندلسي ، د . إحسان عباس ، ص ٢٣١ .
(٢) سورة المزمل ، آية (١٤) .

ولاَ بَرَحَتْهَـــا طُيُـــورُ الــــسُّرورِ
يَمِيــدُ بَهــا كُــلُّ غــصْنٍ رَطِيــبِ
وَإنْ شَــاقَنِي مِــن صَــبَاها نَــسيمٌ
يُفَــرِّجُ عَنِّــي بَــرُوحَ الهُبُــوبِ[1]
وَأَظْمَيْــتُ مِنْهَــا إلى رَشْــفِ مَــاءٍ
يُمَثَّــلُ لي فِيــهَ رِيــقُ الحَبِيــبِ
وَكَمْ سُــمْتُ[2] أَوْرَاقَهَــا في الرِّيَــاحِ
لأخْــصِفَ فيهــا لِعَــارٍ سَــلِيبِ
وَأَمْــسَحُهَا في مَــآقِي جُفُــونٍ
دَوَامِي القَــذَى قرحَــاتِ الغُــرُوبِ

ابن باق تجاهل ابن درَّاج ، فتــنعم بــالنعيم تاركًــا ابــن درَّاج في ضــاحية مرعــى جــدب يابس لا خير فيه ، بينما هــو في جنَّــة لا تبرحهــا الطيــور ، ولا يبرحها السرور والنعيم ابــن درَّاج في كربــة شــديدة يــشتاق إلى تفريجهــا ؛ ولهذا اشتاق إلى نسيم ذلك الروض ، والــذي أثــار فيــه تلــك الــذكريات هــي أجواء الظلم والنسيان ؛ ولذا فهو بحاجة ماســة لأن يرتــشف مــاء تلــك الجنــة ليداوي بها كل جروحه وآلامه ، وهو بحاجة إلى أن يجمع مــن أوراق تلــك الجنــة التي تهب مع الرياح ليستر بها العار الذي لحق به ، بعــد أن تخلــى الجميــع عنــه ، وهنا – أيضًا – اقتباس من القرآن في قصة آدم u وزوجــه حينمــا أكــلا مــن

(١) البروح : جمع برح وهو الشدة والشر . الهبوب : الرياح المثيرة للغبرة .
(٢) السمت : القصد والتعسف .

الشجرة ، قال تعالى : ﴿ **فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ** ﴾[1] ، ثم التضاد في قوله : (شاقني – يفرج)، (نعيم – جدب).

بِمَا فَتَّ فِيهِنَّ رَمْيُ العِدَاةِ
ومَا غَضَّ مِنْهُنَّ ذُلُّ الغَرِيبِ
فَإنْ رَمِدَتْ فَقَلِيلٌ لِعَيْنٍ
يُقَلِّبُهَا شَجْوُ قَلْبٍ كَئِيبِ
وإنْ قَدَحَتْ بِالحَشا في الحَشايا
فَزَنْدًا ضِرَامٍ لِنَارِ الكُروبِ
تُؤَجِّجُها حَسَراتُ التَّناسي
وتَنْفُخُها زَفَراتُ النَّحِيبِ
وَكُلاًّ وَسْعْتُ بِصَبْرٍ جَمِيلِ
وَبَعْضًا كَفَفْتُ بِدَمْعٍ سَكُوبِ
لأُوقِدَ مِنْهَا مَصَابِيحَ جَمْرٍ
تُنِيرُ إلَيْكَ بِسِرِّ الغُيُوبِ

ويبلغ الضعف والذلّ من القسطلي مبلغه ؛ فقد أصابته سهام الأعداء ، فرمدت عيناه ، وسالت الدموع ليعبر بها عن شجوه وحزنه والكآبة التي أضرمت في قلبه ؛ لكثرة الأهوال والكروب التي تؤججها وتزيد في إضرامها حسرات التناسي والتجاهل ، فإذا كانت النار تشتعل بالقدح والزند ، فابن درَّاج تشتعل فيه الكآبة والحزن ، ويزيد

(١) سورة الأعراف ، آية (٢٢) .

في إشعالها النسيان ، فسيطر عليه الضعف ، فأصبح مسلوب الإرادة لا يملـــك ســـوى ذرف الدموع ، وفي سكبها دلالة على الضعف والانكسار ، وإن كانت الدموع تخفف من حدَّة الألم ، وقد شبه ابن درَّاج شدَّة اشتعال تلك النار في نفسه بضوء المصابيح التي إذا أوقدت تنير المكان المظلم بقوة ضوئها ونارها .

ثم إن هناك دلالات تشير إلى الضعف والانكسار ، كقوله :

ذل الغريب : وما نشعر فيها من المهانة والانفراد والتيه .

حسرات التناسي : وما فيها من دلالات التجاهل والتعالي عليه .

زفرات : تشير إلى مدى امتلاك الحزن وسيطرته عليه .

الدموع : وما في سكبها من إشارات الضعف والانكسار .

الشجو : دلالة على سيطرة الحزن عليه .

كئيب : تشير إلى التوتر والقلق .

الكروب : دليل على أن المصائب والهموم محيطة به .

فكل هذه الدوَّال تشير – كما قلنا سابقًا – إلى مدى الضعف واستلاب الإرادة من الشاعر حتى إنه لم يعد بمقدوره سوى البكاء والحزن ، وإطلاق الزفرات ليعبر عـــن مدى الكآبة والقلق الذي يعيش الشاعر في كنفه .

لوحة الانهيار :

وَلَوْ غَابَ عِلْمُكَ عَــنْ بَحْــرِ ظِــمْءٍ
وما غِيضَ مِــنْ شُــرْبِهِ فِي الــشُّروبِ
لأَغْنَــاكَ عَــنْ شُــبْهَةِ الــشَّكِّ فِيــه
ذُبُــولُ الجَنَــى فِي ذُبُــولِ القَــضِيبِ
وَحَــسْبِي لَهَــا مِنْــكَ حُــرٌّ كَــرِيمٌ
وَفِــيُّ الــشُّهُودِ أَمِــينُ المَغِيــبِ
وَأَرْجَــى عَلِيــلٍ لِبُــرْءِ الــسِّقَامِ
عَلِيــلٌ تَــيَقَّنَ يُمْــنَ الطَّبِيــبِ
وَحُــسْنُ الظُّنُــونِ لِــصِدْقِ الــيَقِينِ
نَــسِيبٌ ولا كالنَّــسِيبِ الحَــسِيبِ
فَــإنْ تُنْــهِ عَنِّــي فَــأَوْلَى مُجــابٍ
دَعَــا للمَكَــارِمِ أَهْــدَى مُجِيــبِ
وَكُنْــتُ بِــذَلِكَ أَحْظَــى مُثَــابٍ
لَــهُ مِــنْ ثَنَــائِي أَوْفَــى مُثِيــبِ
وَمَنْ يَمْنَعِ الــضَّيْفَ رَحْــبَ الفَنَــاءِ
فَقَــدْ قَــادَهُ للفَــضَاءِ الرَّحِيــبِ

ابن درَّاج يشير إلى مطالبه ، فهو يكفيه أن يكون رجلاً حرًّا كريمًا ، فإن وفر له مطالبه كان هو وفيٌّ أمين له ، حتى في غيابه ، فابن درَّاج يشير إلى مقابلــة الإحــسان بالإحسان ، فإذا كان ممدوحه قابله بالإحسان وتحقيق مطالبه ، فلابد أن يقابلــه ابــن درَّاج – أيضًا – بالإحسان إليه بأن يكون وفيًّا صادقًا له ، يمدحه ويثني عليه ، ولذلك يطلب منه أن يداوي سقام تغرُّبه ، ويحسن الظن به ؛ لأنه حقًّا شاعرٌ صادق الــيقين ،

فإن لبى مطالبه يكون أوَّل مُجاب لأهدى مجيب ، فيحظى ممدوحه بالثناء الكثير . فابن درَّاج في حالة انهيار حاد ، ولهذا نراه يلح إلحاحًا شديدًا في الرغبة الشديدة في تحقيق رغباته ، فبعد أن غفل عنه يحيى وابن باق ، نراه يعود ويقول : (فَإِنْ تُنْه عَنِّي فَأَوْلَى مُجاب) وهذا يعني انهيار الشاعر وضعفه وتمسكه بخيط ضعيف لا أملٍ فيه ؛ ولهذا نراه « في آخر القصيدة يهدد وهو لم يَعُد ذا قدرة على التهديد بأن عدم الترحيب بالضيف يعني رحيله »[١] .

« والظنّ قوي بأنَّ ابن باق أصمَّ سمعه عنه ، وأن يحيى شغل عن برِّه ، أو لعلهما معًا سئما هذا الإلحاح المتوالي ، وأصبح ابن درَّاج في سرقسطة مقيمًا مملولاً لا ضيفًا (خفيف الظل) ، وهل يمكن أن يظلَّ ضيفًا من أقام حوالي أحد عشر عامًا يوالي المدائح رجاء أن يصيب رزقًا ، وعاد ابن الثانية والسبعين يجدد التنقل ؟! »[٢] ، بعد أن شعر بالضياع وفقدان الهدف (يحيى) الذي غفل عنه وتناساه حتى بلغ فيه الضعف والانكسار والشعور بالذلّ والمهانة مبلغه ؛ ولذلك نراه يكرر قضية السماع والإجابة أكثر من اثني عشر مرة ، كما أنَّ هناك دوال كررها الشاعر : (الضياع – النسيان – الظلم – الكآبة) فتكرار هذه الدوال دليل على تمكن الضياع والقلق فيه ، ثم استخدامه للتَّضاد في قوله : (الشهود – مغيب – برء – سقام) ، والتجانس (النسيب – الحسيب) دليل على سيطرة القلق والضعف على الشاعر .

فالقصيدة بدأت بحالة نفسية تكتظ بالقلق وعدم الإجابة له لتنتهي بأن عدم الإجابة والسماع يعني الرحيل والغربة والاغتراب .

فالشعر فروع لجذر واحد هو الشاعر،وهذه الفروع تستقي حياتها من منبعها،وهذا ما نجده واضحاً أتم الوضوح في قصائد ابن دارج القسطلي ،الذي يرسم لوحاته الفنية ويصور الغربة في قصائده كأنها شاخصة أمام أعيننا تحدثنا عنه وعن حياته.

وقد جاءت قصائده كأنها جزء واحد وكيان مترابط تعبر عن موضوع واحد

---

(١) تاريخ الأدب الأندلسي – عصر سيادة قرطبة ، د . إحسان عباس ، ص ٢٣١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٣٢ .

سواء أكانت البداية طللية ثم انثنت إلى المدح والوصف أو غيره من أغـــراض الـــشعر العربي.

لقد نظم ابن دراج قصائده كحبات عقد يجمعها نظم واحد فجاءت متلاحمة البنيان وإن كان يفصلها قافية أو وزن إلا إنها تكون فكراً واحداً .وعاؤه وجدان واضح المعالم.

فهو في القصيدة الأولى يودع زوجته التي يحبها وقد أثر فيه فراقها ويبين أن الأسى والأرق قد عرفا الطريق إليه وتبكيه الزوجة كمدا.

وفي الثانية بعدما غادر ويلازمه نفس الأحاسيس حيث تمتد الصورة وتتوالى وتتنامى في خط واحد يدفعها إلى الأمام خيط شعوري واحد هو الإحساس بألم الفراق.

ثم ننتقل إلى الفصل الثاني من هذا المشهد وهو بعد المغادرة وهو فيه الغريب الـــذي كساه البين ثوباً مدنفاً حيث يعيش حياة الغربة يبكي أليفته ويوحشه الأمر ويغـــرق في المعاناة والآلام.

وابن دراج في قصيدته الأولى يظهر علينا في صورة المفارق لزوجته البعيـــد عنـــها الذاكر لها ،ومن ثم جاءت القصيدة الثانية تتمة للأولى فبعد السفر يكون بعد الزمان .

ثم تعاوده الأشجان والحنين لذكراها وهنا يتبدل الحال فيحل الحزن محل الـــسعادة والأرق محل الراحة.

ثم تأتي الثالثة قطعة مكملة وصورة معبرة وجداراً أخيراً ليكتمل البنيان فهـــو بـــين الرجاء والأمل وبين اليأس وسوء العمل،يقوده صدق اليقين،ولكنه لايلبث أن يرتـــاب بظن كذوب .

فالعلاقة البارزة في مقدمة هي التذبذب بين الشك واليقين وبين البكاء عند الرحيل وبين اللهفة على الأحبة في ليالي العيد .

وكلها يجمعها صدق فني على الرغم من أن كل قصيدة مستقلة عن الأخرى إلا إنه استخدام أدوات متشابهة وصور ولوحات متشابكة وألفاظ موحية وعبـــارات هادفـــة متضافرة .

ويأتي الوجه الأخر والغرض الثاني وهو الممدوح الذي هو هدف القصيدة ومحل النظر وضوء القمر الذي يستمد منه الشاعر فكرته وشاعرنا في كل قصيدة من قصائده

الثلاث ممدوحه مثالي الأخلاق عالي الهمة صفاته تتردد في كل مرة،وقبل شروعه في بابه الرئيسي وهدفه يأخذ التوتر منه مأخذ عظيماً ويبلغ القلق مبلغ ليس بالهين يتجلى هـــذا في كل لوحة فنية وتعبير إبداعي في كل قصائده فتارة نجده (الطائر خرق الجناح) الذي يهوي ويسقط وليله موحش مظلم لا يجلوه إلا بلظى زفير أو برأس شـــائب،وكـــذلك يكابد أمواج البحر ،والصورة الأولى في قصيدته هذه نجدها تتشابه كثيراً مـــع صـــورة وملمح أخر في قصيدته الثانية والثالثة.

فصاحبته مثل الصبح وقد تعود شاعرنا منها خلف الوعود ،وكذلك ممدوحـــه يرتاب منه بظن كذوب ،ويجمع كل الخطوط التي مرت به قبل ذلك في القصيدة الأولى من علو موج البحر والليل حتى كأنه يلخصها في القصيدة الثالثة على عجالة تتلائم مع وزنها الموسيقي المتقارب (فهو المنادى في غمرات التناسي وهو المنـــاجى في ظلمـــات الخطوب) والشاعر ينتقل مابين غرض وغرض راسماً لوحات متتالية لايفصلها فاصـــل ولا يغشاها شيء فتظهر جلية للقارئ يتنقل من غزله لممدوحه في بساطة من غير كلفة ولا مشقة فتتأتي قصائده عن الغربة كأنها لوحات متتالية ونبرات صوت حـــزين فهـــو الفاقد لأحبته في هجرته لمحبوبه وممدوحه فقد ترك الأحبة للأحب والغالين للأغلى الذي يريد منه العطاء والمنوال (فهل يأذن سمع الممدوح من بعيد أم هل يـــراه عينيـــه مـــن قريب)وتعلو نبرة التوتر حيناً أخر عندما يقول(هل من مجيب)فكأنه ينادي على ســـلعة مالها رواج.

والتقدير المعنوي والمادي شيء واحد لدى الشاعر فهو يقول من أراد أن يكرمني فعليه بالعطية لأنه الصيد الثمين والشاعر القوي المتين والصديق الأمـــين والـــصاحب اللبيب يقول(فذخرت للألباب كفة حابل) وفي الثالثة(وأعجب بأوفى مليك أضاع مـــن الذكر والفخر أوفى نصيب)وتبرق تلك الصور وترعد أمام عيني ممدوحه طمعـــاً في أن يزيده الشاعر ذكراً وخوفاً من أن يبتعد الشاعر عنه فلا يكون له ذكراً بين الملوك ولذا جاء بتنبيه الأول كجرس عتاب أو إنذار لنيل العطاء ،ففي القصيدة الأولى يقول(مـــن كل ساحرة كأن رويها) وكذلك ينعي حظه الغائب ويرثي نصيبه المفقـــود(أورمـــت حظي في السماء وقد جرى ـــ لمداه في فلك الغائب)وتراه لايرى اليقين ولكن الـــشك هو الشيء الجلي الواضح أمام عينيه البائستين(ولئن دجت الحادثات فما أرى ـــ نـــور

اليقين بطرف ظن كاذب)وتلك نظرة غير عابرة وإنما عميقة متكررة،فذلك الشك قــد غطى القصيدة الأولى والثانية حتى إنه ليأتي في القصيدة الثالثة ولا يدري أقريب ممدوحه أم بعيد كل ذلك قد املاه عليه شكه المتواصل ونظرته البائسة ونبرة أخرى تجد صداها في جل قصائده هي الشعور بالذل رغم أنه لايتناسب مع عزه واعتزازه بشعره وفنه إلا أنه جاء كرد فعل لما فعله ممدحوه من إعراض عنه.

وتأتي كذلك صورة مغايرة تماماً هي صورة الممدوح الشجاع المعطــاء وكأنــه يقول له إنك معطاء فلم تصدني وكريم فلم تغلق الباب دوني وسخي فلم تعرض عني.

وشاعرنا يشعر بالتردد وعدم اليقين ولكنه يبشر زوجته بالخير والأمل ،وممدوحه في كل مرة يتمتع بصفات الفروسية والأخلاق المثالية،وهو يمزج مابين عهود محبوبتــه وبين حال ممدوحه الذي عهده العطاء وشيمته الجود والكرم كل هذا الخضم الواسع من التذبذب والتناقض كان وليد حالته النفسية المغتربة التي لا تعرف الاستقرار ومن ثمَّ جاء شعره وليد تجربة اغترابية صادقة تدق أبواب اليأس والرجاء معاً والحب والأمل معاً كل ذلك في آن واحد وزعها الشاعر بين أدوات وعناصر ،فالمزواجة أول عناصر تلك الغربة والتضاد الكثير ثاني هذه العناصر.

وأخيراً ــ فهذه الدراسة أبرزت خصائص شعر الاغتراب من خــلال تقــسيم القصائد إلى محاور ولوحات فنتج عن ذلك وجود تزامنين في شعر ابن دراج وهما المديح ،والحديث عن معاناة الاغتراب وتمثل هذا في حدة القلق والألم لفراق الزوجــة ،وقــد تمكن الشاعر في تكوين علاقة بين موضوعين فأكثر داخل القصيدة،وشاعرنا يتــأرجح بين الحديث عن ذاته من خلال شعره الذي ينقل مشاعره،وبين صفات الممدوح الــتي تمثل حضوراً لحال التشتت والقلق ،وكما يعبر عن نفسه القلقــة مــستخدماً التــضاد والالتفات،ونجد الشاعر فد استنطق بعض الدوال ليعبر عن آلام الاغتراب داخل المديح وهذا دليل على الوحدة النفسية التي تربط بين أجزاء القصيدة ودليل على وحدة حالــة الشاعر الشعورية في جميع اللوحات وهذا كله يؤكد احتواء القصائد على وحدة فنيــة ووحدة نفسية،فهي لوحات جزئية تجمعت لتشكل لوحة كلية واحدة ملامحها الواضحة هي القلق والتوتر والخوف من الضياع وهذا الذي يجمع الأبيات قي نسيج واحد يحقق للقصيدة وحدهًا الفنية.

ثانياً - المعجم الشعري في شعر الغربة والاغتراب

« من الأمور البديهية في عالم الشعر أن لكل شاعر معجمه الذي يظهر لنا فيه شعوره وانفعاله ، ولعل هذا لا يكاد ينطبق إلا على الشاعر المبدع الذي لا نرى فيه صورة غيره ، وإن كنا نؤمن بوجودها في مسيرة الشاعر الشعرية قبل أن يتم له النضج»[١] .ومن الطبيعي أن يتأثر الشاعر بغيره من الشعراء ، فيضمن شعره قول غيره من الشعراء إذا كان ذلك الشعر ملائمًا للحالة النفسية التي يمر بها الشاعر .وابن درَّاج كغيره من الشعراء يتأثر ويؤثر في غيره ، وقد تأثر معجم الشاعر الشعري بقراءاته الدينية أو الشعرية ، فيضمن ويقتبس[٢] ما يفصح عن تلك التجربة ، ونذكر على سبيل المثال اقتباسه من القرآن الكريم ليعبر عن الضيق والهم والفقر ، يقول[٣] :

وَأَنِّي فِي أَفْيَاءِ ظِلِّكَ أَشْتَكِي

شَكِيَّةَ مُوسَى إِذْ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ

فهذا البيت مقتبس من قوله – تعالى – في قصة موسى u : ﴿ **فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ** ﴾[٤] .

والاقتباس من الحديث النبوي ، قول ابن درَّاج شاكيًا ضيق الأرض به هو وأبناؤه[٥] :

---

(١) شعر حسين سرحان – دراسة نقدية ، د . أحمد عبد الله صالح المحسن ، الطبعة (١) ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، بتصرف .

(٢) التضمين : أن يضمن الشاعر نظمه شيئًا من نظم غيره مع التنبيه عليه ، إن لم يكن من الأشعار المشهورة ، والاقتباس : هو أن يضمن المتكلم كلامه شيئًا من القرآن الكريم أو الحديث الشريف دون أن يشعر بذلك .

انظر : علم البديع – دراسة تاريخية وفنية ، د . بسيوني فيود ، ص ٢٦٨ – ٢٦٩ .

(٣) ديوان ابن درَّاج ، ص ٣٩ .

(٤) سورة القصص ، آية (٢٤) .

(٥) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٥٩ .

وَإِنْ ضاقَ رَحْبُ الأَرْضِ عَنْ مُنْتَــواهُمُ

فَرَحْبٌ لَهُمْ مَا بَيْنَ سَحْرِي إلى نَحْــرِي

فالشطر الثاني من البيت تضمين من قول عائشة – رضي الله عنها : « **مـــات رسول الله r بين سَحْرِي ونحري** »[١] ويوجد اقتباس من قوله تعـــالى: ﴿ **وَعَلَـــى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رحُبَتْ** [٢]﴾

أما تضمينه من قول غيره ، كقوله واصفًا حاله وفقره[٣] :

وَتَحْـــتَ أَجْنِحَـــةِ الإِشْـــفَاقِ حَانِيَـــةٌ

(حُمْرُ الحَواصِلِ لا مـــاءٌ ولا شَـــجَرُ)

فهذا الشطر مضمن من قول الحطيئة مستعطفًا عمر بن الخطاب[٤] :

مَـــاذَا أَرَدْتَ لأَفْــرَاخٍ بِـــذِي مَــرَخٍ

حُمْرُ الحَواصِـــلِ لا مـــاءٌ ولا شَـــجَرُ

وهذا لا يعني أنَّ الشاعر لم يتخذ معجمًا شعريًّا خاصًّا به ، بل اتخـــذ لنفـــسه معجمه الخاص الذي اعتمد فيه على تكرار بعض الدوال التي يفجر بها طاقاته الانفعالية القلقة التي تكتظ بها نفسه ، والذي يعنينا في هذه الدراسة هو الوقوف علـــى معجـــم شاعرنا الخاص ومحاولة الإلمام بالدوال التي شكلت ذلك المعجم في شعره .ولعل المتأمل في شعره سيقف على مصطلحات ودوال تنم عن انفعال مؤلم يتدافع في نفسه ليظهـــر ذلك التدافع في صور التضاد وصور الأسى والحزن واستخدام الشاعر للعبارات المتشحة بالسواد وتركيزه على بعض الظواهر الحسية كذكره للحيوان والطير ومظاهر الطبيعـــة وسنحاول الوقوف على تلك الدول التي تفصح عن تلك الحالة.

---

(١) لسان العرب ، لابن منظور ، ج ٦ ، ص ١٩١ .

(٢) سورة التوبةآية،١١٨.

(٣) ديوان ابن درَّاج ، ص ٤٥٠ .

(٤) الشعر والشعراء ، لابن قتيبة ، ص ٣٢٨ ، الجزء الأول .

التضاد:

يلعب التضاد في المعجم الشاعري للشاعر دوراً فاعلاً في إبراز الصراع النفسي إذ أن صور التضاد تبرز دلالات الاغتراب ومعاناة الشاعر فتبرز ذلك الشعور بصورة واضحة من خلال التركيز على علاقة الضد بالضد وسنحاول أن نظهر أبرز صور التضاد في شعر الاغتراب .

جدول (١) صور التضاد و علاقتها بالدلالة على (الاغتراب) و(الاستقرار).

البيت الشعري	الكلمة	دلالتها	مضاد الكلمة	دلالته
ومن دونِنا آنسات الدّيارِ نِهابَ الحِمى موشحات الطلول	آنسات الديار	الاستقرار حيث السعادة والأنس الاستقرار حيث الوطن والاطمئنان .	موحشات الطلول	الاغتراب حيث الوحشة والتفرد والقلق الاغتراب حيث الانتقال والابتعاد عن الدار.
ويَصْدَعُ ما ضَمّ الوَدَاعُ تَفَرُّقٌ كما انشعبت تحت العواصِفِ أغصانُ	ضَمَّ	الاستقرار الاجتماع والترابط .	تفرق	الاغتراب حيث التفكك والانشعاب .
في كُلِّ يَوْمٍ مُنْتَوَىً مُتَباعِدٌ يَرْمِي حُشاشَةَ شَمْلِنَا الَمتَقَارِبِ	المتقارب	الاستقرار حيث جمع الشمل .	متباعد	الاغتراب التشتت والافتراق .
وَهَلْ أَبْصَرَتْ عَيْنَاك بَدْراً طَالعاً في الأُفقِ إلاَّ مِنْ هِلالٍ غَارِبِ	بدراً طالعاً	الاستقرار اقتراب الشاعر من حياة الراحة والاستقرار.	هلالٍ غارب	الاغتراب نزوح الشاعر ورحيله .
فإن تضايقتِ الدّنيا بمغترب فمنذر بعد رحب الصدر واسعةَ	رحب	الاستقرار حيث الرحابة والإنشراح.	تضايقت	الاغتراب حيث الضيق والهم.

العبارات المتشحة بالسواد:

إن كثرة الألفاظ والدلالات المتشحة بالسواد والحافلة بالأسى والحزن لتوضح بشدة عمق الألم والمعاناة التي تقوقع الشاعر في داخلها، فاظهرت تلك الألفاظ لوناً قاتماً وفقاً لرؤية الشاعر وشعوره وسنحاول أن نبرز تلك العبارات في شعر الاغتراب .

جدول (٢) العبارات المتشحة بالسواد وعلاقتها بالاغتراب والغربة .

البيت الشعري	الكلمة	الدلالة الموحية
فَسَرَيْتُ فِي حَرَمَ الأَهِلَّةِ مُظلِماً ورفلت في خلع السمومِ مهجراً	الظلمة	العتمة و انعدام الرؤية
ظُعنٌ أَلِفْنَ القفَر في غَوْلِ الدُّجى وَتَركْنَ مألوفَ المعاهِدِ مُقفرا	الدجى - القفر	الإشارة إلى السير في القفار الموحشة والمظلمة ليلاً.
تنادي عَزِيف الجِـــن الدُّجـــى وَهوْلَ التطامِ الموجِ في لججِ البحرِ	التطام الموج – لجج البحر	الإشارة إلى مايكتظ به الموقف من سوداوية وحركة مع انعدام الرؤية .
وإِنْ تَقْسُ أَكْبادٌ كِرَامٌ عَلَيْهِمُ فوا كبدي مَّمِنْ تذُوبُ لَهُ صَخْري	القسوة	الإشارة إلى سواد القلب وما يحمله من ضغائن .
في جُنْحِ لَيْلٍ كالغرابِ أطار لي عن ملتقى الأحبابِ كُلَّ غُرابِ	ليل - غراب	الإشارة إلى السواد الحالك .

دوال الأسى والحزن :

تفصح هذه الألفاظ عما يشعر به الشاعر من ألم وفجيعة أثناء اغترابه وغربته وسنقف على تلك الألفاظ الدلالات الإيحائية .

جدول (٣)دوال الأسى والحزن ودلالتها الموحية على الاغتراب.

البيت الشعري	الكلمة	الدلالة الموحية
كما مَسَّني الشيطانُ نَحوكَ ساعياً بطائفِ سُقمٍ من عذابٍ ومن نصبِ	عذاب - نصب	تعميق الشعور بالمشقة .
فكم لج بحرٍ وضحضاحِ قفرِ تمثَّلَ لـــي فيه هول القيامة	هول	المشقة التي يكابدها الشاعر.
وكم أنشبت فيَّ الخطوب مخالباً حتى انثنت عني بغير مخالبِ	الخطوب	دليل على شدة المعاناة .

وحدت بِهم صعقات روعٍ شرِّدَتْ أوطانَهُمْ في الأرض كل مشردِ	المشرد	يوضح عمق البؤس والتشرد.
شدَّ الجلاء رحالهمُ فتحملتْ أفلاذَ قلبٍ بالُهُموم مبدِّدِ	الهموم	وضوح الدلالة.
نُرَوَّعُ بالنوى والذُّعْرُ باقٍ ونُفْجَأُ بالأسى والُجرْحُ دامِ	الروع _ الذعر _ الفجع الأسى _ الجرح .	سيطرة الخوف والفجع على الشاعر.
فيا ضيق ذرِعي لَهُمْ بالزفير على ضيق ذرِعي بِضيقِ الشِّتاءِ	الضيق _ الزفير	شدة المعاناة.
وأختلِس الأيامُ خُلْسَةَ فاتكٍ إلى حيثُ لي مِنْ غَدْرِهِنَّ خفَيرُ	الغدر	الإحساس بالخيانة.
ونادَتْ عُيُونَ الشَّامتين إلى القرى بافلاذِ أكبادٍ كصالية الجزر	الشماتة	إشارة إلى عدم وجود الألفة .
ودائعُ نَفْسي عِنْدَ نَفْسي حَفِظْتُها بما ضاعَ من حقي وما هان من قدري	الضياع _ الهوان	إشارة إلى التيه والذل وفقدان الهدف.
نَحَرتْ بنا صَدْرَ الدَّبورِ فأنطت قَلَقَ المضاجع تحت جوٍّ أكدُراَ	القلق	وضوح الدلالة.
ألاوذُ عنها قلبَ مكتئبٍ شَجٍ وَتَحْزُ نَحوي قلبَ ذي لَوْعَةٍ صبِّ	الاكتئاب	وضوح الدلالة.
بَسَطْنَ لكلِّ مقبوضٍ يداهُ فما فيهنَّ غير الدَّمْعِ ماءِ وفي باكيةِ من بُعدٍ وصدري واجفاني بِمَنْ أبكي مِلاءُ	البكاء _ الدمع	البكاء وسيلان الدموع دليل على الحزن.
وكم زَفْرَةٍ نَمَّتْ عَلَيْهِمْ بِحَسْرَةٍ أنارَتْ بِنارِ السِرِّ في عَلَمِ الجَهْرِ	الحسرة	شدة الندم.

الظواهر الحسية –ذكر الحيوان والطير:

الظواهر المادية أو الحسية نجد الشاعر يركز على أنواع معينة من الحيـــوان والطـــير وسنقف على الغرض من ذكرها في شعر الاغتراب والغربة

جدول (٤) الحيوان والطير وعلاقتهم بشعر الاغتراب.

البيت الشاعري	الحيوان والطير	علاقته بالاغتراب
سحائبٌ تزجيها الرياح فإنْ وَفَتْ أَنافَتْ بأَجَيادِ النعامِ فُيُولُ	النعام	الناحية الجمالية وترك الوطن
ظباءُ سِمَامٍ مالُهنَّ مَفَاحِصٌ وزرقُ حَمامٍ مالُهنَّ هدِيلُ	الضباء حمام	الناحية الجمالية إضافة إلى ترك مواطنها وكفها عن التغريد دليلاً على الحزن
تَشْدُو بِها خُضْرُ الَحَمامِ وَحَظُّها عَنْقَاءُ ريعَت بالُغرَابِ الناعبِ	الغراب	النظرة التشأمية لارتباطه بالرحيل والغربة
فكَمْ لِيَ بَيْنَ الَّلوْحِ والَّلوْحِ طائِراً وَأَوْكارُهُمْ في طائرٍ غير ذي وكْرِ	طائر	حيث التغريد والطيران ولكن من غير مربض تستقر فيه
خطيباتِ خَطبِ النَّوى والُمهور مَهارى عليها رحِالُ الرَّحيلِ	المهور	ذكرها لأنه وسيلة للانتقال
ومِنْ أَنسِها بَيْنَ ظِئْر وتِربٍ سُرى ليلها بين ذيب وغول	الذئب	إشارة إلى الهلاك
بُدُنُ فَدَتْ مِنّا دِماءَ نُحورِها ببِغائها في كُلِ أُفقٍ مَنحرا	البدن	وسيلة للانتقال
و((الحارِثَ الَجفنِيَ))ممنوع الحِمى بالخيل والآسادِ مَبذول القِرى	الخيل الآساد	إشارة إلى الجود والشجاعة
فباتَ يَعجبُ من ظَبيٍ يُصارعُني وقد يحن على لَيَثٍ أصارِعُه	الليث	إشارة إلى المخاطر التي يواجهها

الطبيعة وأثرها في شعر الاغتراب:

ذكر الشاعر بعض الظواهر الطبيعية في شعر الاغتراب ليعبر بها عن انفعالاته وحزنـــه وجعل تلك الظواهر تشاركه حزنه وألمه .

وإنْ أقَبلوا والمِسكُ يندى عَلَيْهِمُ

أَتيْتُ وقد ضُمِخْتُ مِسْكاً من الوَحْلِ

الوحل

وأفجِع بمـــنْ آوى صَـــفيحُ وجَلْمَـــدُ

وَوَارَتْ رِمـــالُ بـــالفلاة وكثبـــانُ

الرمال-الكثبان-الفلاة.

وما بَلَيـــتْ في التُـــرب إلاتَجـــددَتْ

عَلَيهْا مِنَ القَلْبِ المُفَجَع أحزانُ

التراب.

وَيَفحَصنَ في رَضْم الحَـــصى بمناسِـــمٍ

هَيم إِلى حصباءَ من لؤلؤٍ رَطْبِ

الحصى.

ويقـــضمن أطـــرافَ الهَـــشيم تَبلُغـــاً

إِلى الروضةِ الغناَءِفي المشربِ العـــذب

الهشيم-الروضة.

وسهلُ إِلى حَزْنٍ ،وحزن إِلى فلاً

وسهبُ إِلى بَحرٍ،وبَحُر إِلى سُهْب

السهل-الحزن-السهب-البحر.

وإِن ذابَحُرُالوجْهِ من حَرِنارهِمْ

فمـــا مُــــسْتغَاثي منــــهُ إلا إِلى المُهْــــلِ

النار .

ومن شيمَةِ الماءِ القراحِ وإن صفا

إذا اضطرمتْ من تحته النَارُ أن يغَلي

الثرى.

يُهيـــجُ فيهـــا زفَيـــرُ الـــرِياحِ

مدامِعَ شَـــجوِ الـــسَحاب المُخيـــلِ

وتظـــــمُ فيهـــــا أَكـــــفُ البُـــــروقِ

خـــدُودَ عِـــرآصٍ عَلَينـــا ثكُـــولِ

الرياح –السحاب-البروق.

ثالثاً - الصُّورة الشعريـــة

لقد تأثرت الصُّورة الفنية في شعر الاغتراب بالتجربة النفسية ، والتي كشفت عن رغبة الشَّاعر في تصوير همومه ومعاناته معتمدًا على صورة التشخيص والاستعارة التشبيه والكناية ، وعن طريق التقابل الإيحائي(١) ، الذي يستعرض فيه الشَّاعر بـــين حالتين متقابلتين ، فيصف حالة حاضرة ، وحالة مضاية بكل ما فيهما مـــن ســـعادة وألم.

١- التشخيص :

يقول عبد القاهر الجرجاني : « فإنك لترى بها الجماد حيًّا ناطقًا ، والأعجـــم فصيحًا ، والأجسام الخرس مُبِينة ، والمعاني الخفية بادية جليَّة . . . ، وإن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد جُسمت حتى رأتهـــا العيـــون ، وإن شئت لطفت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون »(٢) .

فالصُّورة التشخيصيَّة عبارة عن « تمثيل حسي للمعاني ، وإن شئنا قلنا إنهـــا توليد أو استنساخ ذهني لما سبق إدراكه بالحواس ، وليس بالضرورة أن يكون ذلـــك المدرك مرئيًّا ، فتدخل مدركات الحواس الأخرى من المـــسموعات والمـــشمومات والمذوقات والملموسات ، وهذا التوليد الذهني للمدركات الحسية مجال اختلاف كبير بين البشر تبعًا لاختلافهم في أنواع التجارب، وأكثر ما يتم هذا التوليد الذهني باللغة المجازية التي يتسع مفهومها هنا ليشمل التشبيه والاستعارة »(٣) .

ويظهر التشخيص في « الصُّورة فيما يخلعه الشَّاعر على عينياتها من حركـــة وحياة وصفات ومشاعر إنسانية تمثل الطبيعة تمثيلاً دقيقًا ، وتجعلها ماثلة أمام حـــس

---

(١) د. حسن النوش أشار إلى التقابل الإيحائي في كتابه التصوير الفني ، ص ٤٧٦ .

(٢) أسرار البلاغة ، لعبد القاهر الجرجاني ، ص ٧٣ .

(٣) قراءة الشعر وبناء الدلالة ، د . شفيع السيد ، ص ٢٣٨ .

المتلقي كأنه يراها ، فتجسد المدركات المعنوية ، وتشخص المعاني المجردة ، وتحيل كلاً منها إلى عناصر حية في التجربة تحمل أحاسيس الشَّاعر، وتتلون بعاطفته الخاصة ، كما تؤثر في نفس المتلقي وتثير انفعاله »[١] .

إذاً التشخيص « يُكسب المعاني المجردة وجودًا ماديًّا ، وتخلع الحياة على ما ليس بذي حياة »[٢] ، « فيقوم على خلع الإنساني أو إضفاء الخصال البشرية على أشياء ، أو كانت غير إنسانية سواء كانت حية أو جامدة ، معنوية أو غير معنوية»[٣].

ومن صور التشخيص في قصائد الاغتراب قول ابن درَّاج مصورًا غربته واغترابه ، يقول[٤] :

وَمُغَـرِّبٍ تَبْكِي السَّماءُ لِشَجْوِهِ

مِنِّي وتَلْهَفُ النُّجُومُ لِلهْفِهِ

إذْ ينفث الشَّاعر في السماء روح الإنسان الذي يبكي ويحزن لرحيل ذلك الغريب ، كما جعل من النجوم شخصًا يشتاق ويتلهف لرؤية ذلك الغريب ، فالسماء والنجوم تبكي وتتلهف مثل ابن درَّاج الذي يشجو لغربته ويتلهف لرؤيته أحبته .

فالشَّاعر أجرى أحكام من يعقل ويحس ويشعر على ما لا يعقل ولا يحس عن طريق التشخيص الذي أبرز تجربة الشَّاعر النفسية ، فشخصها في صورة حسية .

---

(١) قصيدة المديح ، قضاياها الموضوعية والفنية ، د . أشرف نجا ، ص ٢٢٣ .

(٢) قراءة الشعر وبناء الدلالة ، د . شفيع السيد ، ص ٢٤٨ .

(٣) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، د . جابر أحمد عصفور ، ص ٢٩٤ .

(٤) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٥٨ .

كما يحاول الشَّاعر – أيضًا – تصوير تشرده ونيل النوائب والخطوب منه ، قائلاً[1] :

تُشَرِّدُ آفاقُ البلاد فتُؤْونا

وَتَجْرَحُ أَيْدِي النَّائِبات فَتَأْسُونَا

فالشَّاعر يجعل للنائبات أيدي كالإنسان، يجرح بها ويبطش ، فبث الروح والحياة في النائبات .

وتتكرر صورة اليد – أيضًا – إذ يجعل للظلم أيدي ، يقول[2] :

ولاَ يَدٌ غَيْرَ أَيْدِي الظُّلم تعرفُنا

ولا بِغَيْر دُموعِ العَيْنِ نَنْتَصِرُ

إذ يحاول الشَّاعر أن يرسم صورة الظلم الذي طاله حتى إننا لنراه يجعل له أيدي يطول بها ، فينال ممن يريد ، في حين يقف من تناله أيدي الظلم وقفة الضعيف الذي ينتصر بذرف الدموع ، فالشَّاعر يريد أن يبرز لنا مدى نيل الظلم منه ، فشخَّصه إنسانًا يمتلك أيدي قوية يبطش بها ويظلم ، وهذا التشخيص نابع من إحساس ذاتي عميق .

ولا يمكننا هنا أن نتجاهل كلمة (أيدي) التي استخدمها الشَّاعر في صورته، والتي يهدف من خلالها إلى (إقناع المتلقي)[3] بفكرة أن للظلم أيدي ؛ ولذلك لجأ إلى جمع الكثرة[4] ، فأيدي على وزن أفعل، وهو للكثرة

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٠٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٥٠ .

(٣) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، د / جابر أحمد عصفور ، ص ٣٦٨ .

(٤) عبد القاهر يرى أن الإتيان بالاستعارة المراد بها المبالغة ، لا نقل اللفظ عما وضع له في اللغة .

انظر : دلائل الإعجاز ، لعبد القاهر الجرجاني ، ص ٤٣٢ .

ليدعي بها الشَّاعر شدة تمكن الظلم منه ومدى معاناته منه، كما أنه يريد – أيضًا - « تقوية الظن لدى المتلقي ونفي الريَّب والشكِّ عن نفسه ، وإقناعه بصحة ما ترمي إليه الصُّورة من معانٍ »[1] .

ويقول واصفًا شدة معاناته من الخطوب[2] :

كَمْ أَنْشَبَتْ فِيَّ الخُطُوبُ مَخَالِبًا

حَتَّى انْثَنَتْ عَنِّي بِغَيْرِ مَخالبِ

فينفث الشَّاعر في الخطوب روح الحيوان المفترس الذي يمتلك مخالبًا قوية يغدر بها ويفتك بضحيته (الشَّاعر) الذي ترك مخالبه فيه . ولم يكتف ابن درَّاج في تصوير معاناته واغترابه في الخطوب فقط ، بل نرى سمة التشخيص تتجلى في الرياح والسحاب والبروق ، إذ يقول[3] :

يُهَيِّجُ فيها زَفِيرُ الرَّيَاحِ

مَدَامِعَ شَجْوِ السَّحَابِ الُمخيل

وتَلْطِمُ فِيها أَكُفُّ البُرُوقِ

خُدُودَ عِرَاصٍ عَلَيْنَا ثُكُول

ابن درَّاج شاعر مغترب ذليل؛ ولهذا نجد أن الرياح تحزن عليه فتطلق الزفرات مواساة له ومشاركة وجدانية ؛ لتعبِّر عن مدى حزنها وألمها على ذلك الغريب ، بل إننا نلمح صورة أخرى ، فليست الرياح وحدها التي حزنت من أجله ، فهناك السحاب التي تنهمر دموعها لحزنها على الشَّاعر

---

(١) قصيدة المديح – قضاياها الموضوعية والفنية ، د / أشرف نجا ، ص ٢٢٨ .

(٢) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٤٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٦٦ .

المغترب ، وكذلك البروق لها أكف تلطم بها خدود السحاب الحزينة على الشَّاعر .

فابن درَّاج جعل من مظاهر الطبيعة أشخاصًا ليشخص حالته النفسية ، والتي استطاعت الصُّورة بدورها إبرازها لنا . وفي صورة تشخيصية أخرى نلمس فيها الحركة الانفعالية للشاعر ؛ إذ يقول[1] :

حَتَّى بَدَا الصُّبْحُ مُشْمِطًا ذَوَائِبَهُ

يُطَارِدُ اللَّيْلَ مَوْشِيًا أَكَارِعَهُ[2]

إذْ شخَّصها في صورة الصباح الذي جعله ثورًا وحشيًّا أبيض ، يطارد الليل الأسود حتى انكشفت أكارعه ، إذًا الليل – أيضًا – جعله حيوانًا خائفًا من الصباح (الثور الوحشي) فطارده ، فجرى بسرعة مذهلة حتى تكشفت أكارعه . فالشَّاعر جعلنا نستحضر الصُّورة ذهنيًّا ، وكأننا نرى ذلك الصباح الذي استحال ثورًا ببياضه ، يطارد ذاك الليل الأسود الذي تكشفت أكارعه ، ويمضي ابن درَّاج في استحضار تلك الصور في ذهن القارئ ليشاهد هنا الصباح في صورة طير يحلق في السماء ، إذ يقول[3] :

أَغَرُّ لَهُ جَنَاحٌ مِنْ صَبَاحٍ

يُرَفْرِفُ فَوْقَ جُنْحٍ مِنْ مَساءِ

فالشَّاعر جعل للصباح جناحًا يطير به ويرفرف فوق جنح المساء ، فصورة ذلك الجناح الذي يرفرف بحركته تلك دليل على سرعة انقضاء ذلك الصباح ليأتي الليل بهمومه وسوداويته .

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ١١٦ .

(٢) موشيًا : من أوشى الفرس : أخذ ما عنده من الجري ، وأكارع : الكراع من البقر والغنم ، وهو مستدق الساق العاري من اللحم .

(٣) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٧٣ .

ويقول – أيضًا – واصفًا شدة اغترابه[1] :

وَلَقَدْ كَـــرَرْتُ عَلَـــى المـــلامِ بِزَفْـــرَةٍ

ذَهَلَ العِتَـــابُ بَهـــا عَـــنِ الإِعْتَـــابِ

ابن درَّاج يلوم ويعتب فيطلق زفـــرة يـــذهل العتـــاب منـــها ، فالـــشَّاعر جعل العتاب شخصًا يذهل ويتعجب من قوة الزفرة الـــتي تنبعـــث مـــن أعمـــاق ذلك القلب .

ويرى ابن درَّاج في البيت التالي أن الخطوب تهتك سره ، يقول[2] :

فَيَا عَجَبَ الخُطُـــوبِ يُـــبِحْنَ سِـــتْرِي

وَقَـــدْ أَيْقَـــنَّ أَنَّ بِـــهِ اعْتِـــصَامِي

فالشَّاعر يجعل من الخطوب شخصًا هاتكًـــا للـــستر ، غـــير كتـــوم لـــه بالرغم من معرفة تلك الخطوب، فإنَّ عدم إفشاء السر يعـــني اعتـــصام الـــشَّاعر ، فهذا التشخيص ظاهر إزاء تجربة نفسية يكـــتظُّ بها قلـــب الـــشَّاعر المهمـــوم ، ويقول – أيضًا – في صورة تشخيصية يـــصور فيهـــا الـــدهر إنـــسانًا يتعجـــب ويندهش من قوة تحمله وصبره في حين يرى هو أنه مـــن بـــاب أولى أن يتعجـــب ذلك الدهر من بقائهم على قيد الحياة بالرغم مـــن تلـــك الظـــروف والـــصعاب التي مرت بهم ، فيقول[3] :

فَـــإِنْ يَعْجَـــبِ الـــدَّهْرُ أَنَّـــا صَـــبَرْنَا

فَأَعْجَـــبُ مِـــنْ ذَاكَ أَنَّـــا بَقِينَـــا

---

(١) ديوان ابن دراج ، ص ١٥٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٩٣ .

(٣) المصدر السابق، ص ١٩٦ .

فهذه الصُّورة نابغة من إحساس وانفعال نفسي نتيجة لتلك الظروف القاسية التي تقلب فيها الشَّاعر، واستطاع تحملها مما أثار في نفسه الدهشة والاستغراب ، فشخص هذه الحالة في الدهر .

٢- **الاستعارة** :هي «ضرب من المجاز اللغوي علاقته المشابهة دائماً بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي »[١]

ومن استعارات ابن درَّاج البعيدة قوله[٢] :

بُدْنٌ فَدتْ مِنَّا دِماءُ نُحورها
ببقَائِهَا في كلِّ أُفْقٍ مَنْحَرَا
نَحَرَتْ بِنَا صَدْرَ الدبورِ فأنْبَطَتْ
قلقَ المَضَاجِعِ تَحْتَ جَوٍّ أَكْدَرَا
خَوْضٌ نَفَحْنَ بِنَا البرَى حَتى انْشَنَتْ
أشْلاؤُهُنَّ كَمثل أَنْصَافِ البُرَى
وَصَبَتْ إلى نَحْرِ الصَّبا فاسْتَخْلَصَتْ
سَكَنَ اللَّيَالِي والنَّهارَ المُبْصِرَا

يقول إحسان عباس «شبَّه البعير التي تنقلهم من مكان إلى آخر حتى أوصلته إلى ممدوحه بالهدي التي تنحر في الحج ، فهي خلقت وأوجدت لتنحر، فواجهت الدبور، فأثارت مضاجع القلق فيه في ذاك اليوم الذي كان جوه مغبرًا أكدر بدت فيه تلك البعير كأنصاف البر، ثم مالت تلك البعير إلى قتل أو نحر الصبا ، فاستخلصت سكن الليالي والنهار المبصر. والملحوظ في

(١) علم البيان لعبدالعزيز عتيق ،ص١٧٥ .

(٢) ديوان ابن دراج ، ص ١٠٤ .

هذه الصُّورة تَكلُّف ابن درَّاج في طلب المعنى يقول د . إحسان عباس : ثم تضيق هذه الحلقة بين التكلف بالمعنى والكلف بالفنون البديعية، فإذا معاني ابن درَّاج ألغاز عسرة الحل تتطلب من القارئ تحيلاً في الفهم ، وشرودًا في التصوير »[1] .

ويقول – أيضًا[2] :

وَنَادَى نَدَاكَ عَلَى الأَرْضِ حَيَّ

عَلَى مُسْتَقَرِّ الشَّرِيدِ الطَّرِيدِ

فالشَّاعر يصور لنا الندى ، وقد استحال شخصًا يتكلم ويصرخ لينقذ ذلك الغريب من حياة التشرد والاغتراب .

ويقول – أيضًا – متشوقًا لأحبته وأقاربه[3] :

فَهَلْ أَنْتَ يا زَمَنَ الرَّبيعِ مُبَلِّغٌ

بالمَغْرِبَيْنِ أَحِبَّتِي وأَقَارِبِي

فالربيع هنا شخص يحمل رسالة من المغربين ليبلغهما ويلقها بين أحبته وأقاربه ، فالشَّاعر يمر بحالة نفسية ، فلجأ إلى التشخيص الذي يؤثر في النفوس – على حدِّ قول عبد القاهر الجرجاني : « فإنا نعلم أن المشاهدة تؤثر في النفوس مع العلم بصدق الخبر »[4] .

ونستطيع أن نقول أن ابن درَّاج استطاع أن ينقل تجربته النفسية عن طريق التشخيص والاستعارة الذي جعل فيه الشَّاعر ما لا يعقل عاقلاً ، يشعر ويتألم ويحزن

---

(١) تاريخ الأدب الأندلسي – عصر سيادة قرطبة ، د . إحسان عباس ، ص ٢٣٩ .

(٢) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٨٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٤٠ .

(٤) أسرار البلاغة ، لعبد القاهر الجرجاني ، ص ٩٥ .

ويبكي ويتعجب ، فالصُّورة لم تقف عند حدِّ الزينة والزخرف ، بل تجاوزت ذلك لتكون هي المتنفس الذي يكشف فيه عن كربته وألمه ، والتي استطاع الشَّاعر بحذقه وشاعريته أن يجعلنا نتفاعل ونتعايش معه في عالمه الكئيب الحزين ، وهذا إن دلَّ فإنه يدل على صدق عاطفة الشَّاعر، إذْ أنه يصف ويصور حالة نفسية يمر بها ؛ ولهذا لجأ إلى التشخيص ، يبرز به كوامن النفس وما تحمله من تعاسة وحزن .

٣- التشبيـــه :

وهو « صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة أو جهات كثيرة »[١] ، ويقول الباقلاني : « هو العقد على أن أحد الشيئين يَسد مَسَّد الآخر في حسٍ أو عقلٍ »[٢] ، وكما ذكرنا أن التوليد الذهني باللغة المجازية يشمل التشبيه الذي يلجأ الشَّاعر إلى استخدامه ، فيعقد مشابهة بين أمرين يشتركان في صفة واحدة . وهذه الصفة التي يريد ابن درَّاج إبرازها هي صورة الاغتراب والإحساس بالحزن والفجيعة مما يكسب الصُّورة جوًّا مشحونًا بكل طاقات الأسى والحزن ، ومن ذلك قوله مصورًا اغتراب أبنائه وغربتهم[٣] :

بِسَبْعٍ كَسَبْعِ سَمَامِ السَّمُومِ
وَأَرْبَعَةٍ كَرُبُوعِ العَفَاءِ

فالشَّاعر يشبه اضطرار أبنائه إلى الرحيل والاغتراب بطائر السماني الذي عصفت عليه الرياح ، وهي رياح السموم لتجعله مضطرًّا إلى الرحيل وترك مربضه .

---

(١) العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن الرشيق ، ص ٤٦٨ ، المجلد الأول .
(٢) إعجاز القرآن ، للباقلاني ، ص ٢٦٢ .
(٣) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٨٧ .

ويقول ابن درَّاج معبرًا عن حالة الاغتراب[1] :

ألا هَلْ إلَى الدُّنْيَا مَعَــادٌ وَهَــلْ لَنَــا

سِوَى البَحْرِ قَبْرٌ أَوْ سِوَى المَاءِ أَكْفَــانُ

شبه الشَّاعر البحر بالقبر ، كما جعل الماء أكفانًــا ، وهــو تــشبيه بليــغ يشعر فيه أن المشبه هو المشبه به، ولذلك جاء بــه ابــن درَّاج ليــبرز لنــا شــدَّة معاناته، فالبحر بمثابة القبر له، والماء ما كان إلا كفــن لــه ، وهــذا دليــل علــى شدَّة الضيق وإحساسه بدنو الموت منه ؛ ولــذلك قــال : (ألا هَــلْ إلَــى الــدُّنْيَا مَعَادٌ) ؟

ومن الصور الفنية – أيضًا – قول ابن درَّاج[2] :

ولاَكَبَنِــــي سَــــبِيلٍ شَــــرَّدَتْهُمْ

عَــنِ الأَوْطَــانِ قَاضِــيَةُ القَــضَاءِ

عَوَاصِــــفُ فِتْنَــــةٍ غَمَّــــتْ بِغَــــيْمٍ

بَوَارِقُــــهُ سُــــيُوفُ الاعتِــــدَاءِ

فَأَصْــــعَقَهُمْ بِرَاعِــــدَةِ المَنَايَــــا

وَأَمْطَــــرَهُمْ شَــــآبِيبُ الفَنَــــاءِ

وَطَــافَ عَلَــيْهِمُ طُوفَــانُ رَوْعٍ

أَفَــاضَ بِهِــمْ إلَــى القَفْــرِ الفَــضَاءِ

فقد جعل للفتنة عواصف تعــصف، وغمامًــا وبرقًــا ورعــدًا ، يــصعق بالموت والفناء ، وجعل الفتنة تمطر موتًا متدفقًا لا ينجــو منــه إلا مــن هــرع إلى

(١) ديوان ابن دراج ، ص ٧٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٧٢ .

الفضاء المقفر الذي لا ماء فيه ولا زرع ، وعاش حياة تشرد وغربة ، فاللوحة قاتمة تعكس الكآبة حينما شبَّه لمعانَ البرق بلمعان السيوف في تلك الظلمة ، فحينما كانت الكآبة والضيق والسوداوية تحيط بهم لمع البرق وكشف عن تلك الحالة .ويقول – أيضًا – مصورًا شدة اغترابه[1] :

فَكَمْ لُجٍّ بَحْرٍ وَضَحْضَاحِ قَفْرٍ

تَمَثَّلَ لِي فيه هَوْلُ القِيَامَهْ

فقد شبه الشَّاعر الأهوال التي تعرض لها في البحر والقفر بأهوال يوم القيامة .

ويقول مصورًا تشتت أبنائه من حوله لحظة الوداع[2] :

ويَصْدَعُ مَا ضَمَّ الوَدَاعُ تَفَرُّقٌ

كَمَا انْشَعَبَتْ تَحْتَ العَوَاصِفِ أَغْصانُ

فقد شبَّه تصدّع شمل أسرته وتفرقهم عند وداعه لهم بتشعب أغصان الأشجار عندما تهب عليها الرياح وتفرقها .

ويقول مصورًا شدة سواد الليل[3] :

فِي جُنْحِ لَيْلٍ كالغُرَابِ أَطارَ لي

عَنْ مُلْتَقَى الأَحْبَابِ كُلَّ غُرَابِ

شبَّه شدَّة سواد الليل الذي منعه من لقاء أحبته بالغراب في شدَّة سواده ويقول واصفًا إحدى أسفاره[4] :

(١) ديوان ابن دراج، ص ٩٧.

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٥.

(٣) المصدر السابق ، ص ١٥١.

(٤) المصدر السابق ، ص ١٩٥.

كَـــأَنَّ عَلَـــى لُجَـــجِ البَحْـــرِ مِنْهَـــا

هـــــــوادِجَ تخفُـــــــقُ بالظاعنينـــــــا

فقد شبه ركوبهم على ظهر الفلك وهم فـــوق لجـــة البحـــر يمـــوج بهـــم ويتحرك بالهوادج التي تحمل الظاعنين يتحـــرك بهـــم ويمـــوج. ويقـــول مـــصورًا معاناتهم[(١)] :

كـــــأنَّ رواحِلنـــــــا في ضـــــــحاهُ

صـــوادِي سَـــمَامٍ حـــداها الـــسَّمُومُ

شبَّه معاناة رواحلـــهم وإحـــساسهم بـــالعطش وقـــت الـــضحى بطـــائر السمام العطش في وسط السموم الذي يلفحه بلظاه .

ويصور كثرة رحيلهم حتى أن بعيرهم هزلت فيقول[(٢)] :

وقمنـــا إلى أنقـــاض سَـــفْر كَأَنَّهـــا

وقد رحلت شـــطرًا شـــطور بُراهـــا

فابن درَّاج يشبه البعير الذي يتنقلون به لهزاله وضعفه لكثرة رحيلهم بأنصاف البر.

ويصور ابن درَّاج كثرة همومه وكربه إذ يقول[(٣)] :

كُرَبًـــا كَمَـــوْجِ البحـــرِ لا إهْلالُـــهُ

إلاَّ إليْـــــكَ بهـــــا ولا تهْليلُـــــهُ

فهو يشبه كثرة كربه وهمومه التي تتـــدافع عليـــه بمـــوج البحـــر في قوتـــه وتتدافعه وبهذا نستطيع أن نلمس معاناة الشَّاعر وانفعاله، بـــل اســـتطاع الـــشَّاعر بصورته تلك أن يجعلنا نتعرف على ماهية الكرب والمصائب بالنسبة له .

---

(١)ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٢٨.

(٢)المصدر السابق ، ص ١١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٧٠ .

ولم يكتفِ ابن درَّاج في وصف تلك الكرب بموج البحر ، بل نراه – أيضًا – يصور أشجان أبنائه وأحزانهم في صورة موج البحر الذي يموج بهم . يقول[(١)] :

وَتَسْتَبْدِلُوا مِنْ مَوْجِ بَحْرٍ شَجَاكُمْ
بِبَحْرِ حَصَى يُمْنَاهُ دُرٌّ وَمَرْجَانُ

فقد شبَّه كثرة أحزانهم وأشجانهم بموج البحر في قوته، وتتجلى لنا الصُّورة التشبيهية في الأبيات التالية التي يصف فيها شدَّة ذعره وخوفه في إحدى رحلاته ؛ إذ يقول[(٢)] :

كَأَنَّ خُفُوقَ القَلْبِ مَدَّ جَوانِحِي
بِأَجْنِحَةٍ رِيشَتْ مِنَ الرَّوْعِ والذُّعْرِ

فقد شبَّه شدَّة خفقان قلبه ، وامتداد الخوف والذُّعر منه بامتداد أجنحة الطائر حينما يمدها ليطير حينما يرى شيئًا يفزعه ويروعه .

وهكذا يبدو للوهلة الأولى أن هذه الصور ليست مبتكرة ؛ لأن تشبيه الليل بالغراب ، وتشبيه الهموم والكرب بموج البحر ، وتشبيه خفوق القلب بأجنحة الطائر ، وتشبيه البعير الهزيل بأنصاف البر ، أو تشبيه أبنائه بالطيور أو بأغصان الأشجار ، كلها صور مألوفة متداولة « ولكن الجدَّة والطرافة في تلك الأبيات تأتي من تفاعل الصُّور وائتلافها من خلال إعادة تنسيق مفرداتها وفق إحساس الشَّاعر وحركته النفسية »[(٣)] .

ونستطيع أن نقول أن التشبيه عند ابن درَّاج في قصائد الاغتراب يسير على النهج التقليدي الذي اعتمد على السهولة والوضوح .

---

(١)ديوان ابن درَّاج ، ص ٧٦ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٥٧ .
(٣) قصيدة المديح – قضاياها الموضوعية والفنية ، د / أشرف نجا ، ص ٢٠٨ .

٤- الكنايـــة:

«وهو لفظ أُرِيدَ به لازم معنـــاه مـــع جـــواز إرادة معنـــاه حينئـــذ »[١] . ولهذا كانت الكناية من « الأساليب التي لا يقوى عليها إلا كـــل بليـــغ متمـــرس بفن القول »[٢] .

وتأتي مزية الكناية في إثبات المعنى – كما قال عبـــد القـــاهر الجرجـــاني : « أن ليس المعنى إذا قلنا : « إنَّ الكناية أبلغ من التـــصريح » أنَّـــك لمـــا كنيـــت عن المعنى زدت في ذاته ، بل المعنى أنـــك زدت في إثباتـــه فجعلتـــه أبلـــغ وأكـــد وأشد»[٣] .

ومن صور الكناية في شعر ابن درَّاج ، والذي تطرق فيـــه الحـــديث عـــن غربته واغترابه قاصدًا فيها إثبات وتأكيد إحـــساسه بـــالاغتراب ، قولـــه واصـــفًا شدَّة معاناته أثناء اغترابه »[٤] .

ولا ألْقَـــوْا عَـــصَا التَّـــسيارِ حَتَّـــى

عَفَـــتْ حَلْـــقُ البطـــانِ مـــن اللِّقَـــاءِ

فقوله : (حَلْقُ البطانِ) كناية عـــن اشـــتداد الأمـــر بهـــم ، فجـــاء جمـــال الكناية في إبراز ذلك المعنى في صورة محسوسة ومرئيـــة ، فالبطـــان : هـــو الحـــزام الذي يشدُّ تحت بطـــن الـــبعير ، **ويكنـى** – أيـــضًا – واصـــفًا شـــدة معاناتـــه وحاجته ، يقول»[٥] :

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة ، للخطيب القزويني ، ص ٣٠١ .

(٢) علم البيان ، د .عبد العزيز عتيق ، ص ٢٢٣ .

(٣) دلائل الإعجاز ، لعبد القاهر الجرجاني ، ص ٧١ .

(٤) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٧٤ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٤٥٠ .

نَرْعَى الهَشِيمَ وَنَمْتَصُّ الثِّمـــارَ وَقَـــدْ

أظَـــلَّ أنْهَارَنَـــا الأَغْـــصانُ والثَّمَـــرُ

فهو يكني عن ضيق الحال إذْ قال : « نرعـــى الهـــشيم ونمـــتص الثمـــار » وفيه دلالة على اشتداد **الأمر** بهم حتى وصلوا لتلك الحالة الصعبة .

ويصور ابن درَّاج مدى تردده ، فقال[1] :

وَتَأْخِيرَ رِجْـــلٍ بَعْـــدَ تَقْـــدِيمِ أُخْتِهَـــا

حذارًا لِدَهْرٍ لا يُغْمِـــضُ عـــن حَـــرْبي

فقوله : « تأخير رِجلٍ بعد تقديم أختـــها » كنايـــة عـــن شـــدَّة تـــردده وحيرته ، ولم يَقُل الشَّاعر : (كنت مترددًا) ، بـــل لجـــأ إلى أســـلوب الكنايـــة الذي زاد البيت زيادة في إثبات المعـــنى وبيـــان اشـــتداده وتأكيـــده ، كمـــا أنَّ أسلوب الكناية جعلنا نلمس ونشاهد تلك الصفة الملازمـــة لتلـــك الحركـــة مـــن التقديم والتأخير .

فالكناية مثل التشخيص أو الاستعارة في تشخيـــصها للمعـــاني وتجـــسيدها في صورة متحركة حية ، ويقول – أيضًا[2] .

وَبَارِقَـــةٍ مِـــنْ مُقْلَتِـــي أَم مِلْـــدَمٍ

ثَنَتْنِـــي صَـــرِيعًا لليَـــدَيْنِ ولِلجَنْـــبِ

فقوله : (أَم مِلْدَمٍ) كناية عن الحمى التي أصابته فأعجزتـــه عـــن الحركـــة، فجعلنا وكأننا نرى أم ملدم تثني عليه وتكبل يديـــه وجنبـــه فـــصورها في صـــورة محسوسة ومرئية .

---

(١)ديوان ابن درَّاج ، ص ٨٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٢ .

فهي تنفث سمومها فيه وتحيا على لحمه ودمه ، وتــصيبه بــآلام وأوجــاع خارقة ، وتصليه بــشدَّةِ حرارتهــا . وهكــذا نــستطيع أن نقــول إنَّ الكنايــة التصويرية التي جاء بها ابن درَّاج اســتطاع مــن خلالهــا أن يــبرز جانبًــا مــن جوانب معاناته النفسية ، وإنْ كانت هذه الصُّورة أقل وضــوحًا لوصــف ذلــك الانفعال الشديد مقارنة بالتشبيه والتــشخيص اللــذان بلغــت فيهمــا الــصُّورة مبلغًا عظيمًا ؛ إذْ استطاع الشَّاعر من خلالهما الكــشف عــن عمــق إحــساسه بالغربة والاغتراب .

٥- التقابل الإيحائي:

وهو – كما ذكرنا سابقًا – إتيان الشَّاعر بــصورتين متقــابلتين تــصفان حالته في الماضي وحالته في الحاضر بكل ما فيهما من سعادة وألم .

وقد لجأ ابن درَّاج إلى استخدام مثل هذا الأسلوب ليظهر لنا أوجه المفارقة بين الحالتين وليبرز – أيضًا – شدة معاناته وانفعاله ، ومن أمثلة ذلك قوله(١) :

وَإنْ أَعْلَقَتْ في حَبْلِ مُلْكِــكَ حَبْلَهــا
فَحَبْلٌ مِنَ الأَحْبَابِ مَنْــصَرِمُ القَطْــعِ
وَإنْ أَخْصَبَتْ في زَرْعِ نعْمَــاكَ رَعْيَهَــا
فَكَمْ قَدْ تَخَطَّتْ وَاديًا غَيْــرَ ذِي زَرْعِ
وَإنْ أَرْفَهَتْ في بَحْرِ جُــودِكَ شِــرْبَها
فَمِنْ ظِمءِ عَشْرٍ في الهَجِيرِ إلَــى تِــسْعِ
وَإنْ تُحْيي يا (يَحْيَى) حُشَاشَةَ نَفْسِهَا
فَنُغْبَةَ حَسْوِ المَــوْتِ مُوشِــكَةَ الجــرْعِ

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢١٥ – ٢١٦ .

ففي الماضي كان حبل شملهم منقطع ، وفي رحاب الممدوح جمع شملهم ، وأخضبت حياهم بعد أن كانوا في وادي غير ذي زرع ، وبعد الظمأ والتلظي بنار الهجيرا ارتووا بأعذب ماء ، وبعد أن احتسوا الموت وتجرعوا آلامه أحياهم الممدوح بمنواله وبكرمه وعطائه ، فهذه الصُّورة التقابلية جعلتنا نشاهد تلك الصور في صورة مرئية ، فاجتماع الشمل وعدمه شخصه في الحبل والتنعم بالخير جسده في خصوبة الزرع والفقر شخصه في الوادي اليابس الذي لا ماء فيه ، كما أنه جعل الموت كالماء الذي يحتسي ويتجرع .

ويقول(١) :

وَأَنَّكَ أَنْتَ الصَّرِيحُ السَّمِيعُ

إذَا صَمَّ مُسْتَمِعٌ عَنْ نِدَائي

وَأَنِّكَ دُونِي طَوْدٌ مَنِيعٌ

عَلَى الدَّهْرِ مُسْتَصْعَبُ الارْتِقَاءِ

وَأَنَّكَ أَنْتَ الشَّفيعُ الرَّفيعُ

بِدَائي إلَى مُسْعِفٍ بالدَّوَاءِ

إلى أن قال :

وَكَمْ عُقِرَتْ دُونَ عُقْرِ الحِيَاضِ

سَوَامِي وَأَزَّتْ أَمَامَ الإزَاءِ

فَرُحْتُ بِهَا مُخْمِصًا في البطَانِ

وأَصْدَرْتُهَا مُظْمِئًا في الروَاءِ

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٨٦ – ٢٨٧ .

فالصورتان متقابلتان ، وتظهر هذه المقابلة بين صورة (السمع – الصم) ، فإنْ كان قد صمَّ عن سماعه فقد قابل من يسمع منه ، ثم التقابل بين (الدَّاء – الدواء) ، ثم تأتي صورة التقابل الإيحائي في قوله : (فرحت بها مخمصًا في البطان) ، و(أصدرتها مظمئًا في الرواء) .

وقوله – أيضًا[١] :

فَبُــدِّلْنَ مِــنْ بَعْــدِ خَفْــضِ النَّعِــيمِ
بِــشِقِّ الحُــزُونِ وَوَعْــثِ الــسُّهُولِ
وَمِنْ قِصَرِ اللَّيْــلِ تَحْــتَ الحِجَــالِ
بِهَوْلِ الــسَّرَى تَحْــتَ لَيْــلٍ طَوِيــلِ
وَمِنْ عَلَــلِ المَــاءِ تَحْــتَ الظِّــلالِ
صِــــلاءَ القُلُــــوبِ بِحَــــرِّ الغَلِيــــلِ
وَمِنْ طِيــبِ نَفْــحٍ بِنُــورِ الرِّيَــاضِ
تَلَظِّـــــى لَفـــــحٍ بِنَـــــارِ المقيـــــلِ
وَمِــنْ أُنْــسِهَا بَــيْنَ ظِئْــرٍ وَتِــرْبٍ
سُــرى لَيْلــها بَــيْنَ ذِيــبٍ وَغُــولِ
وَمِــنْ كُــلِّ مَــرْأَى مُحَيًّــا جَمِيــلٍ
تَلَقِّـــي الخُطُـــوبِ بِـــصَبْرٍ جَمِيـــلِ

ويوظف الشَّاعر التقابل بين صورة الاستقرار ، وصورة الرحيل في تركيب واحد ؛ ليبرز المفارقة بين الصورتين التي تحمل خلف هذه المقابلة إحساس متناقض يجمع بين الفرح والحزن المتمثل في خفض النعيم ووعث

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٦٦ .

السهول ، وبين صورة (قِصَرِ اللَّيْلِ تَحْتَ الحِجَـالِ) ، و(بهَـوْلِ الـسَّرَى تَحْـتَ لَيْلٍ طَويلٍ) ، وبين (عَلَلِ المَاءِ تَحْتَ الظِّلال وصِـلاءَ القُلُـوبِ بحَـرِّ الغَليـلِ) ، وبين (طِيبِ نَفْحِ بنُورِ الرِّيَاضِ) ، و(تَلَظِّي لَفَح بِنَارِ المقيـلِ) وبـين الإقامـة بـين (ظِئْرٍ وَتِرْبٍ) ، والسرى بين (ذِيبٍ وَغُولٍ). فهـذه المفارقـة صـورت اخـتلاط الكآبة بالفرح تبعًا لتغير الحال ، فالأبيات تصور حالة نفسية نَـمَّ عنـها وصـرح بها حالة الغربة والرحيل الدائم .

ويقول[1] :

فَلَئِنْ صَـفَا مَـاءُ الحَيَـاةِ لَـدَيْكَ لي

فَبِمَا شَرِفْتُ إِلَيْكَ بالمـاءِ الـصَّرَى[2]

وَلَئِنْ خَلَعْتَ عَلَيَّ بُـرْدًا أَخْـضَرًا[3]

فَلَقَدْ لَبِـسْتُ إِلَيْـكَ عَيْـشًا أَغْبَـرًا

وَلَـئِنْ مَـدَدْتَ عَلَـيَّ ظِـلاًّ بَـارِدًا

فَلَكُمْ صُلِيتُ إِلَيْـكَ جَـوًّا مُـسْعِرًا

إلى أن قال :

فَلَئِنْ تَرَكْـتَ اللَّيْـلَ فَـوْقِي دَاجِيًـا

فَلَقَدْ لَقِيتُ الـصُبْحَ بَعْـدَكَ أَزْهَـرًا

فمن الواضح هنا أن التقابل يقوم علـى وصـف حيـاة الـشَّاعر القائمـة على المتناقضات، فجمع بين (صَفَاءِ المَـاءِ – مَـاء الـصَّرى) ، وبـين (بـردًا أخضر) وبين (عيشًا أغبرَ) وبين (ظـلاً بـاردًا – وجـوًّا مـسعرًا) ، وبـين

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٠٥ .

(٢) الصرى : هو الماء الذي طال استنقاعه .

(٣) بردًا : الثياب التي ليست لينة ولا دقيقة .

(ليل الدجى – الصبح الزاهــر) . فنـــشأت المفارقـــة التـــصويرية لحـــال النعـــيم وحالة الضيق والفقر ، فصفاء الماء دلالة على رغد العــيش ، أمــا مــاء الــصرى دليل على الحاجة والفاقة ، وقوله : (بردًا أخضر) دليــل علــى الغــنى ، فــاللون الأخضر يدلّ على الخير ، وكذلك ثياب البرود ، أما العيش الأغــبر دليــل علــى الفقر ، وهاتان الدلالتان لا تظهــران إلا بإعمــال الــذهن والتوســل إلى المعــاني الخفية لتلك الدوال ، أما الصور الأخرى ، فسمات التقابــل فيهــا تعتمــد علــى الوضوح والتصريح ، كما اعتمدت على التقابل الحسي بين الطرفين .

ويقول أيضًا[١] :

وَكَمْ بَدَّلُوا مِنْ وَجْــهِ رَاعٍ وَحَــافِظٍ
وُجُوهَ الْمَنَايَا السُّودِ والحَــدَق الحُمْــر
وَمِنْ رَفْرَفِ الأَسْــتَارِ دُونَ حِجَالِهَــا
تَرَقْرَقَ لَمْــعُ الآلِ في المَهْمَــهِ القَفْــرِ

فالتقابل قائم بين (وَجْهِ رَاعٍ وَحَافظ) ، وبــين (وجــوه المنايــا) ، وبــين (رَفْرَفِ الأَسْتَارِ دُونَ الحجــال) ، و (تَرَقْــرَقَ لَمْــعُ الآلِ في المَهْمَــهِ القَفْــرِ) ، فالرعاية والحفاظ دليل على الخلود والبقاء ، وهــو مقابــل للمنايــا الــسود الــتي تحاول الفتك به . ورفرف الأستار فمــن بــاب المعرفــة أنَّ الأســتار تكــون في الحجول والقصور ، وهو دليلٌ على الخيرِ والاســتقرار والراحــةِ ، في حــين تــأتي الصُّورة التقابلية في ترقرق ، ولمعــان النجــوم في القفــرِ المــوحش دليــل علــى الغربة، وفي كلتا الصورتين تظهر المفارقة الــتي تــبرز الحالــة النفــسية للــشاعر ، فالرعاية والاستقرار في الحِجال يظهــر حالــة الفــرح والــسرور ، في حــين أن وجوه المنايا السود ، والسير في الفقــر المــوحش يظهــر حالــة الحــزن والقلــق والتوتر . والملحوظ في تلك المفارقات اعتماده على الــصور الحِــسيِّة والمعنويــة ،

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٥٨ .

ففي البيت الأول قابل بين المعنـــوي والمعنـــوي ، فالـــشعور بالرعايـــة والاهتمـــام أمر معنوي ، والشعور بقرب الأجل شيء معنوي ، أمَّا في البيـــت الثـــاني فقابـــل بين حسي وحسي ، فرفرفة الأستار في القصور أمـــرٌ حـــسي يُبـــصر ويُـــشاهد ، كما أن ترقرق لمع الآل في القفر شـــيء محـــسوس أيـــضًا . وهكـــذا نـــستطيع أن نقول : إنَّ التقابل الإيحائي في شعر الاغتراب عند ابـــن درَّاج اعتمـــد فيـــه علـــى التفصيل أو الإطناب المفيد المصور للحالتين المتناقـــضتين ، فلـــم يكتـــف الـــشَّاعر بذكر صورة واحدة ، بل اعتمد على عـــدَّة صـــور لتـــصوير كـــل حالـــة مـــن الحالتين المتناقـــضتين ، فمـــثلاً حينمـــا أراد الـــشَّاعر أن يـــصور حيـــاة النعـــيم والاستقرار اعتمد على وصف قصر الليل في الحِجـــال ، وعلـــل المـــاء والظـــلال الوارفة وطيب النفح الذي ينبعث من الرياض ، والنور والأنـــس والـــسعادة الـــتي يشعر بها بين ظئر وترب ، ثم جاء بالصُّورة المقابلة للنعـــيم والاســـتقرار ، فـــصور الرحيل والاغتراب ، فوصف طـــول الليـــل وصـــلاء القلـــوب والبحـــر الغليـــل والتلظي بنار المقيل الذي يلفحه ويحرقـــه ، ثم الـــسري بـــين الغـــول والـــذئاب . وبهذا فالشَّاعر يجعل المتلقي كأنه يشاهد لـــوحتين تـــبرزان حالـــة التَّـــضاد الـــتي برزت في المقابلة والتي بدورها أظهرت المفارقة بين الطرفين ســـواءً كـــان حـــسيًّا أو معنويًّا .

٦- المقابلـــــة :

« هي ترتيب الكلام على ما يجب ، فيعطى أول الكلام مـــا يليـــق بـــه أولاً وآخره ما يليق به آخرًا ، ويأتي في الموافق بما يوافقه ، وفي المخالف بما يخالفه ، وأكثر ما تجيء المقابلة في الأضداد ، فإذا جاوز الطباق ضدين كان مقابلة »(١) . والمقابلة « قد تأتي في هذا الشكل التقليدي القائم على التَّضاد بين معنيين، وقد تبدو في صـــورة اختيار حتمي لأحد أمرين وفقًا لرؤية الشَّاعر، وإن لم يكونا كذلك في الواقع وهي في كل الحالات تكسب المعنى الشعري عمقًا وتنفث حوله شيئًا من التوتر »(٢) .

---

(١) العمدة في صناعة الشعر ، لابن رشيق ، ص ٥٨٣ ، المجلد الأول .

(٢) قراءة الشعر وبناء الدلالة ، د / شفيع السيد ، ص ١٧ .

إذًا المقابلة كالتَّضاد والفرق بينهما أن التَّضاد يكون بين لفظتين ، أمَّا المقابلة تكون بين جملتين متناقضتين، وكلاهما (التَّضاد والمقابلة) يصور أن حالــة نفــسية محتبسة في أعماق الشَّاعر، فيأتي بالمقابلة أو التَّضاد ليعبِّر عن هذا القلق والتوتر الــذي يتدثر به ، ومن أمثلة المقابلة :

قول ابن درَّاج[1] :

فهلــتُ اليَــسارَ بِيُــسرَى جَــوَادٍ

وحُطْــتُ الــذمارَ بِيُمْنَــى بَخِيــلِ

ويقول متحدثًا عن غربته[2] :

مِنْ كُــلِّ مَفْجُــوعٍ بَتَرْحَــةِ رَاحِــلٍ

لَــمْ يُــسْلِهِ طَمَــع بفَرْحَــةِ آيِــبِ

ففي المثال الأول المقابلة بين (يسرى جواد – يمنى بخيل) والمثال الثاني بــين (ترحة راحل – فرحة آيب) هذه المقابلة أكسبت الأبيات السابقة إيقاعًــا ونغمًــا موسيقيًّا يتناسب مع شعور الشَّاعر المتوتر .وبهذا فالصُّورة الشعرية في شعر ابن درَّاج كشفت عن معاناة كامنة عميقة استطاعت الصُّورة أن تصل إلى تلك المعاناة الغــائرة في النفس لتكشف عنها بعدة صور تمثلت في التشخيص والاستعارة والتشبيه والكناية والتقابل الإيحائي والمقابلة.

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٦٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٨ .

رابعًا - الموسيقى

الشعر يقوم على إيقاعات موسيقية تؤثر على قلوب السامعين «ومعلوم أن الموسيقى هي إحدى المقوِّمات الفنيَّة الضرورية للشِّعر ، وهي أداة بالغة الأهمية لكل شاعر في أي موضوع يطرقه »[١] ، ولهذا يقول ابن طباطبا : « وللشعر الموزون إيقاع يطرب الفهم لصوابه ، وما يرد عليه من حسن تركيبه واعتدال أجزائه ، فإذا اجتمع للفهم مع صحة وزن الشعر صحة وزن المعنى ، وعذوبة اللفظ ، فصفا مسموعه ومعقوله من الكدر تم قبوله واشتماله عليه ، وإن نقص جزء من أجزائه التي يكمل بها ، وهي اعتدال الوزن وصواب المعنى وحسن الألفاظ كان إنكار الفهم إياه على قدر نقصان أجزائه »[٢] .ويمكن أن نستعرض خصائص التشكيل الموسيقى في شعر الاغتراب اعتماد على الظواهر الأسلوبية اللفظية والمعنوية .والتي تتفاعل معها النفوس خاصة إذا كان الشَّاعر يصف حالة نفسية عناها واكتوى بها، فمن خلال الألفاظ وما تصدره من إيقاعات موسيقية تقوم بعملية جذب تجعل السامعين يتفاعلون مع الشَّاعر ويشعرون بألمه وحزنه ، وكلَّما كان الإيقاع الموسيقي نابعًا عن طبع دون تكلف كان أثره أقوى وأكثر تأثيرًا على السامعين ، ولهذا يقول عبد القاهر الجرجاني : « ولن تجد أيمن طائرًا ، وأحسن أولاً وآخرًا ، وأهدى إلى الإحسان ، وأجلب للاستحسان من أن ترسل المعاني على سجيتها ، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ ، فإنها إذا تُركت وما تريد لم تكتس إلا ما يليق بها ، ولم تلبس إلا ما يزينها »[٣] .

وسنقوم بتجلية الجانب الموسيقي من خلال الألفاظ المفردة اعتمادًا

---

(١) التفسير النفسي للأدب ، د. عز الدين إسماعيل ، ص ٥١ .

(٢) عيار الشعر ، لابن طباطبا ، ص ٢١ .

(٣) أسرار البلاغة ، لعبد القاهر الجرجاني ، ص ١٥ .

على الترديد الصوتي ، والقافية ، والتصريع ، والجناس ، والتكرار .

- الظواهر الأسلوبية في شعره

أولاً:الظواهر اللفظية: -

١ - الترديـــــد والتصديـــر[١] :

« وهو أن يأتي الشَّاعر بلفظة معلقـــة بمعـــنى ، ثم يردهـــا بعينـــها معلقـــة بمعنى آخر في البيت نفسه أو في قسيم منه »[٢] .

ويقول ابن مُنْقِذْ : « اعلم أن الترديـــد هـــو رد أعجـــاز البيـــوت علـــى صدورها ، أو ترد كلمة من النصف الأول في النصف الثاني »[٣] .

« والتصدير قريب من الترديد ، والفرق بينـــهما أن التـــصدير مخـــصوص بالقوافي ، ترد على الصدور ، ولا تجد تصويرًا إلا كـــذلك ، حيـــث وقـــع مـــن كتب المؤلفين وإن لم يذكروا فيه فرقًـــا ، والترديـــد يقـــع في أضـــعاف البيـــت »[٤].

وقد اعتمد ابـــن درَّاج علـــى الإيقـــاع الموســـيقي في الترديـــد بقـــصائد الاغتراب على النحو التالي :

---

(١) ابن منقذ يجعل الترديد والتصدير شيئًا واحدًا ، وجعلهما في باب واحد تحت مسمى الترديـــد ، ويـــسمى التصدير . انظر : ص ٥١ .

ومنهم من يطلق عليه المشاكلة ، وهي ذكر المعنى بلفظ غيره ، أو بلفظ مضاد للفظ الغير ، أو مناسب لـــه لوقوعه في صحبته تحقيقًا أو تقديرًا .

انظر : علم البديع ، لبسيوني فيود ، ص ١٩٠ .

(٢) ومنهم من يُطلق عليه رد العجز إلى الصدر ، وهو أن يكون أحدهما في آخر البيـــت ، والآخـــر في صـــدر المصراع الأول أو حشوه أو آخر أو صدر الثاني . انظر : الإيضاح في علوم البلاغة ، للخطيب القزويني ، ص ١٠٢ ، المجلد ٢ .

(٣) البديع في نقد الشعر ، لأسامة بن منقذ ، ص ٥١ .

(٤) العمدة ، لابن رشيق ، ص ٥٦١ ، الجزء الأول .

ما وافق آخر كلمة في المصراع الأول أول كلمة في المصراع الثاني ، قول ابن درَّاج متحدثًا عن حاجته والتي كانت سببًا في غربته واغترابه ، يقول[1] :

وَإنْ نَفَقَتْ عِنْدِي بِضَاعَةُ قَانِعٍ

تَقَنَّعْتُ مِنْهَا في خَزَايَةِ مُعْتَرِّ

ويقول واصفًا مدى إحساسه باليأس[2] :

وإنْ غَزَتِ الآمَالُ نَفْسِي صَرَمْتُها

بِصَارِمِ يَأْسٍ في يَمِينِ تُقَىً حُرِّ

ما وافق أول كلمة في المصراع الأول أول كلمة في المصراع الثاني ، كقول ابن درَّاج مخاطبًا الشمس لتكون شفيعًا له عند ممدوحه ، يقول[3] :

فَكُونِي شَفيعي إلى ابْنِ الشَّفِيعِ

وَكُونِي رَسُولِي إلى ابْنِ الرَّسُولِ

ويتحدث عن إصابته بالحمى في دار الغربة قائلاً[4] :

تَحَمَّلْتُهَا في حَرِّ صَدْرِي وَأَضْلُعِي

وَتَحْمِلُ أَحْشَائي عَلَى المَرْكَبِ الصَّعْبِ

ما وافق آخر كلمة في المصراع الأول آخر كلمة في المصراع الثاني

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٥٩ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٦١ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٦٤ .
(٤)المصدر السابق ، ص ٨٣ .

قول ابن درَّاج متحدثًا عن غربة أبنائه[١] :

وَحَدَتْ بِهِم صَــعَقَاتُ رَوْعٍ شَــرَّدَتْ

أَوْطَــانَهُمْ في الأَرْضِ كُــلَّ مُــشَرَّد

ويقول متحدثًا عن أهوال غربته[٢] :

فَبَاتَ يَعْجَبُ مِــنْ ظَبْــيٍ يُــصارِعُني

وقــد يَحِــنُّ علــى لَيْــثٍ أُصَــارِعُهُ

ويقول – أيضًا – متحدثًا عن الرحيل[٣] :

ظُعُــنٌ سَــرَيْنَ اللَّيْــلَ ضَــرْبَةَ لازِمٍ

وَسَــرَى إِلَيْهَــا الهَــمُّ ضَــرْبَةَ لازِبِ

- ما وافق أول كلمة في المصراع الأول آخر كلمــة في المــصراع الثــاني، قول ابن درَّاج متحدثًا عن الغدر[٤] :

غَدَرَتْ بِــهِ أَيَّــامُ عَــامٍ قَــدْ وَفَــى

أنَّ الوَفَــــاءَ بِعَهْــــدِهِ غَــــدَّارُ

- ما جاء في آخر المصراع الأول موافقًا حشو المــصراع الثــاني ، كقــول ابن درَّاج واصفًا اغترابه وغربته في البحر[٥] :

(١)ديوان ابن درَّاج ، ص ٦٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٣٨ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٢٩ .

(٥)المصدر السابق ، ص ٢٢٨ .

وَفِي كُلِّ بَحْرٍ – كَمَا قِيـــلَ - خَلْـــقٌ

صَـــغِيرٌ يُهَاوِيـــهِ خَلْـــقٌ عَظِـــيمُ

- ما وقع في حـــشو المـــصراع الأول ، ووافـــق أول كلمـــة في المـــصراع الثاني ، كقول ابن درَّاج واصفًا صعوبة تحقيق آماله(١) :

وَلَقَدْ قَضَيْتُ مِـــنَ الـــصَّبَابَةِ حَقَّهَـــا

فَقَضَتْ مِـــنَ الأَمَـــلِ البَعِيـــدِ مـــآرِبِي

- ويصف اغتراب أبنائه ، يقول(٢) :

وَتَخَازَرَتْ عَنْهَـــا العُيُـــونُ فَـــأَبْرَزَتْ

عَـــنْ أَعْـــيُنٍ بِـــدِمَائِهِنَّ سَـــوَاكِبِ

- ما جاء حشوًا في المـــصراع الأول موافقًـــا آخـــر كلمـــة في المـــصراع الثاني ، كقول ابن درَّاج واصفًا غربة أبنائه وكثرة عددهم(٣) :

أَخُو ظِمـــاءٍ يَمُـــصُّ حَـــشاهُ سَـــبْعٌ

وَأَرْبَعَـــــــةٌ وَكُلُّهُـــــــمُ ظِمَـــــــاءُ

ويقول ابن درَّاج مودعًا زوجته(٤) :

لَئِنْ وَدَّعَـــتْ مِنِّـــي غَيُـــورًا فَـــإِنَّنِي

عَلَى عَزْمَتِـــي مِـــنْ شَـــجْوِهَا لَغَيُـــورُ

- ما وافق آخر كلمة في المصراع الأول حشو المـــصراع الثـــاني ، كقـــول

(١)ديوان ابن درَّاج ، ص ١٣٩ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٩ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٢٧٦ .
(٤)المصدر السابق ، ص ٢٥١ .

ابن درَّاج في إحدى مقدماته الغزلية[١] :

دَعَوْتُ لَهَا سُقْيَا الحَيَا وَدَعـا الهَـوَى

وبَرْحُ الهَـوَى دَمْعِـي لهـا فَـسَقَاها

- ما وافق حشو المصراع الأول حشو المصراع الثاني ، كقول ابن درَّاج واصفًا أهوال الغربة والرحيل[٢] :

وَشَـفَيْتُ سُـمَّ عَقَـارِبٍ بِأَسَـاوِدٍ

وَدَفَعْـتُ سُـمَّ أَسـاوِدٍ بعَقَـارِبِ

- ما وافق أول كلمة في المصراع الأول أول كلمة في المصراع الثاني وآخر كلمة فيه ، كقول ابن درَّاج[٣] :

وَإنْ يَرْعُ نَازِحَ الأَوْطَانِ عَنْـكَ فَقَـدْ

رَاعَ العِدَى مِنْـهُ يَـوْمٌ أَنْـتَ رَائِعُـهُ

- ترديد الكلمة في المصراع الأول كقول ابن درَّاج متحدثًا عن أبنائه في دار الغربة[٤] :

قَضَى عَيْشُهُم بَعْدِي وَعَيْشِي بَعْـدَهُمْ

بِأَنِّي قَدْ خُنْتُ الوَفـاءَ وَقَـدْ خَـانُوا

- ترديد الكلمة في المصراع الثاني ، كقول ابن درَّاج واصفًا اغترابه ،

---

(١)ديوان ابن درَّاج ، ص ٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١١٦ .

(٤)المصدر السابق ، ص ٧٦ .

يقول[١] :

بَـــوَارِقُ ظَلْمَـــاءُ ظُلْـــمٍ تُـــسيحُ

دُمَىً مِنْ حِمَـــىً أَوْ دَمًـــا مِـــنْ قَتِيـــلِ

٢ – التكـــــرار :

وهو إعادة النطق بالكلمة مما ينتج عنه إيقاع موسيقيًّا ، « فأكثر مـــا يقـــع التكرار في الألفاظ دون المعاني ،وهو في المعاني دون الألفاظ أقل فإذا تكـــرر اللفـــظ والمعني جميعاً فذلك الخذلان بعينة »[٢] ، والتكرار يقوم على شـــروط يجـــب علـــى الشَّاعر أن يتقيد بها، وإن لم يفعل كان تكراره ذاك من باب العبث لا قيمة له ، ولهذا يقول صاحب العمدة : « ولا يجب للشاعر أن يكرر اسمًا إلا على جهـــة التـــشويق والاستعذاب إن كان في تغزل ونسيب ، أو على سبيل التنويه والإشـــادة أن كـــان مدحًا ، أو على سبيل التقريع والتوبيخ ، وفي معنى التكثير والتعظيم ، أو على جهـــة الوعيد والتهديد إن كان عتابًا موجعًا ، أو على وجه التوجع والتفجع إن كان رثـــاءً وتأبينًا »[٣] ، وغيرها من الأحوال التي تجعل الشَّاعر يكرر لفظًا معينًا .

وإذا نظرنا إلى الألفاظ التي يكررها ابن درَّاج نجدها تصف مـــدى توجعـــه وألمه، ولهذا يكررها ليفيد بها معنى التكثير والتعظيم، ومدى عمق اغترابه .

يقول ابن درَّاج واصفًا عمق الأسى والحزن الذي يتجرعه في غربته[٤] :

---

(١)ديوان ابن درَّاج ، ص ٦٥ .

(٢) العمدة ، لابن رشيق ، المجلد الثاني ، ص ٦٩٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٦٩٨ ، وما بعدها .

(٤) ديوان ابن درَّاج ، ص ٣٩ .

وَهَا أَنَذا مَا إنْ أَمــوتُ مِــنَ الأَسَــى

بِوَقْرٍ عَلَى وَقْــرٍ وَثِقْــلٍ علــى ثِقْــلِ

فالشَّاعر كرر لفظ (وقر) وكرر (ثقل) ليصف لنا عمق ودرجــة تمكــن الحزن والأسى منه ليعطي البيت جرسًا موسيقيًّا كما جعلنا نشعر بعظم الأسى وثقله الذي تجاوز المعقول بثقل على ثقل ، ويقول واصفًا مدى حزنــه وغربتــه حــتى أن الشمس تشاركه هذا الحزن[١] :

لَعَلَّكِ يَــا شَــمْسُ عِنْــدَ الأَصِــيلِ

شَــجَيْتِ لِــشَجْوِ الغَرِيــبِ الــذَّلِيلِ

فكرر كلمة (شجو) ليوضح مدى حزنه وتفاعل الغير معه ، ممــا أكــسب البيت إيقاعًا موسيقيًّا حزينًا .

كما يصف الشَّاعر وداعه لأبنائه ، ولكي يوضح لنا حرارة ذلك الوداع عمد – أيضًا – إلى التكرار الذي أكسب البيت – أيضًا – إيقاعًا موسيقيًّا تشجو النفوس له ، يقول[٢] :

نُــوَدِّعُهُمْ شَــجْوًا بِــشَجْوٍ كَمِثْلَمَــا

أَجَابَتْ حَفيفَ السَّهْمِ عَوْجَاءُ مِرْنَــانُ

ويصف غربتهم التي كانت بمثابة الموت لهم ليوضح لنــا عظمــة الأهــوال والمصائب التي واجهتهم ، عمد إلى تكرار لفظة (الموت) ، يقول[٣] :

---

(١)ديوان ابن درَّاج ، ص ٦٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٥ .

(٣)المصدر السابق ، ص ٧٦ .

هُمُ اسْتَخْلَفُوا الأَحْبابَ أَمْـوَاجَ لُجَّـةٍ

هِيَ المَوْتُ أَوْ في المَوْتِ عَنْهُنَّ سُـلْوَانُ

ويصف ابن درَّاج اغترابه ورحيله ، فيلجأ إلى التكرار ليوضح لنا كثرة رحيله، يقول(١) :

فلِيلٌ إلى صُبْحٍ ، وصُـبْحٌ إلى دُجَـى

وَكَرْبٌ إلى رَوْحٍ ، ورَوْحٌ إلى كَـرْبِ

ويصف مدى إحساسه بالوحشة والانفراد في دار الغربـة ، وعمـق هـذا الإحساس فضلاً عما تتضمنه الكلمة المكررة من عمق (الجب) ، يقول(٢) :

وَأَعْظَمُ تَأْنِيـسًا لِـدَهْرٍ يمـنَ المُنَـى

وَأَوْحَشُ مِنْهُ مِنْ فَتى الجُبِّ في الجُـبِّ

ويصف موقفًا من مواقف الـوداع لزوجـه ، فيعمـد إلى تكـرار (ذراف الدموع)، و(التحام الصدور) ، يقول(٣) :

قَالَتْ وَقَدْ مَـزَجَ الـوَدَاعُ مَـدَامِعًا

بمَـدَامِعِ وتَرَائبًـا بِترائِـبِ

وهذا التكرار الذي عمد إليه الشَّاعر قصد به إظهار معنى التوجع والتفجع ، كما أعطى هذا التكرار نغمًا موسيقيًّا تنساب له الدموع .

وفي خضم الإحساس بالاغتراب والغربة يحن ابن درَّاج لموطنه الذي ابتلـي بالرحيل عنه ، فكان هذا الرحيل فاجعة له ، ولهذا يكرر كلمة (البلاء) ليجسد لنا فاجعته وألمه ، يقول(٤) :

---

(١)ديوان ابن درَّاج ، ص ٨٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٩٠ .

(٤)المصدر السابق ، ص ١١٣ .

لله مِــنْ وَطَــنٍ قَلْــبِي لَــهُ وَطَــنٌ
يَبْلَــى وَأَبْلَــى وَمَــا تَبْلَــى فَجَائِعُــهُ

أما تكراره لكلمة (وطن) يوضح لنا فيه عظمة ومكانة هذا الــوطن الــذي ابتلي بالرحيل عنه .

ويصف ابن درَّاج أسفاره ، فيكرر مما بعث في البيت نغمًا موسيقيًّا ، يقول(١):

سَـــرَيْتَ فَأَلْحَقْـــتَ لِـــيْلاً بلَيْـــلٍ
وَسِـــرْتَ فَوَصَّـــلْتَ بِيـــدًا بِبِيـــدِ

فتكرار ابن درَّاج لكلمة (الليل) و (البيد) توضح لنا مدى ضخامة معاناته، كما أن هذا التكرار – كما قلنا سابقًا – أعطى البيت جرسًا موسيقيًّا حزينًا .

٣ - القافيـــــــــــة :

هي « الحروف التي تبدأ بمحرك قبل أول ساكنين في آخر البيت ، وتكـــون القافية كلمة أو كلمتين »(٢) ، فالقافية إذًا عبارة عن « المقاطع الصوتية التي تكون في أواخر أبيات القصيدة ، أي المقاطع التي يلزم تكرار نوعها في كل بيت ، فأول بيـــت في قصيدة الشعر (الملتزم) يتحكم في بقية القصيدة من حيث الوزن العروضي ، ومن نوع القافية »(٣) .

وحيث إنَّ الشعر « قد وجد في الأصل للغناء أي للتلحين ، واللحـــن فيـــه نقرات موسيقية أو نغمات متكررة كان من الضروري وجود مثل هذه النقـــرات في الشعر، وما هذه النقرات سوى القوافي المتكررة »(٤) .

---

(١)ديوان ابن درَّاج ، ص ١٨٤ .

(٢) شرح كتاب أهدى سبيل إلى علمي الخليل : العروض والقافية ، د / محمود مصطفى ، ص .

(٣) علم العروض والقافية ، د . عبد العزيز عتيق ، ص ١٣٤ .

(٤) الأدب الرفيع في ميزان الشعر وقوافيه ، د . معروف الرصافي ، ص ٨٩ ، بغداد عام ١٩٥٦م .

فالقافية – كما يقول ابن رشيق : «هي شريكة الوزن في الاختصاص بالشعر ، ولا يسمى شعرًا حتى يكون له وزن وقافية »[١] . « فوجود القافيــة ضــروري لوجود شعر دقيق في تكوينه الموسيقي ، ولذلك بوسعنا أن نعتبر الشعر العــربي أدق أشعار الدنيا من حيث الروعة الموسيقية ؛ لما يلتزمه الشَّاعر من قواعد في أجزاء القافية فضلاً عن تفاعيل البحر الذي ينظم فيه ، وهو ما لا تجده في عروض كثير من اللغات الأخرى »[٢] .

وسميت القافية بهذا الاسم « لأنها تقفو إثر كل بيت ، وقال قوم : لأنها تقفو أخواتها »[٣] . والقافية « ترتكز بشكل أساسي على حروف الروي ، وهو جــزء لا يتجزأ منها ، يتكرر بحركته في أواخر أبيات القصيدة ، وعليه تبنى القصيدة ، وإليــه تنسب ، فيقال همزية ، أو بائية ، تبعًا لحرف رويها »[٤] .

فحلاوة قوافي الشَّاعر هي التي تمنح القصيدة كلها جمالاً خاصًّا ، ومتى استطاع الشَّاعر أن يسيطر على القوافي سيطرة دقيقة تمكن من تملك ناصية النظم الأصيل دون منازع »[٥] . والحلاوة هذه تزيد كلما كان استدعاء تلك القوافي من غير تكلف – كما يقول قدامة بن جعفر ، حينما تحدث عن عيوب ائتلاف المعنى والقافية : « منها التكلف في طلب القافية ، وهي أن تكون القافية مستدعاة قد تكلــف في طلبــها، فاشتغل معنى سائر البيت بها »[٦] .

فالقافية حينما تأتي في القصيدة بطريقة عفوية دون تكلــف يــصدر منــها جرسًا موسيقيًّا يلائم الموقف والحالــة النفــسية الــتي يكــون فيهــا الــشَّاعر ،

(١) العمدة في صناعة الشعر ونقده ، لابن رشيق ، ج ١ ، ٢٤٣ .

(٢) فن التقطيع الشعري والقافية ، د . صفاء خلوصي ، ص ٢١٥ .

(٣) العمدة في صناعة الشعر ونقده ، لابن رشيق ، ص ٢٤٧ ، م ١ .

(٤) القافية في العروض والأدب ، د . حسين نصار ، ص ٤٠ – ٤١ ، دار المعارف – القاهرة ، ١٩٨٠م .

(٥) المرجع السابق ، ص ٢٢٤ .

(٦) نقد الشعر ، لأبي الفرج قدامة بن جعفر ، ص ٢٢٣ .

وحينما تتبعنا قصائد ابن درَّاج يصف فيها اغترابه وغربته وجدنا قد سيقت على ثلاثة عشر صوتًا من حروب الروي .

والروي: هو الحرف الذي بنيت عليه القصيدة – كما ذكرنا سابقًا – تنوعت ما بين حروف مجهورة ومهموسة، وقد تمثلت الحروف المجهورة في تسعة حروف، وهي[١] :

- اللام : « فإنها صوت جانبي مجهور ، ينطق بأن يلتصق طرف اللسان باللثة، ويرتفع فيسد المجرى الأنفي عن طريق اتصاله بالجدار الخلفي للحلق ، مع حدوث ذبذبات للأوتار الصوتية »[٢] .

- الباء : « فهي صوت شديد مجهور مرقق ، يتم نطقه بضم الشفتين ورفع الطبق ليغلق ما بين الحلق والتجويف الأنفي ، مع ذبذبة الأوتار الصوتية»[٣] .

- الدَّال : « فإنها صوت شديد مجهور مرقق ، ينطق بأن تلتصق مقدمة اللسان باللثة ، والأسنان العليا التصاقًا يمنع مرور الهواء ، ورفع الطبق ليسد التجويف الأنفي مع ذبذبة الأوتار الصوتية ، وبقاء مؤخرة اللسان في وضع أفقي يزال يسد بانخفاض مقدمة اللسان ، فيندفع الهواء المحبوس إلى الخارج »[٤] .

---

(١) الأصوات المجهورة : هي التي يحدث في تكوينها أن يندفع الهواء في مجرى مستمر خلال الحلق والفم ، وخلال الأنف معهما أحيانًا دون أن يكون هناك عائق يعترض مجرى الهواء ، فيحدث احتكاكًا مسموعًا ، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث ، د . رمضان عبد التواب ، ص ٤٢ .

(٢) المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، د. رمضان عبد التواب، ص ٤٧.

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٢ .

(٤)المرجع السابق ، ص ٤٦ .

- الميم : « فإنه صوت أنفي مجهور ينطق بأن تنطبق الشفتان تمامًا ، فيحبس خلفهما الهواء، ويخفض الطبق ليتمكن الهواء من الخروج عن طريق الأنف مع حدوث ذبذبة في الأوتار الصوتية وبقاء اللسان في وضع محايد »[١] .

- العين : « صوت رخو مجهور مرقق نطقه بتضييق الحلق عند لسان المزمار ، ونتوء لسان المزمار إلى الخلف حتى ليكاد يتصل بالحائط الخلفي ، وفي الوقت نفسه يرتفع الطبق ليسد المجرى الأنفي وتهتز الأوتار الصوتية »[٢] .

- اليَّاء : « صوت مجهور بينه وبين صوت الكسرة الخالصة فرق يسير »[٣].

- الرَّاء : « صوت تكراري مجهور يتم نطقه بأن يترك اللسان مسترخيًا في طريق الهواء الخارج من الرئتين فيرفرف اللسان ، ويضرب طرفه في اللثة ضربات متكررة مع حدوث ذبذبة في الأوتار الصوتية »[٤] .

- النُّون : « صوت أنفي مجهور يتم نطقه بجعل طرف اللسان متصلاً باللثة مع خفض الطبق ليفتح المجرى الأنفي وإحداث ذبذبة في الأوتار الصوتية »[٥] .

- الألف : « صوت مجهور يحدث عن النطق به ذبذبة للأوتار الصوتية » .

أذًا الصوت المجهور تنتج عند ذبذبات صوتية مما يكسب الكلام إيقاعًا وسيقيًّا.

والأصوات المهموسة التي اعتمد عليها الشَّاعر عند حديثه عن الاغتراب والغربة أربعة أصوات ، وهي :

- السين : « فهو صوت رخو مهموس مرقق لا يفترق عن الزاي في نطقه إلا أن الأوتار الصوتية تهتز مع الزاي ولا تهتز معه »[١] .

---

(١)المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي ، ص ٤٣ .
(٢)المرجع السابق ، ص ٥٥ .
(٣)المرجع السابق ، ص ٥٣ .
(٤)المرجع السابق ، ص ٤٨ .
(٥)المرجع السابق ، ص ٤٩ .

- الهاء : « فإنـــها صوت رخو مهموس مرقق يتم نطقه بأن يحتك الهـــواء الخارج من الرئتين بمنطقة الأوتار الصوتية دون أن يحدث ذبذبة الأوتار ويرتفع الطبق ليسد المجرى الأنفي »[٢] .

- الحاء : « فهو صوت رخو مهموس مرقق لا يحدث أي ذبذبات صـــوتية للأوتار »[٣] .

- التاء : « صوت شديد مهموس مرقق يتميـــز بعـــدم إعمـــال الأوتـــار الصوتية»[٤].

« أما الهمزة فهي ليست بالمجهور ولا بالمهموس »[٥] .

والملحوظ بعد هذا الاستقراء للقصائد التي تناولت الحديث عـــن الاغتـــراب والغربة اعتمادها بشكل كبير على الأصوات المجهورة والتي تتسم بالقوة والـــشدَّة ، ولعل الظروف القاسية التي عاشها هذا الشَّاعر وراء هذا الاختيار الموسيقي الصاخب، فالشَّاعر - كما قلنا سابقًا - يعاني حالة اغتراب وغربة، وهـــو في حاجـــة ماســـة للاستقرار والهدوء، ولذلك جاء هذا الانفعال شديدًا، فواكب بذلك الحالة الشعورية للشاعر .كما أنَّ للظروف التي نُظمت القصائد لأجلها (المديح) سببًا في ظهور هذا الصوت المجهور، فهذا الصوت لابد أن « ترسم بإيقاعه الواضـــح أجـــواء أثيريـــة أسطورية تواكب معاني القوة والشجاعة والشرف والكرم والبطولة والفروسية والمجد

---

(١) المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي ، ص ٤٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٥٥ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٦ .

(٥) سيبويه يعد هذا الصوت مجهـــورًا ، بينما الباحثـــون مثل : د. إبراهيم أنيس وكمـــال بشر يعدونه صوتًا لا بالمجهور ولا بالمهموس . للوقوف على تلك الآراء انظر كتاب المدخل إلى علم اللغة ومنـــاهج البحـــث اللغوي، د. رمضان عبد التواب ، ص ٥٦.

والمثالية ، التي تخلع على الممدوح »[1] . ولهذا « فبعض العلمــاء يعــزون تطــور الأصوات من شدَّة إلى رخاوة أو العكس إلى الحالة النفسية التي يكون عليها الشعب ، فالشعب حين يميل إلى الدعة والاستقرار تميل أصوات لغته إلى الانتقال من الشدة إلى الرخاوة ، فإذا اعتز الشعب بقوته وجبروته مال إلى العكس »[2] . ولكن هذا الحكم لا يمكن الاعتماد عليه في كل الأحوال ، فابن درَّاج مثلاً الذي اعتمد على الأصوات المجهورة عند حديثه عن الاغتراب والغربة نراه – أيضًا – يــصوغ أبياتًــا تتنــاول الموضوع نفسه، ولكن بأصوات مهموسة . وهذا يعني أن هذه الأصوات سواء كانت مجهورة أو مهموسة إنما تدل على الحالة النفسية التي يعانيها الشَّاعر من خلال مجاورتها لأصوات أخرى ، كما أشار إلى ذلك الدكتور أشرف نجا ، حيــث يقــول : « لا يوجد ثمة صوت بمفرده يدل على البهجة والرقة، وآخر يدلُّ على الحزن والعنــف ، فالصوت يكتسب دلالاته من خلال مجاورته لأصوات أخرى »[3] . كما أن درجــة انفعال الشَّاعر هي التي تحدد الصوت الذي يصوغ به قافيته، فــإذا كانــت درجــة الانفعال والإحساس بالاغتراب عالية جدًّا ، والتي وصفت اغترابه بالصوتين المجهــور والمهموس. ومن أمثلة القوافي المجهورة قول ابن درَّاج في إحدى قــصائده متــشوقًا لأسرته وهو في دار الغربة مخاطبًا الربيع ؛ لينقل شوقه ودموعه الساكبة قائلاً[4] :

قُلْ للرَّبِيعِ اسْــحَبْ مُــلاءَ سَــحَائِبِ

فَــاجْرُرْ ذُيولَــكَ فِي مَجَــرِّ ذَوَائِــبِي

لا تُكْــدِيَنَّ وَمِــنْ وَرَائِــكَ أَدْمُعِــي

مَدَدًا إِلَيْــكَ بِفَــيْضِ دَمْــعٍ سَــاكِبِ

---

(١) قصيدة المديح ، قضاياها الموضوعية والفنية – عصر الطوائف . د . أشرف نجا ، ص ٢٦٦ .

(٢) الأصوات اللغوية ، د . إبراهيم أنس ، ص ٢٣٤ .

(٣) قصيدة المديح ، قضاياها الموضوعية والفنية ، د . أشرف نجا ، ص ٢٦٧ .

(٤) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٣٨ .

ويقول – أيضًا – واصفًا عدم الإجابة له كونه غريب بعيد عن وطنه ، فكان يكثر من الدعاء ، ولكن ليس هناك من يجيب لدعوته تلك ، ولهذا الشَّاعر في حالة نفسية شديدة الانفعال والاضطراب والقلق ، فجاءت قافية القصيدة مبنية على صوت الباء الشديد بالإضافة إلى الكسرة كذلك ، يقول(١) :

تَسَمَّعْ لِدَعْوَةِ نَاءٍ غَرِيبٍ

كَثِيرِ الدُّعاءِ قَلِيلِ المُجيبِ

ويقول متحدثًا عن غربته فجاءت القافية على حرف الدَّال يتسم بالشدة إضافة إلى الكسرة ، مما أكسب القصيدة إيقاعًا موسيقيًّا قويًّا(٢) :

غَرِيبٌ كَسَاهُ البَيْنُ أَثْوَابَ مُدْنَفٍ

وحَفَّتْ بِهِ الأَشْجَانُ حَفَّ الوَلائِدِ

وتزداد رغبة ابن دارج في انجلاء الأسى والحزن لتأتي القافية – أيضًا – شديدة الانفعال والقوة إذا صيغت الأبيات بحرف اللام المجهور مع الكسرة ، يقول(٣) :

فَلَعَلَّ غَايَاتِ الدُّجَى أنْ تَنْتَهِي

وَعَسَى غَيَابَاتُ الأَسَى أَنْ تَنْجَلِي

ويمدح ابن درَّاج ممدوحه بأنَّ كل مغترب قد تجرَّع حر القيظ فيبشر بالماء البارد ، فالشَّاعر في حالة انفعال شديد، فهو بحاجة ماسَّة إلى ذلك الماء الذي يزيل عنه حرارة الاغتراب والغربة ، فجاءت القافية بحرف الميم المجهور مع الكسرة ؛ ليؤكد شدة تلك الرغبة المسيطرة عليه مما أعطى البيت – أيضًا – إيقاعًا موسيقيًّا عنيفًا ، يقول(٤) :

---

(١)ديوان ابن درَّاج ، ص ٣٩٦ .

(٢)المصدر السابق ، ص ٣٤٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٥٣ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٤٤٠ .

مَتَى تَجَــرَّعَ حَــرَّ القَــيْظِ مَغْتَرِبًــا

فَأَبْـــشِرْ لِغُلَّتْـــهِ بالبـــارِدِ الـــشَّبِمِ

ويقول مخاطبًا زوجته بأنَّ رحيله ذلك ربما سيجني من ورائه العزَّ ، ويـــتخلص من قيود الغربة والاغتراب ، فجاءت القافية مبنية على حرف الرَّاء المجهور والـــضمة ليوضح رغبته في التخلص من تلك القيود ، يقول[١] :

لَعَلَّ بِمَا أَشْجَاكَ مِـــنْ لَوْعَـــةِ النَّـــوَى

يُعَـــزُّ ذَلِيـــلٌ أَو يُفَـــكَّ أســـيرُ

وقول ابن درَّاج مادحًا ممدوحه بأنه كان مشردًا في آفاق الـــبلاد وجرحتـــه المصائب والأهوال ، فهوَّن عليه مصائبه، فجاءت القافية قائمة على حـــرف النـــون والألف الممدودة ، يقول[٢] :

تَـــشَرَّدَ آفَـــاقُ الـــبِلادِ فَتُؤْونَـــا

وَتَجْـــرَحُ أَيْـــدِي النَّائِبَـــاتِ فَتَأْسُـــونَا

ويتحدث ابن درَّاج عن غربته في دار الغنى والتي لم يجنِ منها غـــير الحـــسرة والأسى ، فجاءت القافية مبنية على حرف العين المكسور ، يقول[٣] :

ولا زَادَ مِنْ دَارِ الغِنَى غَيْـــرُ حَـــسْرَةٍ

تَجَرَّعَها حَسي وكَظْمِي لَهـــا شَـــرْعِي

ويمدح ممدوحه بأنه مجيب لكل صرخة صارخ يستغيث به ، فنظم البيت على قافية انتهت بحرف اليَّاء المجهور مع الألف الممدود ، يقول[٤] :

---

(١)ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٥٠ .

(٢)المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢١٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٤٤ .

ولا أَقْعَدَتْـــهُ عَـــنْ إِجابَـــةِ صَـــارِخٍ
(تُجِيبُ) ولو حَبْوًا إِلَى الطَّعْنِ أَوْ مَشْيًا

أما القافية المهموسة فقوله يمدح ممدوح له بأنه آواه، فجاءت القافية مبنية على حرف الحاء المهموس مع الكسرة ، يقول[1] :

وَآوانِي إِلَـــــى رُكْـــــنٍ شَـــــدِيدِ
وَأَوْفَـــى بِـــي عَلَـــى أَمَـــلٍ مُتَـــاحِ

ويتحدث عن أبنائه الذين يجوبون الصحاري مغتربين، فكانت القافيـــة علـــى حرف الهاء والألف الممدودة، يقول[2] :

جُسُومًا أَقَلَّتْهَا الرِّيَــاحُ فَلَــمْ تَــدَعْ
لَهُـــــنَّ مِـــــنَ الأَرْوَاحِ إِلاَّ أَقَلَّهَـــــا

ويقول متحدثًا عن حظ الغريب عند ذلك الممدوح ، فجاءت القافية بحـــرف التاء المهموس مع الكسرة ، يقول[3] :

وَمَا كِدْتُ أَبْــسُطُ لَحْــظَ الغَرِيــبِ
وَمَـــا آنَ حَلِّـــي عِقَـــالَ الأَنَـــاةِ

ويتحدث ابن درَّاج عن آماله في جمع شمله ، فجاءت القافية مبنية على حرف السين المكسور ، يقول[4] :

---

(١)ديوان ابن درَّاج ، ص ٤٢ .
(٢)المصدر السابق ، ص ١٨٦ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٢٩٢ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٤٣٢ .

وَيَجْمَعُ شَمْلَ الوَصْلِ مِنْ فُرْقَةِ القِلَــى

وَيُرْفَعُ بَنْدَ الوَصْلِ مِنْ مَصْرَعِ الــنِّكْسِ

وما كان ليس بمهموس ولا مجهور كالهمزة قول ابن درَّاج متحدثًا عن اغترابه وغربته ومدى تمكن الحزن فيه ، يقول[1] :

تَجُــوبُ التَّنَــائفَ خَرْقًــا فَخَرْقًــا

وَحَاجَاتِهَــــا في عُنُــــوٍّ العَنَــــاءِ

بِكُـــلِّ حَـــزِينٍ بِعَـــالِي الحُـــزُونِ

وَمُقْـــوٍ بِكُـــلِّ بِـــلادٍ قَـــواءِ

فالقافية همزية مكسورة، والملاحظ في تلــك القــوافي ســواءًا المجهــورة أو المهموسة، وما ليس بمجهور ولا مهموس اعتمادها على القافية المطلقة[2] في معظــم قصائد الاغتراب والغربة، بينما تمثلت القوافي المقيدة[3]، والتي تناولت الحديث عــن هذا الموضوع شيئًا بسيطًا لا يذكر ، وهذا يؤكد « حرص الشَّاعر علــى اختيــار القافية المطلقة أكثر منه على القافية المقيدة »[4] .

وليس هناك ثمة شك أن القافية المطلقة تضج بالحركة والموسيقى أكثــر مــن غيرها ، وهذه الحركة تلائم الحالة الشعورية الانفعالية المــصاحبة للــشاعر وهــي الإحساس بالاغتراب والغربة .

---

(١)ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٨٤ .

(٢) القافية المطلقة : هي ما كانت متحركة الروي ، أي : بعد رويها وصل بإشباع .

(٣) القافية المقيــدة : هي ما كانت ساكنة الروي ، انظر : علم العروض والقافيــة ، د. عبد العزيز عتيــق، ص ١٦٤ .

(٤) اللغة العربية معناها ومبناها ، د / تمام حسان ، ص ١٧١ .

٤ – التصريـــــــع :

هو « أن يكون البيت مسجوعًا »[١] ، وعرَّفه قدمة بن جعفر بقوله : « ومن نعوت الوزن التصريع ، وهو أن يتوخى فيه تصيير مقاطع الأجزاء في البيـــت علـــى سجع أو شبيه به ، أو من جنس واحد في التصريف »[٢] .

« وسبب التصريع مبادرة الشَّاعر القافية ليعلم في أول وهلة أنه أخذ في كلام موزون غير منشور ولذلك وقع أول الشعر وربما صرَّع الشَّاعر في غير الابتداء، وذلك إذا خرج من قصة إلى قصة، أو من وصف شيء إلى وصف شييء آخر، فيـــأتي إلى قصة أو من وصف شيء إلى وصف شيء آخر ، فيأتي حينئذٍ بالتصريع إخبارًا بذلك وتنبيهًا عليه »[٣]ويدل التصريع على تملك الشاعر اللغة .

ومن أمثلة التصريع الذي وقع في قصائد الاغتراب قول ابن درَّاج متحدثًا عن اغترابه وغربته[٤] :

أَخَفْضًا نَوَتْ فِينَـــا النَّـــوَى وَلَعَلَّهـــا
أَجَـــدَّ بِهَـــا طُـــولُ الـــسُّرَى فَأَمَلَّهـــا
وحَاشَى لأَصْدَاءِ الفَـــلا أَنْ تَـــصُدَّها
بِنَا أَوْ أضـــاليلِ الـــدُّجَى أَن تُـــضِلَّهَا
وَأَحْقِر بِهَـــوْل البَحْـــرِ أَنْ يَـــسْتَكْفِهَا
وَأَهْـــوِنْ بغـــولِ القَفْـــرِ أَنْ يَـــسْتَزِلَّهَا

وقوله متحدثًا عن رحيله واغترابه[٥] :

---

(١) البديع في نقد الشعر ، لأسامة بن منقذ ، ص ١١٦ .
(٢) نقد الشعر ، لقدامة بن جعفر ، ص ٤٠ .
(٣)ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٧٨ .
(٤)المصدر السابق ، ص ١٨٦ .
(٥)المصدر السابق ، ص ١١٣ .

أَهَـــلَّ البَـــيْنُ فانْهَالَـــتْ مَدَامِعُـــهُ

وَآنَـــس النَّفَـــرَ فَاسْـــتَكَّتْ مَـــسامِعُهُ

ويقول – أيضًا – متحدثًا عن رحيله[1] :

أَرَحْلِي مَحْمولٌ على العُتْـــقِ النَّجِـــبِ

يَؤُمُّكَ ، أم سارٍ عَلَى القُتُمِ النَّكَـــبِ ؟

وهكذا لا يخفى على القارئ ما أكسبه التصريع لتلك الأبيات قيمة موســـيقية رائعة إذْ « أنه شاكل في أحوال كثيرة بين الكلمتين الأخيرتين في البيت كأنه يجعل له قافيتين (قافية داخلية) و (قافية خارجية) و لم يدفعه إلى ذلك إلا أنه يريد أن يرتفع بالصوت في مقطعين متقاربين وهو لذلك يخرجه هذا الإخراج المنظم المقطع تقطيعًـــا صوتيًّا دقيقًا »[2] .

٥ – التجانـــس :

عرَّفه ابن رشيق بقوله : « التجنيس ضروب كثيرة منها : المماثلة وهـــي أن تكرر اللفظة باختلاف المعنى »[3] .و« هو ما كان تركيب حروف ألفاظه من جنس واحد، وحقيقته أن يكون اللفظ واحدًا والمعنى مختلفًا »[4] ويقول الخطيب القزويني : « هو تشابههما في اللفظ »[5] . ويقول أبو موسى : « السجع إيقاع صرف ونغم بحت ، وموسيقى خالصة ، وليس فيه كلمة تسربلت بثوب هفهـــاف كانـــت قـــد تسربلت به أخرى حتى خدعت وختلت ، ففتحت للشيخ بـــاب الاجتـــهاد »[6] .

---

(١)ديوان ابن درَّاج ، ص ٧٩ .

(٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، د / شوقي ضيف ، ص ٥٠ .

(٣) العمدة ، لابن رشيق المجلد الأول ، ص ٥٣٠ .

(٤) المثل السائر في أدب الكاتب والشَّاعر ، لابن الأثير ، ص ٣٤٢ .

(٥) الإيضاح في علوم البلاغة ، للخطيب القزويني ، المجلد الثاني ، ص ٩٠ .

(٦) مدخل إلى كتابي عبد القاهر ، لمحمد أبي موسى ، ص ١٢٤ .

والجناس أو التجانس لا يحقق غرضه إلا إذا صدر عن طبع وجاء عفوًا كان له وقعه وأثره في المعنى أما إذا تكلف وتصنع بدا ثقيلاً ورغبت النفوس وجافته الأذواق »[١] .

فالجناس لابد أن يكون عفويًّا حتى يحقق إيقاعًا موسيقيًّا له علاقة بالمعنى، ولهذا يقول عبد القاهر الجرجاني : « أمَّا التجنيس فإنَّك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعًا حميدًا ، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيدًا »[٢] .

ولهذا قَسَّم العلماء الجناس إلى جناس تام وجناس ناقص ، والناقص يشمل عدة أنواع .

التجانس التَّام : « وهو ما اتفق فيه اللفظان المتجانسان في أربعة أمور : نوع الحروف وعددها وهيآتها وترتيبها »[٣] .

وما دونه أي ما اختلف في أي أمر من تلك الأمور الأربعة يسمى جناس ناقص .

« والجناس كلَّما كان تامًّا كان إيقاعه الموسيقي متطابقًا ، وإن كان الجناس ناقصًا كان الإيقاع ناقصًا أو مختلفًا »[٤] .

وينهض الجناس عند ابن درَّاج متمثلاً في تلك الأقسام ، مما أكسب قصائده إيقاعًا موسيقيًّا .

١ – الجناس التام (الإيقاع الموسيقي التام) .

كقوله متحدثًا عن آماله عند المنصور ، والتي يرغب فيها بانتهاء حياة الارتحال، والتنعم بالراحة والاستقرار[١] :

---

(١) علم البديع ، دراسة فنية لأصول البلاغة ومسائل البديع ، لبسيوني فيود ، ص ٢٧٧ .

(٢) أسرار البلاغة ، لعبد القاهر الجرجاني ، ص ١٠ .

(٣) علم البديع ، لبسيوني فيود ، ص ٢٧٩ .

(٤) البديع تأصيل وتجديد ، د. منير سلطان ، ص ٧٦ ، دار المعارف الإسكندرية ، سنة ١٩٨٤ .

وعَسَى رَاحَةُ المَنْصورِ تُعْقِــبُ رَاحَــةً

وَحَـــتْمٌ لآمَــــالِ العُفَـــاةِ عَــــسَاهَا

ويقول – أيضًا – متغزلاً[2] :

سِرٌّ سَرَى لِجَــوانِحِي فَــسَرَى بِهَــا

وَهَــوَىً هَوَيْـــتُ لِطَوْعِـــهِ فَهَـــوَى بِي

إذا تأملنا المثالين السابقين وجدناهما متحدا الإيقاع (الجناس التـــام)، ففـــي المثال الأول : يربط الشَّاعر بين لفظتين اتحدتا حتى وصلتا إلى درجة المساواة في نفس الشَّاعر مع اختلاف في المعنى ، فكلمة (راحة) التي صاغها الشَّاعر تنبئ عن شـــدة رغبة الشَّاعر في الراحة والاستقرار، وهذا ما دعا الشَّاعر أن يعيـــد اللفظـــة نفـــسها بحروفها وهيأتها وترتيبها حتى ليتوهم السامع أو القارئ بأنَّ اللفظة نفسها قد أعيدت إليه ، ولكن حينما يعمل الذهن يجد أنَّ هناك معنى آخر للكلمة ، وهذا من مميـــزات الجناس الذي يستدعيه المعنى كما أشار إلى ذلك عبد القاهر الجرجاني في كتابه أسرار البلاغة[3] فينتج عن ذلك جرس موسيقي يؤثر على نفوس السامعين . هـــذا الجـــرس الموسيقي الذي أثر على الشَّاعر ، فجعله يُشعر القارئ بأن كلمة (راحـــة) هـــي نفسها بالرغم من أن راحة الأولى بمعنى الشعور بالسكون والاطمئنان، وراحة الثانيـــة قصد بها كف الممدوح الذي يجود عليه بالنعم ، وهذه النِّعم هي التي تعبث الراحـــة والسكون والاطمئنان لديه .

وفي المثال الثاني يجمع الشَّاعر بين لفظتين اتحدتا في عدد الحـــروف وهيآتهـــا وترتيبها، كما اتحدتا في عدد الحروف – أيضًا – في نفس الشَّاعر الـــذي يـــرى في لفظة (هوى) معنى السقوط والهلاك، فالأولى جاءت بمعنى الحب والشوق والهيـــام

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ١١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٥٠ .

(٣) أسرار البلاغة ، لعبد القاهر الجرجاني ، ص ١٧ .

الذي يلهث الشَّاعر في البحث عنه، وعن ملذاته التي غلبتـــه، فأســـقطته في الهـــلاك والدمار، والكلمة الثانية (هوى) كانت بمعنى السقوط والوقوع في الهلاك – أيضًا ، وهكذا فإنَّ الجناس التَّام حينما يأتي به الشَّاعر عن طبع دون تكلف ينتج عنه اتحاد تام في إحساس الشَّاعر « فإذا أرسلت المعاني على سجيتها رامـــت هـــذه اللغـــة ذات الإيقاع، وكما توجد الألفاظ مرتبة في اللفظ على وفق معانيها في النفس ، فإنه توجد – أيضًا – مع هذه الألفاظ هذه الأحوال الصوتية لتواكب بهذا الرنين الحال الـــذي وجدت المعنى قائمًا عليه في نفسك ومصاحبًا له ، وكأنه يحيط به ويحفه »[١] .

٢ – الجناس الناقص (مختلف الإيقاع) :

كقول ابن درَّاج متحدثًا عن نهاية غربته[٢] :

فَخَتَمْـــتُ طُـــولَ تَقَلُّـــبي بتقبُّلـــي

وجَزَيْـــتُ غـــر غـــرائبي برغَائـــبِ

فالإيقاع الموسيقي في (تقلب – وتقبل) فالكلمة الأولى بمعنى اختلاف هيئـــة الشيء وانتقاله من الجيد إلى الرديء والعكس ، والكلمة الثانية بمعنى القبول والرضا ، وهناك جناس آخر في (غرائب – رغائب) فالكلمة الأولى بمعنى كل شـــيء يـــثير الدهشة ، والكلمة الثانية تشير إلى الطموح وكل ما يرغب المرء في تحقيقه ، فالجناس هنا ناقص ويسمى جناس القلب أو العكس ، وهو ما اختلف فيه اللفظتان في ترتيب الحروف ، فعدم ترتيب الحروف في الكلمتين نتج عنه إيقاع موسيقي مختلف بالإضافة إلى اختلاف في المعنى .

ويقول شاكيًا من الدَّهر الذي لم يغض الطرف عنه لا في نعمة ولا في نقمة[٣]:

---

(١) مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني ، د. محمد أبو موسى ، ص ١٢٦ .

(٢) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٤٢ .

(٣)المصدر السابق ، ص ٥٧ .

فَأَنا الذي لم تُغْض عَيْنُ الــدَّهْرِ عَــنْ

نُعْمَــى ولا نُقْمَــى ينـــامُ حَــسُودُها

فالجناس بين (نعمى – نقمى) فالكلمة الأولى بمعنى رغد العيش ، ونقمـى يعني المصائب وضيق العيش ، فالجناس ناقص ويسمى المضارع ، وهو ما اختلف فيه اللفظتان في نوع الحرف ، ففي كلمة (نعمى) نجد حرف العين الذي حلَّ موضـع القاف في كلمة (نقمى) وحرف العين من الحروف المجهورة التي ينتج عنها ذبذبات صوتية للأوتار وهو صوت حلقي ، أمَّا القاف هو صوف لهوي شـديد مهمـوس ، فهناك مسافة بين مخرج الغين ومخرج القاف ، وهذه المسافة ينتج عنها إيقاع موسيقي.

ويقول ابن درَّاج متحدثًا عن غربة أبنائه وضعفهم[1] :

في سِــتَّةٍ ضَــعُفُوا وضُــعِّفَ عَــدُّهُمْ

حَمْـــلاً لِمَبْهُــورِ الفُــؤَادِ مُبَلَّـــدِ

فالجناس بين (ضَعُفَ – وضُعِّفَ) ، فالكلمة الأولى بمعنى عـدم القـدرة ، والكلمة الثانية بمعنى كثرة العدد . الجناس هنا ناقص ويسمى محرف ، وهو ما اختلف في اللفظتين في هيئات الأحرف ، فالضمة تختلف عن الكسرة ، وهذا الاختلاف ينتج عنه إيقاع موسيقي ، فالكسرة ينتج عنها « مسافة بين الحبس والانفجار يمكن للآذان أن تقدرها »[2]،ويقول متحدثًا عن غربته واغترابه[3] :

أَهِلَّـــةَ سَــــفْرٍ وَقَفْـــرٍ قَطَعْنَـــا

إليـــك الـــشهورَ بِهَـــا والـــسِّنِينَا

---

(١) ، ديوان ابن درَّاج ص ٦٣ .

(٢) المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي ، للدكتور / رمضان عبد التواب ، ص ٩٨ .

(٣) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٩٥ .

الجناس بين (سفر وقفر) فالسفر بمعنى الرحيل والانتقال ، وقفر هو المكـــان البعيد الذي لا ماء فيه ولا زرع ، فالجناس هنا ناقص ويسمى المضارع أو اللاحـــق ، وهو – كما ذكرنا سابقًا – ما اختلف فيه في نوع الحرف ، فالسين والقاف حرفان مختلفان لاختلاف مخارجهما ، فالقاف حرف لهوي شديد مهموس ، أما السين فهـــو أسناني لثوي مرقق مهموس ، وهذا الاختلاف ينتج عنه إيقاع موسيقي . ويقـــول – أيضًا – واصفًا كثرة اغترابه وغربته(١) :

كَلاَّ وَقَدْ آنَسْتُ مِنْ (هـــودٍ) هُـــدَىً

ولَقِيتُ (يَعْرُب) في القُيولِ و (حِمْيَرَا

(هود) هم قوم هود u ، و (هدى) بمعنى الهداية والرشاد الجناس–أيضًا – ناقص ، وهو ما يسمى المضارع ، فحرف الدال من الحروف الأسنانية اللثوية ، أمـــا حرف الألف فمن الحروف الحنجرية .

ويقول واصفًا كثرة المصائب التي تعترضه في غربته(٢) :

وَلَكَمْ أَصَـــابَتْنِي الخُطُــوبُ بِـــشَكَّةٍ

تُعْيِي التَجَلُّـــدَ واحْتَـــسَبْتُ مُـــصَابِي

(فأصاب) بمعنى نال منه ، و (مصاب) بمعنى الأمر الجلل العظيم ، فالجناس ناقص مضارع لاختلاف مخرج الحرفين (الألف – الميم) الألف حرف حنجـــري ، بينما الميم حرف شفوي مجهور متوسط الجهر أنفي ، وهذا الاختلاف ينتج عنه إيقاع موسيقي مختلف .

٦ -الجرس الذي قبل الجناس :

ونقصد به الحالة الانفعالية التي توجب على الشَّاعر تكرار حرف معين ممـــا يعطي البيت جرسًا إيقاعيًّا ، وهذا التكرار من الجرس الذي قبل الجناس ، والـــذي لا

(١)ديوان ابن درَّاج ، ص ١٠٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤ .

يجوز إهداره كما أشار إلى ذلك الدكتور محمد أبو موسى في كتابه (مدخل إلى كتابي عبد القاهر)[1] ، فمن أمثلة هذا النوع من الجناس قول ابن درَّاج متحدثًا عن اغترابه وهو يودع موطنه[2] :

وَوَدَّعَ المَنْزِلَ الأَعْلَى فَأَوْدَعَهُ

في القَلْبِ لاعِجَ بَثٍّ لا يُوَادِعُهُ

فالجناس بين (ودَّع – أودع) ودَّع بمعنى الفراق ، وأودع بمعنى ترك فيه ، فالكلمتان بمعنى الترك والفرق ، ثم التكرار أكسب البيت إيقاعًا موسيقيًّا ، فقد كرر حرف الواو والعين (ودع – أودع – يوادع) ثم تكرار حرف العين دون الواو في قوله : (لاعج – الأعلى) والعين – كما قلنا سابقًا – من الأصوات المجهورة ، ومخرجه وسط الحلق كما ينتج عنه ذبذبات في الوترين ، أما الواو فهو من حروف اللين التي ينتج عند النطق به فراغ بين أقصى اللسان وأقصى الحنك ، فيترتب على ذلك اختلاف مسافة الإيقاع بين المتجانسين ، فيتحقق بذلك معنى المفارقة في إبراز حالة الشَّاعر المتدهورة وحالة موطنه بعد الرحيل عنه .

ويقول متحدثًا عن الخوف والشعور بالاغتراب عند مغادرة الأوطان[3] :

وإنْ يَرُعْ نَازِحَ الأَوْطَانِ عَنْكَ فَقَدْ

رَاعَ العِدَى مِنْهُ يَوْمٌ أَنْتَ رَائِعُهُ

نجد فيه – أيضًا – تكرار حرفي الراء والعين في (يرع – راع – رائع) وكما ذكرنا سابقًا أن العين من الحروف المجهورة الحلقية ، والتي نسمع لها قوة وانفجارًا بينما حرف الرَّاء من الحروف التي تنحصر بين أول اللسان والثنايا العليا ، ولا نسمع لها إلا صوتًا خفيفًا ، إذًا العين والراء بعيدان من ناحية المخرج ، فينتج عنهما إيقاع

---

(١) مدخل إلى كتابي عبد القاهر ، د / محمد أبو موسى ، ص ١٢٢ .

(٢) ديوان ابن درَّاج ، ص ١١٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١١٦ .

موسيقي ، فتظهر – أيضًا – المفارقة ببيان حال الشَّاعر المغترب النــازح الخــائف ، وصورة الممدوح الرائع الجالب لكل شيء يثير الدهشة والاستغراب .

ويقول متحدثًا عن غربة أبنائه حينما يغادرون ديارهم[١] :

تَنْبُو الـــدِّيارُ بِهِـــمْ وتِلْـــكَ دِيَـــارُهُمْ
غَـــرَضُ الَمـــصَائِبِ مَـــا بِهَـــا دَيَّـــارُ

فتكرار حرفي الدال والياء في (الديَّار – ديار – ديَّار) فالدال من الحـــروف الأسنانية واللثوية شديد الجهر مرقق ، والياء غاري متوسط الجهر ، فالجمع بين الشدة ومتوسط الشدة ينتج عنه ملامح موسيقية.

٧ – الازدواج : « هو أن تتزاوج الكلمات والجمل بكلام عذب وألفـــاظ عذبة حلوة »[٢] ، والتزاوج بين هذه الكلمات « ينجم عنه إيقاع متماثـــل يتـــردد بانتظام يعزز موسيقى البيت ويؤصلها »[٣] .

ومن أمثلة الازدواج كقول ابن درَّاج متحدثًا عن غربته واغترابه[٤] :

وَغَرِيـــبٍ تَهْـــوِي بِـــهِ كُـــلُّ أرْضٍ
وَشَـــرِيدٍ ينبـــو بـــه كُـــلُّ وادٍ

وقوله – أيضًا – مادحًا يحيى بن المنذر بأنه قام بتقريب كل مغترب[٥] :

---

(١)ديوان ابن درَّاج ، ص ١٢٩ .
(٢) البديع في نقد الشعر ابن منقذ ، ص ١١١ .
(٣) موسيقى الشعر العربي ، د / شكري عياد ، ص ٢٦٩ ، دار المعرفة – القاهرة .
(٤) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢١١ .
(٥) المصدر السابق ، ص ٢٢٠ .

يا مُــدْنِيَ الأمــلِ البَعيــدِ وإنْ نَــأَى

ومُبْعِــدَ الخَطْــبِ الجَليــلِ وإن دَنــا

ويقول متغزلاً[1] :

غَرَامٌ ولا شَكْوَى وعَتْــبٌ ولا عُتْبَــى

وَشَوْقٌ ولا لُقْيَــا وصَــبْرٌ ولا عُقْبَــى

ويقول مادحًا بعد أن غلبه اليأس[2] :

إلى أَيِّ ذِكْــرٍ غَيْــرِ ذِكْــرِكَ أَرْتَــاحُ

وَمِنْ أَيِّ بَحْــرٍ بَعْــدَ بَحْــرِكَ أَمْتَــاحُ

وهكذا فإذا نظرنا الأبيات السابقة لوجدنا ظهور الإيقاعات الموسيقية في تلك الأبيات بشكلٍ واضحٍ ممثل الازدواج الذي بنيت عليه تلك الأبيات .

ثانياً- الظواهر الأسلوبية المعنوية:

١ – **التَّضاد** : « هو الجمع بين الشيء وضده في كلام أو في بيت شعر »[3] .

« ومغزى الجمع بين الأمور المتضادة يعود إلى ما في الجمع بين الأمور المتضادة مما يُكسب الكلام جمالاً ويزيده بهاءً ورونقًا ، فالضد – كما قالوا – يظهر حسنه الضد، ولكن وظيفة الطباق لا تقف عند هذا الزخرف ، وتلك الزينة التشكيلية بل تتعداها إلى غايات أسمى، فلابد أن يكون هناك معنى لطيف ومغزى دقيق وراء جمع الضدين »[4] . ويقول ابن مُنقذ : « اعلم أن التطبيق هو أن تكون الكلمة ضد

(١)ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٩٩ .

(٢)المصدر السابق ، ص ٤٠٤ .

(٣) علم البديع ، لبسيوني فيود ، ص ١٣٥ .

(٤)ديوان ابن درَّاج ، ص ١٣٦ .

الأخرى »[١] . وقد يكون التَّضاد أو الطباق بين اسمين أو فعلين أو حرفين أو اسم وفعل .

ومن أمثلة التَّضاد والذي وقع في شعر ابن درَّاج :

١ - قوله متحدثًا عن ضيق الحال[٢] :

وضَيْفٌ بِحَيْثُ الطَّيْرُ تُدْعَى إلى القِرَى
يَضِيقُ بِـهِ رَحْـبُ الُمبَـاءَةِ والنُّـزْلِ

٢ – وقوله مادحًا بأن شمله المشتت قد جمع في ظل ممدوحه[٣] :

وَأنـسَ شَـمْلٌ بـالتفرُّقِ مُـوحشٌ
وحَـنَّ خَلـيطٌ بالـصَّبابةِ حَنَّـانُ

٣ – ويقول في بعض خواتيم قصائده متحدثًا عن العز والغني[٤] :

وَلِنعْمَ حَبْرُ الفَقْرِ مِـنْ بَعْـدِ الغِنَـى
والـذُّلُّ بَعْـدَ العِـزِّ آلُ مُحَمَّـدِ

٤ – وقوله عن شدة اغترابه وكثرة الأهوال والمصائب التي تعرض لها[٥] :

فَأَذْهَـلَ مُرْضِـعَةً عَـنْ رَضِـيعٍ
وَأَنْـسَى الحَمَـائِمَ ذِكْـرَ الهَـدِيلِ

---

(١) البديع في نقد الشعر ، لابن منقذ ، ص ٣٦ .

(٢) ديوان ابن درَّاج ، ص ٤١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٠ .

(٤)المصدر السابق ، ص ٦٣ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٦٥ .

٥ – ويقول واصفًا غربته وتغير الحال[١] :

وطيـــب نَفْـــحِ بِنُـــورِ الرِّيـــاضِ

تَلَظَّـــى لَفْـــح بنـــار المقيـــلِ

٦ – ويصف غربتهم ورحلتهم في البحر[٢] :

كما اقْتَسَمَتْ أخْدانَهُنَّ يّـدُ النَّـوَى

فَهُمُ للرَّدَى والبَـرِّ والبَحْـرِ أَخْـدَأنُ

٧ – ويقول محاولاً لإحياء الأمل في قلبه من جديد[٣] :

ولا قَـنَطٌ واليُـسْرُ للعُـسْرِ غَالِـبٌ

وفي العَـرْشِ رَبٌّ بـالخَلائقِ رَحْمَـانُ

٨ – ويصف العزم الذي قاده نحو الممدوح قائلاً[٤] :

ولله مـن عَـزْمٍ إليـكَ اسْـتَقادَني

فـأفرط في بعـدٍ وفـرط في قـربِ

٩ – ويتحدث عن غربته والذعر الذي حاط بهم حتى وصل إلى ممدوحه الذي خفف عنه ذلك ، يقول[٥] :

أسرى إلى الرَّوْعُ في تـأمينِ رَوْعَتنـا

وَسـاوَرَ المَـوتَ في تمهيـدِ مَحْيانـا

---

(١)ديوان ابن درَّاج ، ص ٦٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٧٦ .

(٤)المصدر السابق ، ص ٨٢ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١١٠ .

١٠ – ويقول واصفًا الأهوال والفجائع[١] :

لَها من أعاصيرِ الــشَّمالِ إذا هَــوَتْ

خَوافٍ ومِنْ عَصْفِ الجَنُــوبِ قَــوادِمُ

١١ – ويقول متغزلاً[٢] :

فَغَنَّيْــــتُ بَــــيْنَ ضِــــيائِه وظَلامِــــه

مُغْــرى الجُفُــونِ بِطَرْفِــهِ المغــرى بي

١٢ – ويقول واصفًا غربته واغترابه[٣] :

ذعِرَتْ بِحِسِّ الإِنْسِ تَحْتَ حِجَالِهَــا

واسْتَأْنَــــسَتْ بِــــضَراغِمِ وَذِئـــابِ

١٣ – ويتحدث عن غزو الشيب لرأسه بسبب كثرة الهموم[٤] :

وَبُحورُ هَــمٍّ كَــمْ وَكَــمْ دَاوَيْتُهــا

بِبُحُــورِ يَــمٍّ أَوْ بُحُــورِ سَــرابِ

وشَــــبابُ ليــــلٍ طالَمَــــا بَلَّغْتُــــهُ

تَخْطِيط شَــيْبٍ أَوْ نُــصُولَ خِــضَابِ

فاستخدام الشَّاعر للتَّضاد يوضح حالة الصراع النفسي الذي يعانيه الــشَّاعر، كما يبرز لنا من خلاله حالة القلق والتوتر الذي يشعر به نتيجة غربته واغترابه، فتظهر لنا مفارقة باستخدامه هذا التَّضاد. ففي المثال الأول : نلحظ شعور ابن درَّاج بالضيق والكدر بالرغم من رحابة المكان ، ولكن اللامبالاة والإعراض عنه هو الذي جعلــه

(١)ديوان ابن درَّاج ، ص ١٣٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٥١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٥٢ .

(٤)المصدر السابق ، ص ١٥٣ .

يشعر بهذا الإحساس ، فعبر الشَّاعر عن همه ذلك بواسطة التَّضاد بين (الضيق – الرحب) .

أما **المثال الثاني** : ابن درَّاج تفرق شمله ، ولهذا كان يشعر بالوحشة والانفراد، بينما يجد في جمع الشمل من الأنس والمودة ، عكس التشتت ، فذكر اللفظتين ليعبر عن تلك الحالة النفسية المقلقة (أنس – موحش) .

في **المثال الثالث** : طابق ابن درَّاج بين (الفقر – الغنى – الذل – العز) .

وابن درَّاج في غربته عانى الفقر والذلِّ ؛ ولهذا عبَّر عن هذه الحالة ليوضح لنا المفارقة بين الفقر والغنى ، والذلّ والعزّ ، بما فيه من رفعة وانحطاط .

في **المثال الرابع** : طابق ابن درَّاج بين (النسيان – والذكر) ليعبِّر – أيضًا – عن حالة نسيان تعرض لها الشَّاعر مما دفعه دفعًا نحو حياة الاغتراب والغربة .

أما **المثال الخامس** : ظهر التَّضاد بين (نور – نار) ليوضح لنا شدَّة اغترابه وكثرة الأهوال التي كانت بمثابة النَّار الذي يكتوي به بعد أن كان في الرياض يلفحه نوره ويتنعم بالدعة والاستقرار .

المثال السادس : التَّضاد كائن بين (البر – البحر) فابن درَّاج صادف الأهوال والمصائب في البر والبحر .

المثال السابع : التَّضاد كائن بين لفظتين (اليسر – العسر) ليعبر به الشَّاعر عن رغبته الملحة في الاستقرار وتيسير أموره .

المثال الثامن : التَّضاد بَيِّن يبرز لنا شخصية الشَّاعر القلقة ، فالعزم أفرط في البعد عنه ، كما فرط في القرب ، وهذا دليل على سيطرة اليأس على الشَّاعر .

المثال التاسع : التَّضاد بين (الموت – الحياة) .

المثال العاشر : بين (الشمال والجنوب) .

المثال **الحادي عشر** : بين (الضياء – الظلام) .

المثال **الثاني عشر** : بين (الذعر – واستأنس) .

المثال **الثالث عشر** : التَّضاد بين (شباب – شبيب) .

فكل علاقة مفارقة تنهض بين متضادين هنا تصور لونًا من التَّناقض النفسي والاجتماعي[١] .

فابن درَّاج من خلال المتضادات التي برزت في شعره يمثل لنا جانبًا من حالته النفسية القلقة ، فأراد أن يفجر تلك الطاقة القلقة المحتبسة في نفسه في صورة التَّضاد الذي لم يكتفِ فقط بالصُّورة الزخرفية أو الشكلية ، وإنما تجاوز ذلك ليفصح لنا عن تجربة نفسية تجتاح قلب الشَّاعر، ولتظهر لنا تلك التجربة على شكل إيقاعات موسيقية حزينة .

٢– مراعاة النظير :

« قوامة الجمع بين الأمور المتناسبة ...... وهو الجمع بين أمرين متناسبين أو أمور متناسبة بغير التَّضاد »[٢] .

ويقول الخطيب القزويني : « مراعاة النظير وتسمى التناسب والائتلاف والتوفيق ، وهي أن يجمع في الكلام بين أمر وما يناسبه لا بالتَّضاد»[٣] .

وقد عمد ابن درَّاج إلى توظيف هذا الفن في قصائده التي تناولت موضوع الغربة والاغتراب ، فنذكر على سبيل المثال :

١ - قوله في قلة حظه من العطاء[٤] :

---

(١) قصيدة المديح في الأندلس قضاياها الموضوعية والفنية – عصر الطوائف ، د . أشرف نجا ، ص ٢٧٨ .

(٢) علم البديع – دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع ، د / بسيوني فيود ، ص ١٥٦ .

(٣) بغية الإيضاح ، للخطيب القزويني ، ص ١٩ ، المجلد الثاني .

(٤) ديوان ابن درَّاج ، ص ٤١ .

وَدَوْحَةَ عِلْـــمٍ فِي الــسَّماءِ غُــصُونُها

ترف بلا سُقْيا سوى بغـــش الطــل[1]

٢ – وقوله أيضًا[2] :

ودَوْحَةَ اللهِ زَكِيَّــةَ غَرْسَــها فَزَكَــتْ

أَكْــلاً وظِــلاً وأَشْــجَارًا وأغْــصانًا

٣ – ويقول متحدثًا عن الأشجان[3] :

وإنْ تُسْعِدِ اليــومَ أشْــجَاني نَوائحُــهُ

فَكَمْ وَكم ساعَدَتْ شَجْوي سَــواجِعَهُ

٤ – ويقول متذكرًا تلك الأيام التي تمتع فيها برغد العيش[4] :

وطالَمَــا أَيْنَعَــتْ حَــوْلي حَدائِقُــهُ

والعَيْشُ غضٌّ أنــينُ الــروضِ يانعُــهُ

٥ – ويقول عن غربته ورحيله[5] :

قَدْ طُيِّــرَتْ غِرْبــانُ كُــلِّ مُغَــرِّبٍ

وغُــــرابُهُمْ للبَــــيْنِ لَــــيْسَ يُطــــارُ

« وتكشف البنية التركيبية لهذه الظاهرة السياقية عن علاقة التلازم المعنـــوي التي تتشكل من خلالها مفردات الصُّورة ، حتى تصير خلقًا جديدًا متآلفًا يتلاءم مـــع

(١) بغش : المطر القليل الضعيف .

(٢) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٠٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١١٤ .

(٤)المصدر السابق ، ص ١١٤ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٣٠ .

حركة النفس في بحثها الدائب عن الانسجام والتوازن والتوافق في الطبيعة والمجتمع »[1] .

فابن درَّاج يرى في **المثال الأول** ذلك التَّوازان مع الطبيعة والذي تمثَّل هنا في تلك الدوحة التي علت غصونها حتى وصلت إلى السماء مرفرفة ، ولكن كان المطر الذي يهطل عليها قليلاً وضعيفًا لا يوازي مكانتها ، وكذلك ابن درَّاج، فالبرغم من علو منزلته الأدبية إلا أنَّ حظه كان قليلاً ، فالمراعاة كانت بين (دوحة – غصون – سقيا – بغش) .

أما **المثال الثاني** : نرى التوافق بين (دوحة – غرس – ظل – أشجار - أغصان) ، ابن درَّاج هنا يبحث عن عالم جديد مريح بعيد كل البعد عن حياة التغرُّب والاغتراب ، فوظف تلك الألفاظ ليعبِّر عن مدى رغبته في الانتماء إلى ذلك العالم .

وفي **المثال الثالث** : نرى التوافق بين (أشجان – نوائح – شجوى – سواجع) يكشف لنا الشَّاعر عن سيطرة الحزن عليه .

وفي **المثال الرابع** نلحظ مراعاة النظير بين (أينعت – حدائق – غض – الرَّوض – يانع) .

وفي **المثال الخامس** وقعت المراعاة في (غربان – مغرب – غراب – البين) وكلها دلالات يظهر فيها التوازن والتوافق بين تلك الألفاظ ، وبين الحالة النفسية للشَّاعر ، ليُشكل لنا نوعًا من التأثير على السامع والقارئ مع وجود إيقاع موسيقي مؤثر .

---

(١) قصيدة المديح – قضاياها الموضوعية والفنية ، ص ٢٨١ .

٣ – المبالغـــــة :

« هي أن يدعى لوصف بلوغه في الشدَّة أو الـــضعف حـــدًّا مـــستحيلاً أو مستبعدًا لئلا يُظنَّ أنه غير متناهٍ في الشدة أو الضعف »[١] . ويقول ابن قدامـــة بـــن جعفر : « أن يذكر الشَّاعر حالاً من الأحوال في شعر لو وقف عليها لأجزأه ذلـــك في الغرض الذي قصده ، فلا يقف حتى يزيد في معنى ما ذكره من تلك الحـــال مـــا يكون أبلغ فيما قصد له »[٢] . وإذا نظرنا إلى أبيات ابن درَّاج نلحـــظ اســـتخدامه لبعض صيغ المبالغة ليعبِّر بها عن شدَّة اغترابه وغربته ، يقول[٣] :

وطِلابُ مَـــأْوَى قبـــلَ حـــينِ أَوانِـــهِ
فالـــدَّهْرُ أَجْمَعُـــهُ لِـــيَ اسْـــتِنْفارُ

أجمع : على وزن أفعل .

وقوله عن غربته واغترابه[٤] :

حِذَارًا على إلْفِ الهَوَى غُرْبَةَ النَّـــوَى
وَمـــا إلْفُهـــا إلاَّ الـــوَغى والملاحِـــمُ

حذار : على وزن فِعَال .

ويتحدث ابن درَّاج عن اللوم ، يقول[٥] :

---

(١) بغية الإيضاح ، للخطيب القزويني ، ص ٦٠ .
(٢) نقد الشعر ، لقدامة بن جعفر ، ص ١٤١ .
(٣) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٢٩ .
(٤)المصدر السابق ، ص ١٣٤ .
(٥) المصدر السابق ، ص ١٥٠ .

ولبـــــستُ للَّـــــوْمِ لأْمَـــــةَ خـــــالِعٍ

مَـــــسْرودَة بـــــصبَابَةٍ وتَـــــصَابِ

خالع : على وزن فاعِل .

ومما جاء على هذا الوزن – أيضًا - قوله[1] :

فَمقعَـــــصٌ ناشِـــــزٌ عنـــــهُ حلائلُـــــهُ

وَمُرضَـــــعٌ ذاهِـــــلٌ عنـــــه مراضِـــــعُهُ

ذاهل : على وزن فاعل ، وقوله عن شدة غربته ونزوحه[2] :

فَمَـــــنِ المُبَلِّـــــغُ عَـــــنْ غَريـــــبٍ نَـــــازِحٍ

قَلْبًـــــا يكـــــادُ عَلَـــــيَّ أَنْ يَتفَطَّـــــرَا

نازح : على وزن فاعل . ويقول واصفًا تردده[3] :

وَتَأْخِيرَ رِجْـــــلٍ بَعْـــــدَ تَقْـــــدِيمِ أُخْتِهَـــــا

حذارًا لِدَهْرٍ لا يُغْمِـــــضُ عـــــن حَـــــرْبِي

حذار : على وزن فِعَال .ويقول عن عذابه[4] :

كَما مَسَّنِي الشَّيْطانُ نَحْـــــوَكَ ســـــاعيًا

بِطائفِ سقمٍ من عذابٍ ومـــــن نَـــــصَبِ

---

(١)ديوان ابن درَّاج ، ص ١١٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٥ .

(٣)المصدر السابق ، ص ٨٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٨٠ .

ساعي – طائف على وزن فاعل .

ويصف إحدى أسفاره قائلاً[١] :

يقودُ بهـا هَـادٍ إلى الآمـرِ والمُنَـى
ويَحْدو بها حادٍ على الخوفِ والرعـبِ

حاد : على وزن فاعل .

فهذه الصيغ التي استخدمها ابن درَّاج أفادت المبالغة والتكثير من معاناته ومصابه .

٤ – جمع التكسير :

وهو من الجموع الدَّالة على الكثرة ، فاستخدمه ابن درَّاج ليوضح كثرة اغترابه وجلل مصابه ومعاناته ،فمن ذلك قوله واصفًا غربته وتشرده في البيد ليلاً مع شدة الظلمة التي تنعدم معها الرؤية[٢] :

بـوارقُ ظلْمـاءُ ظلـم تبـيحُ
دُمى مِنْ حِمَـىً أَوْ دمًـا مـن قتيـلِ

ويصف غربة أبنائه ومدى سيطرة الحزن عليهم قائلاً[٣] :

واسْتَوْطَنُوا فزَعًـا إلى بَحْـرِ النَّـدَى
أهـوالَ بَحْـرٍ ذي غَـوارِبِ مُزيـدِ

ويتحدث عن غربته[٤] :

يهـيج فيهـا زفـيرُ الريـاحِ
مَـدامعَ شَـجْوِ السَّحابِ المخيـلِ

---

(١)ديوان ابن درَّاج ، ص ٦٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٣ .

(٣)المصدر السابق ، ص ٦٣ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٦٦ .

ويتحدث عن غرائب الغريب قائلاً[1] :

وفي طَيِّ أَسْــمالِ الغَريــبِ غرائــبٌ

سَكَنَّ شَغافَ القَلبِ شــيبٌ وولْــدانُ

إذًا المعاناة كانت شديدة وكثيرة ، والجمع الذي جاء به الشَّاعر ليدل علــى عمق الحدث وعظمته ، كقوله : (بوارق – غوارب – مدامع – غرائب) .

٥ – القصــر :

لُغَــةً : الحبس والإلزام ، تقول : قصرت نفسي على الــشيء؛ إذا حبــستها وألزمتها إياه ، كما تقول : قصرت الشيء على كذا ، إذا لم يتجاوز به غيره[2] .

وللقصر نوعان : قصر صفة على موصوف ، وقصر موصوف على صفة ، وله (القصر) أدوات : لا وإلا وإنما ، وأداة العطف لا ولكن وبل ، وتقديم المفعول على الفعل ، وتقديم الخبر على المبتدأ ، وتقديم الجار والمجرور على فعلهما ، ويُطلق عليــه البلاغيون تقديم ما حقه التأخير .

والملحوظ أنَّ ابن درَّاج وظف القصر في قصائده الــتي تناولــت موضــوع الاغتراب ليدعي أنه لا أحد قد بلغ مبلغه في التغرب والتشرد والضياع ، ونذكر على سبيل المثال قوله واصفًا اغتراب أبنائه ، قائلاً[3] :

١ - وَأَنْجُمُ أنواءٍ تَنوءُ بهــا النَّــوَى

وليْسَ لهــا إلاَّ دُمــوعيَ مِــنْ قطْــر

---

(١)ديوان ابن درَّاج ، ص ٧٤ .

(٢) علم المعاني ، لعبد العزيز عتيق ، ص ١٤٦ .

(٣)ديوان ابن درَّاج ، ص ١٦٠ .

ولا مَطْلَـــعٌ إلا مَهَـــادي أو حِجْـــري

ولا مَغْرِبٌ إلا ضُـــلوعِي أَوْ صَـــدْري

وقوله في غربة أبنائه[1] :

٢ - ولا خُلَّة إلاَّ الهجـــيرُ إذا الْتَظَـــى

فكانَ لَهُمْ حَمْـــرًا وكـــانوا لـــه شَـــيًّا

٣ - ولا نسبٌ إلاَّ الثريَّا إذا انْتَحَـــتْ

فكَانَتْ لهمْ نِصْفًا وَكـــانُوا لـــهُ ثِنْيـــا

٤ - ولا صِدْقَ إلاَّ للرجاءِ الذي سَرَى

فقَصَّرَ طولَ الليلِ واسْـــتَقْرَبَ النَّايَـــا

ويصف غربته وتعرضه للأهوال قائلاً[2] :

٥ - وما أرَى قبلَهـــا قِرْنًـــا أُعانِقُـــهُ

إلاَّ وَوَدَّعَ نَفْـــــــسًا لا تُراجِعُـــــــهُ

ويقول – أيضًا – واصفًا غربته واغترابه[3] :

٦ - فلا مُؤْنِسٌ إلاَّ شَـــهيقٌ وزَفْـــرَةٌ

ولا مُـــــسْعِدٌ إلاَّ دُمُـــــوعٌ وأَجْفـــانُ

---

(١)ديوان ابن درَّاج ، ص ١٤٨ .

(٢)المصدر السابق ، ص ١١٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٧٥ .

٧ – وَما كانَ ذاكَ البَيْنُ بَـــيْنَ أَحِبَّـــةٍ

وَلَكِـــنْ قلـــوبٌ فـــارَقَتْهُنَّ أَبْـــدَانُ

ويقول – أيضًا – في غربته واغترابه[1] :

٨ – فما تهتدي العـــين فيهـــا ســـبيلا

سِـــوَى سَـــبَلِ العَبَـــراتِ الهُمُـــولِ

٩ - ولا يَعْرِفُ المَوْتُ فيهـــا طريقًـــا

إِلَـــى الـــنَّفْسِ إلاَّ بعـــضَبٍ صَـــقيلِ

في المثال الأول من باب قصر الصفة على موصوف إذا ادعى الشَّاعر أن أحد أبنائه لا مطلع ولا مشرق لهم سوى مهده وحجره ، ولا مغرب لهـــم إلا ضـــلوعه وصدره ، فالشَّاعر هنا يوضِّح مدى سيطرة الرُّعب والخوف على أبنائه ، فليس لهـــم مكان يلوذون إليه ويحميهم من دياجير الظلام والذئاب والأهوال إلا مهـــد وحجـــر وضلوع والدهم ، فالشَّاعر أراد من أسلوب القصر هذا إبراز مدى شدَّة اغترابهم .

أما **المثال الثاني :** قصر صفة على موصوف– أيضًا ، فقد قصر صفة الخليـــل على الهجير الموصوف ليبين تفرُّد أبنائه واغترابهم ، حيث لم يبلغ أحد مبلغه ، فهـــم يجوبون القفار وحيدين دون أنيس وصديق حميم لهم سوى الهجير ، الذي تشتد لظاه إذا كانوا لذلك الهجير بمثابة الجمر الذي يزيد من اشتعاله .

أما **المثال الثالث :** من باب قصر الصفة على الموصوف– أيـــضًا– فالـــشَّاعر يريد أن يوضح لنا ضخامة معاناة أبنائه الذين لا نسب لهم إلا الثريا الـــتي يبـــصرونها

---

(١)ديوان ابن درَّاج ، ص ٦٥ .

وهم في رحيلهم الدائب ، فهو يريد أن يوضح شدَّة اغترابهم ووحدتهم ، فهم لـــيس لهم نسب يربطهم بالبشر وإنما نسبهم متصل بالثريا والنجوم .

المثال الرابع : قصر الصفة (الصدق) على الموصوف (الرجاء الذي يقــصر طول الليل ويقرب لهم النوى والبعد) .

والمثال الخامس : من باب قصر موصوف على صفة ، فهو حينما يرى ذلك الوحش الذي يقاتله ما كان منه إلا أن يسلم أمره للموت .

المثال السادس : من قبيل قصر صفة على موصوف، فلا مؤنس (الــصفة) لابن درَّاج إلا (الشهيق والزفير الذي يُطلقه ليخفف من أوجاعه وألمه ، وليس هناك أمر يسعده في تلك الفلوات إلا ذرف الدموع ، فابن درَّاج ينفي كل شيء يؤنـــسه ويسعده إلا الشهيق والزفير الملازم له والدموع التي تسيل من أجفانه ليوضح شـــدة معاناته .

المثال السابع : يقول أن ذلك الفراق لم يكن فراقًا بين أحبة فقط ، وإنما فراق غادرت فيه القلوب الأبدان ، فالشَّاعر لجأ إلى أسلوب القصر ليوضح شدَّة ذلك البين على نفسه الذي لم يبلغه أحد سواه .

المثال الثامن : قصر هداية العين وسبيلها على طرق العبرات وذرف الـــدموع فهو من باب قصر موصوف على صفة .

المثال التاسع : فالموت لا يعرف الطريق إلى نفس الشَّاعر إلا بعضب صـــقيل والقصر من باب قصر موصوف على الصفة .

- التنغيم الإيقاعي الانفعالي :

« التنغيم ثري بإمكاناته التعبيرية عن المواقف الانفعالية المختلفة من دهشة واستنكار وتعجب ، أو بكلمات أخرى ، ويُعد التنغيم بمثابة المرآة التعبيرية اللغوية التي تعكس الحالة الشخصية »[1] .

فالحالة النفسية أو الانفعالية هي التي تجعل الشَّاعر « يرفع الصوت ويخفضه في أثناء الكلام للدلالة على المعاني المختلفة كالنفي أو التهكم أو الاستفهام »[2] . فمن التنغيم الانفعالي عند ابن درَّاج استخدام الاستفهام كقوله مستفهمًا عن إمكانية الإجابة له وتنزيله المنزلة التي يستحقها[3] :

أبا الأصبَغِ المعنيَّ هل أنتَ مُصْرِخي ؟
وهلْ أَنتَ لي مُغْنٍ ؟ وهل أَنْتَ لي مُعْلِ ؟
وهل مَلِكُ الإنْعامِ والجُودِ عائدٌ
بإحسانِ ما يُؤلي على حُسْنِ ما أبْلَى ؟
وهل لِرياضِ المُلْكِ في نفحَةِ الصَّبَا ؟
وهل لسَماءِ المَجْدِ في كَوْكَبِ النبلِ ؟
وَحَتَّى متى أُعْطي الزَّمانَ مقادَتي ؟
وقد قَبَضْتُ كفِّي على قائمِ النصلِ

فقوله : (هل أنت مصرخي ؟ وهل أنت لي مغن ؟ وهل أنت لي معل ؟ وهل ملك ؟ وهل لرياض ملك ؟ وهل لسماء المجد ؟ نلحظ فيه تنغيم إيقاعي انفعالي ، ولكن ازدادت حدة هذا الانفعال حينما قال : حتى متى أعطى الزمان مقادتي ؟

(١) علم الأصوات ، د. محمد أحمد محمود ، ص ٢١٣ .
(٢) مدخل إلى علم اللغة ، د. رمضان عبد التواب ، ص ١٠٦ .
(٣) ديوان ابن درَّاج ، ص ٤٠ .

فتصعدت النغمة لأنها هنا مرتبطة بمعنى الدهشة والاستغراب، وكأنَّ التساؤل هنا يمتد ليبحث وينقب عن قوة جبارة تستطيع أن توقف هذا الرحيل الدائم والاغتراب الدائم، ثم إن تكراره لحرف الحاء : (حول – يحول – رحيل) يعطي البيت إيقاعًا موسيقيًّا مبرزًا مدى معاناة الشَّاعر .

ويستفهم ابن درَّاج عن إمكانية نجاتهم من أهوال تلك الرحلة البحرية ، يقول[١] :

ألا هلْ إلى الدُّنيا مَعادٌ وهلْ لنا

سِوى البحْرِ قبْرٌ ْو سِوى الماءِ أكفانُ؟

وهَبْنا رْينا مَعْلَمَ الأرض هلْ لنا

من الأرض مأوًى أو من الإنس عِرفان؟

فالاستفهام هنا يظهر حالة الشَّاعر النفسية ومن معه، إذْ لا يمل من تكرار السؤال ألا هل وهل لنا – هل لنا من الأرض ؟ فتظهر لنا نغمة حزينة يدثرها اليأس من النجاة، فيكون البحر قبرًا لهم ، والماء أكفانًا لهم، وإن نجوا من تلك الرحلة هل سيكون لهم في الأرض مأوى يأويهم وخيرًا يجدونه من الناس . ويتساءل ابن درَّاج عن وقت انتهاء حياة الغربة والاغتراب . يقول[٢] :

فهل حَوْلٌ يحولُ بلا رحيل؟

ولوْ شيئًا نراه في المنام

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٧٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٩٤ .

فنغمة الاستفهام نغمة حزينة تبرز حالة الشَّاعر القلقة، وتظهر هذه النغمـــة إذا وقفنا على لفظة «رحيل» لإثبات معاني الحزن «حول – يحول - رحيل» ويتساءل ابن درَّاج عن زمن نهاية هذا العذاب والألم قائلاً(١) :

بِـــسَيْرٍ يقــولُ الــصَّفا الــصُّمُّ منــه

أمـــا للحـــوادثِ قلـــبٌ رحـــيمٌ ؟

أمـــا يـــستقالُ الزمـــانُ الكئـــودُ ؟

أم يُـــــسْتَكَفُّ العـــذابُ الألـــيمُ ؟

ولإظهار عمق المأساة المحتبسة في قلب الشَّاعر على الاستفهام «أما للحوادث قلب رحيم ؟ أما يستقال الزمان الكئود ؟ أم يستكف العــذاب الألــيم ؟» الــذي أكسب تلك الأبيات إيقاعًا تنغيميًّا حزينًا ينبثق من قلب يعاني العذاب والألم . ويقول أيضًا(٢):

أيغْـــرُبُ عِنْـــدَكَ نجْـــمُ اغتِـــرابي ؟

ومطلعُـــــهُ لـــــكَ في الأرضِ بـــــادِ

ويتساءل ابن درَّاج عن زمن انتهاء اغترابه باستفهام نلمس فيه عمق الكآبـــة التي يعيشها الشَّاعر جراء ذلك الاغتراب كما أن هذا الاستفهام أكسب البيت إيقاعًا حزينًا ، كما استخدم ابن درَّاج أيضًا النداء ليعبر عن تلك الحالـــة الانفعاليـــة الـــتي تكسب البيت إيقاعًا تنغيميًّا كقول ابن درَّاج مخاطبًا كل غريب شريد عن وطنه(٣) :

ويـــا غريبًـــا شـــريدًا عـــن مواطِنِـــهِ

لِتَهْنِـــكَ الأرضُ ألافًـــا وأوْطانًـــا

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٢٨ .

(٢) المصدر السابق، ص ٢٤٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٠٨ .

ويا مَرُوعَ الـضُّحى يُزْجِـي ظعائنَـهُ

عَــرِّسْ بجــوْز الفــلا أمْنًــا وإيمانًــا

ولإظهار شدَّة اغترابه وغربته لجأ الشَّاعر إلى هيكل تنغيمي مرتفــع تمثَّــل في حرف النداء والمنادى اللذين يرتفع الصوت عند النداء بهما ليوضح شدَّة إحـساسه بالضياع والتشرّد حتى إنَّ الفيافي والأوطان قد عرفته . ويستخدم الشَّاعر النداء ليعبر عن شوقه لأبنائه في غربته . يقول[1] :

ويا طُولَ ظِمئــي لِخَمْــسٍ وعَــشْرٍ

طَريــدَ الحِيــاضِ بعيــدَ الإضــاءِ[2]

فالنداء هنا يحمل معاني الشوق والحنين ؛ ولذا ظهر الإيقاع التنغيمي للبيــت مرتفعًا يتناسب مع الحالة الشعورية التي تحيط بالشَّاعر . ويستخدم النداء ليعبر عــن ضيقه وحزنه ، يقول[3] :

فَيــا ضــيقَ ذَرْعِــي لَهُــم بــالزَّفيرِ

عَلَى ضــيقِ ذَرْعــي بــضيقِ الــشِّتاءِ

النداء جاء ب - (يا) وهو للبعيد وأفاد تعظيم ذلــك الـضيق في نفــسه ، فالشَّاعر يعايش حالة شعور بضيق ، وهم وهو بحاجة إلى صوت مرتفع لإخراج ذلك الهم الذي تكتظ به نفسه .

ويقول مادحًا ممدوحه بأنه آواه بعد غربته فيستخدم النداء ، يقول[4] :

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٨٦ .

(٢) الإضاء : هو الغدير .

(٣) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٨٧ .

(٤)المصدر السابق ، ص ٣٦١ .

يا مُوسِـعَ الـرَّاجِينَ إفْـضالاً ويـا
مَـأْوَى الغَريـبِ وكافِـلَ الأَيْتـامِ

النداء جاء هنا لتعظيم مكانة ذلك الممدوح الـذي زاد في إفـضاله بـإيواء للغريب، فجاء هذا النداء لإبراز خصال ممدوحه .

ويقول متعجبًا من صروف الزمان[١] :

فَيَـا عَجَبًـا لـصروفِ الزمـانِ
شُهودًا لَنـا وَهْـيَ فينـا خُـصومُ !

يتعجب الشَّاعر من ذلك الزمان الشاهد على غربته وعذابه ، وهو في الوقت نفسه خصم عنيد له، فجاء بالنداء للتعجب ليواكب الحالة النفسية للشاعر .

ومن التنغيم الانفعالي الذي استخدمه الشَّاعر – أيضًا – تكرار (إن) الـتي تفيد الشرط ، كقوله مؤكدًا شدة اغتراب أبنائه وغربتهم[٢] :

فَـإِنْ أَقْـوَتْ مَغَـانِي العِـزِّ مِـنْهُمْ
فَكَـمْ عَمِـرَتْ بِهِـمْ بِيـدٌ خَـلاءُ
وَإِنْ ضَـاقَتْ بِهِـمْ أَرْضٌ فَـأَرْضٌ
فَمَـا بَكَـتْ لِمِـثْلِهِمُ الـسَّماءُ
وَإِنْ نَـسِيَ الـرَّدَى مِـنْهُمْ ذمَـاءً
فأَعْـذَرَ زَاهِـقٌ عَنْـهُ الـذمَاءُ

يؤكد الشَّاعر هنا شدة اغتراب أبنائه وغربتهم ، فهم قد عمَّروا في البيـد وفي الخلاء حتى ضاقت بهم الأرض بما رحبت وبكت عليهم السماء ، فجاء بـ(أن) ليؤكد الحالة النفسية والمعاناة التي تحملوها في تلك البيد ، وفي ذلك الخلاء .

---

(١)ديوان ابن درَّاج ، ص ٢٢٨ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٢٧٧ .

ومن الإيقاع التنغيمي الذي استخدمه ابن درَّاج أسلوب القسم ، كقوله[١] :

ولأَعْسِفَنَّ اللَّيْلَ غَيْرَ مُشَيَّعٍ
ولأرْكَبَنَّ الهَوْلَ غيرَ مُذَلَّلِ
ولأَسْطُوَنَّ على الزَّمانِ بِعَزْمَتِي
ولأنْحِيَنَّ على الخُطوبِ بِكَلْكَلي
ولأَرْمِيَنَّ مُقاتِلَ النُّوَبِ التي
وَلَعَتْ مع المُتَخلِّفينَ بِمَقْتَلي

وإذا ما نظرنا إلى الأبيات السابقة لوجدنا هنا نغمة إيقاعية عالية تناسب الحالة الانفعالية أو الشعورية للشاعر، فالشَّاعر يريد أن يتغلب على كل الصعاب التي تواجهه في غربته ورحيله ، فهو يُقْسِم أن يسير في الليل ويركب الصعاب ، ولسوف يسطو على الزمان بعزيمةٍ قويةٍ غير مترددة؛ ليتغلب على تلك الخطوب ويقاتل النوى والبعد الذي كان يتربص به ليقتله .

وهكذا نجد لتنغيم « أشكال محددة ، فالهيكل التنغيمي الذي تأتي به الجملة الاستفهامية غير الهيكل التنغيمي لجملة الإثبات ، وهن يختلفنَّ من حيث التنغيم عن الجملة المؤكدة ، فلكل جملة من هذه صيغة تنغيمية خاصة فاؤها وعينها ولامها وزوائدها وملحقاها نغمات معينة بعضها مرتفع وبعضها منخفض »[٢] . تواكب حالة التوتر والقلق الذي يعانيه ابن درَّاج .

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٣٥٣ - ٣٥٤ .

(٢) اللغة العربية معناها ومبناها ، د. تمام حسان ، ص ٢٢٦ .

- كـــم الخبريــــــة :

واستخدمها ابن درَّاج ليخبرنا عن كثرة غربته واغترابه، ممـــا جعلـــه ينفعـــل ويكررها، ليُجَسِّدَ هذا التَّكرار تناغمًا صوتيًّا يعبر عن نفسية الشَّاعر ، ومن ذلك قوله مخبرًا عن كثرة الأهوال والصعاب(١) :

فَكَمْ غالٍ من أجسامِها غَــوْلُ قفْــرَةٍ

وخَـــرَّم مـــن ألْبـــابِهِنَّ الخَــارِمُ

وَكَمْ عَجَــزَتْ عَنَّــا ذواتُ قَــوائمٍ

فعُجْنَـــا بعُـــوجٍ مـــا لَهُـــنَّ قـــوائِمُ

ويقول – أيضًا – عن كثرة الصعاب في رحيلهم(٢) :

وَكَمْ وَجَّهُوا وَجْهًــا لِبَارِقَــةِ الظُّبَــى

وَكَمْ وَطَّنُــوا نَحْــرًا لِنافِــذَةِ النَّحْــرِ

وَكَمْ أَقْدَمُوا بَيْنَ المَنَايا كَمَــا هَــوَتْ

فَرَائسُ أُسْدِ الغابِ للنَّـــابِ والظُّفْــرِ

وَكَمْ بَدَّلُوا مِنْ وَجْــهِ رَاعٍ وَحَــافِظٍ

وُجُوهَ المَنَايَا السُّودِ والحَــدَقِ الحُمْــرِ

وَكَمْ زَفْرَةٍ نَمَّــتْ عَلَــيْهِمْ بِحَــسْرَةٍ

أَنَارَتْ بِنــارِ الــسِّرِّ في عَلَــمْ الجَهْــرِ

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٣٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٥٨ .

ويقول – أيضًا[1] :

فكَمْ حَمَلتْ مِنْ حُـــرٍّ قلـــب مُوَلَّـــه
يُبَلِّـــغُ عَنْــــهُ الـــنَّجْمُ قَلْبًـــا مُولَّهـــا
وَكَمْ ضَمَّ ذاكَ اللَّيْلُ مـــن أمٍّ شَـــادنٍ
أضـــلَّتْهُ في جَـــوْفِ الفَـــلا وأضَـــلَّها

ويقول واصفًا ومخبرًا عن كثرة هموم أبنائه[2] :

وَكَـــمْ فَاضَـــتْ مَـــدَامِعُهُمْ فَمَـــدَّتْ
عُبَـــابَ البَحْـــرِ بِالْمَـــاءِ الـــرَّوَاءِ
وَكَـــمْ خَاضُـــوا كَهَمِّهِـــمُ بُحُـــورًا
وَكَمْ عَـــدِمُوا الثَّـــرَى عَـــدَمَ الثَّـــرَاءِ

خصائـــــص شـــــعره :

يقول إحسان عباس : « إليه انتهت الطريقة الـــتي اختارهـــا الأندلـــسيون وارتضوها بعد الغُزَّال ، وعنده بلغت آخر الشوط في تطورها وتعقدها والتوائهـــا ؛ لأنه جمع بين أبي تمام والمتنبي ، وحاول أن يسبق كل من تقدمه في المعاني والـــصياغة مازجًا كل ذلك بجلبة ابن هانئ، مطيلاً إطالة ابن الرومي ، معتمدًا في أكثـــر شـــعره على الكدِّ والمصابرة والنحت ، ولقد أصاب ابن شهيد حين وصفه بشدة الأســـر في الشعر والصبر على حوك الكلام ، والاقتدار على البديع إذا قورن بمن تقدمـــه مـــن الأندلسيين، وبطول النفس في قصائده وبخاصة الوصف ، وبتعقب المعاني والتلاعـــب بها وترديدها ، وبالغموض »[3] .

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٨٧ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٢٧٢ .
(٣) تاريخ الأدب الأندلسي – عصر سيادة قرطبة ، د. إحسان عباس ، ص ٢٣٥ .

ومن خصائص شعره – أيضًا – بروز السمة المحلية في شعره كما أشار إلى ذلك الدكتور أحمد هيكل، ونقصد بالسِّمة المحلية « أنَّ الشِّعر واضح التأثر بالطابع الإقليمي ومؤثراته ، كما هو شأن الشعر الحقيقي شرقًا أم غربًا »[1] . وابن درَّاج قد تفرَّد بين هؤلاء جميعًا باتضاح اللون المحلي في شعره بشكلٍ لا يحتاج إلى تلمس أو بحث ، فهو في شعره لون واضح في أكثر من جانب ، ويبرز في أكثر من ناحية ، ومن هنا اعتبر سمة من سماته ، وأضيفت تلك السمة إلى سمات الشعر الأندلسي التي لا تفرق بينه وبين الشعر المشرقي ، منذ أن اتضحت في شعر ابن درَّاج »[2] .

ومن شواهد هذه السِّمة أبيات الشَّاعر التي يصور فيها رحلة بحرية بأهوالها وصعابها ومدى ووقع تلك الأهوال على من معه من النساء والأطفال ، حتى أنهم ليقولون بين تلك الأمواج القوية المتلاطمة والظلام الحالك : هل لهم عودة إلى الدنيا ؟ يقول ابن درَّاج[3] :

يُرَدَّدْنَ في الأَحْشاءِ حَزَّ مصائبِ
تزيدُ ظَلامًا لَيْلَهَا وهْيَ نِيرانُ
إذا غِيضَ ماءُ البَحْرِ مِنْهَا مَدَدْنَهُ
بِدَمْعِ عُيونٍ يَمْتَرِيهنَّ أَشْجَانُ
وَإنْ سَكَنَتْ عَنَّا الرِّياحُ جَرَى بِنَا
زَفِيرٌ إلَى ذِكْرِ الأَحِبَّةِ حَنَّانُ
يَقُلْنَ وَمَوْجُ البَحْرِ والهَمِّ والدُّجَى

---

(١) التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي ، د. حسن النوش ، ص ٤٨٩ – دار الجيل ، بيروت، طبعة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .وانظر الأدب الأندلسي د.أحمد هيكل .ص٣٢٢ .

(٢) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، د. أحمد هيكل ، ص ٣٢٦ .

(٣) ديوان ابن درَّاج ، ص ٧٤ .

تمــــوجُ بِنَـــا فيهـــا عُيــــونٌ وآذانُ

أَلا هَلْ إلى الدُّنْيا مَعَــادٌ وَهَــلْ لَنَــا

سِوَى البَحْرِ قَبْرٌ أَوْ سِوَى الماءِ أَكْفانُ ؟

وَهَبْنَا رَأَيْنا مَعْلَــمَ الأَرْضِ هَــلْ لَنَــا

مِنَ الأَرْضِ مَأْوىً أَوْ مِنَ الإِنْسِ عِرْفانُ

ومن أبرز خصائصه الفنية – أيــضًا – بــروز الــسمة الثقافيــة الدينيــة بشكل ملحوظ في شعره ، فكثيرًا ما يذكر شخصيات دينيــة في شــعره ليجعلــها أنموذجًا حيًّا يمثل غربته واغترابه ومواجهته للــصعاب والأهــوال ، فيــذكر علــى سبيل المثال قصة عصا موسى u ، وغربــة ســيدنا يوســف u ، وســنذكر على سبيل المثال قوله(١) :

وقَدْ أَمِنَ التثريــبَ إخْــوَةُ يوســفَ

وأَدْركَهـــم للهِ عَفْـــوٌ وغُفــــرانُ

ويقول(٢) :

سَرَتْ مِنْ عَصا مُوســى إليــهِ قَرابَــةٌ

فطبٌّ بفَلْقِ البَحْــرِ والــصَّخْرِ عــالمٌ

ويقول في كثرة عدد أبنائه(٣) :

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٥٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٧.

(٣) المصدر السابق ، ص ١٥٧ .

فَلِلَّه مِــنْ أَعْــدَادِ أَنْجُــمِ يُوسُــفَ

تَحَمَّلَهَــا مِنْهَــا أَقَــلُّ مِــنَ العَــشْرِ

ويقول أيضًا(١) :

إذا ازْدَحَمُوا في ضَنْكِ شِرْبِي تَمَثَّلُــوا

بِأَسْباطِ مُوسَى حَوْلَ مُنْفَجَــرِ الــصَّخْرِ

وَلَوْ بِعَــصَا مُوسَــى أُفَجِّــرُ شُــرْبَهُمْ

وَلَكِنْ بِــذُلِّ الفَقْــرِ في عِــزَّةِ الــوَفْرِ

ويقول أيضًا(٢) :

أَخُــو ظَمَــإٍ يَمُــصُّ حَــشاهُ سَــبْعٌ

وَأَرْبَعَــــةٌ وَكُلُّهُـــــمْ ظِمَــــاءُ

كَـــأَنْجُمِ يُوسُــفَ عَــدَدًا وَلَكِــنْ

بِرُؤْيَـــا هَــــذِهِ بَــــرِحَ الخَفَــــاءُ

خُطُــــوبٌ خَــــاطَبَتْهُمْ مِــــنْ دَوَاهُ

يَمُــوتُ الحَــزْمُ فيهــا والــدَّهَاءُ

تَــرَاءَتْ بِالكَوَاكِــبِ وَهْــيَ ظَهْــرٌ

وَآذَنَ فيـــهِ بالـــشَّمْسِ العِــشاءِ

فَهَــلْ نَظَــرِي تَخَفَّــى أَوْ بِــصَدْرِي

وَضَــاقَ البَحْــرُ عَنْهَــا والفَــضَاءُ

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ١٦٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٧٦ .

وَكُلُّهُـــــمُ كَيُوسُــــفَ إذْ فَــــدَاهُ

مِـــنَ القَتْـــلِ التَّغَـــرُّبُ واجَـــلاءُ

ويقول في رغبته في جمع شمله[1] :

ويُجْمَعُ شَمْلُ الوَصْلِ من فُرقةِ القلـى

ويُرْفَعُ بَنْدُ الوَصْلِ من مَصْرَعِ الـنِّكْسِ

كجَمْعِ (سُلَيمانَ) الـنَّبيِّ بـصِهْرِكُمْ

ذَوِي يَمَنٍ والـشامِ والجِـنِّ والإنْـسِ

وتَأْليفِ (ذي القَرْنَينِ) إذْ هُدِيَتْ لـه

كَريمَةَ (دَارا) دَعْوَة الرُّومِ والفُـرْسِ

وكذلك ظهور السمة الثقافية التاريخية؛ إذْ يعمد الشَّاعر إلى ذكـر بعـض القبائـل المندثرة، كقول ابن درَّاج[2] :

كَلاَّ وقد آنسْتُ من (هـود) هُـدًى

ولقيتُ (يَعْرُبَ) في القُيُولِ و(حِمْيَـرَا)

وأصَبْتُ في (سَـبَأٍ) مُـورَّثَ مُلْكِـهِ

يَسبي المُلوك ، ولا يَدُبُّ لهـا الـضَّرا

فكأنمـا تابَعْـتُ (تُبَّـعَ) رافِعًـا

أعلامَـهُ مَلكًـا يـدينُ لـه الـورَى

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص ٤٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٦ .

ويقول في خاتمة بعض قصائده[1] :

وهَنِيئًا لِطَيِّءٍ ولِهَمْدَا

نَ وَلَخْمٍ وَكِنْدَةٍ وَمُرادِ

ويقول – أيضًا[2] :

وإذا الدُّهورُ تساجَلَتْ أَلْفَيْتُمُ

يا آل تُبَّعَ للدُّهورِ دُهورَا

ويقول – أيضًا[3] :

وَأَعْقَبَ طُولُ الحَرْبِ أَبْنَاءَ (قيلَةٍ)

زَكَاةً وَرُحْمًا فيهِ أَمْنٌ وَإِيمَانُ

وحَنَّتْ لِدَاعِي الصُّلْحِ بَكْرٌ وَتَغْلَبٌ

وشَفَعَتِ الأَرْحَامَ عَبْسٌ وذُبْيَانُ

هذه هي أهم السِّمات الفنية التي تميز بها ابن درَّاج ، والتي آثرنا بذكرها هنا لما لها من علاقة بموضوعنا (الاغتراب) من حيث اتصالها بالحالة النفسية للشاعر ، وإن كانت هناك سمات أخرى كثقافة الشَّاعر اللغوية والحربية، وذكره لأسماء القادة والمعارك الأندلسية، وغيرها لضيق المقام هنا، ولأن الدراسة ليست بصدد دراسة ديوان الشَّاعر كاملاً ، وإنما اتخذت منهجًا لتتبع قضية (الاغتراب والغربة) في شعره.

---

(1) ديوان ابن درَّاج ، ص ٢١١ .

(2) المصدر السابق ، ص ٢٢٢ .

(3) المصدر السابق ، ص ٥٠ .

الخاتمـــــة

لقد حاول هذا البحـــث أن يـــستنطق الاغتـــراب في شـــعر ابـــن درَّاج ، وحياته من خلال الدراسة الموضـــوعية والفنيـــة، والـــتي اعتمـــدت في دراســـتها للشِّعر على المنهج التحليلي التكاملي الجامع لمحاســـن المنـــاهج الأخـــرى ، كمـــا اعتمدت – أيضاً - على الجانب النفسي الـــذي حـــاول جاهـــدًا تفـــسير هـــذه الظاهرة (الاغتراب) في شعر القسطلي .

وقد أسفرت الدراسة عن جملة مـــن النتـــائج تـــتلخص في المقدمـــة الـــتي أبرزت أهمية الموضوع، والتي ترى أن هذه الظـــاهرة مـــن الظـــواهر الاجتماعيـــة التي لا يمكن أن يغفل عنها، خاصةً إذا وجدت عند شـــاعر فحـــل طالمـــا قـــورن بشعراء فحول كالمتنبي وغيره ؛ ولهذا عمدت المقدمـــة إلى إبـــراز أهـــم المـــؤثرات والعوامل التي جعلت من ذلك الـــشَّاعر مغتربـــاً كـــبيراً مهـــضوم الحقـــوق مـــن خلال الحديث عن نـــسبه وحياتـــه. ثم التمهيـــد الـــذي وضَّـــح معـــنى الغربـــة والاغتراب بالرجوع إلى السديم المعجمـــي ، ومـــن خـــلال البحـــث في بعـــض المراجع التراثية والحديثة التي تطرقت إلى توضيح هـــذا المعـــنى مـــن خـــلال عـــدة مفاهيم قد تم التركيز عليها ، كالمفهوم النفـــسي للغربـــة والاغتـــراب ، والمفهـــوم الإسلامي لها. ومن خلال ذلـــك العـــرض وجـــدت ارتبـــاط المعـــنى المعجمـــي لمصطلح الغربة والاغتراب بالمعاني التي توصـــل إليهـــا في تلـــك المفـــاهيم ، مـــع وجود اختلاف للأسباب والعوامل التي دعت إلى الغربة والاغتراب .

كما كشف التمهيد عن علاقـــة الاغتـــراب بالتجربـــة الذاتيـــة للمبـــدع فتطرق التمهيد إلى تجلية عدة آراء وقام بمناقـــشتها ، وانتـــهت تلـــك المناقـــشة إلى أن قدرة الشَّاعر الشعرية ، ومدى قدرته على الاســـتفادة مـــن تجـــارب اغترابـــه وعدمه هي التي تحدد تأثير الاغتراب فيه وعدمـــه، فـــإذا كـــان الـــشَّاعر يمتلـــك قدرات شعرية عالية واستطاع أن يستفيد من تجـــارب اغترابـــه الـــتي يـــسقطها في شعره من حين إلى آخـــر وفي أي موضـــوع شـــعري يريـــد أن يتطـــرق إليـــه ،

فلاشك أن ذلك سيكسب شعره قوةً وجمالاً وتأثيراً. وبذلك يكون الاغتراب عاملاً من عوامل بناء شعر يمتاز بالقوة والجودة والسبك ، لا عاملاً هادماً له.

ولتعزيز هذا الرأي تطرق التمهيد إلى كشف بعض جوانب الاغتراب والغربة عند شعراء كانوا نموذجًا ناطقًا لهذه الغربة قبل ابن درَّاج فلم يزدد شعرهم إلا جمالاً وقوةً .

وفي **الفصل الأول** كشفت الدراسة الموضوعية عن أهم الموضوعات التي تدور في فلك الاغتراب والغربة عند ابن درَّاج ، والتي انعكست في الاغتراب النفسي والغربة بأنواعها والمتمثلة في : الغربة السياسية ، والغربة المكانية ، والغربة الاجتماعية التي شملت غربة الناس ، وغربة الأصدقاء ، وغربة الأهل والأقرباء .

فعبَّر الشَّاعر فيها عن همومه وقلقه وألمه ، ومدى إحساسه باليأس والذل والضياع ، فخرجت تلك المشاعر وذلك الانفعال النفسي من قوقعة الكتمان لما يختزنه في قلبه من الآم فاض بها الكيل ؛ فخرجت لتوضح لنا عمق اغترابه متمثلة في قصائد شعرية تثير الشجن والألم ، خاصة أن الشَّاعر لم يكتفِ بتصوير همومه واغترابه فقط ، بل كان إحساسه أعمق من ذلك بكثير ؛ إذْ عَمَدَ إلى وصف اغتراب أبنائه وهمومهم ومعاناتهم ، ولعلَّ هذا الوصف أو الإحساس الأسري من أهم ما تميَّز به ابن درَّاج عن غيره من شعراء عصر الطوائف .

وفي **الفصل الثاني** أبرزت الدراسة الفنية فيه عن خصائص البناء الفني لقصيدة الاغتراب ، وعلاقة أجزاء القصيدة بعضها ببعض ابتداءً من المقدمة والتخلص والخاتمة ، التي انعكست عليها معطيات الاغتراب لنقر فيها إلى استجابة ابن درَّاج لإحساسه وشعوره ، الذي تمتد خيوطه في تلك الأجزاء لتظهر لنا ملامح الوحدة الفنية في قصيدة الاغتراب ، التي غلب عليها الاضطراب والقلق الذي ظهرت إشعاعاته بين الفينة والأخرى عن طريق استخدامه لبعض الدوال والسياقات المعنوية التي تبرز ذلك القلق .

كما كشفت الدراسة عن تأثر الصُّورة الشعرية بالاغتراب ، إذْ ظهرت تلك الصور مُصورةً اغتراب الشَّاعر وغربته من خلال التشخيص الذي شخص وجَسَّد فيه تلك المعاناة في صورٍ حية ناطقة ، ومن خلال التشبيه و الكناية والتقابل الإيحائي للصور التي ساهمت في تجلية اغتراب الشَّاعر وغربته .

كما أسفرت دراسة المعجم الشعري للشاعر عن مدى عمق التجربة ، ومدى انفعاله ، مما دفعه دفعاً لتكرار بعض الدوال التي ساهمت بشكلٍ كبيرٍ في تصوير اغترابه ، والإفصاح عما يكنُّ به قلبه من معاني الحزن والأسى والقلق الذي فاض به الكيل ؛ ليصاغ في تلك الكلمات التي جَسَّدت معاناته ورغباته التي لم يتمكن من تحقيقها .

كما كشفت الدراسة الموسيقية لقصيدة الاغتراب اهتمام الشَّاعر بالجانب الموسيقي ، الذي عكس بدوره - أيضًا - جانبًا من جوانب معاناة الشَّاعر وهمومه مع إعطاء إيقاع صوتي حزين يكشف عن حالة الحزن والألم، عن طريق استخدام بعض السياقات المعنوية واللغوية واللفظية التي شملت الترديد والتصدير والتكرار والقافية والتصريع والتجنيس والجرس الذي قبل الجناس والازدواج والوزن والتَّضاد والمقابلة ومراعاة النظير والمبالغة وجموع التكسير ، واستخدام أسلوب القصر وبعض أساليب التنغيم الإيقاعي الانفعالي التي عكست تلك الحالة (الاغتراب) المصاحبة للشاعر .

كما ذُيلت الدراسة بذكر بعض الخصائص الشعرية التي تميَّز بها الشَّاعر ابن درَّاج كبروز السِّمة المحلية في شعره، وتوظيفه للموروث الديني والتاريخي ، وغيرها من الثقافات التي ظهرت في شعره ، وقد اكتفينا بالإشارة إليها لكونها بحاجة إلى دراسة مستقلة تبرز عمق هذه الثقافة ودورها في الفاعل، سواء من الناحية التاريخية أو الحربية، والنظر إلى أهمية الشِّعر ودوره في هذا المجال، ومدى قدرته في متابعة الأحداث ورصدها .

وبعد فهذه هي أهم النتائج التي تم التوصل إليها ، وأرجو من الله أن أكون قد وفقت ، والحمد لله رب العالمين .

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع الخاصة :

أولاً : المعاجم :

١ - تاج العروس ، للزبيدي .

٢ - تهذيب اللغة ، للأزهري ، الدار المصرية للتأليف والنشر ، القاهرة، ١٩٦٤م .

٣ - الصحَّاح ، للجوهري ، دار الكتاب العربي ، القاهرة، ١٩٥٦م .

٤ - كتاب العين ، للخليل الفراهيدي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت، (د.ط).

٥ - معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس ، تحقيق : عبد السلام هارون ، دار الجيل، بيروت ، (د.ط).

٦ - معجم لسان العرب ، لابن منظور، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت ، لبنان ، (د.ط).

٧ - المعجم الوجيز ، المركز العربي للثقافة والعلوم - بيروت - لبنان ، (د.ط).

ثانياً : المصادر والمراجع الأدبية :

١ - أدب الغُرَبَاء ، لأبي الفرج الأصبهاني ، نشره عن مخطوطة فريدة في العالم ، د/ صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى، ١٩٧٢م .

٢ - أعمال الأعلام لابن الخطيب تحقيق : أ / ليفي بروفنسال ، دار المكشوف ، بيروت، ١٩٥٦م .

٣_ البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذاري تحقيق أ/ ليفي بروفنسال،دار المكشوف بيروت (د.ط).

٤ - الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة ، د/ مصطفى سويف ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، عام١٩٧٠م .

٥ - الأدب الأندلسي من الفتح إلى السقوط ، د/ أحمد هيكل ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة عشر ، القاهرة ، ١٩٥٨م.

٦ - الأدب الرفيع في ميزان الشعر وقوافيه ، د/ معروف الرصافي ، بغداد، ١٩٥٦م.

٧- الأطلال في الشعر العربي ، دراسة جمالية ، لمحمد عبد الواحد حجازي ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠١م ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية .

٨ - ابن الرومي ، شاعر الغربة النفسية ، فوزي عطيوي ، دار الفكر العربي للطباعة والنشر ، الطبعة الثانية، ١٩٩٨م .

٩ـ الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر ،/عبد القادر القط ،مكتبة الشباب ،عام ١٩٧٨م.

١٠- الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي ، د/ عزيز السيد جاسم ، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، بغداد ، الطبعة الثانية ، عام ١٤٠٧هـ /١٩٨٧م .

١١ - الاغتراب سيرة ومصطلح ، لمحمود رجب ، دار المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٧٨م .

١٢ - الاغتراب في شعر المتنبي ، د/ صالح زامل ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م .

١٣ - الاغتراب في القصيدة الجاهلية ، لمحمود هياجنة ، دراسة نصيَّة ، دار الكتاب الثقافي ، الأردن ، عمان ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م .

١٤ - بنية اللغة الشعرية ، جان كوهن ، ترجمة: محمد الولي ، ومحمد العمري ، الدار البيضاء ، دار توبيقال ، الطبعة الأولى، ١٩٧٦م .

١٥ - تاريخ آداب العرب ، الدكتور مصطفى صادق الرافعي ، المكتبة العصرية ، صيدا - بيروت ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م ، راجعه الدكتور / درويش الجويدي.

١٦ - تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة ، د/ إحسان عباس ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، عمان – الأردن، ١٩٩٧م.

١٧ - تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي ، لشوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، الطبعة السادسة ، القاهرة، ١٩٦٣م.

١٨ –التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي د.حسن النوش –دار الجيل بيروت طبعة ١٤١٢-١٩٩٢.

١٩ - التفسير النفسي للأدب ، د/ عز الدين إسماعيل ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ، (د.ت).

٢٠ - جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ، للحميدي ، تحقيق : محمد بن تاويت الطنجي ، القاهرة، ١٩٥٢م .

٢١ - الحنين والغربة في الشعر العربي ، د/ ماهر فهمي، (ت. ت) .

٢٢ - دراسات أدبية ، د/ أحمد هيكل ، الطبعة الأولى ، دار المعارف، القاهرة، عام ١٩٨٠م.

٢٣ - دراسات في سيكولوجية الاغتراب، لعبد اللطيف خليفة ، دار غريب ، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م .

٢٤ - دراسات في الشعر والمسرح ، د/ مصطفى بدوي ، الطبعة الثانية ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٩م .

٢٥ - ديوان ابن درَّاج ، تحقيق : محمود مكي ، الطبعة الثانية، ١٣٨٩هـ .

٢٦ - ديوان أبي تمام ، لمحيي الدين الخياط ، (د.ت).

٢٧ - ديوان أبي فراس الحمداني ، دار الكتاب العربي ، د/ خليل الدويهي ، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م .

٢٨ - ديوان امرئ القيس ، تحقيق: مصطفى عبد الشافي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م .

٢٩ - ديوان جميل بثينة ، د/ إميل يعقوب ، دار الكتاب العربي ، بـــيروت ، الطبعـــة الثانية ١٤١٦هـــ / ١٩٩٦م .

٣٠ - ديوان الشريف الرضي ، دار صادر، بيروت، (د.ت).

٣١ - ديوان عنترة ابن شداد ، تحقيق: محمد عناني ، مكتبة الأسرة ، الهيئة المـــصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م .

٣٢ - ديوان المتنبي ، شرح الواحدي ، دار الأرقم ابن أبي الأرقم للطباعة والنـــشر ، بيروت، (د.ت) .

٣٣ - ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق: محمد عاشور ، دار المعارف ، القاهرة، (د.ت) .

٣٤ - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام ، تحقيق: د/ إحسان عبـــاس ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ١٤١٧هـــ / ١٩٩٧م .

٣٥ - الشعر والشعراء لابن قتيبة ، تحقيق: أحمـــد شـــاكر ، دار المعـــارف بمـــصر ، ١٩٦٦م .

٣٦ - الغربة في الشعر الأندلسي عقب سقوط الخلافة ، د/ أشرف علـــي دغـــرور ، مكتبة نهضة الشرق ، جامعة القاهرة ، ١٩٩٦م .

٣٧ - في الأدب الأندلسي ، لد/ جودة الركابي ، دار المعارف، (د.ت) .

٣٨ - الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، د/ شوقي ضـــيف ، دار المعـــارف ، الطبعـــة العاشرة، القاهرة، ١٩١٩م .

٣٩ - قراءة الشعر وبناء الدلالة ، د/ شفيع السيد ، دار غريب للطباعة والنـــشر ، القاهرة ، (د.ت).

٤٠ - قصيدة المديح في الأندلس ، قضاياها الموضوعية والفنية ، عـــصر الطوائـــف ، د/أشرف محمود نجا، (د.ت) .

٤١ - كتاب الأمالي ، لأبي علي القالي ، لصلاح هلل والسيد الجليمـــي ، مؤســـسة الكتب الثقافية، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـــ /٢٠٠١م .

٤٢ - المطرب من أشعار أهل المغرب ، لابن دحية ، تحقيق: إبراهيم البياري ، د/حامد عبد المجيد ، المطبعة الأميرية، ١٩٥٤م .

٤٣ - من النَّص إلى النَّص المترابط ، مدخل إلى جماليات الإبداع ، د/ سعيد يقطين ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م .

٤٤ - موسيقى الشعر ، د/ شكري عيَّاد ، دار المعرفة ، القاهرة، (د.ت) .

٤٥ - نفح الطيب ، للمقري ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة، ١٩٤٩م .

٤٦ - يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، لأبي منصور الثعالبي ، شرح وتحقيق: د/مفيد قمحية، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م بيروت ، لبنان .

ثالثًا : المصادر والمراجع البلاغية والنقدية :

١ - أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : محمد الفضالي ، المكتبة العصرية ، صيدا- بيروت ، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ /١٩٩٨م .

٢ - إعجاز القرآن للباقلاني ، تحقيق : السيد أحمد صقر ، دار المعارف، الطبعة الخامسة، القاهرة ١٩١٩م.

٣ - الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل ، بيروت، الطبعة الثالثة، (د.ت) .

٤ - البديع في نقد الشعر، لأسامة بن منقذ، تحقيق : أحمد بدوي ، وحامد عبد الحميد، مكتبة مصطفى البابي ، مصر ، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م.

٥ - البديع تأصيل وتجديد ، د/ منير سلطان ، دار المعارف الإسكندرية ، عام ١٩٨٦م .

٦ - حلية المحاضرة ، الحاتمي ، تحقيق: د/ جعفر الكتاني ، وزارة الثقافة والإعلام ١٩٩٧م.

٧ - دلائل الإعجاز ، لعبد القادر الجرجاني ، تعليق: محمود شاكر ، مكتبة الخفاجي ، القاهرة ، الطبعة الخامسة، ١٤٢٤هـ .

٨ - دراسات في النقد الأدبي عند العرب في المغرب و الأندلس ، د/ عمر محمد عبدالواحد ، دار الأندلس ، حائل ، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م .

٩ - شعر حسين سرحان - دراسة نقدية ، د. أحمد عبدالله صالح المحسن، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

١٠ - الصُّورة الفنية في النقد الشعري ، دراسة في النظرية والتطبيق ، د/ عبد القادر الرباعي ، دار العلوم للطباعة والنشر، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م .

١١ - الصُّورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، د/ جابر أحمد عصفور ، دار المعارف، القاهرة ١٩١٩م .

١٢ - علم البيان ، د/ عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

١٣ - علم المعاني ، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

١٤ - علم البديع ، دراسة فنية وموضوعية بمسائل البديع ، د/ بسيوني فيود ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، دار المعالم الثقافية ، الإحساء للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م .

١٥ - العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق ، تحقيق : د/ النبوي عبد الواحد شعلان ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ /٢٠٠٠م .

١٦ - عيار الشعر لابن طباطبا ، تحقيق : د/ عبد العزيز المانع ، توزيع مكتبة الخانجي ، بالقاهرة .

١٧ - في النقد التطبيقي والمقارن ، د/ محمد غنيمي هلال، نهضة مصر للطبع والنشر ، (د.ت).

١٨ - المثل السَّائر لابن الأثير ، تحقيق : د/ أحمد الحوفي ، ظ د/ بدوي طبانة ، دار نهضة مصر للطبع والنشر، (د.ت) .

١٩ - منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، لحازم القرطاجني ، تحقيق : محمد ابن الخوجة ، دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦م .
٢٠ - مدخل إلى كتابي عبد القاهر ، د/ محمد محمد أبو موسى ، الناشر : مكتبة وهبة، القاهرة ، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م .
٢١ - المنتقى من دراسات المستشرقين ، فرانس تشيز ، جمعها : صلاح الدين المنجد ، الجزء الأول، (د.ت) .
٢٢ - الشعر لأبي الفرج ، قدامة بن جعفر ، تحقيق : كمال مصطفى، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، (د.ت).
٢٣ - النقد الأدبي الحديث ، د/ محمد غنيمي هلال، (د.ط) ، (د.ت) .
٢٤ - النقد الأدبي ، أحمد أمين ، النهضة المصرية ، القاهرة ، الطبعة الخامسة، ١٩٨٣م .

رابعاً : المراجع اللغوية :

١ - الأصوات اللغوية ، د/ إبراهيم أنيس ، الناشر : مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٩٢م .
٢ - بنية اللغة الشعرية ، جان كوهن ، ترجمة : محمد الولي ومحمد العمري ، الدار البيضاء ، دار توبيقال ، الطبعة الأولى، ١٩٧٦م .
٣ - شرح كتاب أهدى سبيل إلى علمي الخليل (العروض والقافية) ، تحقيق: د/ محمود مصطفى ، دار الكتب العلمية ، لبنان، (د.ت) .
٤ - علم الأصوات ، د/ محمد أحمد محمود ، دار أشبيلية للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م .
٥ - علم العروض والقافية ، د/ عبد العزيز عتيق ، دار النهضة للطباعة والنشر ، بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

٦ - فن التقطيع الشعري والقافية ، د/ صفاء خلوصي ، الطبعة الخامسة ، مزيدة ومنقحة ، مكتبة المثني، ببغداد، ١٩٧٧م .

٧ - اللغة العربية معناها ومبناها، د/ تمام حسان ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب، ١٩٩٤م .

٨ - المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي ، د/ رمضان عبد التواب ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ /١٩٩٧م .

المصادر والمراجع العامة :

١ - الأسرة ومشكلاتها ،د/محمود حسن،دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت عام١٩٨١م.

٢ - أنيس المسافر ، د/ أبي عمر الندوي ، دار الأرقم ، الطبعة الأولى ، عام ١٤١٥هـ .

٣ - الإشارات الإلهية، أبو حيان التوحيدي، تحقيق: عبد الرحمن البدوي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣م .

٤ ـ رياض الصالحين، لمحي الدين النووي،تحقيق: سعيد بن نصر محمد،مكتبة الرشد ،الرياض، الطبعة الرابعة،عام،١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

٥ - شرح صحيح مسلم ، للنووي، (د.ت) .

٦ - الشعور اختيار ينبع من الذات ، د/ جاري مكاي ، و د/ دون دنكماير ، مكتبة جرير ، (د.ت).

٧ - فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، لابن حجر العسقلاني ، دار مصر للطباعة ، الطبعة الأولى ، ١٤٢١هـ /٢٠٠١م .

٨- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، تــأليف : محمــد الشوكاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هــ/ ١٩٩٧م.

٩ - فجر الأندلس ، لحسين مؤ نس ، دار الرشد ، الطبعــة الثالثــة، ١٤٢٦هــــ /٢٠٠٥م .

١٠- معالم تاريخ المغرب والأندلس ، لحسين مؤنس ، دار الرشاد، الطبعة الــسادسة، ١٤٢٣هــ / ٢٠٠٣م .

خامسًا : الدوريات و الموسوعات :

١ - بنية التراث الروحي والاجتماعي في مرثية طليطلة ، لحسين خــرويش ص ، ٨٨ المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، دمشق ع (٦٨) عام ١٩٩٩م .

فهارس البحث

أولاً : فهرس الآيات القرآنية

الصفحة	الآية	السورة	الآيـــــة
١٧	٨٥/٨٤	البقرة	﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم . . . ﴾
١٨	١٧٧	البقرة	﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ ﴾
١٨	١٠٠	النساء	﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾
١٨	٣٣	المائدة	﴿ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ﴾
٢٨٤	٢٢	الأعراف	﴿ فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾
٢٩١	٢٤	القصص	﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾
٢٧٥	٢٠	ص	﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾
٢٨٢	١٤	المزمل	﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً ﴾
٢٧٤	٢٦	القيامة	﴿ كَلاَّ إِذَا بَلَغَتْ التَّرَاقِيَ ﴾
٢٩٢	١١٨	التوبة	﴿وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾

ثانياً : فهرس الأحاديث

فهرس المحتويـــــات

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية اللغة العربية

قسم الدراسات العليا العربية

نموذج رقـــــم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات :

الاسم الرباعي : روضه بنت بلال بن عمر المولد الرقم الجامعي (٤٢٥٨٠٠٩٣)

كلية : اللغة العربية قسم : الدراسات العليا فرع :

الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الماجستير تخصص : أدب

عنوان الأطروحة (الإغتراب في حياة ابن دراج وشعره

الحمد لله رب العالمين والصلاة على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فبعد إجراء التصويبات المطلوبة التي أوصت بها اللجنة التي ناقشت هذه الأطروحة بتاريخ ٦ / ٤ / ١٤٢٩ هـ توصي اللجنة بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة .

وبالله التوفيق ،،،

أعضـــاء اللجـــنة :

المشرف/ أ .د مصطفى عبد الواحد المناقش الأول/ أ . د صالح بدوي المناقش الثاني/ أ . د محمد الحارثي

التوقيع : التوقيع : التوقيع :

يعتمد / رئيس قسم الدراسات العليا العربية

أ.د. عبد الله بن إبراهيم الزهراني